مختصر تفسير البغوي

عبد الله بن أحمد بن علي الزيد

2

[59] { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } ، أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ} ، كافينا الله، { سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ } ، ما نحتاج إليه { إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } ، في أن يوسع علينا من فضله، فيغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس. وجواب (لو) محذوف أي: لكان خيرا لهم وأعود عليهم.

[60] قوله تعالى: { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } الآية، بَيَّنَ الله تعالى في هذه الآية أهل الصدقات ، وجعلها لثمانية أصناف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء » (1) قوله: { لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } فأحد أصناف الصدقة: الفقراء، والثاني: المساكين: واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري : الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي يسأل. وقال ابن عمر : ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن من أنقى نفسه وثيابه لا يقدر على شيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فذلك الفقير. وقال قتادة : الفقير المحتاج الزمن، والمسكين الصحيح المحتاج ، وروي عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين والمساكين من أهل الكتاب. وقال الشافعي . الفقير من لا مال له ، ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن، والمسكين من كان له مال أو حرفة ولا يغنيه، سائلا كان أو غير سائل. فالمسكين عنده أحسن حالا من الفقير لأن الله تعالى قال: { أَمَّا السَّفِينَةُ

---

(1) أخرجه أبو داود في الزكاة 2 / 230 ، 231 والدارقطني في الزكاة 2 / 137 والبيهقي في السنن 4 / 174، وقال المنذري: في إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ، وقد تكلم فيه غير واحد.

فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ } أثبت لمهم ملكا مع اسم المسكنة، وعند أصحاب الرأي الفقير أحسن حالا من المسكين. وقال القتبي : الفقير الذي له البلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له. وقيل: الفقير من له المسكن والخادم، والمسكين من لا ملك له. وقال إبراهيم النخعي : الفقراء هم المهاجرون، والمساكين من لم يهاجروا من المسلمين. وفي الجملة الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فقار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه ، وسكنت عن الحركة في طلب القوت. قوله تعالى: { وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا } . وهم السعاة الذين يتولون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيعطون من مال الصدقة فقراء كانوا أو أغنياء،

فيعطون مثل أجر عملهم. وقال الضحاك ومجاهد : لهم الثمن من الصدقة. { وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ } ، فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم المؤلفة قلوبهم، وهم قسمان: قسم مسلمون وقسم كفار، فأما المسلمون فقسمان قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم تألفا كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي . أو أسلموا ونيتهم قوية في

الإسلام وهم شرفاء في قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر ، فكان يعطيهم تألفا لقومهم وترغيبا لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم من ذلك ، ولا يعطيهم من الصدقات. والقسم الثاني من مؤلفة المسلمين أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار من موضع مُتَناءٍ لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إما لضعف نيتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة. وقيل: من سهم المؤلفة. ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات. وقيل: من سهم سبيل الله. روي أن عدي بن حاتم جاء إلى أبي بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيرا. وأما الكفار من المؤلفة فهو من يخشى شره منهم أو يرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يعطي هذا حذرا من شره أو يعطي ذلك ترغيبا به في الإسلام، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله

إلى الإسلام قوله تعالى: { وَفِي الرِّقَابِ } ، والصنف الخامس هم الرقاب وهم المكاتبون لهم سهم من الصدقة، هذا قول أكثر الفقهاء، وبه قال سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد والشافعي . وقال جماعة: يشتري بسهم الرقاب عبيدا فيعتقون. وهذا قول الحسن ، وبه قال مالك وأحمد وإسحاق . قوله تعالى: { وَالْغَارِمِينَ } ، والصنف السادس هم الغارمون وهم قسمان: قسم أدانوا لأنفسهم في غير معصيته فإنهم يعطون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاء فلا يعطون، وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يعطون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء. وقوله تعالى : { وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، أراد بها الغزاة فلهم سهم من الصدقة، يعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو، وما يستعينون به على أمر الغزو من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة، وإن كانوا أغنياء. قوله تعالى: { وَابْنِ السَّبِيلِ } ، والصنف الثامن هم أبناء السبيل، فكل من يريد سفرا مباحا ، ولم يكن له ما يقطع به المسافة يعطى من الصدقة بقدر ما يقطع به تلك المسافة سواء كان له في البلد المتنقل إليه مال أو لم يكن. وقال

قتادة : ابن السبيل هو الضيف. وقال فقهاء العراق: ابن السبيل الحاج المنقطع. قوله تعالى: { فَرِيضَةً } أي: واجبة { مِنَ اللَّهِ } ، وهو نصب على القطع، وقيل: على المصدر، أي: فرض الله هذه الأشياء فريضة، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

[61] { وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ } ، نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد منهم: بل نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فننكر ما قلنا ، ونحلف فيصدقنا بما نقول، فإنما محمد أذن، أي. أذن سامعة، يقال: فلان أذن سامعة وأذنة على وزن فعلة، إذا كان يسمع كل ما قيل له ويقبله. وأصله من أذن يأذن أذنا إذا استمع. وقيل: وهو أذن أي: ذو أذن سامعة، وقال محمد ابن إسحاق بن يسار : نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث قال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئا صدقه، فنقول ما شئنا ، ثم نأتيه ، ونحلف بالله فيصدقنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قوله تعالى: { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ } ، قرأ العامة بالإضافة، أي: مستمع خير وصلاح لكم، لا مستمع شر وفساد. وقرأ الأعشى والبرجمي عن أبي بكر : (أذنٌ خيرٌ لكم) مرفوعين منونين، يعني أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ، ولا يقبل قولكم، ثم كذبهم فقال: { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ } ، أي: لا بل يؤمن بالله، { وَيُؤْمِنُ

لِلْمُؤْمِنِينَ } ، أي: يصدق المؤمنين ، ويقبل منهم لا من المنافقين. يقال: أمنته ، وأمنت له بمعنى صدقته. { وَرَحْمَةٌ } ، قرأ حمزة : (ورحمة) بالخفض على معنى أذن خير لكم وأذن رحمة، وقرأ الآخرون. (ورحمة) بالرفع، أي: هو أذن خير وهو رحمة { لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ } ، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين. { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[62] { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } ، قال قتادة والسدي : اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له : عامر بن قيس فحقروه ، وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حق ، وأنتم شر من الحمير، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فدعاهم ، وسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحلفوا أن عامرا كذاب، وحلف عامر أنهما كذبة، فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل عامر يدعو ، ويقول: اللهم صدق الصادق ، وكذب الكاذب، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل والكلبي : نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون إليه ، ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } ، { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ } .

[63] { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله، { فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ } ، أي: الفضيحة العظيمة.
[64] { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ } ، أي: يخشى المنافقون، { أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ } ، أي: تنزل على المؤمنين، { سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ } ، أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ، ويسرون ، ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم. قال قتادة : هذه السورة تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم { قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ } ، مظهر { مَا تَحْذَرُونَ } ، قال ابن كيسان : نزلت هذه الآية في اثنى

عشر رجلا من المنافقين، وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكروا له في ليلة مظلمة ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدروا، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم (1) .

---

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب المنافقين (2779)، ورواه الإمام أحمد في مسنده ج 4 / 320 .

[65] قوله تعالى: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } الآية، وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك. قيل: كانوا يقولون: إن محمدا يزعم أنه يغلب الروم ، ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك. وقيل: كانوا يقولون: إن محمدا يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال: احبسوا علي الركب، فدعاهم وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب. قال عمر : فلقد رأيت عبد الله بن أبي يشتد قدام رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكبه وهو يقول إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: " أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ " ما يلتفت إليه ولا يزيده عليه. قوله: { قُلْ } ، أي: قل يا محمد للمنافقين، { أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ } ، كتابه، {

وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } .

[66] { لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } ، فإن قيل : كيف قال: (قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه أظهرتم الكفر بعد ما أظهرتم الإيمان. { إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ } ، أي: نتبْ على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحدا، { نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } ، بالاستهزاء، وقرأ عاصم : (نعف) بالنون وفتحها وضم الفاء، { نُعَذِّبْ } بالنون وكسر الذال، طائفة نصب. وقرأ الآخرون: (يعف) بالياء وضمها وفتح الفاء، (تُعَذَّبْ) بالتاء وفتح الذال، طائفة على غير تسمية الفاعل. وقال محمد بن إسحاق : الذي عفي عنه رجل واحد وهو مخشي بن حمير الأشجعي ، يقال : هو الذي كان يضحك ، ولا يخوض، وكان يمشي مجانبا لهم ، وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ عني بها تقشعر الجلود منها ، وتجب منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره.

[67] قوله تعالى: { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ } ، أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق، { يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ } ، بالشرك والمعصية، { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ } ، أي عن الإيمان والطاعة، { وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ } أي: يمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } ، تركوا طاعة الله فتركهم من توفيقه وهدايته في الدنيا ومن رحمته في الآخرة وتركهم في عذابه، { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

هُمُ الْفَاسِقُونَ }.
[68] { وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ } , كافيهم جزاء على كفرهم, { وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ } ، أبعدهم الله من رحمته، { وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ } ، دائم .

[69] { كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } ، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعدول من أمر الله، فلعنتم كما لعنوا { كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً } ، بطشا ومنعة، { وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ } ، فتمتعوا أو انتفعوا بخلاقهم بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا به عوضا عن الآخرة، { فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ } ، أيها الكفار والمنافقون، { كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ } ، وسلكتم سبيلهم، { وَخُضْتُمْ } في الباطل والكذب على الله تعالى وتكذيب رسله وبالاستهزاء بالمؤمنين، { كَالَّذِي خَاضُوا } ، أي: كما خاضوا. وقيل: كالذي يعني كالذين خاضوا، وذلك أن الذي اسم ناقص، مثل (ما) و (من) يعبر به عن الواحد والجمع، نظيره قوله تعالى: { كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا } ثم قال: { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } ، { أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ، أي: كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطت أعمالكم وخسرتم. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لتتبعن

سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم » (1) .
[70] قوله تعالى: { أَلَمْ يَأْتِهِمْ } ، يعني المنافقين، { نَبَأُ } ، خبر، { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، حين عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا كيف عذبناهم وأهلكناهم ثم ذكرهم، فقال: { قَوْمِ نُوحٍ } ، أهلكوا بالطوفان، { وَعَادٍ } ، أهلكوا بالريح { وَثَمُودَ } ، بالرجفة، { وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ } ، بسلب النعمة وهلاك نمروذ، { وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ } ، يعني قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة، { وَالْمُؤْتَفِكَاتِ } المنقلبات التي جعلنا عاليها سافلها وهي قوم لوط وقُراهم، { أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ، فكذبوهم وعصَوْهم كما فعلتم يا معشر الكفار فاحذروا تعجيل النِّقمة، { فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } .

____
(1) أخرجه البخاري في الاعتصام 13 / 300 ومسلم في=العلم رقم (2669) 4 / 2054 والمصنف في شرح السنة 14 / 392.

[71] { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } في الدِّين واجتماع الكلمة والعون والنصرة. { يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } ، بالإيمان والطاعة والخير، { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } ، عن الشرك والمعصية وما لا يُعرف في الشرع، { وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } ، المفروضة { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

[72] { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً } ، منازل طيبة، { فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } ، أي: بساتين خلد وإقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } . أي: رضا الله عنهم أكبر من ذلك النعيم الذي هم فيه، { ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } . روينا عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «

يقول الله عز وجل لأهل الجنة يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدًا من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » (1) .

---

(1) أخرجه البخاري في التوحيد 13 / 487 ومسلم في الجنة وصفة نعيمها رقم (2829) 4 / 2176، والمصنف في شرح السنة 15 / 231 .

[73] { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ } : بالسيف والقتل، { وَالْمُنَافِقِينَ } ، واختلفوا في صفة جهاد المنافقين، قال ابن مسعود : بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه، وقال: لا تلق المنافقين إلا بوجه مكفهر. وقال ابن عباس : باللسان وترك الرفق. وقال الضحاك : بتغليظ الكلام. وقال الحسن وقتادة : بإقامة الحدود عليهم. { وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ } في الآخرة { جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } . قال عطاء : نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح.

[74] قوله تعالى: { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا } ، قال ابن عباس : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل حجرة فقال:" إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان, فإذا جاء فلا تكلموه "فلم يلبسوا أن طلع رجل أزرق, فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " علام تشتمني أنت وأصحابك "؟ فانطلق الرجل، وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا, فأنزل الله عز وجل هذه الآية، » وقال الكلبي : نزلت في الجلاس بن سويد , وذلك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم, فقال جلاس : لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير، فسمعه عامر بن قيس , فقال: أجل إن محمدا لصادق، وأنتم شر من الحمير، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس : كذب علي يا رسول الله، وأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر، فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله, ولقد كذب علي عامر , ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قال وما كذبت عليه, ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم

أنزل على نبيك تصديق الصادق منا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون: آمين، فنزل جبريل عليه السلام من السماء قبل أن يتفرقوا بهذه الآية, حتى بلغ: { فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ } , فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمعُ الله عز وجل قد عرض علي التوبة, صدق عامر بن قيس فيما قاله، لقد قلته، وأنا أستغفر الله، وأتوب إليه, فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه، وحسنت توبته » . { وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ } , أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام، وقيل: هي سب النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل كلمة الكفر قول الجلاس : لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير، وقيل كلمة الكفر قولهم: { لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ } وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين، { وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا } ، قال مجاهد : همَّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن

شر من الحمير، لكي لا يفشيه، وقيل: هم اثنا عشر رجلًا من المنافقين، وقفوا على العقبة في طريق تبوك ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء

جبريل عليه السلام، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم، فأرسل حذيفة لذلك، وقال السدي : قالوا إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجا، فلم يصلوا إليه. { وَمَا نَقَمُوا } ، وما كرهوا وما أنكروا منهم، { إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ } ، وذلك أن مولى الجلاس قتل فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألف درهم فاستغنى، وقال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم في ضنك من العيش، فلما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم { فَإِنْ يَتُوبُوا } من نفاقهم وكفرهم { يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا } ، يعرضوا عن الإيمان، { يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا } ، بالخزي، { وَالْآخِرَةِ } ، أي: وفي الآخرة بالنار، { وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }

[75] قوله تعالى: { وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ } الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وهما من بني عمرو بن عوف ، خرجا على ملأ قعود وقالا: والله لئن رزقنا الله مالا لنصدقن، فلما رزقهما الله عز وجل بخلا به، فقوله عز وجل: { وَمِنْهُمْ } يعني: المنافقين { وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ } ولنؤدين حق الله منه { وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } ، نعمل بعمل أهل الصلاح فيه من صلة الرحم والنفقة في الخير.
[76] { فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ }
[77] { فَأَعْقَبَهُمْ } ، فأخلفهم، { نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ }
أي: صير عاقبة أمرهم النفاق، يقال: أعقب فلانا ندامة إذا صير عاقبة أمره ذلك، وقيل: عاقبهم بنفاق قلوبهم، يقال: عاقبته وأعقبته بمعنى واحد، { إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ } , يريد حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، { بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } .

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان » (1) .
[78] { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ } ، يعني: ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم، { وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ }

___

(1) أخرجه البخاري في الإيمان 1 / 89 ومسلم في الإيمان رقم (59) 1 / 78 والمصنف في شرح السنة 1 / 72 .

[79] { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ } الآية، قال أهل التفسير: حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة؛ فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف، فاجعلها في سبيل الله، وأمسكت أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت » ، فبارك الله في ماله، حتى أنه خلّف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم، وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري ، واسمه الحبحاب بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر،

فأمسكت أحدهما لأهلي، وأتيتك بالآخر، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، وإن كان الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ، ولكنه أراد أن يذكر فيمن أعطى الصدقة، فأنزل الله عز وجل: { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ } أي: يعيبون { الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ } يعني: عبد الرحمن

بن عوف وعاصمًا . { وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ } ، أي: طاقتهم، يعني: أبا عقيل ، والجهد: الطاقة، بالضم لغة قريش وأهل الحجاز، وقرأ الأعرج بالفتح، قال القتيبي : الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة، { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ } ، يستهزئون منهم، { سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } . أي: جازاهم الله على السخرية، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[80] { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } ، لفظ أمر معناه الخبر، تقديره: أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم. { إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } ، وذكر السبعين في العدد للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة، قال الضحاك : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله قد رخص لي فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم، » فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } .
{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

[81] { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ } هو عن غزوة تبوك، والمخلف المتروك { بِمَقْعَدِهِمْ } أي: بقعودهم { خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ } ، قال أبو عبيدة : أي: بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار وأقاموا، { وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } ، وكانت غزوة تبوك في شدة الحر، { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } ، يعلمون، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود .
[82] { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا } ، في الدنيا، { وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا } ، في الآخرة، تقديره: فليضحكوا قليلا وسيبكون كثيرا، { جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } عن موسى بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا » . (1) .

____
(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 280 ومسلم في الفضائل رقم (2359) 14 / 1832 والمصنف في شرح السنة 14 / 368.

[83] { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ } أي: ردك يا محمد من غزوة تبوك، { إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ } ، يعني: من المخلفين، إنما قال طائفة منهم لأنه ليس كل من تخلف من غزوة تبوك كان منافقا، { فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ } ، معك في غزوة أخرى، { فَقُلْ } , لهم { لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا } في سفر، { وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } , في غزاة أخرى { فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } , أي: مع النساء والصبيان، وقيل مع الزمنَى والمرضى، وقال ابن عباس : مع الذين تخلفوا بغير عذر، وقيل: مع الخالفين، قال الفراء : يقال صاحب خالف إذا كان مخالفًا، { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا } عن عمر بن الخطاب

رضي الله عنه أنه قال: « لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دُعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي ابن سلول ، وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ أعدّد عليه قوله، فتبسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: " أخر عني يا عمر " فلما أكثرت عليه قال: " إني

خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها "، قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } ، إلى قوله: { وَهُمْ فَاسِقُونَ } ، قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، والله ورسوله أعلم » (1) .
[84] قوله { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } ، لا تقف عليه، ولا تتول دفنه، من قولهم: قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره. { إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } ، فما صلى النبي صلى الله عليه وسلم بعدها على منافق، ولا قام على قبره حتى قُبِضَ.
[85] { وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } .

____

(1) أخرجه البخاري في الجنائز 3 / 228.

[86] { وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ } ،ذوو الغنى والسعة منهم في القعود والتخلف, { وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } , في رحالهم.

[87] { رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ } يعني: النساء، وقيل: مع أدنياء الناس وسفلتهم، يقال: فلان خالفة قومه إذا كان دونهم، { وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ }
[88] { لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ }
يعني الحسنات، وقيل: الجواري الحسان في الجنة، قال الله تعالى: { فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ } ، جمع خيرة { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[89] { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

[90] قوله تعالى: { وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ } ، قرأ يعقوب ومجاهد : (المعذرون) بالتخفيف وهم المبالغون في العذر، يقال في المثل "لقد أعذر من أنذر"، أي: بالغ في العذر من قدم النذارة، وقرأ الآخرون (الْمُعَذِّرُونَ) بالتشديد، أي المقصرون، يقال: عذر، أي: قصر، وقال الفراء : المعذرون المعتذرون، أدغمت التاء في الذال، ونقلت حركة التاء إلى العين، وقال الضحاك : المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعا عن أنفسهم فقالوا: يا نبي الله إن نحن غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، « "قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم » ، وقال ابن عباس : هم الذين تخلفوا بعذر بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، { وَقَعَدَ

الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ، يعني المنافقين، قال أبو عمر بن العلاء : كلا الفريقين كان مسيئا قوم تكلفوا عذرا بالباطل، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ)، وقوم تخلفوا عن غير تكلف عذر، فقعدوا جرأة على الله تعالى، وهم المنافقون، فأوعدهم

الله بقوله: { سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، ثم ذكر أهل العذر. [91] فقال جل ذكره: { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ } ، قال ابن عباس : يعني الزمنى والمشايخ والعجزة، وقيل: هم الصبيان وقيل: النسوان، { وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ } ، يعني الفقراء { حَرَجٌ } ، مأثم، وقيل: ضيق في القعود عن الغزو, { إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } , في مغيبهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله، وبايعوا الرسول { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ } , أي: من طريق بالعقوبة, { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، قال قتادة : نزلت في زيد بن عمر وأصحابه، وقال الضحاك : نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر.

[92] قوله تعالى: { وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ } , معناه: أنه لا سبيل على الأولين، ولا على هؤلاء الذين أتوك وهم سبعة نفر سُموا البكائين: معقل بن يسار , وصخر بن خنساء , وعبد الله بن كعب الأنصاري , وعبلة بن زيد الأنصاري , وسالم بن عمير , وثعلبة بن غنمة , وعبد الله بن مغفل المزني , أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله إن الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا، واختلفوا في قوله { لِتَحْمِلَهُمْ } قال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب، وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة، ليغزوا معه، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله عنه في قولة تعالى: { قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا} ، وهم يبكون، فذلك قوله تعالى: { تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ } .

[93] { إِنَّمَا السَّبِيلُ } ، بالعقوبة، { عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ } ، في التخلف {وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ } . مع النساء والصبيان، { وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

[94] { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ } ، يروى أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين نفرًا، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوا يعتذرون بالباطل، قال الله تعالى: { قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ } ، لن نصدقكم، { قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ } ، فيما سلف، { وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ } ، في المستأنف، أتتوبون من نفاقكم، أم تقيمون عليه؟ { ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

[95] { سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ } إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، { لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ } , لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم، { فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ } ، فدعوهم، وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، { إِنَّهُمْ رِجْسٌ } نجس أي: إن عملهم قبيح، { وَمَأْوَاهُمْ } ، في الآخرة، { جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } ، قال ابن عباس : « نزلت في جد بن قيس ، ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلًا من المنافقين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة: "لا تجالسوهم ولا تكلموهم » وقال مقاتل : « نزلت في عبد الله بن

أُبيّ حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية:
[96] { يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }»

[97] { الْأَعْرَابُ } ، أي: أهل البدو، { أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا }، من أهل الحضر، { وَأَجْدَرُ } ، أي: أخلق وأحرى، { أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ } ، وذلك لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السنن، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } ، بما في قلوب خلقه، { حَكِيمٌ } , فيما فرض من فرائضه.

[98] { وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا } ، قال عطاء : لا يرجون على إعطائه ثوابًا ولا يخافون على إمساكه عقابًا إنما ينفق خوفًا ورياء، والمغرم التزام ما لا يلزم { وَيَتَرَبَّصُ } ، وينتظر، { بِكُمُ الدَّوَائِرَ } ، يعني: صروف الزمان التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر، وقال يمان بن رباب : يعني ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون، { عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ } ، عليهم يدور البلاء والحزن، ولا يرون في محمد ودينه إلا ما يكرهون وما يسوؤهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : (دائرة السوء) هاهنا، وفي سورة الفتح بضم السين، معناه: الضر والبلاء والمكروه، وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر، وقيل: بالفتح: الردة والفساد، وبالضم الضر والمكروه، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم، ثم استثنى فقال:

[99] { وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } ، قال مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة، وقال الكلبي : أسلم وغفار وجهينة { وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ } ، القربات جمع القربة، أي: يطلب القربة إلى الله تعالى، { وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ } ، أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء : يرغبون في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم. { أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ } ، قرأ نافع برواية ورش قربة بضم الراء، والباقون بسكونها، { سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ } ، في جنته، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

[100] { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ } الآية، قرأ يعقوب بالرفع، عطفًا على قوله: { وَالسَّابِقُونَ } ، واختلفوا في السابقين، قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقال عطاء بن أبي رباح : هم أهل بدر، وقال الشعبي : هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، قوله عز وجل: { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ } ، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا أوطانهم { وَالْأَنْصَارِ } أي: ومن الأنصار وهم الذين نصروا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أعدائه من أهل المدينة، وآووا أصحابه، { وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ } قيل: بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين، وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة، وقال عطاء : هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء، ثم جمعهم الله عز وجل في الثواب فقال: { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ } ، قرأ ابن كثير : (مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، {

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } .

[101] { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ } وهم من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون، { وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ } ، أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون، { مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } ، أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرد فلان على ربه أي: عتا، ومرد على معصيته أي: مرن، وثبت عليها واعتادها، ومنه: المريد والمارد، قال ابن إسحاق : لجوا فيه وأبوا غيره، وقال ابن زيد : أقاموا عليه ولم يتوبوا، { لَا تَعْلَمُهُمْ } ، أنت يا محمد ، { نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ } ، اختلفوا في هذين العذابين، قال مجاهد : الأول القتل والسبي، والثاني عذاب القبر، وقال قتادة : الدبيلة في الدنيا وعذاب القبر، وقال ابن زيد : الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأخرى عذاب الآخرة، وعن ابن عباس : الأولى إقامة الحدود عليهم، والأخرى عذاب القبر، وقال ابن إسحاق : هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام، ودخولهم فيه من غير حسبة ثم عذاب القبر، وقيل: أحدهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والآخر عذاب القبر،

وقيل: الأولى إحراق مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم، { ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } ، أي: عذاب جهنم يخلدون فيه.

[102] { وَآخَرُونَ } ، أي: ومن أهل المدينة أو من الأعراب آخرون، ولا يرجع هذا إلى المنافقين، { اعْتَرَفُوا } ، أقروا، { بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا } ، وهو إقرارهم بذنوبهم وتوبتهم، { وَآخَرَ سَيِّئًا } ، أي: بعمل آخر سيئ، وضع الواو موضع الباء، كما يقال: خلطت الماء واللبن، أي: باللبن، والعمل السيئ هو تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعمل الصالح هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري، وقيل: غزواتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، نزلت هذه الآية في قوم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، ثم ندموا على ذلك، وقالوا: نكون في الظلال مع النساء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الجهاد واللأواء، فلما قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة قالوا: والله لنوثقن أنفسنا بالسواري، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقنا ويعذرنا، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بهم فرآهم فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا

الله عز وجل أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم، وترضى عنهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم، ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم؛ لأنهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فأنزل الله هذه الآية فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا واستغفر لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا"، فأنزل الله تعالى: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً } الآية.

[103] { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ } ، بها من ذنوبهم، { وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } ، أي: ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، وقيل: تنمي أموالهم { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ } ، أي: ادع لهم واستغفر لهم، وقيل: هو قول الساعي للمصدق إذا أخذ الصدقة منه: آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، والصلاة في اللغة: الدعاء، { إِنَّ صَلَاتَكَ } قرأ حمزة والكسائي : (صلاتك) على التوحيد ونصب التاء هاهنا، وفي سورة هود (أَصَلَاتُكَ) وفي سورة المؤمنين (عَلَى صَلَاتِهِمْ) كلهن على التوحيد، وافقهما حفص هاهنا وفي سورة هود، وقرأ الآخرون بالجمع فيهن، وكسر التاء هاهنا وفي سورة المؤمنين، ولا خلاف في التي في الأنعام: { وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } والتي في المعارج: { هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ } إنهما جميعًا على التوحيد، { سَكَنٌ لَهُمْ } ، أي: إن دعاءك رحمة لهم، قاله ابن عباس ، وقيل: طمأنينة لهم وسكون لهم أن الله عز وجل قد قبل منهم، وقال أبو عبيدة : تثبيت لقلوبهم، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة، قال بعضهم: يجب:

وقال بعضهم: يستحب، وقال بعضهم: يجب في صدقة الفرض، ويستحب في صدقة التطوع، وقيل: يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي.
[104] { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ } ، أي: يقبلها، { وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول: « والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة مع كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبا ولا يصعد إلى السماء إلا طيب إلا كأنما يضعها في يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه، حتى إن اللقمة لتأتي يوم القيامة وإنها لمثل الجبل العظيم، ثم قرأ: { أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ }» ، (1) .

---

(1) أخرجه الشافعي بإسناد حسن في المسند 1 / 220 والمصنف في شرح السنة 6 / 131 وصححه الحاكم على شرط الشيخين 2 / 335 وأصل معنى الحديث ثابت في الصحيحين .

[105] قوله تعالى: { وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، قال مجاهد : هذا وعيد لهم، وقيل: رؤية للنبي صلى الله عليه وسلم بإعلام الله تعالى إياه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغض لأهل الفساد.

[106] قوله تعالى: { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ، قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر : (مرجون) بغير همز، والآخرون بالهمز، والإرجاء: التأخير، مرجون: مؤخرون لأمر الله: لحكم الله عز وجل فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصتهم من بعد: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه، فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة، ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى شقهم القلق وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكانوا من أهل بدر فجعل أناس يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مرجئين لأمر الله لا يدرون أيعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة،

[107] قوله تعالى: { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا } ، نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين بنوا مسجدًا يضارون به مسجد قباء ضرارًا يعني مضارة للمؤمنين، { وَكُفْرًا } بالله ورسوله، { وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ لأنهم كانوا جميعا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، { وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ } ، أي: انتظارًا وإعدادًا لمن حارب الله ورسوله يقال: أرصدت له إذا أعددت له، وهو أبو عامر الفاسق أرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وابنوا لي مسجدًا فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: { وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ } ، وهو أبو عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام، قوله: { مِنْ قَبْلُ } يرجع إلى أبي عامر يعني حارب الله ورسوله من قبل أي: من قبل بناء مسجد الضرار، { وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا } ، ما أردنا ببنائه، { إِلَّا الْحُسْنَى }

، إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن السير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ، في قولهم وحلفهم.

[108] قوله تعالى: { لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا } ، قال ابن عباس : "لا تصل فيه " منع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلي في مسجد الضرار، { لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى } اللام لام الابتداء، وقيل: لام القسم، تقديره، والله لمسجد أسس أي: بني أصله على التقوى، { مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ } ، أي: من أول يوم بني ووضع أساسه، { أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ } ، مصليًا، واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري : هو مسجد المدينة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، والدليل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم قال: « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي » (1) وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء وهو رواية عطية عن ابن عباس وهو قول عروة بن الزبير ، وسعيد بن جبير وقتادة ، { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا } ، من الأحداث والجنابات والنجاسات: وقال عطاء : كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ } ، أي المتطهرين.

---

(1) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة 3 / 70 ومسلم في الحج ش قم (1391) 2 / 1011 والمصنف في شرح السنة 2 / 338.

[109] { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ } يقرأ نافع وابن عامر (أسس) بضم الهمزة وكسر السين، (بنيانه) برفع النون فيها جميعا على غير تسمية الفاعل، وقرأ الآخرون (أَسَّسَ) فتح الهمزة والسين { بُنْيَانَهُ } بنصب النون على تسمية الفاعل، { عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ } ، أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى خير { أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا } ،أي على شفير, { جُرُفٍ } قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر (جرف) ساكنة الراء، وقرأ الباقون بضم الراء وهما لغتان، وهي البئر التي لم تطو، قال أبو عبيدة : هو الهوة، وما يجرفه السيل من الأودية فيتجرف بالماء فيبقى واهيًا، { هَارٍ } ، أي: هائر وهو الساقط يقال: هار يهور فهو هائر، ثم يقلب فيقال: هار مثل شاك وشائك وعاق

عائق، وقيل: هو من هار بها إذا انهدم، ومعناه الساقط الذي يتداعى بعضه في إثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو، { فَانْهَارَ بِهِ } ، أي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد صيرهم النفاق إلى النار، { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

[110] { لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً } ، أي: { قُلُوبِهِمْ } ، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين كما حبب العجل إلى قوم موسى ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الكلبي : حسرة وندامة؛ لأنهم ندموا على بنائه، وقال السدي : لا يزال هدم بنيانهم ريبة وحزازة، وغيظا في قلوبهم، { إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ } ، أي: تتصدع قلوبهم فيموتوا، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحفص وحمزة (تقطع) بفتح التاء أي: تتقطع، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا، وقرأ الآخرون (تقطع) بضم التاء من التقطيع، وقرأ يعقوب وحده (إلى أن) بتخفيف اللام على الغاية، وقرأ الباقون { إِلَّا أَنْ }
بتشديد اللام على الاستثناء، ويدل على قراءة يعقوب تفسير الضحاك وقتادة : لا يزالون في شك منه وندامة إلى أن يموتوا فحينئذ يستيقنون، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

[111] قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ } ، قال محمد بن كعب القرظي : لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة، وهم سبعون نفسا، قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي عز وجل أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } ، وقرأ الأعمش (بالجنة) { يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ } ، وقرأ حمزة والكسائي : (فيقتلون) بضم الياء وفتح التاء (ويقتلون) بفتح الياء وضم التاء على تقديم فعل المفعول على فعل الفاعل، يعني: يقتل بعضهم ويقتل الباقون، وقرأ الباقون (فيقتلون) بفتح الياء وضم التاء (ويقتلون) بضم الياء وفتح التاء على تقديم فعل الفاعل على ما فعل المفعول، والوجه أنهم يقتلون الكفار أولًا ثم يستشهدون، هذا الوجه أظهر، والقراءة به

أكثر، { وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا } أي: ثواب الجنة لهم وعد وحق { فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ } ، يعني أن الله عز وجل وعدهم هذا الوعد وبينه في هذه الكتب، وفيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة، ثم هنأهم فقال: { وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا } ، فافرحوا { بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ، قال عمر رضي الله عنه: إن الله عز وجل بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال قتادة : ثامنهم الله عز وجل فأغلى لهم، وقال الحسن : اسعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن، وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها، ثم وصفهم فقال:

[112] { التَّائِبُونَ } ، قال الفراء : استؤنفت بالرفع لتمام الآية، وانقطاع الكلام، وقال الزجاج : التائبون رفع بالابتداء، وخبره مضمر، والمعنى التائبون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا، أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد، لأن بعض المسلمين يجزي عن بعض في الجهاد، فمن كانت هذه صفته

فله الجنة أيضا، وهذا أحسن، فكأنه وعد الجنة لجميع المؤمنين، كما قال: { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } ، فمن جعله تابعا للأول فلهم الوعد بالجنة أيضا، وإن كان الوعد بالجنة للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات، قوله: { التَّائِبُونَ } أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق { الْعَابِدُونَ } المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عز وجل { الْحَامِدُونَ } ، الذين يحمدون الله على كل حال في السراء والضراء { السَّائِحُونَ } ، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: هم الصائمون، وقال عطاء: السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله، وقال عكرمة : السائحون هم طلبة العلم، { الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ } ، يعني المصلين، { الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } , بالإيمان, { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ } عن الشرك، وقيل: المعروف

السنة والمنكر البدعة، { وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ } ، القائمون بأوامر الله، وقال الحسن : أهل الوفاء ببيعة الله، { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } .

[113] { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } ، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال قوم: « لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: " أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله "، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة : أترغب عن ملة عبد المطلب : فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: أنا على ملة عبد المطلب ؟ وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك "، فأنزل الله تعالى هذه الآية، » وقال أبو هريرة وبريدة : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت: { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ }» الآية (1) قال قتادة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لأستغفرن لأبي، كما استغفر إبراهيم لأبيه " فأنزل الله تعالى هذه الآية » (2) . وقال علي بن

(1) أخرجه الطبري 14 / 512 والإمام أحمد في المسند 5 / 359.
(2) أخرجه الطبري مطولًا 14 / 513 .

أبي طالب رضي الله عنه: « سمعت رجلًا يستغفر لوالديه وهما مشركان، فقلت له: تستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ } ، إلى قوله: { إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ }» (1) .

(1) أخرجه الترمذي في التفسير 8 / 505 وقال حديث حسن، وصححه الحاكم 2 / 335، وأخرجه أحمد والنسائي، وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار- انظر الكافي الشافي ص 82، وتحفة الأحوذي 8 / 505 .

[114] قوله تعالى: { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ } ، قال بعضهم: الهاء في إياه عائدة إلى إبراهيم عليه السلام، والوعد كان من

أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمت، وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب، وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه، وهو قوله: { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } ، يدل عليه قراءة الحسن : (وعدها أباه)، بالباء الموحدة، والدليل على أن الوعد من إبراهيم وكان الاستغفار في حال شرك الأب قوله تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ } ، إلى أن قال: { إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ } ، فصرح أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار، وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم، { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ } ، لموته على الكفر، { تَبَرَّأَ مِنْهُ } ، وقيل: فلما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه أي: يتبرأ منه، قوله تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } ، اختلفوا في معنى الأواه،

جاء في الحديث: "إن الأواه الخاشع المتضرع "، وقال عبد الله بن مسعود : الأواه الدعاء، وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التواب، وقال الحسن وقتادة : الأواه الرحيم بعباد الله، وقال مجاهد : الأواه الموقن، وقال عكرمة : هو المستيقن بلغة الحبشة.
وقال كعب الأحبار : هو الذي يكثر التأوه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: أوه من النار، قبل ألا ينفع أوه، وقيل: هو الذي يتأوه من الذنوب، وقال عقبة بن عامر : الأواه الكثير الذكر لله تعالى، وعن سعيد بن جبير قال: الأواه: المسبح، وروي عنه: الأواه: المعلم للخير، وقال النخعي : هو الفقيه، وقال عطاء : هو الراجع عن كل ما يكره الله، وقال أيضا: هو الخائف من النار، وقال أبو عبيدة : هو المتأوه شفقًا وفرقًا المتضرع يقينًا، يريد أن يكون تضرعه على يقين الإجابة ولزوم الطاعة، قال الزجاج : قد انتظم في قول أبي عبيدة أكثر ما قيل في الأواه، وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء، والفعل منه أوه وتأوه، والحليم الصفوح عمن سبه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه عند وعيده، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الحليم السيد.

[115] قوله تعالى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ } ، معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بترك الأوامر باستغفاركم للمشركين، { حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ } ، يريد حتى يتقدم إليكم بالنهي، فإذا بين ولم تأخذوا به فعند ذلك تستحقون الضلال، وقال مقاتل والكلبي : هذا في المنسوخ، وذلك أن قومًا قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا، ولم تكن الخمر حرامًا ولا القبلة مصروفة إلى الكعبة، فرجعوا إلى قومهم، وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة، ولا علم لهم بذلك، ثم قدموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضلال؟ فأنزل الله تعالى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ } ، يعني ما كان الله ليبطل عمل قوم قد علموا بالمنسوخ حتى يبين لهم الناسخ، { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ، ثم عظم نفسه فقال:

[116] { إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، يحكم بما يشاء، { يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }

[117] قوله عز وجل: { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ } ، الآية، تاب الله أي: تجاوز وصفح، ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه، وقيل: افتتح الكلام به؛ لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم، كقوله تعالى: { فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } ، ونحوه، { وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ } ، أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعة بعينها، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة، والعسرة الشدة، وكانت عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء، قال الحسن : كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يتعقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير { مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ } قرأ حمزة وحفص : (يزيغ) بالياء لقوله (كاد) ولم يقل، كادت، وقرأ الآخرون بالتاء، والزيغ: الميل، أي: من بعد كادت تميل، { قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ } ، أي: قلوب بعضهم، ولم يرد الميل عن الدين بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف للشدة التي عليهم، قال الكلبي : هم ناس بالتخلف ثم لحقوه. { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

} ، فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة، وقد قال في أول الآية { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ } ؟ قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عز وجل، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها، { إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } ، قال ابن عباس : من تاب الله عليه لم يعذبه أبدا.

[118] قوله عز وجل: { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا } أي: خلفوا من غزوة تبوك، وقيل: { خُلِّفُوا } أي: أرجئ أمرهم عن توبة أبي لبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر ومرارة ابن الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار، قوله تعالى: { حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ } ، أي: اتسعت, { وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ } غمًّا وهمًّا { وَظَنُّوا } أي: تيقنوا، { أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ } ، لا مفزع من الله، { إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا } ، أي: ليستقيموا على التوبة، فإن توبتهم قد سبقت، { إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } .

[119] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } ، قال نافع : مع محمد وأصحابه، وقال سعيد بن جبير : مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال ابن جريج : مع المهاجرين، لقوله تعالى: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } إلى قوله { أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم، وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك بإخلاص نية، وقيل: مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، وكان ابن مسعود يقرأ: { وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } وقال ابن مسعود : إن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه شيئا ثم لا ينجز له، اقرؤوا إن شئتم هذه الآية.

[120] قوله تعالى: { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ } ظاهره خبر معناه نهي، كقوله تعالى: { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ } ، { وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ } ، سكان البوادي مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، { أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } ، إذا غزا، { وَلَا يَرْغَبُوا } ، أي: ولا أن يرغبوا، { بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ } ، في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه، قال الحسن : لا يرغبوا بأنفسهم عن أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة، ورسول الله صلى الله عليه

وسلم في مشقة السفر، ومقاساة التعب. { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ } ، في سفرهم، { ظَمَأٌ } ، عطش، { وَلَا نَصَبٌ } ، تعب، { وَلَا مَخْمَصَةٌ } ، مجاعة، { فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا } ، أرضا، { يَغِيظُ الْكُفَّارَ } ، وطؤهم إياه { وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا } ، أي: لا يصيبون من عدوهم قتلًا أو أسرًا أو غنيمة أو هزيمة، { إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « من اغبرت قدماه

في سبيل الله حرمهما الله على النار » (1) واختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة : هذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر، فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المسلمين أن يتخلف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة، وقيل في هذه الآية: إنها لأول هذه الأمة وآخرها، وقال ابن زيد : هذا حين كان أهل الإسلام قليلا، فلما كثروا نسخها الله تعالى، وأباح التخلف لمن يشاء، فقال: { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً } .

[121] { وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً } ، أي: في سبيل الله، { صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً } ، ولو علاقة سوط { وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا } ، لا يجاوزون واديا في مسيرهم مقبلين أو مدبرين، { إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ } ، يعني: آثارهم وخطاهم، { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

---

(1) أخرجه البخاري في الجمعة 2 / 390 والمصنف في شرح السنة 10 / 353.

[122] قوله عز وجل: { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً } ، قال ابن عباس في رواية الكلبي : لما أنزل الله عز وجل عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعا إلى الغزو، ويتركون النبي صلى الله عليه وسلم وحده، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وهذا نفي بمعنى النهي. قوله تعالى: { فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ } ، أي: فهلا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة، ويبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة، { لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ } ، يعني: فرقة القاعدين يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل بعدهم فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم وتبعث سرايا أخر، فذلك قوله: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ } ، وليعلموهم بالقرآن ويخوفوهم به، { إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } ، أن يجهلوا فلا يعملون بخلافه، وقال الحسن : هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، ومعناه: هلا نفر فرقة ليتفقهوا، أي: لينصروا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومهم

من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لعلهم يحذرون أن يعادوا النبي صلى الله عليه وسلم، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار.

وقال الكلبي : لها وجه آخر أي: لم يكن لهم أن ينفروا كافة، ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا في الدين.

[123] قوله عز وجل: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ } ، الآية, أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها، وقيل: أراد بهم الروم؛ لأنهم كانوا سكان الشام، وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق، { وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً } ، شدة وحمية، قال الحسن : صبرا على جهادكم، { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } ، بالعون والنصرة.
[124] قوله تعالى: { وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا } ، يقينًا، كان المنافقون يقولون هذا استهزاء، قال الله تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا } يقينًا وتصديقًا، { وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } , يفرحون بنزول القرآن.

[125] { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } , شك ونفاق, { فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } , أي: كفرهم، فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها، قال مجاهد : هذه الآية إشارة إلى الإيمان يزيد وينقص، وكان عمر : يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: تعالوا حتى نزداد إيمانًا، وقال علي بن أبي طالب : إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظمًا ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب فكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله. { وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ }

[126] قوله: { أَوَلَا يَرَوْنَ } ، قرأ حمزة ويعقوب : (ترون) بالتاء على خطاب النبي والمؤمنين، وقرأ الآخرون بالياء خبر عن المنافقين المذكورين { أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ } ، ويبتلون { فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ } , بالأمراض والشدائد، وقال مجاهد : بالقحط والشدة، وقال قتادة : بالغزو والجهاد، وقال مقاتل بن حيان : يفضحون بإظهار نفاقهم، وقال عكرمة : ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون، وقال يمان : ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين، { ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ } ، من نقض العهد، ولا يرجعون إلى الله من النفاق، { وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } ، أي: لا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

[127] { وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ } فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، { نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ } ، يريدون الهرب، يقول بعضهم لبعض إشارة { هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ } ، أي: أحد من المؤمنين إن قمتم، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحدا يراهم أقاموا وثبتوا، { ثُمَّ انْصَرَفُوا } ، عن الإيمان بها، وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ، { صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } ، عن الإيمان، وقال أبو إسحاق الزجاج : أضلهم الله مجازاة على فعلهم ذلك، { بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } ، عن الله دينه.

[128 - 129] قوله تعالى: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } تعرفون نسبه وحسبه، قال السدي : من العرب من بني إسماعيل، قال ابن عباس : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم، وله فيهم نسب، وقال جعفر بن محمد الصادق : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام، وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن (من أنفسكم) بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم، { عَزِيزٌ عَلَيْهِ } ، شديد عليه، { مَا عَنِتُّمْ } ، قيل: (ما) صلة أي: عنتكم، وهو دخول المشقة والمضرة عليكم، وقال القتيبي : ما أعنتكم وضركم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ضللتم، وقال الضحاك

والكلبي : ما أتممتم، { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } ، أي: على إيمانكم وصلاحكم، وقال قتادة : حريص عليكم أي على ضالكم أن يهديه الله، { بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } ، قيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين، { فَإِنْ تَوَلَّوْا } ، إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك، { فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } ، روي عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان { لَقَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } ثم إلى آخر السورة، وقال: هما أحدث الآيات بالله عهدا (1) .

____

(1) أخرجه الحاكم 2 / 338، والإمام عبد الله بن أحمد في زوائد المسند 5 / 117، قال الهيثمي في المجمع 7 / 36 فيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

(10) سورة يونس

سورة يونس عليه الصلاة والسلام مكية إلا ثلاث آيات من قوله: { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ } إلى آخرها.

[1] { الر } (والمر) قرأ أهل الحجاز والشام وحفص بفتح الراء، وقرأ الآخرون بالإمالة، وقال ابن عباس والضحاك : { الر } أنا الله أرى، و { المر } أنا الله أعلم وأرى، وقال سعيد بن جبير : (الر) و (حم) و (ن) حروف اسم الرحمن، وقد سبق الكلام في حروف التهجي, { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } ، أي: هذا، وأراد بالكتاب الحكيم القرآن، وقيل، أراد بها الآيات التي أنزلها من قبل ذلك، ولذلك قال: (تلك) وتلك إشارة إلى غائب مؤنث، والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام، فعيل بمعنى مفعل بدليل قوله: { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } ، وقيل: هو بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل دليله قوله عز وجل: { وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ } ، وقيل: هو بمعنى المحكوم، فعيل بمعنى المفعول. قال الحسن : حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه.

[2] قوله تعالى: { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا } ، العجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة، وسبب نزول الآية أن الله عز وجل لما بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم رسولًا، قال المشركون: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، فقال تعالى: { أَكَانَ لِلنَّاسِ } يعني : أهل مكة، الألف فيه للتوبيخ، { عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ } ، يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، { أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ } ، أي أعلمهم مع التخويف، { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ } ، واختلفوا فيه، قال ابن عباس : أجرًا حسنًا بما قدموا من أعمالهم، قال أعمالهم ثواب صدق، وقال الحسن : عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السعادة في الذكر الأول، وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال عطاء : مقام صدق لا زوال ولا بؤس فيه، وقيل: منزلة رفيعة، وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته، كقولهم مسجد الجامع، وحب الحصيد، وقال أبو عبيدة : كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم، يقال لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق وقدم سوء، وهو يؤنث

فيقال: قدم صالحة، { قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ } ، قرأ نافع وأهل البصرة والشام: (لسحر) بغير ألف يعنون القرآن، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: (لساحر) بالألف يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم.
[3] قوله عز وجل: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } ، يقضيه وحده { مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ } , معناه أن الشفعاء لا يشفعون إلا بإذنه، وهذا رد على النضر بن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزى. قوله تعالى: { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } ، يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربكم لا رب لكم سواه، { فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } ، تتعظون.

[4] { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا } ، صدقًا لا خلف فيه، نصب على المصدر، أي: وعدكم وعدًا حقًّا { إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ، أي: يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم, قراءة العامة: (إنه) بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر (أنه) بالفتح على معنى بأنه أو لأنه { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ } ، بالعدل، { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ } ، ماء حار انتهى حره، { وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }

[5] { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً } ، بالنهار { وَالْقَمَرَ نُورًا } بالليل، وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور، { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ } أي: قدر له يعني هيأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقاد قدرهما، قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ } ، وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة؛ لأن القمر يعرف به انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا، وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجا، فلكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلا منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعًا وعشرين فليلة واحدة، فيكون تلك المنازل، ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يومًا وثلث يوم، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها، قوله تعالى: { لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ } ، أي: قدر المنازل { لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ } دخولها وانقضاءها، { وَالْحِسَابَ } ، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. { مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ } ، رده إلى الخلق والتقدير ولولا رده إلى الأعيان

المذكورة لقال تلك، { إِلَّا بِالْحَقِّ } ، أي: لم يخلقه باطلًا بل إظهارًا لصنعه، ودلالة على قدرته، { يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب : (يُفَصِّلُ) بالياء، لقوله: (مَا خَلَقَ) وقرأ الباقون: (نفصل) بالنون على التعظيم.
[6] { إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ } يؤمنون.

[7] { إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } ، أي: لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، { وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، فاختاروها وعملوا لها، { وَاطْمَأَنُّوا بِهَا } ، سكنوا إليها، { وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ } ، أي: عن أدلتنا غافلون لا يعتبرون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عن آياتنا:

عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن غافلون معرضون.
[8] { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } ، من الكفر والتكذيب.

[9] قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } ، فيه إضمار، أي: يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى جنة، { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ } ، قال مجاهد : يهديهم على الصراط إلى الجنة يجعل لهم نورًا يمشون به، وقيل: يهديهم معناه يثيبهم ويجزيهم، وقيل: معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه، أي: بتصديقهم هداهم، تجري من تحتهم الأنهار أي: بين أيديهم، كقوله عز وجل: { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا } لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها، وقيل: تجري من تحتهم أي: بأمرهم { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } .

[10] { دَعْوَاهُمْ } ، أي: قولهم وكلامهم، وقيل: دعاؤهم، { فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ } ، وهي كلمة تنزيه، تنزه الله من كل سوء، وروينا: « أن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح، كما يلهمون النفس » (1) قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: { سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ } ، فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة ميل في ميل، على كل مائدة سبعون ألف صحفة، وفي كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله، فذلك قوله تعالى: { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، قوله تعالى: { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } أي: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام، وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام، وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام، { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، يريد يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد.

____
(1) رواه مسلم في الجنة، وصفة نعيمها رقم (2835) 4 / 2180..

[11] قوله عز وجل: { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ } ، قال ابن عباس : هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله، ولا بارك الله فيكم، قال قتادة : هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب، معناه: لو يعجل الله الناس إجابة دعائهم في الشر والمكروه استعجالهم بالخير، أي: كما يحبون استعجالهم بالخير، { لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } ، قرأ ابن عامر ويعقوب : (لقضى) بفتح القاف والضاد، (أجلهم) نصب، أي: لأهلك من دعي عليه وأماته، وقال الآخرون: (لقضي) بضم القاف وكسر الضاد (أجلهم) رفع، أي: لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعًا، وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، يدل عليه قوله عز وجل: { فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } ، لا يخافون البعث والحساب، { فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } .

[12] { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ } ، الجهد والشدة، { دَعَانَا لِجَنْبِهِ } ، أي: على جنبه مضطجعًا، { أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا } ، يريد في جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات، { فَلَمَّا كَشَفْنَا } دفعنا، { عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ } أي استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضر مسه أي: لم يطلب منا كشف ضر مسه، { كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ } ، المجاوزين الحد في الكفر والمعصية { مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } من العصيان، قال ابن جريج : { كَذَلِكَ زُيِّنَ }

{ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } من الدعاء عند البلاء وترك الشكر عند الرخاء، وقيل: معناه كما زين لكم أعمالكم، كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم.

[13] { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } أشركوا، { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ } أي: كما أهلكناهم بكفرهم، { نَجْزِي } ، نعاقب ونهلك، { الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } ، الكافرين بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، يخوف كفار مكة بعذاب الأمم الخالية المكذبة.
[14] { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ } أي: خلفاء, { فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ } ، أي: من بعد القرون التي أهلكناهم، { لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } ، وهو أعلم بهم، وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ألا إن هذه الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون » (1) .

____
(1) رواه مسلم في الرقاق رقم (2742) 4 / 2098 والمصنف في شرح السنة 9 / 12.

[15] قوله عز وجل: { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } ، قال قتادة : يعني مشركي مكة، وقال مقاتل : هم خمسة نفر: عبد الله بن أميه المخزومي، والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبيد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام، { قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } ، هم السابق ذكرهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت تريد أن نؤمن بك { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا } ، ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك، { أَوْ بَدِّلْهُ } ، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حرام حلالا أو مكان حلال حراما، { قُلْ } لهم يا محمد، { مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي } ، من قبل نفسي { إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ } ، أي: ما أتبع إلا ما يوحي إلي فيما آمركم به وأنهاكم عنه، { إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } .

[16] { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ } ، يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن علي. { وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ } ، أي: ولا أعلمكم الله، قرأ البزي عن ابن كثير: (ولأدراكم به) بالقصر به على الإيجاب، يريد ولا علمكم به من غير قراءتي عليكم، وقرأ ابن عباس: (ولا أنذرتكم به)، من الإنذار، { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا } حينا، وهو أربعون سنة، { مِنْ قَبْلِهِ } ، من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ، أنه ليس من قبلي، ولبث النبي -صلى الله عليه وسلم- فيهم قبل الوحي أربعين سنة، ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.
[17] قوله تعالى: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، فزعم أن له شريكا أو ولدا { أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } ، بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن، { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ } ، لا ينجو المشركون.

[18] { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ } إن عصوه وتركوا عبادته، { وَلَا يَنْفَعُهُمْ } ، إن عبدوه، يعني: الأصنام، { وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ

أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ } ، أتخبرون الله, { بِمَا لَا يَعْلَمُ } الله صحته، ومعنى الآية: أتخبرون الله أن له شريكا وعنده شفيعا بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه شريكا؟! { فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، قرأ حمزة والكسائي : (تشركون) بالتاء ها هنا وفي سورة النحل موضعين، وفي سورة الروم، وقرأ الآخرون كلها بالياء.

[19] قوله تعالى: { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً } ، أي: على الإسلام، وقد ذكرنا الاختلاف فيه في سورة البقرة، { فَاخْتَلَفُوا } ، وتفرقوا إلى مؤمن وكافر، { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ } ، بأن جعل لكل أمة أجلا، وقال الكلبي : هي إمهال هذه الأمة، وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا، { لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } ، بنزول العذاب تعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلًا بينهم، { فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ، وقال الحسن : ولولا كلمة سبقت من ربك مضت في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة.

[20] { وَيَقُولُونَ } ، يعني: أهل مكة، { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ } ، أي: على محمد صلى الله عليه وسلم، { آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } , على ما نقترحه, { فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ } , يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لِمَ لَمْ يفعل ذلك، ولا يعلمه إلا هو، وقيل: الغيب نزول الآية لا يعلم متى ينزل أحد غيره، { فَانْتَظِرُوا } نزولها { إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل.

[21] قوله عز وجل: { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ } ، يعني: الكفار، رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ ، أي: راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء، وقيل: القطر بعد القحط، أي: أصابتهم، { مَسَّتْهُمْ } أي: أصابتهم, { إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا } قال مجاهد: تكذيب واستهزاء، وقال مقاتل بن حيان : لا يقولون هذا من رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا، وهو قوله: { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } ، { قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا } ، أعجل عقوبة وأشد أخذًا وأقدر على الجزاء، يريد عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق، { إِنَّ رُسُلَنَا } ، حفظتنا، { يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } ، قرأ روح عن يعقوب : (يمكرون) بالياء.
[22] قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ } ، يجزيكم ويحملكم، وقرأ جعفر وابن عامر : (ينشركم).

بالنون والشين من النشر وهو البسط والبث، { فِي الْبَرِّ } ، على ظهور الدواب، (وَ) في (الْبَحْرِ) ، على الفلك، { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ } ، أي: في السفن، تكون واحدا وجمعا، { وَجَرَيْنَ بِهِمْ } , يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الغيبة، { بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } ، لينة, { وَفَرِحُوا بِهَا } , أي: بالريح، { جَاءَتْهَا رِيحٌ } ، أي: جاءت الفلك ريح، { عَاصِفٌ } ، شديدة الهبوب، ولم يقل ريح عاصفة، لاختصاص الريح بالعصوف، وقيل: الريح يذكر ويؤنث، { وَجَاءَهُمُ } ، يعني: ركبان السفينة، { الْمَوْجُ } ، وهو حركة الماء واختلاطه، { مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا } ، أيقنوا { أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } ، دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، { دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ، أي: أخلصوا في الدعاء لله، ولم يدعوا أحدًا سوى الله، وقالوا: { لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا }

يا ربنا، { مِنْ هَذِهِ } , الريح العاصف، { لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } ، لك بالإيمان والطاعة.

[23] { فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ } ، يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عز وجل في الأرض، { بِغَيْرِ الْحَقِّ } ، أي: بالفساد، { يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ } ؛ لأن وباله راجع عليها، ثم ابتدأ فقال: { مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، أي: هذا متاع الحياة الدنيا، خبر ابتداء مضمر، كقوله: { لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ } أي: هذا بلاغ، وقيل: هو كلام متصل، والبغي ابتداء ومتاع خبره، ومعناه: إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا لا يصلح زاد لمعاد؛ لأنكم تستوجبون به غضب الله، وقرأ حفص (متاع) بالنصب، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا، { ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } .

[24] { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، في فنائها وزوالها، { كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ } ، أي: بالمطر، { نَبَاتُ الْأَرْضِ } ، قال ابن عباس : نبت بالماء من كل لون، { مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ } ، من الحبوب والثمار، { وَالْأَنْعَامُ } ، من الحشيش، { حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا } ، حسنها وبهجتها وظهر الزهر أخضر { وَازَّيَّنَتْ } ، أي: تزينت، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود : تزينت. { وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } ، على جذاذها وقطافها وحصادها، رد الكناية إلى الأرض، والمراد: النبات إذ كان مفهوما، وقيل: ردها إلى الغلة. وقيل: إلى الزينة. { أَتَاهَا أَمْرُنَا } ، قضاؤنا بإهلاكها، { لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا } ، أي: محصودة مقطوعة، { كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ } ، كأن لم تكن بالأمس، وأصله من غني بالمكان إذا أقام به، وقال قتادة : معناه إن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون { كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }

[25] قوله تعالى: { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ } , قال قتادة : السلام هو الله، وداره الجنة، وقيل: السلام بمعنى السلامة, سميت الجنة دار السلام؛ لأن من دخلها سلم من الآفات؛ وقيل: المراد بالسلام التحية سميت الجنة دار السلام؛ لأن أهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم، قال الله تعالى: { وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ }{ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } ، { وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } فالصراط المستقيم هو الإسلام عم بالدعوة لإظهار الحجة, وخص بالهدية استغناء عن الخلق.

[26] { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } , أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى, وهي الجنة, وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم, هذا قول جماعة من الصحابة منهم، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحذيفة وأبو موسى وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحاك والسدي، وروي عن ابن عباس : أن الحسنى هي: أن الحسنة بمثلها، والزيادة هي التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقال مجاهد : الحسنى: حسنة مثل حسنة، والزيادة المغفرة والرضوان، { وَلَا يَرْهَقُ } ، لا يغشى { وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ } غبار جمع قترة، قال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه، { وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ } ، هوان، قال قتادة : كآبة، قال ابن أبي ليلى : هذا بعد نظرهم إلى ربهم، { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[27] { وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا } أي: لهم مثلها، كما قال: { وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا } ، { وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ } ، و(من) صلة، أي: ما لهم من الله عاصم، { كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ } ، ألبست, { وُجُوهُهُمْ قِطَعًا } , جمع قطعة، { مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا } , نصبت على الحال دون النعت، ولذلك لم يقل: مظلمة، تقديره: قطعا من الليل في حال ظلمته أو قطعا من الليل المظلم، وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب : (قطعا) ساكنة الطاء، أي بعضا، كقوله: { بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ } . { أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[28] { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ } ، أي: الزموا مكانكم، { أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ } ، يعني: الأوثان، معناه، ثم نقول للذين أشركوا الزموا أنتم وشركاؤكم مكانكم، ولا تبرحوا، { فَزَيَّلْنَا } ، ميزنا وفرقنا { بَيْنَهُمْ } , أي: بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده، { وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ } ، يعني: الأصنام، { مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ } ، بطلبتنا فيقولون بلى كنا نعبدكم فتقول الأصنام:
[29] { فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ } أي: ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا غافلين، ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

[30] قال الله تعالى: { هُنَالِكَ تَبْلُو } ، أي: تختبر، وقيل: معناه تعلم وتقف عليه، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب : (تتلو) بتاءين أي تقرأ، { كُلُّ نَفْسٍ } ، صحيفتها، وقيل: معناه تتبع كل نفس، { مَا أَسْلَفَتْ } ، ما قدمت من خير أو شر، وقيل: معناه تعاين، { وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ } ، إلى حكمه فيتفرد فيهم بالحكم، { مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ } ، الذي يتولى ويملك أمرهم: فإن قيل: أليس قد قال: { وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ } . قيل: المولى هناك هو الناصر، وههنا بمعنى المالك، { وَضَلَّ عَنْهُمْ } ، زال عنهم وبطل، { وَضَلَّ عَنْهُمْ } ، في الدنيا من التكذيب.

[31] قوله تعالى: { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أي: من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات، { أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ } ، أي: من إعطائكم السمع والأبصار، { وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } ، يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي، { وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } ، أي: يقضي الأمر، { فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ } ، هو الذي يفعل هذه الأشياء، { فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } ، أفلا تخافون عقابه في شرككم، وقيل: أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار.
[32] { فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ } ، الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم، { الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } ، أي: فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرون به.
[33] { كَذَلِكَ } ، قال الكلبي: هكذا، { حَقَّتْ } ، وجبت، { كَلِمَةُ رَبِّكَ } ، حكمه السابق، { عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا } ، كفروا، { أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } ، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر (كلمات ربك) بالجمع ههنا موضعين وفي المؤمن، والآخرون على التوحيد.

[34] قوله: { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ } ، أوثانكم { مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ } , ينشئ الخلق من غير أصل ولا مثال، { ثُمَّ يُعِيدُهُ } ، ثم يحييه من الموت كهيئته، فإن

أجابوك وإلا فـ { قُلْ } أنت، { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } ، أي: تصرفون عن قصد السبيل.

[35] { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي } ، يرشد، { إِلَى الْحَقِّ } ، فإذا قالوا لا، ولا بد لهم من ذلك، { قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ } ، أي: إلى الحق، { أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى } ، قرأ حمزة والكسائي ساكنة الهاء, خفيفة الدال, وقرأ الآخرون بتشديد الدال، ثم قرأ أبو جعفر وقالون : بسكون الهاء, وأبو عمرو : يروم الهاء بين الفتح والسكون، وقرأ حفص : بفتح الياء وكسر الياء، وأبو بكر : بكسرهما، والباقون: بفتحهما، ومعناه: يهتدي في جميعها، فمن خالف الدال قال: يقال هديته فهدي، أي: اهتدى، ومن شدد الدال أدغم التاء في الدال، ثم أبو عمرو يروم على مذهبه في إيثار التخفيف، ومن سكن الهاء تركها على حالتها كما فعل في (تعدو) و (خصمون)، ومن فتح الهاء نقل فتحة الهاء المدغمة إلى الهاء، ومن كسر الهاء فلالتقاء الساكنين، وقال: الجزم يحرك إلى الكسر، ومن كسر الياء مع الهاء أتبع الكسر إلى الكسرة، قوله تعالى: { إِلَّا أَنْ يُهْدَى } ، معنى الآية: الله الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم الصنم الذي لا يهتدي إلا أن يهدى، فإن قيل: كيف

قال: { إِلَّا أَنْ يُهْدَى } ، والصنم لا يتصور أن يهتدي، ولا أن يهدى؟ قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تحمل وتنقل، بين به عجز الأصنام، وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة، وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنهما بما يعبر عمن يعلم ويعقل، ووصفت بصفة من يعقل. { فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } ، كيف تقضون حين زعمتم أن الله شريكًا.
[36] قوله تعالى: { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا } ، منهم يقولون: إن الأصنام آلهة، وإنها تشفع لهم في الآخرة ظنًّا منهم، لم يرد به كتاب ولا رسول، وأراد بالأكثر جميع من يقول ذلك، { إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } ، أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئًا، وقيل: يقوم مقام العلم، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } .

[37] قوله تعالى: { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، قال الفراء : معناه: وما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله، كقوله تعالى: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ } ، وقيل: (أن) بمعنى اللام، أي: وما كان هذا القرآن ليفترى من دون الله.
قوله: { وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } ، أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل، وقيل: تصديق الذي بين يدي القرآن من القيامة والبعث، { وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ } ، تبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام، { لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[38] { أَمْ يَقُولُونَ } ، قال أبو عبيدة : (أم) بمعنى الواو, أي: ويقولون، { افْتَرَاهُ } ، اختلق محمد القرآن من قبل نفسه، { قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } ، شبه القرآن { وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ } ، ممن تعبدون، { مِنْ دُونِ اللَّهِ } ليعينوكم على ذلك، { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، أن محمدا افتراه، ثم قال:

[39] { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ } ، يعني: القرآن، كذبوا به، ولم يحيطوا بعلمه، { وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } ، أي: عاقبة ما وعد الله في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم. { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، أي: كما كذب هؤلاء الكفار بالقرآن كذلك كذب الذين من قبلهم من كفار الأمم الخالية، { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } ، آخر أمر المشركين بالهلاك.

[40] { وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ } ، أي: من قومك من يؤمن بالقرآن، { وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ } ، لعلم الله السابق فيهم، { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ } ، الذين لا يؤمنون.

[41] { وَإِنْ كَذَّبُوكَ } ، يا محمد، { فَقُلْ لِي عَمَلِي } ، وجزاؤه، { وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } ، وجزاؤه، { أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } , هذا كقوله تعالى: { لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ }{ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } ، قال الكلبي ومقاتل : هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره.

[42]فقال: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ } بأسماعهم الظاهرة فلا ينفعهم، { أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ } ، يريد صمم القلب { وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ }

[43] { وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ } ، بأبصارهم الظاهرة، { أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ } ، يريد عمى القلب، { وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ } ، وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم، يقول: إنك لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع ولا أن تهدي من سلبته البصر ولا أن توفق للإيمان من حكمت عليه ألا يؤمن.

[44] { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا } ، لأنه في جميع أفعاله متفضل عادل، { وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ، بالكفر والمعصية، قرأ حمزة والكسائي : (ولكن الناس) بتخفيف نون (لكن) ورفع (الناس)، وقرأ الباقون (ولكن الناس) بتشديد نون (لكن) ونصب (الناس).

[45] قوله تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } ، قرأ حفص بالياء والآخرون بالنون، { كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ } ، قال الضحاك : كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار، وقال ابن عباس : كأن لم يلبثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من النهار، { يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ } ، يعرف بعضهم بعضًا حين بعثوا من القبور كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة، وفي بعض الآثار: أن الإنسان يعرف يوم القيامة من بجنبه ولا يكلمه هيبة وخشية، { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } ، والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا شيء أعظم منه.

[46] قوله تعالى: { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ } ، يا محمد في حياتك من العذاب، { أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ } ، قبل تعذيبهم، { فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ } ، في الآخرة، { ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ } ، فيجزيهم به، (ثم) بمعنى الواو، تقديره: والله شهيد، قال مجاهد : فكان البعض الذي أراه قتلهم ببدر، وسائر أنواع العذاب بعد موتهم.

[47]قوله عز وجل: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ } ، خلت, { رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ } وكذبوه، { قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } ، أي عذبوا في الدنيا وأهلكوا بالعذاب، يعني قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب، وقال مجاهد ومقاتل : فإذا جاء

رسولهم الذي أرسل إليهم يوم القيامة قضي بينه وبينهم بالقسط، { وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } ، لا يعذبون بغير ذنب، ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد على سيئاتهم.
[48] { وَيَقُولُونَ } ، أي: المشركون، { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } الذي تعدنا يا محمد من العذاب، وقيل: قيام الساعة، { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } ، أنت يا محمد وأتباعك.
[49] { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي } , لا أقدر لها على شيء, { ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } , أي دفع ضر ولا جلب نفع, { إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } , أن أملكه, { لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ } , مدة مضروبة, { إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ } , وقت فناء أعمارهم, { فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } , أي يتأخرون، ولا يتقدمون.

[50]قوله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا } , ليلًا, { أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ } , أي: ماذا يستعجل من الله المشركون، وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون, وقد وقعوا فيه، وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب, فيقولون: { اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } , فيقول الله تعالى: { مَاذَا يَسْتَعْجِلُ } يعني: ليس يعلم المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون, كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحًا: ماذا جنيت على نفسك؟

[51] { أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ } ، قيل: معناه أهنالك، وحينئذ، وليس بحرف عطف، { إِذَا مَا وَقَعَ } نزل العذاب، { آمَنْتُمْ بِهِ } ، أي بالله في وقت اليأس، وقيل: آمنتم به أي صدقتم بالعذاب وقت نزوله، { آلْآنَ } ، فيه إضمار، أي: يقال لكم: الآن تؤمنون حين وقع العذاب؟ { وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } ، تكذيبًا واستهزاءً، قرأ ورش عن نافع (آلان) بحذف الهمزة التي بعد اللام الساكنة وإلقاء حركتها على اللام، ويمد الهمزة الأولى على وزن عالان، وكذلك الحرف الآخر، وروى زمعة بن صالح (الان) على مثل علان بغير مد ولا همزة بعد اللام، وقرأ الباقون (آلآن) بهمزة ممدود في الأول، وإثبات همزة بعد اللام، وكذلك قالون وإسماعيل عن نافع .
[52] { ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا } ، أشركوا، { ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } ، في الدنيا.

[53] { وَيَسْتَنْبِئُونَكَ } ، أي: يستخبرونك يا محمد، { أَحَقٌّ هُوَ } ، أي ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة، { قُلْ إِي وَرَبِّي } ، أي: نعم وربي، { إِنَّهُ لَحَقٌّ } ، لا شك فيه، { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } ، أي: بفائتين من العذاب؛ لأن من عجز عن شيء فقد فاته.

[54] { وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ } ، أي: أشركت، { مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ } ، يوم القيامة، والافتداء ههنا: بذل ما ينجو به من العذاب، { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ } ، قال أبو عبيدة : معناه أظهروا الندامة؛ لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبر وتصنع، وقيل: معناه أخفوا، أي: أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء خوفًا من ملامتهم وتعييرهم، { لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } ، فرغ من عذابهم، { وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } .
[55] { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }
[56] { هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

[57] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ } ، تذكرة، { مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ } ، أي: دواء لما في الصدور من داء الجهل، وقيل: لما في الصدور أي شفاء لعمى القلوب، والصدر موضع القلب، وهو أعز موضع في الإنسان لجوار القلب، { وَهُدًى } ، من الضلالة { وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } ، والرحمة هي النعمة على المحتاج؛ فإنه لو أهدى ملك إلى ملك شيئا لا يقال قد رحمه، وإن كان ذلك نعمة؛ فإنه لم يضعها في محتاج.

[58] قوله تعالى: { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ } ، قال مجاهد وقتادة : فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن، وقال أبو سعيد الخدري : فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلنا من أهله، وقال ابن عمر : فضل الله: الإسلام، رحمته: تزيينه في القلب، وقال خالد بن معدان : فضل الله: الإسلام، ورحمته: السنن، وقيل: فضل الله: الإيمان، ورحمته: الجنة. { فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } ، أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله، { هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } ، أي مما يجمعه الكفار من الأموال، وقيل: كلاهما خبر عن الكفار، وقيل: عن المؤمنين، وقرأ أبو جعفر وابن عامر : { فَلْيَفْرَحُوا } بالياء وتجمعون بالتاء، وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء، ووجه هذه القراءة أن المراد: فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما يجمعونه من الأموال مختلف عنه خطابا للمؤمنين.

[59] { قُلْ } يا محمد لكفار مكة، { أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ } عبر عن الخلق بالإنزال؛ لأن ما في الأرض من خير، فمما أنزل الله من رزق، من زرع وضرع، { فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا } ، هو ما حرموا من الحرث ومن الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، قال الضحاك : هو قوله تعالى: { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا } ، { قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ } ، في هذا التحريم والتحليل، { أَمْ } ، بل، { عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } ، هو قولهم: { وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } .
[60] { وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه, { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ }

[61] قوله عز وجل: { وَمَا تَكُونُ } ، يا محمد، { فِي شَأْنٍ } ، عمل من الأعمال، وجمعه شؤون، { وَمَا تَتْلُو مِنْهُ } ، من الله، { مِنْ قُرْآنٍ } وقيل: منه أي من الشأن من قرآن، نزل فيه ثم خاطبه وأمته فقال: { وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } ، أي: تدخلون وتخوضون فيه، الهاء عائدة إلى العمل، والإفاضة: الدخول في العمل، وقال ابن الأنباري : تندفعون فيه، وقيل: تكثرون، والإفاضة: الدفع بكثرة، { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ } ، يغيب عن ربك، وقرأ الكسائي (يعزب) بكسر الزاي، وكذلك في سورة سبأ، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان { مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ } , مثقال ذرة، أي: مثقال ذرة، و (من) صلة والذرة هي النملة الحمراء الصغيرة. { فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ } ، أي: من الذرة، { وَلَا أَكْبَرَ } قرأ حمزة ويعقوب برفع الراء فيهما عطفا على موضع المثقال قبل دخول (من)، وقرأ الآخرون بنصبهما، أراد للكسر عطفا على الذرة في الكسر. { إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } وهو اللوح المحفوظ.

[62] قوله تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } ، اختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم، قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله، فقال: [63] { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } ، وقال قوم: هم المتحابون في الله.

[64] { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } ، اختلفوا في هذه البشرى، روي عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، قال: « هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » (1) وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « لم يبقَ من النبوة إلا المبشرات "، قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة » (2) وقيل: البشرى في الدنيا هي الثناء الحسن، وفي الآخرة: الجنة، وقال الزهري وقتادة : هي نزول الملائكة بالبشارة مع الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: { تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } ، وقال عطاء عن ابن عباس : البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن من يعرج بها إلى الله، ويبشر برضوان الله، وقال الحسن : هي ما بشر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه، كقوله: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } ، { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }{

(1) أخرجه الترمذي في الرؤيا 6 / 554 وابن ماجه في الرؤيا رقم 3898- 2 / 1283 وصححه الحاكم ووافقه الذهبي 2 / 340 و 4 / 391 والدارمي في الرؤيا 2 / 123 والإمام أحمد في المسند 5 / 315.
(2) أخرجه البخاري في التعبير 12 / 375 والمصنف في شرح السنة 12 / 202.

وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ } ، وقيل: بشرهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهما أولياء الله، ويبشرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة، { لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } ، لا تغير لقول، ولا خلف لوعده، { ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[65] { وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ } ، يعني: قول المشركين، قرأ نافع (ولا يحزنك) بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ الآخرون (يحزنك) بفتح الياء وضم الزاي، وهم لغتان، يقال: حزنه الشيء يحزنه وأحزنه، تم الكلام ههنا ثم ابتدأ، فقال: { إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ } ، يعني: الغلبة والقدرة لله { جَمِيعًا } هو ناصرك وناصر دينك والمنتقم منهم، قال سعيد بن المسيب، إن العزة لله جميعا يعني أن الله يعز من يشاء، كما قال في آية أخرى: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } وعزة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله، { هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

[66] { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ } هو إما استفهام معناه: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ وقيل: وما يتبعون حقيقة؛ لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا وليس على ما يظنون. { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } ، يظنون أنها تقربهم إلى الله، { وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }
يكذبون.
[67] { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا } ،مضيئا يبصر فيه، كقولهم: ليل نائم، وعيشة راضية، قال قطرب : تقول العرب: أظلم الليل

وأضاء النهار وأبصر، أي: صار ذا ظلمة وضياء وبصر، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } ، سمع الاعتبار أنه مما لا يقدر عليه إلا عالم قادر.

[68] { قَالُوا } ، يعني المشركين { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } ، وهو قولهم الملائكة بنات الله { سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ } ، عن خلقه، { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، عبيدا وملكا { إِنْ عِنْدَكُمْ } ، ما عندكم، { مِنْ سُلْطَانٍ } ، حجة وبرهان، و(من) صلة تقديره ما عندكم سلطان، { بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }
[69] { قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } لا ينجون, وقيل: لا يبقون في الدنيا ولكن:
[70] { مَتَاعٌ } ، قليل يتمتعون به وبلاغ ينتفعون به إلى انقضاء آجالهم و (متاع) رفع بإضمار، أي: هو متاع، { فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }

[71] قوله تعالى { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ } ، أي: اقرأ يا محمد على أهل مكة خبر نوح { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ } ، وهم ولد قابيل، { يا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ } ، عظم وثقل عليكم، { مَقَامِي } طول عمري ومكثي فيكم { وَتَذْكِيرِي } ، ووعظي إياكم { بِآيَاتِ اللَّهِ } ، بحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي { فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ } ، أي: أحكموا أمركم واعزموا عليه، { وَشُرَكَاءَكُمْ } ، أي: وادعوا شركاءكم، أي: آلهتكم؛ فاستعينوا بها لتجتمع معكم، وقال الزجاج : معناه فأجمعوا أمركم مع شركائكم، فلما ترك (مع) انتصب، وقرأ يعقوب : (وشركاؤكم) رفع، أي: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم، وقرأ رويس عن يعقوب (فاجمعوا) بوصل الألف وفتح الميم، والوجه من جمع يجمع، والمراد فاجمعوا ذوي أمركم، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى: اجمعوا رؤساءكم، { ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً } ، أي: خفيا مبهما, من قولهم: غم الهلال على الناس، أي: أشكل عليهم وخفي، { ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ } ، أي: امضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه، يقال: قضى فلان

إذا مات ومضى، وقضى دينه إذا فرغ منه، وقيل: معناه توجهوا إلي بالقتل والمكروه وقيل: فاقضوا ما أنتم قاضون، وهذا مثل قول السحرة لفرعون : { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } ، أي اعمل ما أنت عامل، { وَلَا تُنْظِرُونِ } ، ولا تؤخرون، وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح أنه كان واثقا بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه، علما منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضر إلا أن يشاء الله.
[72] { فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ } ، أعرضتم عن قولي وقبول نصحي، { فَمَا سَأَلْتُكُمْ } ، على تبليغ الرسالة والدعوة، { مِنْ أَجْرٍ } ، من جعل وعوض، { إِنْ أَجْرِيَ } ، ما أجري وثوابي. { إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } ، أي: من المؤمنين، وقيل: من المستسلمين لأمر الله.
[73] { فَكَذَّبُوهُ } ، يعني { فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ } ، أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين. { وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ } ، أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

[74] { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا } ، أي: من بعد نوح رسلا. { إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ، بالدلالات الواضحات، { فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ } ، أي: بما كذب به قوم نوح من قبل، { كَذَلِكَ نَطْبَعُ } ، أي: نختم . { عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ }
[75] { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ } ، يعني: أشراف قومه، { بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ }
[76] { فَلَمَّا جَاءَهُمُ } ، يعني: جاء فرعون وقومه، { الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ }
[77] { قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا } , تقدير الكلام أتقولون للحق لما جاءكم سحر أسحر هذا؟ فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه.
{ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ } .

[78] { قَالُوا } ، يعني: فرعون وقومه لموسى، { أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا } ، لتصرفنا، وقال قتادة : لتلوينا، { عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ } ، الملك والسلطان، { فِي الْأَرْضِ } ، أرض مصر وقرأ أبو بكر : (ويكون) بالياء { وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ } , بمصدقين.

[79] { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } .
[80] { فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ }
[81] { فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ } قرأ أبو عمرو وأبو جعفر : (آلسحر) بقطع الألف والمد على الاستفهام، و (ما) في هذه القراءة للاستفهام، وليست بموصولة، وهي مبتدأة و (جِئْتُمْ بِهِ) خبرها، والمعنى: أي شيء جئتم به؟ وقوله (السحر) بدل عنها، وقرأ الباقون: (مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ) بوصل الألف من غير مد، و(ما) في هذه القراءة موصولة بمعنى الذي و(جِئْتُمْ بِهِ) صلتها، وهي مع الصلة في موضع الرفع بالابتداء، وقوله (السحر) خبره أي: الذي جئتم به السحر، وتقوي هذه القراءة قراءة ابن مسعود (ما جئتم به سحر) بغير الألف واللام. { إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ }
[82] { وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } , بآياته, { وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ }

[84] { فَمَا آمَنَ لِمُوسَى } لم يصدق موسى مع ما آتاهم به من الآيات، { إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ } ، اختلفوا في الهاء التي في (قومه)، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه، قال مجاهد : كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل هلك الآباء، وبقي الأبناء، وقال الآخرون، الهاء راجعة إلى فرعون، وروى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطة ابنته، وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله، وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا من القتل، فنشئوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غلبت السحرة، { عَلَى خَوْفٍ مِنْ

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ } ، قيل: أراد بفرعون آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم، كما قال: { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } أي: أهل القرية، وقيل: إنما قال: {

وَمَلَئِهِمْ } وفرعون واحد؛ لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه، كما يقال: قدم الخليفة يراد هو ومن معه، وقيل: أراد ملأ الفرية، فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون . { أَنْ يَفْتِنَهُمْ } . أي: يصرفهم عن دينهم، ولم يقل يفتنوهم؛ لأنه أخبر عن فرعون، وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، { وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ } ، لمتكبر، { فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } ، المجاوزين الحد؛ لأنه كان عبدا فادعى الربوبية.
[84] { وَقَالَ مُوسَى } ، لمؤمني قومه، { يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ }
[85] { فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } ، اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا، { رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، أي: لا تظهرهم علينا، ولا تهلكنا بأيديهم، فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا، وقال مجاهد : لا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على الحق لما عذبوا، ويظنوا أنهم خير منا فيفتنوا.
[86] { وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } .

[87] قوله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ } هارون، { أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا } يقال: بوأ فلان لنفسه بيتًا ومضجعًا إذا اتخذه، وبوأته أنا إذا اتخذته له، { وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } ، قال أكثر المفسرين: كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبيعهم، وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريبها، ومنعهم من الصلاة فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم، ويصلوا فيها خوفًا من فرعون، هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس، وقال مجاهد : خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة، فأمروا بأن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سرًّا، معناه: واجعلوا وجوه بيوتكم إلى القبلة، وروى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الكعبة قبلة موسى ومن معه، { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } , يا محمد .

[88] { وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً } من متاع الدنيا، { وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ } , اختلفوا في هذه اللام، قيل: هي لام كي، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيضلوا ويضلوا عن سبيلك، كقوله { لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا }{ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } ، وقيل: هي لام العاقبة يعني: ليضلوا فيكون عاقبة أمرهم الضلال، كقوله: { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } . قوله: { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ } ، قال مجاهد : أهلكها، والطمس: المحو، وقال قتادة : صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم كلها حجارة، وقال محمد بن كعب : جعل صورهم حجارة، وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين، والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرًا، قال ابن عباس رضي الله عنه: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا، ودعا عمر بن العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة، والجوزة مشقوقة وإنها لحجر، قال السدي : مسخ الله أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق

والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع { وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ } ، أي: أقسها واطبع عليها حتى لا تلين، ولا تنشرح للإيمان، { فَلَا يُؤْمِنُوا } ، قيل: هو نصب بجواب الدعاء بالفاء، وقيل: هو عطف على قوله (لِيُضِلُّوا) أي: ليضلوا فلا يؤمنوا، وقال الفراء : هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا، { حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } ، وهو الغرق، قال السدي : معناه أمتهم على الكفر.

[89] { قَالَ } الله تعالى لموسى وهارون، { قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا } ، إنما نسب إليهما والدعاء كان من موسى؛ لأنه روى أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن، والتأمين دعاء { فَاسْتَقِيمَا } ، على الرسالة والدعوة، وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب { وَلَا تَتَّبِعَانِّ } ، نهي بالنون الثقيلة، ومحله جزم، يقال في الواحد لا تتبعن بفتح النون لالتقاء الساكنين، وبكسر النون في التثنية لهذه العلة، وقرأ ابن عامر بتخفيف النون، وقد اختلفت الروايات عنه فيه فبعضهم روى عنه وَلَا تَتَّبِعَانِّ بتخفيف التاء الثانية وفتح الباء وتشديد النون، وبعضهم روى عنه (تتبعان) بتشديد التاء الثانية وكسر الباء وتخفيف النون، وبعضهم روى عنه كقراءة الجماعة، والوجه في تخفيف النون، إن نون التأكيد تثقل وتخفف، { سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } ، يعني: ولا تسلكا سبيل الذين يجهلون حقيقة وعدي، فإن وعدي لا خلف فيه، ووعيدي نازل بفرعون وقومه.

[90] { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ } ، عبرنا بهم { فَأَتْبَعَهُمْ } ، لحقهم وأدركهم, { فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ } ، يقال: أتبعه وتبعه إذا أدركه ولحقه، واتبعه بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به، وقيل: هما واحد. { بَغْيًا وَعَدْوًا } ، أي: ظلما واعتداء، وقيل: بغيا في القول وعدوا في الفعل، وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر فلما. دخل آخرهم وهم أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء. وقوله تعالى: { حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ } ، أي: غمره الماء وقرب هلاكه، { قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ } ، قرأ حمزة والكسائي (إنه) بكسر الألف أي: آمنت، وقلت: إنه، وقرأ الآخرون (أنه) بالفتح على وقوع آمنت عليها، وإضمار حرف الجر، أي: آمنت بأنه، فحذف الباء، وأوصل الفعل بنفسه، فهو في موضع النصب. { لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } ، فدس جبريل في فيه من حمأة البحر.

[91] وقال: { آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل ما مات فرعون، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل فرآه بنو إسرائيل فذلك قوله:
[92] { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ } ، أي: نلقيك على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع، وقرأ يعقوب (ننجيك) بالتخفيف، { بِبَدَنِكَ } ، بجسدك لا روح فيه، وقيل: ببدنك: بدرعك، وكان له درع مشهور مرصع بالجواهر، فرأوه في درعه فصدقوا موسى. { لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً } ، عبرة وعظة، { وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } .

[93] { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } أنزلنا بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، { مُبَوَّأَ صِدْقٍ } ، منزل صدق، يعني. مصر، وقيل: الأردن وفلسطين، وهي الأرض المقدسة التي كتب الله ميراثا لإبراهيم وذريته، قال الضحاك : هي: مصر والشام، { وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ } ، الحلالات، { فَمَا اخْتَلَفُوا } ، يعني اليهود الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في تصديقه، وأنه نبي،

{ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ } ، يعني، القرآن والبيان بأنه رسول الله صدق ودينه حق، وقيل: حتى جاءهم معلومهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه، فالعلم بمعنى المعلوم كما يقال للمخلوق: خلق، قال الله تعالى: { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ } ، ويقال: هذا الدرهم ضرب الأمير، أي. مضروبه. { إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ، من الدين.

[94] قوله تعالى. { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ } يعني: القرآن { فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } ، فيخبرونك أنك مكتوب عندهم في التوراة، قيل: هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، والمراد به غيره على عادة العرب فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به غيره، كقوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ } ، خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به المؤمنون بدليل أنه قال: { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } ، ولم يقل بما تعمل، وقال: { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ } ، وقيل: كان الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بين مصدق ومكذب وشاك، فهذا الخطاب مع أهل الشك معناه: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد، فاسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه فسيشهدون على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ويخبرونك بنبوته، قال الفراء : علم الله سبحانه وتعالى أن رسوله غير شاك، لكنه ذكره على عادة العرب يقول الواحد منهم

لعبده: إن كنت عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إن كنت ابني، ولا يكون بذلك على وجه الشك. { لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } ، من الشاكين.
[95] { وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } , وهذا كله خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره.
[96] قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ } ، وجبت عليهم، { كَلِمَةُ رَبِّكَ } ، قيل: لعنته، وقال قتادة : سخطه، وقيل: الكلمة هي قوله: هؤلاء في النار ولا أبالي. { لَا يُؤْمِنُونَ } .
[97] { وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } ، دلالة، { حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } ، قال الأخفش : أنث فعل كل؛ لأنه مضاف إلى المؤنث، وهي قوله: آية، ولفظ كل للمذكر والمؤنث سواء.

[98] قوله تعالى: { فَلَوْلَا كَانَتْ } ، فهلا كانت، { قَرْيَةٌ } ، ومعناه: فلم تكن قرية؛ لأن في الاستفهام ضربا من الجحد، أي: أهل قرية، { آمَنَتْ } ، عند معاينة العذاب، { فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا } ، في حال اليأس، { إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ } ، فإنهم نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، (وقوم) نصب على الاستثناء المنقطع، تقديره: ولكن قوم يونس، { لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } ، وهو وقت انقضاء آجالهم، واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عيانا أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب؟ والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عيانًا بدليل قوله: { كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } ، والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قرب أو سيأتي مثل ذلك في سورة الصافات آية (148).

[99] قوله تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ } ، يا محمد، { لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } ، هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه كان حريصًا على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جل ذكره: أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة.
[100] { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ } ، وما ينبغي لنفس، وقيل: ما كانت نفس، { أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } ، قال ابن عباس : بأمر الله، وقال عطاء : بمشيئة الله، وقيل: بعلم الله. { وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ } ، قرأ أبو بكر : (ونجعل) بالنون، والباقون بالياء، أي: ويجعل الله الرجس أي: العذاب وهو الرجز، { عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } ، عن الله أمره ونهيه.

[101] { قُلِ انْظُرُوا } ، أي: قل للمشركين الذين يسألونك الآيات: انظروا، { مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، من الآيات والدلائل والعبر، ففي السموات الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها، { وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ } ، الرسل، { عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } ، وهذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون.
[102] { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ } ، يعني: مشركي مكة، { إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا } ، مضوا، { مِنْ قَبْلِهِمْ } ، من مكذبي الأمم، قال قتادة : يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود، والعرب تسمي العذاب أيامًا والنعم أيامًا، كقوله:
{ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } ، وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام، { قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } .

[103] { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا } ، قرأ يعقوب (ننجي) خفيف مختلف عنه، { وَالَّذِينَ آمَنُوا } ، معهم عند نزول العذاب، معناه: نجينا مستقبل بمعنى الماضي، { كَذَلِكَ } ، كما نجيناهم { حَقًّا } ، واجبًا، { عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ } ، قرأ الكسائي وحفص ويعقوب (ننجي) بالتخفيف والآخرون بالتشديد، ونجا وأنجى بمعنى واحد.
[104] قوله تعالى: { قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي } ، الذي أدعوكم إليه، فإن قيل: كيف قال: { إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ } وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟ قيل: كان فيهم شاكون فهم المراد بالآية, أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمرهم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم، قوله عز وجل: { فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، من الأوثان، { وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ } ، يميتكم ويقبض أرواحكم، { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .
[105] قوله: { وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا } ، قال ابن عباس : عملك، وقيل: استقم على الدين حنيفا، { وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .

[106] { وَلَا تَدْعُ } ، ولا تعبد، { مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ } ، إن أطعته، { وَلَا يَضُرُّكَ } ، إن عصيته، { فَإِنْ فَعَلْتَ } ، فعبدت غير الله، { فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ } ، الضارين لأنفسهم الواضعين العبادة في غير موضعها.

[107] { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ } أي: يصبك بشدة وبلاء، { فَلَا كَاشِفَ } ، فلا دافع له، { لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ } ، رخاء ونعمة وسعة، { فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } ، فلا مانع لرزقه، { يُصِيبُ بِهِ } ، بكل واحد من الضر والخير، { مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } .
[108] { قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ } ، يعني القرآن والإسلام، { فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } ، أي: على نفسه وباله عليه، { وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } ، بكفيل أحفظ أعمالكم، قال ابن عباس : نسختها آية القتال.
[109] { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ } ، بنصرك وقهر عدوك وإظهار دينه { وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } ، فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون.

(11) سورة هود
مكية إلا قوله: { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } ، وهي مائة وثلاث وعشرون آية.
[1] { الر كِتَابٌ } ، أي: هذا كتاب، { أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } ، قال ابن عباس : لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به { ثُمَّ فُصِّلَتْ } , بينت بالأحكام والحلال والحرام، وقال الحسن : أحكمت بالأمر والنهي, ثم فصلت بالوعد والوعيد، قال قتادة : أحكمت أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا تناقض، وقال مجاهد : فصلت أي: فسرت، وقيل: فصلت أي: أنزلت شيئًا فشيئًا فشيئًا, { مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } .
[2] { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } , أي: في ذلك الكتاب ألا تعبدوا إلا الله, ويكون محل (أن) رفعًا. وقيل: محله خفض تقديره: بأن لا تعبدوا إلا الله, { إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ } , أي: من الله { نَذِيرٌ } , للعاصين { وَبَشِيرٌ } للمطيعين.

[3] { وَأَنِ } , عطف على الأول, { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ } , أي: ارجعوا إليه بالطاعة، قال الفراء : (ثم) هنا بمعنى الواو, أي: وتوبوا إليه, لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار، وقيل: أن استغفروا إليه في المستأنف يمنعكم منعا حسنا، يعيشكم عيشا حسنا في خفض ودعة وأمن وسعة، قال بعضهم: العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور. { إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } إلى حين الموت، { وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ } ، أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة. وقيل: يؤت كل ذي فضل فضله يعني: من عمل لله عز وجل وفقه الله فيما يستقبل على طاعته. { وَإِنْ تَوَلَّوْا } ، أعرضوا، { فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } ، وهو يوم القيامة.
[4] { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[5] قوله تعالى: { أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ } ، قال ابن عباس : نزلت في الأخس بن شريق، وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره. قوله: { يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ } : يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة، وقال عبد الله بن شداد : نزلت هذه الآية في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وحنى ظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه؛ كي لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قتادة : كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره، وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته، ويرخي ستره، ويحني ظهره، ويتغشى بثوبه، ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي، وقال السدي : يثنون أي: يعرضون بقلوبهم، من قولهم: ثنيت عناني. وقيل: يعطفون، ومنه ثنى الثوب، { لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ } ، أي: من رسول الله. وقال مجاهد : ليستخفوا

من الله إن استطاعوا، { أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ } ، يغطون رؤوسهم بثيابهم، { يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ، قال الأزهري : معنى الآية من أولها إلى آخرها:

إن الذين أضمروا عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفى علينا حالهم.

[6] قوله تعالى: { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ } ، أي: ليس دابة، (من) صلة، والدابة: كل حيوان يدب على وجه الأرض، وقوله: { إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } ، أي هو المتكفل بذلك فضلًا، وهو إلى مشيئته إن شاء رزق، وإن شاء لم يرزق، وقيل: على بمعنى من أي: من الله رزقها، وقال مجاهد : ما جاءها من رزق فمن الله عز وجل، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا. { وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا } ، قال ابن مقسم - ويروى ذلك عن ابن عباس -: مستقرها المكان الذي تأوي إليه، وتستقر فيه ليلا ونهارا، ومستودعها: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: المستقر: أرحام الأمهات والمستودع المكان الذي تموت فيه، وقال عطاء : المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء، ورواه سعيد بن جبير وعلي بن طلحة وعكرمة عن ابن عباس، وقيل: المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر، لقوله تعالى في صفة الجنة والنار: { حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } . { كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } ، أي: كل مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن خلقها.

[7] قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } ، قبل أن خلق السماء والأرض { لِيَبْلُوَكُمْ } ، ليختبركم وهو أعلم، { أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } ، عمل بطاعة الله، وأورع عن محارم الله تعالى. { وَلَئِنْ قُلْتَ } ، يا محمد، { إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } ، يعنون القرآن، وقرأ حمزة والكسائي : (ساحر) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم.
[8] { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ } ، إلى أجل محدود، وأصل الأمة الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى { لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ } ، أي: أي شيء يحبسه؟ يقولونه استعجالا للعذاب واستهزاء، يعنون أنه ليس بشيء، قال الله تعالى: { أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ } ، يعني العذاب، { لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ } ، لا يكون مصروفا عنهم، { وَحَاقَ بِهِمْ } ، نزل بهم، { مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ، أي: وبال استهزائهم.

[9] قوله تعالى: { وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً } نعمة وسعة، { ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ } ، أي: سلبناها منه، { إِنَّهُ لَيَئُوسٌ } ، قنوط في الشدة، { كَفُورٌ } النعمة.
[10] { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ } ، بعد بلاء أصابه، { لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي } ، زالت الشدائد عني، { إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } ، أشر بطر، والفرح لذة في القلب بنيل المشتهى، والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وذلك منهي عنه .
[11] { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا } ، قال الفراء : هذا استثناء منقطع معناه: لكن الذين صبروا { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } ، فإنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا، { أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ } ، لذنوبهم { وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } ، وهو الجنة.

[12] { فَلَعَلَّكَ } ، يا محمد، { تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ } ، فلا تبلغه إياهم، وذلك أن كفار مكة لما قالوا. { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا } ليس فيه سب آلهتنا هم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع آلهتهم ظاهرا، فأنزل الله تعالى: { فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ } يعني: سب الآلهة، { وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } ، أي: فلعلك يضيق صدرك { أَنْ يَقُولُوا } ، أي: لأن يقولوا, { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ } ينفقه { أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ } يصدقه، قاله عبد الله بن أمية المخزومي، قال الله تعالى: { إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ } ليس عليك إلا البلاغ، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } ، حافظ.

[13] { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } ، بل يقولون اختلقه، { قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } ، فإن قيل: قد قال في سورة يونس: { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } , وقد عجزوا عنه فكيف قال: { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ } , فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهما فيعجز, فيقول: أعطني عشرة دراهم؟ الجواب: قد قيل سورة هود نزلت أولا، وأنكر المبرد هذا, وقال بل نزلت سورة يونس أولا, وقال معنى قوله في سورة يونس: { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } , أي: مثله في الخير عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد, فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد, وإنما هي مجرد البلاغة, { وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ } , واستعينوا بمن استطعتم, { مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } .

[14] { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ } , يا أصحاب محمد، وقيل: لفظه جمع، والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم وحده. { فَاعْلَمُوا } ، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين، وقيل: مع المشركين، { أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ } ، يعني: القرآن، وقيل: أنزله، وفيه علمه، { وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } ، أي: فاعلموا أن لا إله إلا هو، { فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ، لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا.
[15] قوله تعالى: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } ، أي: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا { وَزِينَتَهَا } ، نزلت في كل من عمل عملا يريد به غير الله عز وجل { نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } ، أي: نوف لهم أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها. { وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ } ، أي: في الدنيا لا ينقص حظهم.

[16] { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا } ، أي: في الدنيا، { وَبَاطِلٌ } ، ماحق، { مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فقال مجاهد : أهل الرياء، وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر"، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: "الرياء » (1) .
وقيل: هذا في الكفار، وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة، وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

____
(1) رواه الإمام أحمد في مسنده ج 5 / 428, 429. وفي رواية عند الترمذي في كتاب النذور / 9 / وابن ماجه في الفتن / 16 / بلفظ: «الرياء شرك» . ورواه المصنف في شرح السنة 14 / 324 .

[17] قوله تعالى: { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ } ، بيان، { مِنْ رَبِّهِ } ، قيل: في الآية حذف ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو من كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بينة من ربه النبي صلى الله عليه وسلم، { وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ } ، أي: يتبعه من يشهد له بصدقه، واختلفوا في هذا الشاهد، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام، وقال الحسن وقتادة : هو لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروى ابن جريج عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده، وقال الحسين بن الفضل : هو القرآن ونظمه وإعجازه، وقيل: شاهد منه هو الإنجيل. { وَمِنْ قَبْلِهِ } ، أي: ومن قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: من قبل نزول القرآن. { كِتَابُ مُوسَى } ، أي: كان كتاب موسى، { إِمَامًا وَرَحْمَةً } ، لمن اتبعها، يعني التوراة، وهي مصدقة للقرآن شاهدة للنبي صلى الله عليه وسلم، { أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } ، يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب، { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ }

أي: بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: بالقرآن، { مِنَ الْأَحْزَابِ } ، من الكفار أهل الملل كلها، { فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » (1) . قوله تعالى: { فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ } ، أي. في شك منه، { إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } .
[18] { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، فزعم أن له ولدًا أو شريكًا، أي: لا أحد أظلم منه، { أُولَئِكَ } ، يعني: الكاذبين والمكذبين، { يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } ، فيسألهم عن أعمالهم، { وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ } ، يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو قول الضحاك، وقال قتادة : الخلائق كلهم، { هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } .

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم (153) 1 / 134 والمصنف في شرح السنة 1 / 104 .

[19] { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، يمنعون عن دين الله، { وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } .

[20] { أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ } ، قال ابن عباس : سابقين، قال قتادة : هاربين، وقال مقاتل : فائتين. { فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ } ، يعني أنصارا وأعوانا يحفظونهم من عذابنا، { يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ } ، أي: يزاد في عذابهم، قيل: يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير، واقتداء الأتباع بهم، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب : (يضعف) مشددة العين بغير ألف، وقرأ الباقون: (يضاعف) بالألف مخففة العين. { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } ، الهدى، قال قتادة، صم عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهدى، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله عز وجل أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ } وهو طاعته، وفي الآخرة قال: { فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ }{ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ } .
[21] { أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } ، غبنوا أنفسهم، { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ، يزعمون من شفاعة الملائكة والأصنام.

[22] { لَا جَرَمَ } ، أي: حقًّا، وقيل: بلى، وقال الفراء : لا محالة، { أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } ، يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار.
[23] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا } ، قال ابن عباس : خافوا. وقال قتادة : أنابوا. وقال مجاهد : اطمأنوا. وقيل: خشعوا. وقوله: { رَبِّهِمْ } ، أي: لربهم. { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[24] { مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ } ، المؤمن والكافر، { كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا } ، قال الفراء، لم يقل هل يستوون؛ لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف المؤمن، { أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } ، أي: تتعظون.
[25] قوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب (أني) بفتح الهمزة أي: بأني، وقرأ الباقون بكسرها، أي: فقال إني؛ لأن في الإرسال معنى القول: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

[26] { أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ } ، أي: مؤلم { فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا } أي: فلبث فيهم داعيًا.
[27] { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ } : والملأ هم الأشراف والرؤساء. { مَا نَرَاكَ } ، يا نوح، { إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا } ، آدميًّا، { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا } ، سفلتنا، والرذل: الدون من كل شيء، والجمع أرذل، ثم يجمع على أراذل، مثل كلب وأكلب وأكالب، وقال في سورة الشعراء. { وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } يعني: السفلة، وقال عكرمة : الحاكة والأساكفة، { بَادِيَ الرَّأْيِ } ، قرأ أبو عمرو (بادئ) بالهمز، أي: أول الرأي، يريدون أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكر، ولو تفكروا لم يتبعوك، وقرأ الآخرون بغير همز، أي ظاهر الرأي من قولهم: بدا الشيء إذا ظهر معناه اتبعوك ظاهرًا من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطنًا، قال مجاهد : رأي العين، { وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } .

[28] { قَالَ } ، نوح { يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ } ، بيان، { مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً } أي: هدى ومعرفة، { مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ } ، أي: خفيت والتبست عليكم، وقرأ حمزة والكسائي وحفص (فعميت) عليكم بضم العين وتشديد الميم، أي: شبهت ولبست عليكم. { أَنُلْزِمُكُمُوهَا } ، أي: أنلزمكم البينة والرحمة، { وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } ، لا تريدونها، قال قتادة : لو قدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يلزموا قومهم لألزموا، ولكن لم يقدروا.

[29] قوله: { وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا } ، أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، كناية عن غير مذكور، { إِنْ أَجْرِيَ } ، ما ثوابي، { إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا } ، هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين، { أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ } ، أي: صائرون إلى ربهم في المعاد فيجزي من طردهم، { وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } .

[30] { وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ } ، من يمنعني من عذاب الله، { إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } ، تتعظون.

[31] { وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ } ، فآتي منها ما تطلبون، { وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ } ، فأخبركم بما تريدون، وقيل: إنهم لما قالوا لنوح إن الذين آمنوا بك إنما اتبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح مجيبًا لهم: لا أقول لكم عندي خزائن غيوب الله التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب فأعلم ما يسرونه في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر من إيمانهم، { وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ } ، هذا جواب قولهم: { مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا } . { وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ } ، أي: تحتقرهم وتستصغرهم أعينكم، يعني - المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أراذلنا، { لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا } أي: توفيقًا وإيمانًا وأجرًا، { اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ } ، من الخير والشر مني، { إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } ، لو قلت هذا.
[32] { قَالُوا يا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا } ، خاصمتنا، { فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا } ، من العذاب { إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } .

[33]، { قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ } ، يعني: بالعذاب، { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } .
[34] { وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي } ، أي: نصيحتي، { إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ } ، يضلكم، { هُوَ رَبُّكُمْ } ، له الحكم والأمر { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ، فيجزيكم بأعمالكم.
[35] { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني نوحًا عليه السلام، وقال مقاتل : يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم. { قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي } ، أي: إثمي ووبال جرمي، والإجرام: كسب الذنب. { وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } ،لا أؤاخذ بذنوبكم.
[36] قوله تعالى: { وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ } ، فلا تحزن، { بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } فإني مهلكهم، ولا منقذ منهما، فحينئذ دعا نوح عليهم: فقال { رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } فأوحى الله تعالى إليه:

[37] { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } ، أي: بأمرنا. { وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } ، بالطوفان، قيل معناه لا تخاطبني في إمهال الكفار، فإني حكمت بإغراقهم، وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان، وامرأتك واعلة؛ فإنهما هالكان مع القوم.

[38] قوله تعالى: { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } ، فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك، ولها عن قومه، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره، وجعل قومه يمرون به -وهو في عمله- ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة، قوله تعالى: { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ } ، وذلك أنهم كانوا يقولون: إن هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارا، وروي أنهم كانوا يقولون له: يا نوح ماذا تصنع؟ فيقول أصنع بيتا يمشي على الماء، فيضحكون منه، { قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ } ، إذا عاينتم عذاب الله، { كَمَا تَسْخَرُونَ } ، فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبي؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني

إن تستجهلوني فإني أستجهلكم إذا نزل العذاب بكم، وقيل: معناه إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم.
[39] { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ } ، يهينه، { وَيَحِلُّ عَلَيْهِ } ، يجب عليه، { عَذَابٌ مُقِيمٌ } ، دائم.

[40] { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا } ، عذابنا، { وَفَارَ التَّنُّورُ } ، اختلفوا في التنور، قال عكرمة والزهري : هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح : إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة، وروي عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: فار التنور أي: طلع الفجر ونور الصبح، وقال الحسن ومجاهد والشعبي : إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين، والفوران: الغليان. قوله تعالى: { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا } ، أي: في السفينة، { مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } ، الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يقال لكل واحد منهما زوج، يقال: زوج خف وزوج نعل، والمراد بالزوجين هنا: الذكر والأنثى، قرأ حفص ههنا وفي سورة المؤمنين: مِنْ كُلٍّ بالتنوين أي: من كل صنف زوجين اثنين، ذكره تأكيدًا. { وَأَهْلَكَ } ، أي: واحمل أهلك، أي: ولدك وعيالك، { إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } ، بالهلاك يعني امرأته واعلة، وابنه كنعان، { وَمَنْ آمَنَ } يعني: واحمل من آمن بك، كما قال الله تعالى: { وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } ، واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي : لم يكن في السفينة إلا

ثمانية، نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام ويافث، ونساؤهم: وقال الأعمش : كانوا سبعة: نوح وثلاثة بنين له وثلاث كنائن له، وقال ابن إسحاق : كانوا عشرة سوى نسائهم، نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعا، وقال مقاتل : كانوا اثنين وسبعين نفرًا رجلًا وامرأة وبنيه الثلاثة ونساءهم، فجميعهم ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء.
[41] { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } ، أي: قال لهم نوح اركبوا فيها، أي في السفينة، { بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص : (مجراها) بفتح الميم (ومرساها) بضمها، وقرأ محمد بن محيصن (مجراها ومرساها) بفتح الميمين من جرت ورست، أي: بسم الله جريها ورسوها، وهما مصدران وقرأ الآخرون: (مجراها ومرساها) بضم الميمين من أجريت وأرسيت، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها وهما أيضًا مصدران، كقوله: { أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا } ، { أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ } ، والمراد منها الإنزال والإدخال والإخراج . { إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }

[42] { وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ } ، والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، شبهه بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء. { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ } ، كنعان، وقال عبيد بن عمير : سام وكان كافرًا، { وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ } ، عنه لم يركب السفينة، { يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا } ، قرأ نافع وابن عامر وحمزة والبزي عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب : (اركب) بإظهار الباء، والآخرون يدغمونها في الميم، { وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } ، فتهلك.

[43] { قَالَ } له ابنه { سَآوِي } ، سأصير وألتجئ، { إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ } ، يمنعني من الغرق، { قَالَ } له نوح { لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } ، أي: من عذاب الله، { إِلَّا مَنْ رَحِمَ } ، قيل: (من) في محل رفع، أي لا مانع

من عذاب الله إلا الله الرحيم، وقيل: (من) في محل النصب، معناه لا معصوم إلا من رحمه الله كقوله: { فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ } أي: مرضية، { وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ } ، فصار، { مِنَ الْمُغْرَقِينَ } ، ويروى أن الماء علا على رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعًا، وقيل: خمسة عشر ذراعًا.
[44] { وَقِيلَ } ، يعني بعدما تناهى أمر الطوفان. { يا أَرْضُ ابْلَعِي } ، اشربي، { مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي } أمسكي، { وَغِيضَ الْمَاءُ } ، نقص ونضب، يقال: غاض الماء يغيض غيضًا إذا نقص، وغاضه الله أي أنقصه، { وَقُضِيَ الْأَمْرُ } وفرغ من الأمر وهلاك القوم { وَاسْتَوَتْ } ، يعني السفينة استقرت، { عَلَى الْجُودِيِّ } ، وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل، { وَقِيلَ بُعْدًا } ، هلاكا، { لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

[45] قوله تعالى: { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي؟ { وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ } ، لا خلف فيه، { وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } ، حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك.

[46] { قَالَ } الله عز وجل { يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } ، قرأ الكسائي ويعقوب : (عمل) بكسر الميم وفتح اللام (غير) بنصب الراء على الفعل، أي: عمل الشرك والتكذيب، وقرأ الآخرون بفتح الميم، ورفع اللام تنوينه، (غير) برفع الراء معناه: أن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح، { فَلَا تَسْأَلْنِي } ، يا نوح، { مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } ، قرأ أهل الحجاز والشام (فلا تسألني) بفتح اللام وتشديد النون، ويكسرون النون غير ابن كثير فإنه يفتحها، وقرأ الآخرون بجزم اللام وكسر النون خفيفة، ويثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش الياء في الوصل دون الوقف، وأثبتها يعقوب في الحالين، { إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } ، واختلفوا في هذا الابن، قال مجاهد والحسن : كان ولد حدث من غير نوح، ولم يعلم بذلك نوح، ولذلك قال: { مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } وقال أبو جعفر الباقر : كان ابن امرأته وكان يعلمه نوح، ولذلك قال { مِنْ أَهْلِي } ولم يقل مني، وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون: إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه، وقال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط

وقوله { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } أي: من أهل الدين وقوله: { إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } ، يعني: تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر.

[47] { قَالَ } نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } .
[48] { قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ } ، انزل من السفينة، { بِسَلَامٍ مِنَّا } أي بأمن وسلامة منا، { وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } ، البركة هي ثبوت الخير، ومنه بروك البعير، وقيل: البركة ههنا هي أن الله تعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة، { وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ } ، أي: على ذرية أمم ممن كان معك في السفينة، يعني على قرون تجيء بعدك من ذرية من معك في السفينة، يعني: من ولدك وهم المؤمنون، قال محمد بن كعب القرظي : دخل فيه كل مؤمن إلى يوم القيامة. { وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ } ، هذا ابتداء، أي: أمم سنمتعهم في الدنيا، { ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

[49] { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ } ، من أخبار الغيب، { نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا } ، من قبل نزول القرآن، { فَاصْبِرْ } ، على القيام بأمر الله، وتبليغ الرسالة، وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح، { إِنَّ الْعَاقِبَةَ } آخر الأمر بالسعادة والنصرة { لِلْمُتَّقِينَ } ، لأهل التقوى.
[50] قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ } ، أي: وأرسلنا إلى عاد، { أَخَاهُمْ هُودًا } ، في النسب لا في الدين، { قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ } ، وحدوا الله { مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } ، ما أنتم في إشراككم إلا كاذبون.
[51] { يا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ } ، أي: على تبليغ الرسالة، { أَجْرًا } ، جعلا، { إِنْ أَجْرِيَ } ، ما ثوابي، { إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي } ، خلقني، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } .

[52] { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } ، أي: آمنوا به، فالاستغفار ههنا بمعنى الإيمان، { ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ } من عبادة غيره، ومن سالف ذنوبكم، { يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا } ، أي: يرسل المطر عليكم متتابعًا مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، { وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ } ، أي: شدة مع شدتكم، وذلك أن الله عز وجل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالًا ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت فيلدن، فتزدادون قوة بالأموال والأولاد، وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة في البدن. { وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ } ، أي: لا تدبروا مشركين.
[53] { قَالُوا يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ } ، أي: ببيان وحجة واضحة على ما تقول، { وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ } ، أي: بقولك، { وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } ، بمصدقين.

[54] { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } ، يعني: لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا اعتراك أي: أصابك بسوء بخبل وجنون، وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل، لا نحمل أمرك إلا على هذا، { قَالَ } ، لهم هود، { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } ، على نفسي، { وَاشْهَدُوا } ، يا قوم، { أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } .
[55] { مِنْ دُونِهِ } ، يعني الأوثان، { فَكِيدُونِي جَمِيعًا } ، فاحتالوا في مكركم وضري أنتم وأوثانكم، { ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي } ، لا تؤخرون ولا تمهلون.

[56] { إِنِّي تَوَكَّلْتُ } ، أي: اعتمدت، { عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا } قال الضحاك : محييها ومميتها، قال الفراء : مالكها والقادر عليها، وقال بعض العلماء: آخذ بناصيتها لا تتوجه إلا حيث يلهمها، وقال القتيبي : يقهرها؛ لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته، وقيل إنما خص الناصية بالذكر؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذلة، فتقول: ناصية فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسروا إنسانا وأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصته ليعتدوا بذلك فخرا عليه، فخاطبهم الله بما يعرفون. { إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، يعني: إن ربي وإن كان قادرا عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلا بالإحسان والعدل، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه، وقيل: معناه إن دين ربي صراط مستقيم، وقيل: شبه إضمار، أي: إن ربي يحثكم ويحملكم على صراط مستقيم.

[57] { فَإِنْ تَوَلَّوْا } ، أي: تتولوا، يعني: تعرضوا عما دعوتكم إليه، { فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ } ، أي: إن أعرضتم يهلككم الله عز وجل، ويستبدل قوما غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه، { وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا } ، بتوليكم وإعراضكم إنما تضرون أنفسكم، وقيل: لا تنقصونه شيئا إذا أهلككم؛ لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء، { إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } ، أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء.
[58] قوله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا } ، عذابنا، { نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } ، وكانوا أربعة آلاف. { بِرَحْمَةٍ } بنعمة { مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } ، وهو الريح التي أهلك بها عادا، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجيناهم في الآخرة.

[59] { وَتِلْكَ عَادٌ } ، رده إلى القبيلة، { جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ } ، يعني: هودًا وحده، ذكره بلفظ الجمع؛ لأن من كذب رسولاً واحدًا كان كمن كذب جميع الرسل، { وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } . واتبع السفلة والسقاط أهل التكبر والعناد، والجبار: المتكبر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق، يقال: عند الرجل يعند عنودًا إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه، وقال أبو عبيدة : العنيد والعاند والعنود والمعاند: المعارض لك بالخلاف.
[60] { وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً } أي أردفوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعنة: هي الإبعاد والطرد عن الرحمة، { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي وفي يوم القيامة أيضا لعنوا كما لعنوا في الدنيا والآخرة، { أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ } أي بربهم، يقال كفرته، وكفرت به كما يقال: شكره وشكرت له، ونصحته، ونصحت له. { أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } ، قيل بعدًا من رحمة الله، وقيل: هلاكًا: منه بعد يبعد بعدًا، والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بعد يبعد بعدًا.

[61] قوله تعالى: { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا } ، أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا في النسب لا في الدين، { قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ } ، وحدوا الله عز وجل، { مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ } ابتدأ خلقكم، { مِنَ الْأَرْضِ } ، وذلك أنهم من آدم ، وآدم خلق من الأرض، { وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } ، أي: جعلكم عمارها وسكانها، وقال الضحاك : أطال عمركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك قوم عاد، وقال مجاهد : أعمركم من العمر، أي: جعلها لكم ما عشتم، وقال قتادة : أسكنكم فيها. { فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ } ، من المؤمنين، { مُجِيبٌ } لدعائهم.

[62] { قَالُوا } ، يعني ثمودًا، { يا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا } ، القول أي: كنا نرجو أن تكون سيدًا فينا. وقيل: كنا نرجو أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عز وجل، وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا: { أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } ، من الآلهة { وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } ، موقع للريبة والتهمة، يقال: أربته إرابة إذا فعلت به فعلًا يوجب له الريبة.

[63] { قَالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً } ، نبوة وحكمة، { فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ } ، أي: من يمنعني من عذاب الله، { إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } ، قال ابن عباس : معناه ما تزيدونني غير بصارة في خسارتكم، قال الحسين بن الفضل : لم يكن صالح عليه السلام

في خسارة حتى قال: فما تزيدونني غير تخسير، وإنما المعنى ما تزيدونني بما تقولون من الفحش إلا نسبتي إياكم إلى الخسارة، والتفسيق والتفجير في اللغة هو: النسبة إلى الفسق والفجور، وكذلك التخسير هو: النسبة إلى الخسران.

[64] { وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } ، نصب على الحال والقطع، وذلك أن قومًا طلبوا منه أن يخرج ناقة عشراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولدا مثلها، وقد بيناه في سورة الأعراف، فهذا معنى قوله: { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ } ، من العشب والنبات فليست عليكم مؤنتها، { وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } ، ولا تصيبوها بعقر، { فَيَأْخُذَكُمْ } ، إن قتلتموها، { عَذَابٌ قَرِيبٌ } .
[65] { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ } لهم صالح، { تَمَتَّعُوا } ، عيشوا، { فِي دَارِكُمْ } ، أي: في دياركم، { ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } ، ثم تهلكون، { ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } ، أي: غير كذب، روي أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون اليوم الأول ووجوهكم مصفرة، وفي اليوم الثاني محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

[66] قوله تعالى: { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } ، بنعمة منا، { وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ } ، أي: من عذابه، وهو أنه قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي خزي يومئذ ، وعذاب يومئذ بفتح الميم. وقرأ الباقون بالكسر. { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } .
[67] { وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ } ، وذلك أن جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعًا، وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم، وإنما قال: أخذ والصيحة مؤنثة؛ لأن الصيحة بمعنى الصياح. { فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } ، صرعى هلكى.
[68] { كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا } ، يقيموا ويكونوا، { أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ } ، قرأ حمزة وحفص ويعقوب : (ثمود) غير منون، وكذلك في سورة الفرقان والعنكبوت والنجم، وافق أبو بكر في النجم، وقرأ الباقون بالتنوين، وقرأ الكسائي : لثمود بخفض الدال والتنوين، والباقون بنصب الدال، فمن جره فلأنه اسم مذكر، ومن لم يجره جعله اسمًا للقبيلة.

[69] قوله تعالى: { وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى } ، أراد بالرسل الملائكة عليهم السلام بالبشرى بالبشارة بإسحاق ويعقوب، وقيل: بإهلاك قوم لوط، { قَالُوا سَلَامًا } ، أي: سلموا سلامًا، { قَالَ } إبراهيم { سَلَامٌ } ، أي: عليكم سلام: وقيل: هو رفع على الحكاية، كقوله تعالى: { وَقُولُوا حِطَّةٌ } ، وقرأ حمزة والكسائي سلم ههنا وفي سورة الذاريات بكسر السين بلا ألف، قيل: هو بمعنى السلام، كما يقال: حل وحلال وحرم وحرام، وقيل: هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم أي صلح لكم غير حرب. { فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } ، والحنيذ المحنوذ وهو المشوي على الحجارة في خد من الأرض، وكان سمينا يسيل دسما، كما قال في موضع آخر: { فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } : قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر.

[70] { فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ } ، أي: إلى العجل، { نَكِرَهُمْ } ، أنكرهم، { وَأَوْجَسَ } ، أضمر، { مِنْهُمْ خِيفَةً } ، خوفا، قال مقاتل : وقع في قلبه، وأصل الوجوس: الدخول، كان الخوف دخل قلبه، وقال قتادة : وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير، وإنما جاء بشر. { قَالُوا لَا تَخَفْ } ، يا إبراهيم، { إِنَّا } ملائكة الله { أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ } .

[71] { وَامْرَأَتُهُ } سارة بنت هارون بن أحور وهي ابنة عم إبراهيم . { قَائِمَةٌ } من وراء الستر تسمع كلامهم، وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل وإبراهيم جالس معهم. { فَضَحِكَتْ } ، قال مجاهد وعكرمة : ضحكت أي: حاضت في الوقت، تقول العرب: ضحكت الأرنب، أي: حاضت، والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف، واختلفوا في سبب ضحكها، فقيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا لا تخف، وقال السدي : لما قرب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم، وظنهم لصوصًا فقال لهم: ألا تأكلون؟ قالوا: إنا لا نأكل طعامًا إلا بثمن، قال إبراهيم : فإن له ثمنًا، قالوا وما ثمنه؟ قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهم الصلاة والسلام، وقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلًا، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجبًا لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا، وقال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقال مقاتل والكلبي : ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة في بيته وهو فيما بين خدمه وحشمه، وقيل: ضحكت سرورًا بالبشارة، وقال ابن عباس ووهب :

ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكت، وقالت: يا ويلتي أألد وأنا عجوز؟ قوله تعالى: { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ } ، أي: من بعد إسحاق، { يَعْقُوبَ } ، أراد به والدًا لولد فبشرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها، قرأ ابن عامر وحمزة وحفص يعقوب بنصب الباء، أي: من وراء إسحاق يعقوب، وقيل: بإضمار فعل، أي: ووهبنا له يعقوب، وقرأ الباقون بالرفع على حذف حرف الصفة، وقيل: ومن بعد إسحاق يحدث يعقوب، فلما بشرت بالولد ضحكت فصكت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجبًا.

[72] { قَالَتْ يا وَيْلَتَى } ، نداء ندبة وهي كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، أي: يا عجبًا، والأصل يا ويلتاه. { أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ } ، وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد : تسعًا وتسعين سنة. { وَهَذَا بَعْلِي } ، أي: زوجي، سمي بذلك؛ لأنه قيم أمرها، { شَيْخًا } ، نصب على الحال، وكان سن إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد : مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة، { إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ } .

[73] { قَالُوا } ، يعني الملائكة، { أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } ، معناه: لا تعجبي من أمر الله، فإن الله عز وجل إذا أراد شيئًا كان. { رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } ، أي: بيت إبراهيم عليه السلام، قيل: هذا على معنى الدعاء معنى الخير والرحمة والنعمة، والبركات جمع البركة، وهي ثبوت الخير، وفيه

دليل على أن الأزواج من أهل البيت. { إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } ، فالحميد: المحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد الرفعة.

[74] { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ } ، الخوف، { وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى } ، بإسحاق ويعقوب، { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } ، فيه إضمار، أي: أخذ وظل يجادلنا، قيل: معناه يكلمنا؛ لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربه عز وجل، إنما يسأله ويطلب إليه، وقال عامة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة: أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال لهم إبراهيم عند ذلك: إن فيها لوطًا، قالوا، نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، فذلك قول إخبار عن إبراهيم عليه السلام: { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } .
[75] { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } ، قال ابن جريج : وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم

[76] { يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } ، أي: أعرض عن هذا المقال ودع عنك الجدال، { إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ } ، أي: عذاب ربك وحكم ربك، { وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ } ، نازل بهم، { عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } ، أي غير مصروف عنهم.

[77] قوله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا } ، يعني: هؤلاء الملائكة، { لُوطًا } ، على صورة غلمان مرد حسان الوجوه، { سِيءَ بِهِمْ } ، أي: حزن لوط بمجيئهم، يقال: سؤته فسيء، كما يقال: سررته فسر. { وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا } أي: قلبًا، يقال: ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه، وذلك أن لوطًا عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم. { وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } ، أي: شديد كأنه عصب به الشر والبلاء، أي: شد، قال قتادة والسدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية قوم لوط فأتوا لوطًا نصف النهار، وهو في أرض له يعمل فيها، وقيل: إنه كان يحتطب، وقد قال الله تعالى للملائكة: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشى بهم ساعة قال لهم: بلغكم أمر أهل هذه القرية: قالوا: وما أمرهم قال، أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عما يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله، وروي أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمر على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط : إن قومي شر

خلق الله، ثم مر على قوم آخرين: فغمزوا فقال لوط مثله، ثم مر بقوم فقال مثله، ثم مر بقوم آخرين، فقال مثله، فكان كلما قال لوط هذا القوال قال جبريل للملائكة: اشهدوا حتى أتى منزله، وروي: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالًا ما رأيت مثل وجوههم قط.

[78] { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ } ، قال ابن عباس وقتادة : يسرعون إليه، وقال مجاهد : يهرولون وقال الحسن : مشى بين مشيتين، قال شمر بن عطية

: بين الهرولة والجمز. { وَمِنْ قَبْلُ } ، أي: من قبل مجيئهم إلى لوط، { كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } كانوا يأتون الرجال في أدبارهم. { قَالَ } ، لهم لوط حين قصدوا أضيافه، وظنوا أنهم غلمان، { يا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } ، يعني: بالتزويج، وفي أضيافه ببناته، وكان في ذلك الوقت، تزويج المسلمة من الكافر جائزًا كما زوج النبي صلي الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين، وقال الحسين بن الفضل : عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : قوله { بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } ، أراد نساءهم وأضاف إلى نفسه؛ لأن كل نبي أبو أمته، وفي قراءة أبي بن كعب : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم هو أب لهم)، وقيل: ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على التحقيق، فلم يرضوا هذا القول. { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي } ، أي: خافوا الله ولا تخزون في ضيفي،

أي: لا تسوؤني ولا تفضحوني في أضيافي. { أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } ، صالح سديد، وقال عكرمة : رجل يقول لا إله إلا الله، وقال ابن إسحاق : رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.
[79] { قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ } يا لوط، { مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ } ، أي: لسن أزواجًا لنا فنستحقهن بالنكاح، وقيل: معناه ما لنا فيهن من حاجة وشهوة. { وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ } ، من إتيان الرجال.
[80] { قَالَ } ، لهم لوط عند ذلك { لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً } ، أراد قوة البدن والقوة بالأتباع، { أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } ، أي: أنضم إلى عشيرة مانعة، وجواب "لو" مضمر أي: لقتلناكم وحلنا بينكم وبينهم، قال أبو هريرة : ما بعث الله بعده نبيا إلا في منعة من عشيرته، قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسور الجدار، فلما رأت الملائكة ما يلقى لوط بسببهم.

[81] { قَالُوا يا لُوطُ } ، إن ركنك لشديد، { إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ } ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه عز وجل في عقوبتهم، فأذن له، فقام، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم، وأعمى أبصارهم، فصاروا لا يعرفون الطريق، ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منا غدًا؛ يوعدونه، فقالت الملائكة: لا تخف إنا أرسلنا لإهلاكهم، فقال لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم؟ فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا: { أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } ، ثم قالوا، { فَأَسْرِ } ، يا لوط، { بِأَهْلِكَ } ، قرأ أهل الحجاز (فاسر) و (أن اسر) بوصل الألف حيث وقع في القرآن من سرى يسري، وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري، ومعناهما واحد وهو المسير بالليل. { بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ } ، قال ابن عباس : بطائفة من الليل، وقال الضحاك : ببقية، وقال قتادة : بعد مضي أوله، وقيل: إنه السحر الأول. { وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ }

قرأ ابن كثير وأبو عمرو (امرأتك)، برفع التاء على الاستثناء من الالتفات، أي: لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت فتهلك، وكان لوط قد أخرجها معه، ونهى من معه ممن أسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته، فإنها لما سمعت هدة

العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها، وقرأ الآخرون بنصب التاء على الاستثناء من الإسراء أي: فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها، وخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم، وتصديقه قراءة ابن مسعود فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك ولا يلتفت منكم أحد ، { إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ } ، من العذاب، { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ } ، أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط : أريد أسرع من ذلك، فقالوا: { أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } .

[82] قوله: { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا } ، عذابنا، { جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا } ، أي على شذاذها ومسافريها. وقيل: بعدما قلبها أمطر عليها، { حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير (سنك وكل) (1) . فارسي معرب، وقال قتادة وعكرمة : السجيل: الطين، دليله قوله عز وجل: { لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ } ، قال مجاهد : أولها حجر وآخرها طين، وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشددت، وقال الضحاك : يعني الآجر، وقيل: السجيل اسم السماء الدنيا، وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالى: { وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ } . قوله تعالى: { مَنْضُودٍ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد، وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض.

---

(1) هكذا في الأصل وفي طبعة 1343 هـ وطبعة 1459 هـ ومعناه: حجارة وطين، انظر الطبري 30 / 229.

[83] { مُسَوَّمَةً } ، من نعت الحجارة وهي نصب على الحال، ومعناها معلمة: قال ابن جريج : عليها سيما لا تشاكل كل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة : عليها خطوط حمر على هيئة الجزع، وقال الحسن والسدي : كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم، وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به. { عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ } ، يعني: تلك الحجارة، { مِنَ الظَّالِمِينَ } ، أي: من مشركي مكة، { بِبَعِيدٍ } ، وقال قتادة وعكرمة : يعني ظالمي هذه الأمة والله ما أجار الله منهما ظالما بعد، وفي بعض الآثار: "ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة".
[84] قوله عز وجل: { وَإِلَى مَدْيَنَ } ، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين، { أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ } ، أي لا تبخسوا، وهم كانوا يطففون مع شركهم، { إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ } ، قال ابن عباس : موسرين في نعمة، وقال مجاهد : في خصب وسعة، فحذرهم زوال النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة، إن لم يتوبوا. { وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ } ، يحيط بكم فيهلككم.

[85] { وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ } ، أتموهما، { بِالْقِسْطِ } ، بالعدل، وقيل: بتقويم لسان الميزان، { وَلَا تَبْخَسُوا } ، لا تنقصوا؛ { النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } .
[86] { بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذونه بالتطفيف، وقال مجاهد : بقيت الله أي: طاعة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين أن ما عندكم من رزق الله وعطائه. { وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } ، بوكيل، وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنه لم يؤمر بقتالهم.

[87] { قَالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } ، من الأوثان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة، لذلك قالوا هذا، وقال الأعمش : يعني أقراءتك.

{ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ } ، أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الزيادة والنقصان. { إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادوا السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضده فتقول: للديغ سليم وللفلاة مفازة، وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء، وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك، وقيل: هو على الصحة أي: إنك يا شعيب فينا حليم رشيد لا يجمل بك شق عصا قومك ومخالفة دينهم، وهذا كما قال قوم صالح عليه السلام: { قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا } .

[88] { قَالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ } ، بصيرة وبيان، { مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا } ، حلالًا، وقيل: كثيرًا، وكان شعيب عليه السلام كثير المال، وقيل: الرزق الحسن: العلم والمعرفة. { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ } ، أي: ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه. { إِنْ أُرِيدُ } ، ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه، { إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ } ، والتوفيق: تسهيل سبيل الخير والطاعة. { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } ، اعتمدت، { وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } ، أرجع في ما ينزل بي من النوائب.

[89] { وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ } ، لا يحملنكم، { شِقَاقِي } ، خلافي { أَنْ يُصِيبَكُمْ } ، أي: على فعل ما أنهاكم عنه، { مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ } ، من الغرق، { أَوْ قَوْمَ هُودٍ } ، من الريح، { أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ } ، من الصيحة، { وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } ، وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط، وقيل: معناه وما دار قوم لوط منكم ببعيد، وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط .
[90] { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } ، والودود له معنيان، أحدهما: أنه محب للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى الودود أي محبوب للمؤمنين، وجاء في الخبر: إن شعيبا عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام.
[91] { قَالُوا يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ } ما نفهم، { كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ } ، عشيرتك وكان في منعة من قومه، { لَرَجَمْنَاكَ } ، لقتلناك، والرجم: أقبح القتل. { وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا } ، عندنا، { بِعَزِيزٍ } .

[92] { قَالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ } أم كان رهطي أهيب عندكم من الله، أي: إن تركتم قتلي لمكان رهطي فالأولى أن تحفظوني في الله. { وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا } ، أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه، { إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } .
[93] { وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } ، أي: على تؤدتكم وتمكنكم، يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكن. { إِنِّي عَامِلٌ } ، على تمكني، { سَوْفَ تَعْلَمُونَ } ، أينا الجاني على نفسه والمخطئ في فعله، فذلك قوله: { مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ } ، قيل: (من) في محل النصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب، وقيل: محله رفع، تقديره: ومن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره، { وَارْتَقِبُوا } ، وانتظروا العذاب { إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } ، منتظر.

[94] { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ } ، قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم، وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم. { فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } ، ميتين.
[95] { كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا } ، أي: كأن لم يقيموا ولم يكونوا { فِيهَا أَلَا بُعْدًا } ، هلاكا، { لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ } ، هلكت { ثَمُودُ } .
[96] قوله عز وجل: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } ، حجة بينة.
[97] { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } ، بسديد.
[98] { يَقْدُمُ قَوْمَهُ } ، يتقدمهم { يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ } ، فأدخلهم { النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } ، أي: بئس المدخل، والمدخول فيه.

[99] { وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ } ، أي: في هذه الدنيا، { لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ } ، أي: العون المعان، وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان، لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

[100] { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ } ، عامر، { وَحَصِيدٌ } خراب، وقيل: منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف، وحصيد انمحى أثره، وقال مقاتل : قائم يرى له أثر، وحصيد لا يرى له أثر، وحصيد بمعنى محصود.
[101] { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } ، بالعذاب والهلاك، { وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } ، بالكفر والمعصية. { فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ } ، عذاب ربك، { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } ، أي: غير تخسير، وقيل: تدمير.
[102] { وَكَذَلِكَ } ، وهكذا، { أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"، قال: ثم قرأ { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ }» الآية (1) .

---
(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 354 ومسلم في البر والصلة رقم (2583) 4 / 1997 والمصنف في شرح السنة 14 / 358.

[103] قوله عز وجل: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } ، لعبرة، { لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ } يعني: يوم القيامة، { وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ } ، أي: يشهده أهل السماء والأرض.
[104] { وَمَا نُؤَخِّرُهُ } ، أي: وما نؤخر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة، وقرأ يعقوب، وما يؤخره بالياء، { إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ } ، معلوم عند الله.
[105] { يَوْمَ يَأْتِ } ، بإثبات الياء وحذفها، { لَا تَكَلَّمُ } ، أي: لا تتكلم { نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } ، أي: فمنهم من سبقت له الشقاوة، ومنهم من سبقت له السعادة.
[106] قوله: { فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف، وقال الضحاك ومقاتل : الزفير أول نهيق الحمار، والشهيق: آخره إذا ردده في جوفه، وقال أبو العالية : الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر.

[107] { خَالِدِينَ فِيهَا } ، لابثين مقيمين فيها، { مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ } ، قال الضحاك : ما دامت سموات الجنة والنار وأرضها، وكل ما علاك وأظلك فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض، وقال أهل المعاني: هذا عبارة عن التأبيد على عادة العرب، يقولون: لا آتيك ما دامت السموات والأرض، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار، يعنون أبدا قوله: { إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ } ، اختلفوا في هذين الاستثنائين، فقال بعضهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء من غير الجنس؛ لأن الذين أخرجوا من النار سعداء، استثناهم الله من جملة الأشقياء، وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة، وقيل: إلا ما شاء ربك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث، قبل مصيرهم إلى الجنة أو النار يعني هم خالدون في الجنة أو النار إلا هذا المقدار، وقيل: معنى إلا ما شاء ربك: سوى ما شاء ربك، معناه: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء الله من الزيادة على قدر مدة بقاء

السموات والأرض، وذلك هو الخلود فيها، كما تقول: لفلان علي ألف إلا الألفين، أي: سوى الألفين اللتين تقدمتا، وقيل: إلا بمعنى الواو، أي. وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار، وهؤلاء في الجنة، كقوله: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا، أي: ولا الذين ظلموا، وقيل: معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها، ولكنه لا يشاء؛ لأنه حكم لهم بالخلود، وقال الفراء : هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله، كقولك: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه. { إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ } .

[108] { وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص (سعدوا) بضم السين وكسر العين، أي: رزقوا السعادة، وسعدوا: أسعد بمعنى واحد، وقرأ الآخرون بفتح السين قياسا على { شَقُوا } . { فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ } ، قال الضحاك : إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة، قال قتادة : الله أعلم بثنياه. { عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } ، أي: غير مقطوع، قال ابن زيد : أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: { عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } ، لم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

[109] { فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ } ، في شك، { مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ } ؛ أنهم ضلال، { مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ } ، فيه إضمار، أي: كما كان يعبد، { آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ } هو حظهم من الجزاء. { غَيْرَ مَنْقُوصٍ } .
[110] { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } ، التوراة، { فَاخْتُلِفَ فِيهِ } ، فمن مصدق به ومكذب كما فعل قومك بالقرآن، يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ } في تأخير العذاب عنهم، { لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } ، أي: لعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم، { وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } ، موقع في الريبة والتهمة.

[111] { وَإِنَّ كُلًّا } ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر : (وإن كلا)، ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة، والباقون بتشديدها، { لَمَّا } شددها هنا وفي يس والطارق، ابن عامر وعاصم وحمزة، وافق أبو جعفر ههنا، وفي الطارق وفي الزخرف، بالتشديد عاصم وحمزة، والباقون بالتخفيف، فمن شدد قال: الأصل

فيه (وإن كلا) لمن ما، فوصلت من الجارة بما، فانقلبت النون ميما للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت إحداهن، فبقيت لما بالتشديد، و (ما) ههنا بمعنى من هو اسم لجماعة من الناس كما قال تعالى: { فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ } ، أي: من طاب لكم، والمعنى: وإن كلا لمن جماعة ليوفينهم، ومن قرأ بالتخفيف قال: (ما) صلة زيدت بين اللامين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما، والمعنى: وإن كلا ليوفينهم، وقيل (ما) بمعنى من، تقدير: لمن ليوفينهم، واللام في (لما) لام التأكيد التي تدخل على خبر إن، وفي ليوفينهم لام القسم، والقسم مضمر تقديره والله، { لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ } ، أي: جزاء أعمالهم، { إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } .

[112] قوله عز وجل: { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ } ، أي: استقم على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرت، { وَمَنْ تَابَ مَعَكَ } ، أي: من آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب، وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: « قلت، يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: "قل: آمنت بالله ثم استقم » (1) . { وَلَا تَطْغَوْا } لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني، وقيل: معناه: ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرت ونهيت. { إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله صلي الله عليه وسلم آية هي أشد عليه من هذه الآية، ولذلك قال: « شيبتني هود وأخواتها » (2) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال: « إن الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » (3) .

____
(1) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (38) 1 / 65 والمصنف في شرح السنة 1 / 31.
(2) قال في كشف الخفاء ج 2 / 20 رواه ابن مردويه في تفسيره.
(3) (3) الدلجة: هو السير بالليل، والحديث أخرجه البخاري في الايمان 1 / 93 والمصنف في شرح السنة 4 / 49، 50.

[113] قوله عز وجل: { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تميلوا، والركون: هو المحبة والميل بالقلب، وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم، قال السدي : لا تداهنوا الظلمة، وعن عكرمة : لا تطيعوهم، وقيل: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا. { فَتَمَسَّكُمُ } ، فتصيبكم، { النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ } ، أي: أعوان يمنعونكم من عذابه، { ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } .

[114] قوله عز وجل: { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } ، أي: الغداة والعشي، قال مجاهد : طرفا النهار صلاة الصبح والظهر والعصر. { وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ } ، صلاة المغرب والعشاء، وقال مقاتل : صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفا من الليل يعني صلاة العشاء، وقال الحسن : طرفا النهار الصبح والعصر، وزلفا من الليل المغرب والعشاء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طرفا النهار الغداة والعشي، يعني صلاة الصبح والمغرب، قوله: { وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ } ، أي ساعته، واحدتها: زلفة وقرأ أبو جعفر زلفا بضم

اللام. { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } ، يعني إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات، عن ابن مسعود رضي الله عنه « أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلي الله عليه وسلم فأخبره، فأنزل الله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }» قال أبي هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يقول: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (1) . { ذَلِكَ } ، أي:

____

(1) أخرجه مسلم في الطهارة رقم (233) 1 / 209 والمصنف في شرح السنة 2 / 177.

ذلك الذي ذكرنا، وقيل: هو إشارة إلى القرآن، { ذِكْرَى } ، عظة { لِلذَّاكِرِينَ } ، أي لمن ذكره.

[115] { وَاصْبِرْ } يا محمد على ما تلقى من الأذى، وقيل: على الصلاة، نظيره { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } . { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } ، في أعمالهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: المصلين.

[116] قوله عز وجل: { فَلَوْلَا } فهلا، { كَانَ مِنَ الْقُرُونِ } ، التي أهلكناهم، { مِنْ قَبْلِكُمْ } ، الآية للتوبيخ { أُولُو بَقِيَّةٍ } ، أي أولوا تمييز، وقيل أولوا طاعة، وقيل أولوا خير، يقال: فلان ذو بقية إذا كان فيه خير، معناه فهلا كان من القرون من قبلكم من فيه خير ينهي عن الفساد في الأرض؟ وقيل: معناه أولوا بقية من خير، يقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة. { يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ } ، أي يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه جحدا، أي: لم يكن فيهم أولوا بقية. { إِلَّا قَلِيلًا } ، هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلا، { مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ }، وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض. { وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا } ، نعموا، { فِيهِ } والمترف: المنعم، وقال مقاتل بن حيان: خولوا، وقال الفراء : عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا أي: واتبع الذين ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة. { وَكَانُوا مُجْرِمِينَ } ، كافرين.

[117] { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ } ، أي: لا يهلكهم بشركهم، { وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } ، فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضا، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات.

[118] قوله عز وجل: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ } ، كلهم. { أُمَّةً وَاحِدَةً } ، على دين واحد. { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } على أديان شتى من بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك.

[119] { إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ } ، معناه: لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق، فهم لا يختلفون، { وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } ، قال الحسن وعطاء : وللاختلاف خلقهم، وقال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقال أبو عبيدة : الذي أختاره فقول من قال: خلق فريقا لرحمته وفريقا لعذابه، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : وللرحمة

خلقهم، يعني الذين رحمهم، وقال الفراء : خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف، ومحصول الآية أن أهل الباطل مختلفون وأهل الحق متفقون فخلق الله أهل الحق للاتفاق، وأهل الباطل للاختلاف. { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ } ، وتم حكم ربك، { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } .

[120] { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } ، معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أممهم نقصها عليك لنثبت به فؤادك، لنزيدك يقينا ونقوي قلبك، وذلك أن النبي صلي الله عليه وسلم إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر لأذى قومه. { وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ } ، قال الحسن وقتادة : في هذه الدنيا، وقال غيرهما: في هذه السورة، وهذا قول الأكثرين، خص هذه السورة تشريفا، وإن كان قد جاءه الحق في جميع السور. { وَمَوْعِظَةٌ } ، أي: وجاءتك موعظة، { وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } .
[121] { وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } ، أمر تهديد ووعيد، { إِنَّا عَامِلُونَ } .
[122] { وَانْتَظِرُوا } ، ما يحل بنا من رحمة الله، { إِنَّا مُنْتَظِرُونَ } ، ما يحل بكم من نقمة الله.

[123] { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، أي: ما غاب عن العباد فيهما، { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ } ، في المعاد، قرأ نافع وحفص يرجع بضم الياء وفتح الجيم: أي: يرد. وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم، أي يعود الأمر كله إليه حتى لا يكون للخلق أمر. { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } ، وثق به، { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } ، قرأ أهل المدينة والشام وحفص ويعقوب : (تعملون) بالتاء هھنا وفي آخر سورة النمل، وقرأ الآخرون بالياء فيهما، قال كعب : خاتمة التوراة خاتمة سورة هود.

(12) سورة يُوسُفُ
سورة يوسف عليه السلام مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.
[1] { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } ، أي: البين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه، قال قتادة : مبين والله بركته وهداه ورشده، فهذا من بان أي: ظهر. وقال الزجاج : مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام، فهذا من أبان بمعنى أظهر.
[2] { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ } ، يعني الكتاب، { قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ، أي: أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه.

[3] { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ } ، أي نقرأ، { أَحْسَنَ الْقَصَصِ } ، والقاص هو الذي يتبع الآثار، ويأتي بالخبر على وجهه، معناه: نبين لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان، وقيل: المراد منه قصة يوسف عليه السلام خاصة، سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك من الفوائد. { بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } (ما) المصدر، أي: بإيحائنا إليك، { هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ } ، وقد كنت، { مِنْ قَبْلِهِ } ، أي: من قبل وحينا، { لَمِنَ الْغَافِلِينَ } ، لمن الساهين عن هذه القصة لا تعلمها.

[4] قوله عز وجل: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ } ، أي: اذكر إذا قال يوسف لأبيه، ويوسف : اسم عبري، ولذلك لا يجري عليه الصرف، وقيل هو عربي، سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف؟ فقال: الأسف في اللغة: الحزن، والأسيف: العبد، واجتمعا في يوسف عليه السلام فسمي به. { يا أَبَتِ } ، قرأ أبو جعفر وابن عامر (يا أبت)، بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه، والوجه أن أصله يا أبتا بالألف، وهي بدل عن يا ء الإضافة، فحذفت الألف كما تحذف التاء فبقيت الفتحة تدل على الألف كما تبقى الكسرة تدل على الياء عند حذف الياء، وقرأ الآخرون (يا أبت) بكسر التاء في كل القرآن، والوجه أن أصله (1) : يا أبتي، فحذفت الياء تخفيفا واكتفاء بالكسرة؛ لأن باب النداء حذف يدل على ذلك قوله: { يا عِبَادِ فَاتَّقُونِ } ، { إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا } ، أي: نجما من نجوم السماء ونصب الكواكب على التفسير، { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } ، ولم يقل رأيتها إلي ساجدات، والهاء والميم والياء والنون من كنايات من يعقل؛ لأنه لما أخبر عنها بفعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل كقوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّمْلُ

---

(1) في ط دار طيبة: (لأن أصله: يا أبت، والجزم يحرك إلى كسر)

ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ } وكان النجوم في التأويل أخواته، كانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه والقمر أمه، وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا، وقيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر فلما قصها على أبيه:

[5] { قَالَ يا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ } ، وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن إخوته إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان، { فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } ، فيحتالوا في إهلاكك؛ لأنهم لا يعلمون تأويلها فيحسدونك واللام في قوله { لَكَ } صلة، كقوله تعالى: { لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } ، وقيل: هو مثل قولهم نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك. { إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } ، أي: يزين لهم الشيطان ويحملهم على الكيد لعداوته القديمة.

[6] قوله عز وجل: { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ } ، يصطفيك بقوله يعقوب ليوسف عليهما السلام، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصطفيك ربك، { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } ، يريد تعبير الرؤيا، سمي تأويلا؛ لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، والتأويل ما يؤول إليه عاقبة الأمر، { وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ } ، يعني: بالنبوة، { وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ } ، أي: على أولاده، فإن أولاده كلهم كانوا أنبياء، { كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ } ، فجعلهما نبيين، { إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ، وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلة، وقيل: إنجاؤه من الذبح، وقيل: بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير، وقال الحسن البصري : كان بينهما ثمانون سنة، فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن تسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فبغوه وحسدوه.

[7] يقول الله تعالى: { لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ } ، أي: في خبره وخبر إخوته { آيَاتٌ } ، قرأ ابن كثير (آية) على التوحيد أي عظة وعبرة، وقيل: عجب، وقرأ الآخرون: (آيات) على الجمع. { لِلسَّائِلِينَ } ، وذلك أن اليهود سألوا رسول الله صلي الله عليه وسلم عن قصة يوسف عليه السلام، وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر، فذكر لهم قصة يوسف جميعها، فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجبوا منها، فهذا معنى قوله: { آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ } ، أي: دلالة على نبوة رسول الله صلي الله عليه وسلم، وقيل: آيات للسائلين ولمن لم يسأل، كقوله: { سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ } [فصلت: 10]، وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم في الحسد وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة وعلى الرق وعلى اللبث في السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره على فراق يوسف، وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد، وغير ذلك من الآيات.

[8] { إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ } ، اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف، { وَأَخُوهُ } ، بنيامين، { أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا } ، كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة، { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } ، أي: جماعة وكانوا عشرة، وقال الفراء : العصبة هي العشرة فما زاد، وقيل: العصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقال مجاهد : ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين، وقيل: جماعة يتعصب بعضها لبعض لا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط. { إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } ، أي خطأ بين أمر إيثاره يوسف وأخاه علينا، وليس المراد من هذا الضلال، الضلال عن الدين ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه الخطأ في تدبير أمر الدنيا يقولون نحن أنفع في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه من يوسف، فنحن أولى بالمحبة منه فهو مخطئ في صرف محبته إليه.

[9] { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا } ، أي: إلى أرض تبعد عن أبيه، وقيل: في أرض تأكله السباع، { يَخْلُ لَكُمْ } ، يخلص لكم، ويصف لكم { وَجْهُ أَبِيكُمْ } ، عن شغله بيوسف، { وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ } ، من بعد قتل يوسف، { قَوْمًا صَالِحِينَ } ، تائبين أي: توبوا بعدما فعلتم هذا يعف الله عنكم، وقال مقاتل : صالحين يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.
[10] { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ } نهاهم عن قتله وقال: القتل كبيرة عظيمة. { وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ }

أي: في أسفل الجب وظلمته، والغيابة: كل موضع ستر عنك الشيء وغيبه، والجب: البئر غير المطوية؛ لأنه جب، أي: قطع ولم يطو { يَلْتَقِطْهُ } ، يأخذه، والالتقاط أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه الإنسان، { بَعْضُ السَّيَّارَةِ } ، أي: بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا منه، { إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } ، أي: إن عزمتم على فعلكم، قال محمد بن إسحاق : اشتمل فعلهم على جرائم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله

حتى لا ييأس أحد من رحمة الله، وقال بعض أهل العلم: إنهما عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة لهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعون، وكل ذلك كان قبل أن أنبأهم الله تعالى، وسئل أبو عمرو بن العلاء : كيف قالوا (نلعب) وهم أنبياء؟ قال: كان ذلك قبل أن نبأهم الله تعالى، فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضروب من الحيل:

[11] { قَالُوا } ، ليعقوب، { يا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ } ، قال جعفر : (تأمنا) بإشمام، وهو رواية عن نافع؟ وقرأ الباقون: (تأمنا) بإشمام الضمة في النون الأولى المدغمة، وهو إشارة إلى الضمة غير إمحاض؛ ليعلم أن أصله لا تأمننا بنونين على تفعلنا، فأدغمت النون الأولى في الثانية، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم، كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا عليه؟ { وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } قال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أنهم قالوا لأبيهم: { أَرْسِلْهُ مَعَنَا } فقال أبوهم: إني ليحزنني أن تذهبوا به، فحينئذ قالوا: { يا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } ، النصح ههنا هو القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، إنا عاطفون عليه قائمون بمصلحته نحفظه حتى نرده إليك.

[12] { أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا } ، إلى الصحراء، { يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ } ، قرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما وجزم العين في (نرتع)، وقرأ يعقوب: (نرتع) بالنون، (ويلعب) بالياء، وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين في (يرتع) يعني يوسف، وقرأ الآخرون (نرتع) بالنون (ويلعب) بالياء، والرتع هو الاتساع في الملاذ؛ يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته، يريد ونتنعم ونأكل ونشرب ونلهو وننشط، وقرأ أهل الحجاز: (يرتع) بكسر العين، وهو يفتعل من الرعي، ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما أي: نتحارس ويحفظ بعضنا بعضا، وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخبارا عن يوسف، أي: يرعى الماشية كما نرعى نحن. { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } .

[13] { قَالَ } لهم يعقوب، { إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ } ، أي: يحزنني ذهابكم به، والحزن ههنا: ألم القلب بفراق المحبوب، { وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } ، وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام أن ذئبا شد على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثم قال: أخاف أن يأكله الذئب، قرأ ابن كثير إسماعيل وقالون عن نافع وعاصم وابن عامر : (الذئب) بالهمزة، وكذلك أبو عمرو إذا لم يدرج، وحمزة إذا لم يقف، وقرأ الكسائي وورش عن نافع، وأبو عمرو وفي الدرج، وحمزة في الوقف، (الذيب) بترك الهمزة في الهمز، أنه هو الأصل؛ لأنه من قولهم: تذابت الريح إذا جاءت من كل وجه، ويجمع الذئب أذؤبا وذئابا بالهمزة، والوجه في ترك الهمز أن الهمزة خففت فقلبت يا ء لسكونها وانكسار ما قبلها.

[14] { قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } ، عشرة، { إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ } ، عجزة ضعفاء.

[15] { فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا } ، أي: عزموا، { أَنْ يَجْعَلُوهُ } ، يلقوه، { فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ }

هذه الواو زائدة تقديره: أوحينا إليه، كقوله تعالى: { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } { وَنَادَيْنَاهُ } أي: ناديناه، { لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ، أي: أوحينا

إلى يوسف عليه السلام: لتصدقن رؤياك ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا، وهم لا يشعرون، بوحي الله وإعلامه إياه ذلك، قال مجاهد، وقيل: معناه وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف، وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم منكرون، والأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا، وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه، ويبشره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم إنهم ذبحوا أسخلة، وجعلوا دمها على قميص يوسف علية السلام.

[16] { وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } ، قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب، وروي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا قال: فما أصابكم وأين يوسف؟؟
[17] { قَالُوا يا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ } ، أي: نترامى وننتضل، قال السدي : نشتد على أقدامنا. { وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا } ، أي: عند ثيابنا وأقمشتنا. { فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } بمصدق لنا { وَلَوْ كُنَّا } وإن كنا { صَادِقِينَ } ، فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادق؟ قيل معناه إنك تتهمنا في هذا الأمر؛ لأنك خفتنا عليه في الابتداء، واتهمتنا في حقه، وقيل: معناه لا تصدقنا؛ لأنه لا دليل على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله.

[18] { وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ } ، أي: بدم كذب؛ لأنه لم يكن دم يوسف، وقيل: بدم مكذوب فيه ، فوضع المصدر موضع الاسم، وفي القصة: إنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم، { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ } زينت، { لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } ، معناه: فأمري صبر جميل، أو فعلي صبر جميل، وقيل: فصبر جميل أختاره، والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جرع. { وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } ، أي: أستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون.

[19] { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ } ، وهم القوم المسافرون سموا سيارة؛ لأنهم يسيرون في الأرض كانت رفقة من مدين تريد مصر، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريبا من الجب، وكان الجب في قفر بعيد من العمران للرعاة والمارة، وكان ماؤه مالحا فعذب حين ألقي يوسف عليه السلام فيه، فلما نزلوا أرسلوا رجلا من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر، لطلب الماء، فذلك قوله عز وجل. { فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ } والوارد: الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيئ الأرشية والدلاء { فَأَدْلَى دَلْوَهُ } ، أي: أرسلها في البئر، يقال: أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون { قَالَ يا بُشْرَى } ، قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء، والوجه: أن بشراي مضافة إلى يا ء المتكلم وهو منادى مضاف فموضعه نصب، وقرأ الكوفيون: (يا بشرى) بغير يا ء الإضافة على فعل، وأمال الراء حمزة والكسائي وفتحها عاصم وقيل: بشر المستقي أصحابه يقول. أبشروا، { هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ } ، أي أخفوه، { بِضَاعَةً } ، قال مجاهد : أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معهم، وقالوا هذا بضاعة استبضعها بعض أهل الماء

إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة، وقيل: أراد أن إخوة يوسف أسروا شأن يوسف، وقالوا هذا عبد لنا أبق منا، قال الله تعالى: { وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِمَا يَعْمَلُونَ } ، فأتى يهوذا يوسف بالطعام فلم يجده في البئر فأخبر بذلك إخوته فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزول فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا هذا عبد أبق منا، ويقال: إنهم هددوا يوسف حتى لم يعرف حاله، وقال مثل قولهم، ثم باعوه، فذلك قوله عز وجل:

[20] { وَشَرَوْهُ } أي: باعوه، { بِثَمَنٍ بَخْسٍ } ، قال الضحاك ومقاتل والسدي : حرام؛ لأن ثمن الحر حرام، وسمي الحرام بخسا؛ لأنه مبخوس البركة، وعن ابن عباس وابن مسعود : بخس أي زيوف، وقال عكرمة والشعبي : بثمن قليل. { دَرَاهِمَ } ، بدل من الثمن، { مَعْدُودَةٍ } ، ذكر العدد عبارة عن قلتها، وقيل: إنما قال معدودة؛ لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من أربعين درهما، إنما كانوا يعدونها عدا فإذا بلغت أوقية وزنوها، { وَكَانُوا } ، يعني: إخوة يوسف، { فِيهِ } ، أي: في يوسف { مِنَ الزَّاهِدِينَ } ، لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله، وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين؛ لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه، ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف فذهبوا به حتى قدموا مصر، وعرضه مالك على البيع فاشتراه صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز فذلك قوله تعالى:

[21] { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ } ، واسمها راعيل، وقيل: زليخا { أَكْرِمِي مَثْوَاهُ } ، أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة، وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام، وقال قتادة وابن جريج : منزلته. { عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا } ، أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا، { أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } ، أي: نتبناه. { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } ، أي: في أرض مصر، أي. كما أنقذنا يوسف من القتل وأخرجناه من الجب، كذلك مكنا له في الأرض فجعلناه على خزائنها. { وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } أي: مكنا له في الأرض كي نعلمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا. { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ } يفعل ما يشاء لا يغلبه شيء ولا يرد عليه حكم راد، وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام معناه: إن الله مسئول على أمر يوسف بالتدبير والإحاطة، لا يكله إلى أحد حتى يبلغه منتهى علمه فيه. { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }

[22] { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ } ، منتهى شبابه وشدته وقوته ومعرفته { آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا } ، فالحكم: النبوة، والعلم: الفقه في الدين، وقيل: حكما يعني إصابة في القول، وعلما بتأويل الرؤيا، وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم: أن العالم هو الذي يعلم الأشياء والحكيم الذي يعمل بما يوجبه العلم. { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المؤمنين، وعنه أيضاً: المهتدين، وقال الضحاك : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام.

[23] { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ } ، يعني: امرأة العزيز، والمراودة: طلب الفعل، والمراد ههنا أنها دعته إلى نفسها ليواقعها، { وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ } ، أي: أطبقتها، وكانت سبعة، { وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ } ، أي: هلم وأقبل، قرأ أهل الكوفة والبصرة: (هيت لك) بفتح الهاء والتاء جميعا، وقرأ أهل المدينة والشام: (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير : (هيت) بفتح الهاء،

وضم التاء، والوجه أن في هذه الكلمة ثلاث لغات هيت وهيت وهيت، والكل بمعنى هلم، وقرأ السلمي وقتادة : (هيت لك) بكسر الهاء، وضم التاء مهموزا على مثال جئت، يعني تهيأت لك، وأنكره أبو عمرو والكسائي، وقالا: لم يحك هذا عن العرب، والأول هو المعروف عند العرب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني النبي صلي الله عليه وسلم: { هَيْتَ لَكَ } (1) ، قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران، وقعت إلى الحجاز معناها تعال، وقال عكرمة : هي أيضا بالحورانية هلم، وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية، وهي كلمة حث وإقبال على الشيء: قال أبو عبيدة : إن العرب لا تثني (هيت) ولا تجمع، وتؤنث، وإنها صورة واحدة في كل حال. { قَالَ }

____

(1) أخره الحاكم في المستدرك 2 / 346 وصححه على شرط الشيخين.

يوسف لها عند ذلك، { مَعَاذَ اللَّهِ } ، أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه، { إِنَّهُ رَبِّي } يريد أن زوجك قطفير سيدي { أَحْسَنَ مَثْوَايَ } ، أي: أكرم منزلي، هذا قول أكثر المفسرين، وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى يريد أن الله تعالى ربي أحسن مثواي، أي: آواني، ومن بلاء الجب عافاني. { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } ، يعني: إن فعل هذا فخنته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمون، وقيل: لا يفلح الظالمون أي لا يسعد الزناة.

[24] { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا } ، والهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، وزعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام، وقال: تم الكلام عند قوله { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ } ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: { وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } ، على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم،وأنكره النحاة، وقال: إن العرب لا تؤخر (لولا) عن الفعل، فلا تقول: لقد قمت لولا زيد، وهو يريد لولا زيد لقمت، وقيل: همت بيوسف أن يفترشها، وهم بها يوسف أي: تمنى أن تكون له زوجة، وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية؛ لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين أخذ عنهم الدين والعلم، وقال بعضهم: إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر، والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام، وقال بعض أهل الحقائق: الهم همان: هم ثابت، وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل هم امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهم عارض، وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل هم يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل. {

لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } ، اختلفوا في ذلك البرهان، قال قتادة وأكثر المفسرين: إنه رأى صورة يعقوب، وهو يقول له يا يوسف تعمل عمل السفهاء، وأنت مكتوب في الأنبياء، وقال السدي : نودي: يا يوسف تواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لا يطاق، ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع في الأرض لا يستطيع أن يدفع نفسه، وروى عطية عن ابن عباس : في البرهان أنه رأى مثال الملك، وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: البرهان النبوة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل، وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب، فقال لها يوسف : لم فعلت هذا؟ فقالت: استحييت منه أن يراني على المعصية، فقال يوسف : أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا

يفقه؟ فأنا أحق أن أستحي من ربى وهرب، قوله عز وجل: { لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } جواب لولا محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لواقع المعصية.

{ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ } ، فالسوء الإثم، وقيل: السوء القبيح، والفحشاء: الزنا. { إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } ، قرأ أهل المدينة والكوفة: (المخلصين) بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدين، زاد الكوفيون (مخلصا) في سورة مريم عليها السلام ففتحوا، ومعنى (المخلصين) المختارين للنبوة، دليله: { إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ } ، وقرأ الآخرون بكسر اللام، أي: المخلصين لله الطاعة والعبادة.

[25] { وَاسْتَبَقَا الْبَابَ } ، وذلك أن يوسف لما رأى البرهان قام مبادرا إلى باب البيت هاربا، وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه خلفه فجذبته إليها حتى لا يخرج.
{ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ } أي: فشقته { مِنْ دُبُرٍ } ، أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله: { وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ } ، أي: وجدا زوج المرأة قطفير عند الباب جالسا مع ابن عم لراعيل فلما رأته هابته و { قَالَتْ } سابقة بالقول لزوجها { مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا } ، يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله فقالت { إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ } ، أي: يحبس، { أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، أي: ضرب بالسياط، فلما سمع يوسف مقالتها.

[26] { قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي } ، يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت منها، وقيل: ما كان يريد يوسف أن يذكرها، فلما قالت المرأة ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ذكره، فقال: { هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي } . { وَشَهِدَ شَاهِدٌ } ، وحكم حاكم، { مِنْ أَهْلِهَا } ، اختلفوا في ذلك الشاهد، فقال سعيد بن جبير والضحاك : كان صبيا في المهد أنطقه الله عز وجل، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: « تكلم في المهد أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام، » وقيل: كان ذلك الصبي ابن خال (1) .
المرأة . وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : لم يكن صبيًّا ولكنه كان رجلًا حكيمًا ذا رأي . قال السدي : هو ابن عم راعيل فحكم فقال : { إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ } أي : من قدّام ، { فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } .
[27], { وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ } .

____
(1) رواه ابن جرير 16 / 55 والإمام أحمد في المسند 2 / 307 ولم يرفعه وابن حبان في صحيحه ص 40 من موارد الظمآن، وأخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة 2 / 497 وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه محمود شاكر في تعليقه على الطبري.

[28] { فَلَمَّا رَأَى } ، قطفير , { قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ } عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام ، { قَالَ } لها { إِنَّهُ } ، أي : إن هذا الصنيع ، { مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } ، وقيل : إن هذا من قول الشاهد ، ثم أقبل قطفير على يوسف فقال :

[29] { يُوسُفُ } ، أي : يا يوسف ، { أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } أي : عن هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع . وقيل : معناه لا تكترث به فقد بان عذرك وبراءتك ، ثم قال لامرأته ، { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ } ، أي : توبي إلى الله ، { إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } ، من المذنبين . وقيل : إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل ، وأراد بقوله واستغفري لذنبك ، أي : سلي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك ، إنك كنت من الخاطئين ، من المذنبين حتى راودت شابًّا عن نفسه وخنت زوجك ، فلما استعصم كذبت عليه ، وإنما قال : من الخاطئين ولم يقل : من الخاطئات ؛ لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمن يفعل ذلك ، تقديره : من القوم الخاطئين ، كقوله تعالى : { وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ } بيانه قوله تعالى : { إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } .

[30] قوله عز وجل : { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ } ، الآية ، يقول شاع أمر يوسف والمرأة في المدينة مدينة مصر . وقيل : مدينة عين الشمس ، وتحدثت النساء بذلك وقلن : { امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا } ، أي : عبدها الكنعاني ، { عَنْ نَفْسِهِ } ، أي : تطلب من عبدها الفاحشة ، { قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا } ، أي : علقها حبًّا . قال الكلبي : حجب حبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه . وقيل : أحبته حتى دخلها حبه شغاف قلبها ، أي : داخل قلبها . قال السدي : الشغاف جلدة رقيقة على القلب ، يقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب . وقرأ الشعبي والأعرج : (شعفها) بالعين غير المعجمة ، معناه : ذهب الحب بها كل مذهب . ومنه شعف الجبال وهو رءوسها . { إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } ، أي : خطأ ظاهر . وقيل : إنها تركت ما يكون على أمثالها من العفاف والستر .

[31] { فَلَمَّا سَمِعَتْ } ، راعيل { بِمَكْرِهِنَّ } بقولهن وحديثهن ، قاله قتادة والسدي . وقال ابن إسحاق : إنما قلن ذلك مكرًا بها لتريهن يوسف ، وكان وصف لهن حسنه وجماله . وقيل : إنها أفشت إليهن ذلك ، فلذلك سماه مكرًا { أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ } ، قال وهب : اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة منهن هؤلاء اللاتي عيّرنها . { وَأَعْتَدَتْ } ، أي أعدت { لَهُنَّ مُتَّكَأً } أي : ما يتكأ عليه . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد : متكأ أي : طعامًا سماه متكأ ؛ لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكئون على الوسائد ، فسمى الطعام متكأ على الاستعارة . يقال : اتكأنا عند فلان أي : طعمنا . ويقال : المتكأ : ما اتكأت عليه للشراب أو الحديث أو الطعام ، { وَآتَتْ } ، أعطت ، { كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا } ، فكن يأكلن اللحم حزًا بالسكين .

{ وَقَالَتِ } ، ليوسف ، { اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ } ، وذلك أنها كانت أجلسته في مكان آخر ؛ فخرج عليهن يوسف . قال عكرمة : كان فضل يوسف على سائر الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم . وروي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رأيت ليلة أسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر » (1) .
{ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ } ، أعظمنه ، قال أبو العالية : هالهن أمره وبهتن . وقيل : أكبرنه أي : حضن لأجله من جماله . ولا يصح . { وَقَطَّعْنَ } ، أي : حززن بالسكاكين التي معهن ، { أَيْدِيَهُنَّ } ، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج ، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف . قال مجاهد : فما أحسسن إلا بالدم . وقال قتادة : إنهن ابَنَّ أيديهن حتى ألقينها . والأصح كان قطعًا بلا إبانة, { وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا } أي : معاذ الله أن يكون هذا بشرًا ، { مَا هَذَا بَشَرًا }

نصب بنزع حرف الصفة ، أي : ببشر ، { إِنْ هَذَا } أي : ما هذا ، { إِلَّا مَلَكٌ } ، من الملائكة ، { كَرِيمٌ } ، على الله .

(1) قال ابن حجر في الشافي الكافي ص 89 : رواه الثعلبي وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه، والمروي في صحيح مسلم في حديث الإسراء : «فإذا أنا بيوسف إذا هو أعطي شطر الحسن » .

[32] { قَالَتْ } ، يعني راعيل ، { فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ } ، أي : في حبه ، ثم صرحت بما فعلت ، فقالت : { وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } ، أي : امتنع ، وإنما صرحت به لأنها علمت أن لا ملامة عليها منهن وقد أصابهن ما أصابها من رؤيته ، فقلن له : أطع مولاتك . فقالت راعيل : { وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ } ، ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه ، { لَيُسْجَنَنَّ } أي : ليعاقبن بالحبس ، { وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ } ، من الأذلاء . ونون التوكيد تثقل وتخفف ، والوقف على قوله : { لَيُسْجَنَنَّ } بالنون لأنها مشددة ، وعلى قوله (لِيَكُونَا) بالألف لأنها مخففة ، وهي شبيهة نون الإعراب في الأسماء ، كقوله : رأيت رجلًا ، وإذا وقفت : رأيت رجلًا بالألف ، ومثله : { لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ } . فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعدته المرأة .

[33] { قَالَ رَبِّ } ، أي : يا رب ، { السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } ، قيل : كان الدعاء منها خاصة ، ولكنه أضاف إليهن خروجًا من التصريح إلى التعريض . وقيل : إنهن جميعًا دعونه إلى أنفسهن . قرأ يعقوب وحده : بفتح السين . وقرأ الآخرون بكسرها . واتفقوا على كسر السين في قوله : { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ } . وقيل : لو لم يقل السجن أحبُّ إليَّ لم يبتل بالسجن ، والأولى بالمرء أن يسأل الله العافية . قوله تعالى : { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ } ، أمل إليهن وأتابعهن ، يقال : صبا فلان إلى كذا يصبوا صبوًا وصبوا وصبوة إذا مال واشتاق إليه . { وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ } ، فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنبًا يرتكبه عن جهالة .
[34] { فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } , السميع لدعائه العليم بمكرهن .

[35] { ثُمَّ بَدَا لَهُمْ } ، يعني للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض ، ثم بدا له بأن يحبسوه . { مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ } ، الدالة على براءة يوسف من قدِّ القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن . { لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ } إلى مدة يرون فيه رأيهم . وقال عطاء : إلى أن تنقطع مقالة الناس . قال عكرمة : سبع سنين . وقال الكلبي : خمس سنين . قال السدي : وذلك أن المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم أني راودته عن نفسه ، فإما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر إلى الناس ، وإما أن تحبسه ، فحبسه ، وذُكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرًا ليوسف عليه السلام من همه بالمرأة .

[36] قوله تعالى : { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ } وهما غلامان كانا للريان بن الوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر ، أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه ، غضب الملك عليهما فحبسهما . وكان السبب

فيه أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فضمنوا لهذين مالًا ليسما الملك في طعامه وشرابه ، فأجاباهم ، ثم إن الساقي نكل عنه ، وقبل الخباز الرشوة فسم الطعام ، فلما أحضر الطعام والشراب ، قال الساقي : لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم ، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقي : اشرب فشربه فلم يضره ، وقال للخباز : كل من طعام ، فأبى فجرب ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت ، فأمر الملك بحبسهما, وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول : إني أعبر الأحلام ، فقال أحد الفتيين لصاحبه : هلم فلنجرب هذا العبراني ، فتراءيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا ، قال ابن مسعود : ما رأيا شيئًا وإنما تحالما ليجربا يوسف ، وقال قوم : بل كانا رأيا حقيقة ، فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما ، فذكر أنهما غلامان للملك وقد حبسهما ، وقد رأيا رؤيا قد غمتهما ،

فقال يوسف : قصا علي ما رأيتما ، فقصا عليه { قَالَ أَحَدُهُمَا } ، وهو صاحب الشراب ، { إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا } ، أي : عنبًا سمى العنب خمرًا باسم ما يئول إليه ، كما يقال : فلان يطبخ الآجر أي : يطبخ اللبن للآجر . وقيل : الخمر العنب بلغة عمان ، وذلك أنه قال : إني رأيت كأني في بستان ، فإذا أنا بأصل حبلة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه . { وَقَالَ الْآخَرُ } ، وهو الخباز { إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ } ، وذلك أنه قال : إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز والألوان من الأطعمة وسباع الطير ينهشن وينهبن منه .
{ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ } ، أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يئول إليه أمر هذه الرؤيا . { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } ، أي : العالمين بعبارة الرؤيا ، والإحسان بمعنى العلم . وروي أن الضحاك بن مزاحم سئل عن قوله : (إنا نراك من المحسنين) ، ما كان إحسانه ؟ قال : كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه ، وإذا ضاق عليه المجلس وسع له وإذا احتاج إلى شيء جمع له شيئًا ، وكان مع

هذا يجتهد في العبادة ، ويقوم الليل كله للصلاة . وقيل : إنه لما دخل السجن وجد فيه قومًا قد اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يسليهم وجعل يقول : أبشروا واصبروا تؤجروا ، فيقولون بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك ، لقد بورك لنا في جوارك فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبر لهما ما سألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره في إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد .

[37] { قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } ،قيل : أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما { إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ } ، في اليقظة ، وقيل : أراد به في اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه ، تطعمانه وتأكلانه إلا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما ، { قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } ، قبل أن يصل إليكما ، وأي طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم ، فهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال : { وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ } ، فقالا : هذا من فعل العرافين والكهنة, فمن أين لك هذا العلم ؟ فقال : ما أنا بكاهن وإنَّما { ذَلِكُمَا } ، العلم, { مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } ، وتكرار (هم) على التأكيد .

[38] { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } , أظهر أنه من أولاد الأنبياء { مَا كَانَ لَنَا } ، ما ينبغي لنا { أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } , معناه : أن الله قد عصمنا من الشرك { ذَلِكَ } ، التوحيد والعلم ، { مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ } ، ما بين لهم من الهدى ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } ، ثم دعاهما إلى الإسلام فقال :

[39] { يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ } جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه ، كما يقال لسكان الجنة أصحاب الجنة ولسكان النار أصحاب النار { أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ } ، أي : آلهة شتى هذا من ذهب وهذا من فضة ، وهذأ من حديد وهذا أعلى وهذا أوسط وهدأ أدنى ، متباينون لا تضر ولا تنفع ، { خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } ، الذي لا ثاني له ، القهار : الغالب على الكل ، ثم بين عجز الأصنام فقال :

[40] { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ }

أي : من دون الله ، وإنما ذكر بلفظ الجمع وقد ابتدأ الخطاب للاثنين لأنه أراد جميع أهل السجن ، وكل من هو على مثل حالهما من أهل الشرك ، { إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا } آلهة وأرباباً خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء { أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } حجة وبرهان ، { إِنِ الْحُكْمُ } ، ما القضاء والأمر والنهي ، { إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } ، أي : المستقيم ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } ، ثم فسَّر رؤياهما فقال :

[41] { يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا } ، وهو صاحب الشراب ، { فَيَسْقِي رَبَّهُ } ، يعني الملك { خَمْرًا } ، والعناقيد الثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة أيام ، ويرد إلى منزلته التي كان عليها ، { وَأَمَّا الْآخَرُ } ، يعني : صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام ، والسلال الثلاث الثلاثة أيام يبقى في السجن ، ثم يخرجه فيأمر به ، { فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ } ، قال ابن مسعود : لما سمعا قول يوسف قالا : ما رأينا شيئًا إنما كنا نلعب ، قال يوسف : { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } أي : فرغ من الأمر الذي عنه تسألان ، ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتكما به ، رأيتما أو لم تريا .

[42] { وَقَالَ } يعني : يوسف عند ذلك ، { لِلَّذِي ظَنَّ } ، علم { أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا } وهو الساقي ، { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } ، يعني : سيدك الملك ، وقل له : إن في السجن غلامًا محبوسًا ظلمًا طال حبسه { فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ } ، قيل : أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف للملك تقديره : فأنساه الشيطان ذكره لربه . وقال ابن عباس وعليه الأكثرون : أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه حين ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق ، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان (1) .

{ فَلَبِثَ } فمكث, { فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } واختلفوا في معنى البضع ، فقال مجاهد : ما بين الثلاث إلى السبع . وقال قتادة : ما بين الثلاث إلى التسع . وقال ابن عباس ما دون العشرة . وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين ، وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشر سنة .

[43] { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ } ، فقال لهم : { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } .

---

(1) لقد رد الإمام اللغوي المفسر أبو حيان الأندلسي في تفسيره « البحر

المحيط » ج 5 / 311 هذا الوجه في إعادة ضمير فأنساه على يوسف ، فقال : « وقيل : الضمير في أنساه عائد على يوسف ، ورتبوا على ذلك أخبارًا لا تليق نسبتها إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » .

[44] { قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ } أخلاط أحلام مشتبهة أهاويل واحدها ضغث, وأصله الحزمة من أنواع الحشيش ، والأحلام جمع الحلم ، وهو الرؤيا ، والفعل منه حلمت أحلم بفتح اللام في الماضي وضمها في الغابر حُلُمًا وحُلْمًا ، مثقلاً ومخففًا . { وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ } .
[45] { وَقَالَ الَّذِي نَجَا } ، من القتل ، { مِنْهُمَا } ، من الفتيين وهو الساقي ، { وَادَّكَرَ } أي : تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك ، { بَعْدَ أُمَّةٍ } ، أي : بعد حين وهو سبع سنين . { أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ } ، وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك ، وقال : إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا ، { فَأَرْسِلُونِي } ، وفيه اختصار تقديره : فأرسلني أيها الملك إليه ، فأرسله فأتى السجن . قال ابن عباس : ولم يكن السجن في المدينة .

[46] فقال : { يُوسُفُ } يعني : يا يوسف ، { أَيُّهَا الصِّدِّيقُ } ، والصديق الكثير الصدق ، { أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يا بِسَاتٍ } ، فإن الملك رأى هذه الرؤيا ، { لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ } ، أهل مصر ، { لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } ، تأويل الرؤيا . وقيل : لعلهم يعلمون منزلتك في العلم ، فقال لهم يوسف معبرًا ومعلمًا ، أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخاصيب ، والبقرات العجاف والسنبلات ، فالسنون المجدبة ، فذلك قوله تعالى إخبارًا عن يوسف :

[47] { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا } ، هذا خبر بمعنى الأمر ، يعني : ازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة ، والدأب : العادة . وقيل : بجد واجتهاد . وقرأ عاصم برواية حفص : (دَأَبًا) بفتح الهمزة ، وهما لغتان ، يقال : دأبت شي الأمر أدأب ودأبًا إذا اجتهدت فيه . { فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ } ، أمرهم بترك الحنطة في السنبلة لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد ، { إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ } ، أي : تدرسون قليلاً للأكل ، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة .
[48] { ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ } . سمى السنين المجدبة شدادًا لشدتها على الناس ، { يَأْكُلْنَ } ، أي : يفنين ويهلكن ، { مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ } ، أي : يؤكل فيهن ما أعددتم لهن من الطعام ، أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع { إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ } تحرزون وتدخرون للبذر .

[49] { ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ } ، أي : يمطرون من الغث ، وهو المطر . وقيل : ينقذون ، من قول العرب : استغثت فلانًا فأغاثني ، { وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } ، قرأ حمزة والكسائي : (تعصرون) ، بالتاء لأن الكلام كله على الخطاب ، وقرأ الآخرون بالياء ردًّا إلى الناس ، ومعناه : يعصرون العنب خمرًا والزيتون زيتًا والسمسم دهنًا وأراد به كثرة النعيم والخير . وقال أبو عبيدة : يعصرون أي ينجون من الكروب والجدب والعصر والعصرة النجا والملجأ .

[50] { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ } ، وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه ، وعرف الملك أن الذي قاله كائن ، قال ائتوني به ، { فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ } ، وقال له : أجب الملك ، أبى أن يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته ثم ، { قَالَ } ، للرسول ، { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ } يعني : سيدك الملك ، { فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } ، ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبًا واحترامًا { إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } أي : إن الله بصنيعهن عالم ، وإنما أراد يوسف بذكرهن ، بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة ، ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره ، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته ، فدعا الملك النسوة وامرأة العزيز .

[51] { قَالَ } ، لهن ، { مَا خَطْبُكُنَّ } ، ما شأنكن وأمركن ، { إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ } ، خاطبهن والمراد امرأة العزيز ، وقيل : إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرته بطاعتها فلذلك خاطبهن جميعًا { قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ } ، معاذ الله ، { مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ } ، خيانة ، { قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ } ظهر وتبين . وقيل : إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فقررنها فأقرت ، وقيل : خافت أن يشهدن عليها فأقرت وقالت : { أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } ، في قوله : هي راودتني عن نفسي ، فلما سمع ذلك يوسف قال :
[52] { ذَلِكَ } أي : ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك إليه ، { لِيَعْلَمَ } ، العزيز ، { أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ } ، في زوجته ، { بِالْغَيْبِ } ، أي : في حال غيبته, { وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } (1) .

---

(1) وذكر بعضهم أن الأليق والأنسب بسياق القصة أن ذلك من قول امرأة العزيز تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب ولا وقع المحذور وإنما راودته فامتنع , فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة - انظر ابن كثير 2 / 482 ودقائق التفسير 2 / 273 وتفسير المنار 12 / 313 .

[53] { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} ، من الخطأ والزلل فأزكيها ، { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } ، بالمعصية { إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي } أي : إلا من رحم ربي فعصمه ، و (ما) بمعنى من ، كقوله تعالى : { فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ } أي : من طاب لكم ، وهم الملائكة عصمهم الله عز وجل فلم يركب فيهم الشهوة . وقيل : إلا ما رحم ربي إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان . { إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، فلما تبين للملك عذر يوسف عليه السلام وعرف أمانته وعلمه اشتاق لرؤيته وكلامه ، وذلك معنى قوله تعالى إخبارًا عنه :
[54] { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي } أي : أجعله خالصًا لنفسي ، { فَلَمَّا كَلَّمَهُ } ، فيه اختصار تقديره : فجاء الرسول يوسف فقال له : أجب الملك الآن ، أعجب الملك ما رأى منه مع حداثة سنه فأجلسه و { قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ } ، المكانة في الجاه ، { أَمِينٌ } ، أي : صادق .

[55] فـ { قَالَ } ، يوسف ، { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ } ، الخزائن جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والأموال ، والأرض أرض مصر ، أي : خزائن أرضك . على خراج مصر ودخله ، { إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } ، أي : حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها . وقيل : حفيظ عليم ، أي : كاتب حاسب . وقيل : حفيظ لما

استودعتني عليم بما وليتني . وقيل : حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من يأتيني . وقال الكلبي : حفيظ بتقديره في السنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع ، فقال له الملك : ومن أحق به منك ؟! فولاه ذلك ، وقال له : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ، ذو مكانة ومنزلة ، أمين على الخزائن .

[56] { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } ، يعني : أرض مصر ملكناه ، { يَتَبَوَّأُ } ، أي : ينزل ، { مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ } ، ويصنع فيها ما يشاء . قرأ ابن كثير وحده : (نشاء) بالنون ردًّا على قوله : (مكنا) وقرأ الآخرون بالياء ردًّا على قوله (يتبوّأ) . { نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا } , أي : بنعمتنا, { مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } , قال ابن عباس ووهب : يعني الصابرين . قال مجاهد وغيره : فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس, فهذا في أمر الدنيا .

[57] { وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ } , ثواب الآخرة , { خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } , فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام بأحسن التدبير ، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة ، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة ، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله ، وقصد الناس مصر من كل النواحي يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكن أحدًا منهم ، وإن كان عظيمًا أكثر من حمل بعير تقسيطًا بين الناس ، وتزاحم الناس عليه فأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدة ، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه .

[58] فذلك قوله تعالى : { وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ } وكانوا عشرة ، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين ، بغور الشام ، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة ، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال : يا بني بلغني أن بمصر ملكًا صالحًا يبيع الطعام ، فتجهزوا له فاذهبوا لتشتروا منه الطعام ، فأرسلهم فقدموا مصر ، { فَدَخَلُوا عَلَيْهِ } ، على يوسف ، { فَعَرَفَهُمْ } يوسف عليه السلام . قال ابن عباس ومجاهد : وعرفهم بأول ما نظر إليهم . وقال الحسن : لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه ، { وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ } ، أي : لم يعرفوه . فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية ، قال لهم : أخبروني من أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم ؟ قالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار ، فقال : لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي ، قالوا : لا والله ما نحن بجواسيس إنما نحن إخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صدّيق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله ، فقال : وكم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا ، قال : فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة ، قال : وأين الآخر ؟ قالوا : عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أمه ،

فأبونا يتسلى به ، فقال : فمن يعلم أن الذي تقولون حق وصدق ؟ قالوا : أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد من أهلها ، فقال لهم يوسف : فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين ، وأنا أرضى بذلك ، قالوا : فإن أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه ، قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم الذي من أبيكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيًا في يوسف ، فخلّفوه عنده . فذلك قوله عز وجل :

[59] { وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ } ، أي : حمل لكل واحد بعيرًا بعدتهم ، { قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ } ، يعني بنيامين ، { أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ } . أي : أتمه ولا أبخس الناس شيئًا فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم ، { وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } ، قال مجاهد : أي : خير المضيفين . وكان قد أحسن ضيافتهم .
[60] { فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي } ، أي : ليس لكم عندي طعام أكيله ، { وَلَا تَقْرَبُونِ } ، أي : لا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك وهو جزم على النهي .

[61] { قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ } ، أي : نطلبه ونسأله أن يرسله معنا ، { وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ } ، ما أمرتنا به .
[62] { وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ } يريد لغلمانه { اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ } ، ثمن طعامهم وكانت دراهم . وقال الضحاك عن ابن عباس : كانت النعال والأدم . وقيل : كانت ثمانية جرب من سويق المقل . والأول أصح { فِي رِحَالِهِمْ } ، أوعيتهم ، وهي جمع رحل ، { لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا } ، انصرفوا ، { إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ، واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله ، قيل : أراد أن يريهم كرمه في رد البضاعة وتقديم الضمان في البر والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود لعلهم يعرفونها أي كرامتهم علينا . وقيل : رأى لؤمًا أخذ الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه فرده عليهم من حيث لا يعلمون تكرمًا . وقال الكلبي : تخوف ألا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى . وقيل : فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة نفيًا للغلط ولا يستحلون إمساكها .

[63] { فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يا أَبَانَا } ، إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلًا من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته ، فقال لهم يعقوب : إذا أتيتم ملك مصر فأقرئوه مني السلام ، وقولوا له : إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ، ثم قال : أين شمعون ؟ قالوا : ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة ، فقال لهم : ولم أخبرتموه ؟ قالوا : إنه أخذنا وقال أنتم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية ، وقصوا عليه القصة ، وقالوا : يا أبانا { مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ } ، قال الحسن : معناه يمنع منا الكيل إن لم تحمل أخانا معنا . وقيل : معناه أعطى باسم كل واحد منا حملًا ويمنع منا الكيل لبنيامين ، والمراد بالكيل الطعام لأنه كان يكال ، { فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا } ، بنيامين ، { نَكْتَلْ } قرأ حمزة والكسائي . (يكتل) بالياء ، يعني : يكيل لنفسه كما نحن نكتال ، وقرأ الآخرون : (نكتل) بالنون : يعني : نكتل نحن وهو الطعام . وقيل : نكتل له ، { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } .

[64] { قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ } ، يوسف { مِنْ قَبْلُ } ، أي : كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم ؟ { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا } قرأ حمزة والكسائي وحفص : (حافظًا) بالألف على التفسير ، كما يقال : هو خير رجلًا ، وقرأ الآخرون : (حفظًا) بغير ألف على المصدر ، يعني : خيركم حفظًا ، يقول : حفظه خير من حفظكم . { وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } .

[65] { وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ } ، الذي حملوه من مصر ، { وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ } ثم الطعام ، { رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يا أَبَانَا مَا نَبْغِي } ، أي : ماذا نبغي وأي شيء

نطلب ؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه السلام إحسان الملك إليهم وحثوه على إرسال بنيامين معهم ، فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة ، قالوا : يا أبانا ما نبغي ، { هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا } ، أي شيء نطلب بالكلام فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام ، أوفى لنا الكيل وردَّ علينا الثمن ، أرادوا تطييب نفس أبيهم ، { وَنَمِيرُ أَهْلَنَا } ، أي : نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم . يقال : مار أهله يمير ميرًا إذا حمل إليهم الطعام من بلد آخر . ومثله امتار يمتار امتيارًا . { وَنَحْفَظُ أَخَانَا } بنيامين ، أي : مما تخاف عليه . { وَنَزْدَادُ } , على أحمالنا ، { كَيْلَ بَعِيرٍ } ، أي : حمل بعير يكال لنا من أجله ؛ لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير ، { ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ } ، أي : ما حملناه قليل لا يفينا وأهلنا . وقيل : معناه نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير لا مؤنة فيه ولا مشقة .

[66] { قَالَ } لهم يعقوب ، { لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ } ، تعطون { مَوْثِقًا } ، أي : ميثاقًا وعهدًا ، { مِنَ اللَّهِ } ، والعهد الموثق : المؤكد بالقسم . وقيل : المؤكد بإشهاد الله على نفسه { لَتَأْتُنَّنِي بِهِ } ، وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام اليمين ، { إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } ، قال مجاهد : إلا أن تهلكوا جميعًا . وقال قتادة : إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك . وفي القصة : أن الأخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا أشد الجهد ، فلم يجد يعقوب بدًا من إرسال بنيامين معهم . { فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ } ، أعطوه عهودهم ، { قَالَ } ، يعني : يعقوب ، { اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } ، شاهد . وقيل : حافظ . قال كعب : لما قال يعقوب { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ، قال الله عز وجل : « وعزتي لأردن عليك كليهما بعدما توكلت عليَّ .

» [67] { وَقَالَ } ، لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده ، { يا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ } وذلك أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا أعطوا جمالًا وقوة وامتداد قامة ، وكانوا ولد رجل واحد ، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم لئلا يصابوا بالعين ، فإن العين حق ، وجاء في الأثر : « إن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر » (1) .
وعن إبراهيم النخعي أنه قال : ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرق . والأول أصح . ثم قال : { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } ، معناه : إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين ، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع عن القدر, { إِنِ الْحُكْمُ } ، ما الحكم ، { إِلَّا لِلَّهِ } ، هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله ، { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } اعتمدت ، { وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } .

---

(1) رواه الإمام مالك في الموطأ في كتاب العين ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ج 3 / 447 ، بلفظ : (إن العين حق) .

[68] { وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ } أي : من الأبواب المتفرقة . وقيل : كانت المدينة مدينة الفرماء ولها أربعة أبواب ، فدخلوها من أبوابها ، { مَا كَانَ يُغْنِي } ، يدفع { عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } صدّق الله تعالى يعقوب فيما قال ، { إِلَّا حَاجَةً } ، مرادًا ، { فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا } ، أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى الأمر عليه ، { وَإِنَّهُ } يعني : يعقوب عليه السلام ، { لَذُو عِلْمٍ } ، يعني : كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل ، { لِمَا عَلَّمْنَاهُ } ، أي : لتعليمنا إياه . وقيل : إنه لعامل بما علم . قال سفيان : من لا يعمل

بما يعلم لا يكون عالمًا . وقيل : إنه لذو حفظ لما علمناه ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } ، ما يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم . وقال ابن عباس : لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه .

[69] { وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ } ، قالوا : هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به ، فقال : أحسنتم وأصبتم ، وستجدون جزاء ذلك عندي ، ثم أنزلهم فأكرم منزلتهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحيدًا فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه ، فقال يوسف : لقد بقي أحدكم هذا وحيدًا فأجلسه معه على مائدته فجعل يُواكله فلمّا كان الليل أمر لهم بمثل ، وقال لينم كل أخوين منكم على مثال ، فبقي بنيامين وحده ، فقال يوسف : هذا ينام معي على فراشي ، فنام معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح ، وجعل روبين يقول : ما رأينا مثل هذا ، فلما أصبح ، قال لهم : إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمه إليّ فيكون منزله معي ، ثم أنزلهم منزلًا وأجرى عليهم الطعام ، وأنزل أخاه لأمه ، فذلك قوله تعالى : { آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ } أي : ضم إليه أخاه فلما خلا به قال : { قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ } ، أي : لا تحزن ، { بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، بشيء فعلوه بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، ولا تعلمهم شيئًا مما أعلمتك ، ثم أوفى يوسف لإخوته الكيل وحمل لهم

بعيرًا بعيرًا ولبنيامين بعيرًا باسمه ، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين .

[70] فذلك قوله تعالى : { فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ } ، وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها . قال ابن عباس : كانت من زبرجد . وقال ابن إسحاق : كانت من فضة . وقيل : من ذهب ، وقال عكرمة : كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر ، جعلها يوسف مكيالًا لئلا يكال بغيرها ، وكان يشرب منها . والسقاية والصواع واحد ، جعلت في وعاء طعام بنيامين ، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلًا . وقيل : خرجوا من العمارة ، ثم بعث من خلفهم من استوقفهم وحبسهم . { ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ } ، نادى منادٍ ، { أَيَّتُهَا الْعِيرُ } وهي القافلة التي فيها الأحمال { إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } . قفوا . قيل : قالوه من غير أمر يوسف . وقيل : قالوه بأمره ، وكان هفوة منه . وقيل : قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه ، فلما انتهى إليهم الرسول ، قال لهم : ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلتكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم ؟ قالوا : بلى ، قالوا : وما ذاك ؟ قالوا : سقاية الملك فقدناها ، ولا نتهم عليها غيركم .

[71] فذلك قوله عز وجل : { قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ } ، عطفوا على المؤذن وأصحابه ، { مَاذَا تَفْقِدُونَ } ، ما الذي ضل عنكم . والفقدان : ضد الوجدان .
[72] { قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ } ، من الطعام ، { وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } ، كفيل ، يقوله المؤذن .
[73] { قَالُوا } ، يعني : إخوة يوسف ، { تَاللَّهِ } أي : والله ، وخصت هذه الكلمة بأن أبدلت الواو فيها بالتاء في اليمين دون سائر أسماء الله تعالى .
{ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ } ، لنسرق في أرض مصر ، فإن قيل : كيف قالوا لقد علمتم ؟ ومن أين علموا ذلك ؟ قيل : قالوا قد علمتم ما جئنا

لنفسد في الأرض ، فإنا منذ قطعنا هذا الطريق لم نرزأ أحدًا شيئًا فاسألوا عنَّا مَن مررنا به ، هل ضررنا أحدًا . وقيل : لأنهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم ، قالوا : فلو كنا سارقين ما رددناها . وقيل : قالوا بذلك لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم ، وكانوا إذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم كيلا تتناول شيئًا من حروث الناس ، { وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } .

[74] { قَالُوا } ، يعني : المنادي وأصحابه { فَمَا جَزَاؤُهُ } ، يعني : ما جزاء السارق ، { إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ } في قولكم وما كنا سارقين .
[75] { قَالُوا } ، يعني : إخوة يوسف ، { جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ } ، أي : فالسارق جزاؤه أن يسلم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقّه سَنة ، وكان ذلك سُنّة آل يعقوب في حكم السارق ، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق ، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده ، فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم .
{ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } ، الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير ، فقال الرسول عند ذلك : لا بد من تفتيش أمتعتكم ، فأخذ في تفتيشها . وروي أنه ردهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه .

[76] { فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ } ، لإزالة التهمة ، { قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ } ، فكان يفتش أوعيتهم واحدًا واحدًا { ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ } ، إنما أنّث الكناية في قوله استخرجها ، والصواع مذكر ، بدليل قوله : { وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ } لأنه رد الكناية هاهنا إلى السقاية . وقيل : الصواع يذكر ويؤنث ، فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رءوسهم من الحياء ، وأقبلوا على بنيامين وقالوا : ما الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ؟ ما يزال لنا منكم البلاء متى أخذت هذا الصواع ، فقال بنيامين : بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية ، والله قد وَضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم ، فأخذوا بنيامين رقيقًا ، { كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ } ، والكيد هاهنا جزاء الكيد ، يعني : كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم . وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف : { فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } , فكدنا ليوسف في أمرهم . والكيد من الخلق : الحيلة ، ومن الله : التدبير بالحق . وقيل : كدنا : ألهمنا . وقيل : دبرنا . وقل : أردنا . ومعناه :

صنعنا ليوسف حتى ضم أخاه إلى نفسه ، وحال بينه وبين إخوته . { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ } فيضمه إلى نفسه ، { فِي دِينِ الْمَلِكِ } ، أي : في حكمه . قاله قتادة . وقال ابن عباس : في سلطانه . { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } يعني : إن يوسف لم يكن يتمكن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كدنا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك ، وهو ما أجري على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق ، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ } , بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته . وقرأ يعقوب (يرفع) و(يشاء) بالياء فيهما ، وإضافة درجات إلى (من) في هذه السورة . والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالى ، وقد تقدم ذكره في قوله : (إلا أن يشاء الله) أي : يرفع الله درجات من يشاء . وقرأ الباقون بالنون فيهما ، إلا أن الكوفيين قرءوا : (درجات) بالتنوين ، ومن سواهم بالإضافة ، أي : نرفع به نحن ، والواقع أيضًا هو الله تعالى : { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } قال ابن عباس : فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى فوق كل عالم .

[77] { قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ } ، يريدون أخًا له من أمه يعنون به يوسف ، واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف ، فقال سعيد بن جبير وقتادة : كان لجده أبي أمه صنم يعبده فأخذه سرًّا أو كسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد . وقال مجاهد : إن يوسف جاءه سائل يومًا فأخذ بيضة من البيت فناولها السائل . وقال سفيان ابن عيينة : أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلًا . وقال وهب : كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء ، { فَأَسَرَّهَا } أضمرها { يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ } وإنما أنث الكناية لأنه عين بها الكلمة وهي قوله : { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا } ، ذكرها سرًّا في نفسه ولم يصرح بها ، يريد أنتم شر مكانًا أي : منزلًا عند الله ممن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف ؛ لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية وخيانتكم حقيقة ، { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } ، تقولون .

[78] { قَالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا } يحبه . { فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ } ، بدلًا منه ، { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } ، في أفعالك . وقيل : من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة . وقيل : يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين .

[79] { قَالَ } يوسف ، { مَعَاذَ اللَّهِ } أعوذ بالله ، { أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ } ولم يقل إلا من سرق تحرزًا من الكذب ، { إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ } إن أخذنا بريئًا بمجرم .

[80] { فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ } ، أي : أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه . وقال أبو عبيدة : استيأسوا استيقنوا أن الأخ لا يُرد إليهم . { خَلَصُوا نَجِيًّا } ، أي : خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم . والنجي يصلح للجماعة كما قال هاهنا, ويصلح للواحد كقوله : { وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } ، وإنما جاز للواحد والجمع لأنه مصدر جعل نعتًا كالعدل والزور, ومثله النجوى يكون اسمًا ومصدرًا, ، قال الله تعالى : { وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } ، أي : متناجون . وقال : { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ } ، وقال في المصدر : { إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ } . { قَالَ كَبِيرُهُمْ } ، يعني : في العقل والعلم لا في السن . قال ابن عباس والكلبي : هو يهوذا وهو أعقلهم . وقال مجاهد : هو شمعون ، وكانت له الرئاسة على إخوته . وقال قتادة والسدي والضحاك : هو روبيل ، وكان أكبرهم في السن ، وهو الذي نهى عن قتل يوسف . { أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا } , عهدًا . { مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ } ، قصرتم { فِي يُوسُفَ } واختلفوا في محل (ما) قيل : هو

نصب بإيقاع العلم عليه ، يعني : أنتم تعلموا من قبل تفريطكم في يوسف . وقيل : وهو في محل الرفع على الابتداء وتم الكلام عند قوله (من الله) ثم قال (ومن قبل) هذا تفريطكم في يوسف . وقيل : (ما) صلة أي : ومن قبل هذا فرطتم في يوسف { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ } ، التي أنا بها وهي مصر { حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي } ، بالخروج منها يدعوني ، { أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي } ، برد أخي إليّ أو بخروجي وترك أخي . وقيل : أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأسترد أخي ، { وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } ، أعدل من فصل بين الناس .

[81] { ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ } ، يقول الأخ المحتبس بمصر لإخوته : ارجعوا إلى
أبيكم ، { فَقُولُوا يا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ } ، بنيامين ، { سَرَقَ } وقرأ ابن عباس
والضحاك بضم السين وكسر الراء وتشديدها ، يعني : نُسب إلى السرق ، كما
يقال خونته أي نسبته إلى الخيانة ، { وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا } ، يعني : ما قلنا
هذا إلا بما علمنا فإنا رأينا إخراج الصواع من متاعه . وقيل : معناه وما شهدنا
إلا بما علمنا أي ما كانت منها شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمنا ،
وليست هذه شهادة منا إنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم . وقيل : قال لهم
يعقوب عليه السلام : ما يدري هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم
، فقالوا : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا ، وكان الحكم
ذلك عند يعقوب وبنيه . { وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ } ، قال مجاهد وقتادة . ما
كنا نعلم أن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا ، وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا
حفظه منه سبيل . وعن ابن عباس : ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه
حافظين .
وقال عكرمة : وما كنا للغيب حافظين فلعلها دست بالليل في رحله .

[62] { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } ، أي : أهل القرية وهي مصر { وَالْعِيرَ
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا } ، أي : القافلة التي كنا فيها . وكان صحبهم قوم من كنعان
من جيران يعقوب . قال ابن إسحاق : عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته
أهل تهمه عند أبيهم لما كانوا صنعوا في أمر يوسف فأمرهم أن يقولوا هذه
المقالة لأبيهم . { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } ، فإن قيل : كيف استجاز يوسف أن يعمل
مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ؟
وقيل معنى العقوق : قطيعة الرحم وقلة الشفقة ؟ قيل : قد أكثر الناس فيه ،
والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ، أمره به ليزيد في بلاء يعقوب
فيضاعف له الأجر ويلحقه في الدرجة بآبائه الماضين . وقيل : إنه لم يظهر
نفسه لإخوته لأنه لم يأمن أن يدبروا في أمره تدبيرًا فيكتموه عن أبيه . والأول
أصح .

[83] { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ } ، زينت ، { أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا } ، وفيه اختصار معناه
: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم ، فقال يعقوب : بل سولت
لكم أنفسكم أمرًا ، أي : حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل ، { فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا } ، يعني : يوسف وبنيامين وأخاهم
المقيم بمصر ، { إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ } ، بحزني ووجدي على فقدهم ، { الْحَكِيمُ } ،
في تدبير خلقه .
[84] قوله تعالى : { وَتَوَلَّى عَنْهُمْ } ، وذلك أن يعقوب عليه السلام لما بلغه
خبر بنيامين تناهى حزنه وبلغ جهده ، وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم ، {
وَقَالَ يا أَسَفَى } ، يا حزنا ، { عَلَى يُوسُفَ } والأسف أشد الحزن ، { وَابْيَضَّتْ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ } ، يعني : عمي بصره . قال مقاتل : لم بصر بهما ست سنين
، { فَهُوَ كَظِيمٌ } ، أي : مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه . وقال
قتادة : تردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيرًا . قال الحسن : كان بين خروج
يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عامًا لا تجف عينا يعقوب وما
على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب .

[85] { قَالُوا } ، يعني : أولاد يعقوب ، { تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ } ، أي : لا
تزال تذكر يوسف ، لا تفتر من حبه ، يقال : ما فتىء يفعل كذا أي : ما زال

يفعل ، و(لا) محذوفة من قوله (تفتؤا) يقال : ما فتىء يفعل كذا أي : ما زال ، { حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا } ، قال ابن عباس : دفنًا . وقال مجاهد : الحرض ما دون الموت ، يعني : قريبًا من الموت . وقال ابن إسحاق : فاسدًا لا عقل لك ، والحرض : الذي فسد جسمه وعقله . وقيل : ذائبًا من الهم . ومعنى الآية : حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل . وأصل الحرض : الفساد في الجسم ، والعقل من الحزن والهرم ، أو العشق أو الهم ، يقال : رجل حرض وامرأة حرض ، ورجلان وامرأتان حرض ، ورجال ونساء كذلك ، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ؛ لأنه مصدر وضع موضع الاسم . { أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ } ، أي : من الميتين .

[86] { قَالَ } يعقوب عليه السلام عند ذلك لما رأى غلظتهم { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ } والبث أشد الحزن ، سمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه أي : يظهره ، قال الحسن : بثي أي : حاجتي . وروى أنه دخل على يعقوب جار له وقال : يا يعقوب ما الذي غير حالك مالي أراك قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي ؟ فقال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي ، فقال : قد غفرتها لك ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله . قوله تعالى : { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ، يعني أعلم من حياة يوسف ما لا تعلمون .

[87] { يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا } ، تخبروا واطلبوا الخير ، { مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ } ، والتحسس بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر ، إلا إن التحسس بالحاء في الخير وبالجيم في الشر ، والتحسس هو طلب الشيء بالحاسة . قال ابن عباس : معناه التمسوا { وَلَا تَيْأَسُوا } ، ولا تقنطوا { مِنْ رَوْحِ اللَّهِ } أي : من الرحمة : وقيل : من فرج الله . { إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } .

[88] { فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ } ، وفيه إضمار تقديره : فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا عليه ، { قَالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ } أي : الشدة والجوع ، { وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ } ، أي : قليلة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع فيها وأصل الإزجاء السوق والدفع وقيل : للبضاعة مزجاة لأنها غير نافعة , وإنما تجوز على دفع من أخذها , { فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ } , أي : أعطنا ما كنت تعطينا قبل الثمن الجيد الوافي { وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا } , أي تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا . هذا قول أكثر المفسرين وقال ابن جريج والضحاك : وتصدق علينا برد أخينا إلينا . { إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي } , يثيب, { الْمُتَصَدِّقِينَ } , وقال الضحاك : لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن . وسئل سفيان بن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا عليه الصلاة والسلام ؟ فقال سفيان : ألم تسمع قوله تعالى : { وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } , يريد أن الصدقة كانت حلالاً لهم .

وروي أن الحسن سمع رجلًا يقول : اللهم تصدق عليَّ ، فقال : إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق من يبغي الثواب ، قل : اللهم أعطني أو تفضل عليَّ .
[89] { قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ } ، اختلفوا في

السبب الذي حمل يوسف على هذا القول ، قال ابن إسحاق : ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة فارفض دمعه فباح بالذي كان يكتمه ، وقيل : قاله حين قرأ كتاب أبيه الذي كتب إليه فلم يتمالك البكاء, فقال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذا فرقتم بينهما ، وصنعتم ما صنعتم إذ أنتم جاهلون بما يئول إليه أمر يوسف ؟ وقيل : مذنبون وعاصون . وقال الحسن : إذ أنتم شبان ومعكم جهل الشباب . فإن قيل : كيف قال ما فعلتم بيوسف وأخيه وما كان منهم إلى أخيه شيء وهم لم يسعوا في حبسه ؟ قيل : قد قالوا له في الصاع : ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرًا وقيل : لما كانا من أم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف .

[90] { قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ } ، قرأ ابن كثير وأبو جعفر : (إنك) على الخبر ، وقرأ الآخرون على الاستفهام ، { قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي } ، بنيامين ، { قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا } ، أنعم الله علينا بأن جمع بيننا { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ } ، بأداء الفرائض واجتناب المعاصي ، { وَيَصْبِرْ } ، عما حرم الله عز وجل عليه . قال ابن عباس : يتقي الزنا ويصبر عن العزوبة . وقال مجاهد : يتقي المعصية ويصبر على السجن ، { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } .
[91] { قَالُوا } معتذرين ، { تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا } أي : اختارك الله وفضلك علينا ، { وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ } ، أي : وما كنا في صنيعنا بك إلا مخطئين مذنبين . يقال : خطئ خطأ إذا تعمد ، وأخطأ إذا كان غير متعمد .

[92] { قَالَ } ، يوسف وكان حليمًا ، { لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ } لا تعيير ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم ، { يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ، فلما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه ، فقال : ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا : ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه ، ثم قال :
[93] { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا } ، أي : يعد مبصرًا . وقيل : يأتيني بصيرًا لأنه كان قد دعاه . قال الحسن . لم يعلم أنه يعود بصيرًا إلا بعد أن أعلمه الله عز وجل . وقال الضحاك : كان ذلك القميص من نسج الجنة . عن مجاهد قال : أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه ، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال : ألقوه على وجه أبي يأت بصيرًا ، { وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ }

[94] { وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ } ، أي خرجت من عريش مصر متوجهة إلى كنعان { قَالَ أَبُوهُمْ } أي : قال يعقوب لولد ولده ، { إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ } ، تسفهوني ، وعن ابن عباس : تجهلوني . وقال الضحاك : تهرموني فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله . وقيل : تضعفوني . وقال أبو عبيدة : تضللوني . وأصل الفند الفساد .
[95] { قَالُوا } ، يعني : أولاد أولاده ، { تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ } لفي خطئك السابق من ذكر يوسف لا تنساه ، والضلال هو الذهاب عن الطريق الصواب ، فإن عندهم إن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره .

[96] { فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ } ، وهو المبشر عن يوسف ، قال ابن مسعود : جاء البشير بين يدي العير . قال ابن عباس : هو يهوذا قال : أنا ذهبت بالقميص ملطخًا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأخبره أن ولده حي فأفرحه كما أحزنته . قال ابن عباس : حمله

يهوذا وخرج حافيًا حاسرًا يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتى أباه ، وكانت المسافة ثمانين فرسخًا . وقيل : البشير مالك بن ذعر . { أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ } ، يعني : ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب ، { فَارْتَدَّ بَصِيرًا } فعاد بصيرًا بعد ما كان أعمى وعادت إليه قوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن . { قَالَ } ، يعني : يعقوب عليه السلام ، { أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ، من حياة يوسف أن الله يجمع بيننا . وروى أنه قال للبشير : كيف تركت يوسف ؟ قال : إنه ملك مصر ، فقال يعقوب : ما أصنع بالملك ؟ على أي دين تركته ؟ قال على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة .

[97] { قَالُوا يا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } . مذنبين .
[98] { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } ، قال أكثر المفسرين . أخّر الدعاء إلى السحر وهو الوقت الذي يقول الله تعالى : (هل من داع فأستجيب له) (1) . وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما : سوف أستغفر لكم ربي يعني ليلة الجمعة . وعن الشعبي قال : سوف أستغفر لكم ربي ، قال : أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفر لكم ربي { إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } .

---

(1) يشير إلى الحديث الصحيح في ذلك أخرجه البخاري في التهجد 3 / 29 ومسلم في صلاة المسافرين رقم (758) 1 / 521 .

[99] { فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ } ، أي : ضم إليه ، { أَبَوَيْهِ } ، قال أكثر المفسرين : هو أبوه وخالته ليا ؟ وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين . وقيل : هو أبوه وأمه وكانت حية { وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } ، فإن قيل : فقد قال فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه فكيف قال ادخلوا مصر بعد ما أخبر أنهم دخلوها ؟ وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول ؟ قيل : إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقاهم قبل دخولهم مصر وفي الآية تقديم وتأخير ، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه : سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله . وقيل : الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز لأنهم كانوا لا يدخلون مصر قبله إلا بجواز من ملوكهم, يقول : آمنين من الجواز إن شاء الله, كما قال : { لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } , وقيل : (إن) ها هنا بمعنى إذ, يريد إذ شاء الله , كقوله تعالى : { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } , أي : إذ كنتم مؤمنين .

[100] { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ } , أي : على السرير, أجلسمها . والرفع هو النقل إلى العلو .

{ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } , يعني : يعقوب وخالته وإخوانه وكانت تحية الناس يومئذ السجود, ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض ، وإنما هو الانحناء والتواضع . وقيل : وضعوا الجباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم ، لا على طريق العبادة . وكان ذلك جائزًا في الأمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة . وروي عن ابن عباس أنه قال : معناه خروا لله عز وجل سجدًا بين يدي يوسف . والأول أصح . { وَقَالَ } ، يوسف عند ذلك ، ؟ { يا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا } ، وهو قوله : { إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } . { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي

} ، ربي ، أي : أنعم عليَّ ، { إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ } ، ولم يقل من الجب مع كونه أشد بلاء من السجن استعمالاً للكرم لكيلا يخجل إخوته بعد ما قال لهم : { لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ } ، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم ، لأنه بعد الخروج من الجب صار إلى العبودية والرق ، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك ، ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته وفي

السجن كان مكافأة من الله تعالى لزلة كانت منه . { وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ } ، والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم ، وكانوا أهل بادية ومواشي ، يقال بدا يبدو إذا صار إلى البادية . { مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ } ، أفسد ، { الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي } ، بالحسد والبغض ، { إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ } ، أي : ذو لطف ، { لِمَا يَشَاءُ } وقيل : معناه لمن يشاء . وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق { إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } ، فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله على أن نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حسن العاقبة فقال :

[101] { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ } ، يعني ملك مصر ، والملك : اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير . { وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } ، يعني : تعبير الرؤيا . { فَاطِرَ } ، أي : يا فاطر ، { السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي : خالقهما { أَنْتَ وَلِيِّي } ، أي : معيني ومتولي أمري ، { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا } ، يقول اقبضني إليك مسلمًا ، { وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } ، يريد بآبائي النبيين .
[102] { ذَلِكَ } ، الذي ذكرت { مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ } أي : ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ، { إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ } ، أي : عزموا على إلقاء يوسف في الجب ، { وَهُمْ يَمْكُرُونَ } .
[103] { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ } ، يا محمد ، { وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } ، على إيمانهم . وروي أن اليهود وقريشًا سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قصة يوسف ، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا ، فحزن النبي - صلى الله عليه وسلم - لذلك ، فقيل له : إنهم لا يؤمنون وإن حرصت على إيمانهم .

[104] { وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ } ، أي : على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى ، { مِنْ أَجْرٍ } ، جعل وجزاء ، { إِنْ هُوَ } ، ما هو يعني القرآن ، { إِلَّا ذِكْرٌ } ، عظة وتذكير { لِلْعَالَمِينَ } .
[105] { وَكَأَيِّنْ } ، وكم ، { مِنْ آيَةٍ } ، عبرة ودلالة ، { فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } ، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

[106] { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } ، فكان من إيمانهم إذا سئلوا : من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ، وإذا قيل لهم : من ينزل القطر ؟ قالوا : الله ، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون . وعن ابن عباس أنه قال : إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . وقال عطاء : هذا في الدعاء وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء ، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء ، كما قال الله تعالى : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } الآية ، وقوله : { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } ، وغير ذلك من الآيات .

[107] { أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ } ، أي : عقوبة مجللة . قال مجاهد : عذاب يغشاهم ، نظيره قوله تعالى : { يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ } الآية . قال قتادة : وقيعة . وقال الضحاك : يعني الصواعق والقوارع . { أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } ، فجأة ، { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ، بقيامها . قال ابن عباس : تهيج بالناس وهم في أسواقهم .

[108] { قُلْ } ، يا محمد ، { هَذِهِ } ، الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها ، { سَبِيلِي } ، سنتي ومنهاجي . وقال مقاتل : ديني ، نظيره قوله : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ } أي : إلى دينه . { أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } ، على يقين . والبصيرة : هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل ، { أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } ، أي : ومن آمن بي وصدقني أيضا يدعو إلى الله . هذا قول الكلبي وابن زيد . قال : حق على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ، يذكرون بالقرآن . وقيل : تم الكلام عند قوله : { أَدْعُو إِلَى اللَّهِ } ثم استأنف : { عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } ، يقول : إني على بصيرة من ربي وكل من اتبعني . قال ابن عباس : يعني أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية ، معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن . قال عبد الله بن مسعود : من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، لإقامة دينه ، فاعرفوا

لهم فضلهم ، واتبعوهم على آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . قوله تعالى : { وَسُبْحَانَ اللَّهِ } ، أي : وقل سبحان الله تنزيها له عما أشركوا به . { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .

[109] { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ } ، يا محمد ، { إِلَّا رِجَالًا } ، لا ملائكة ، { نُوحِي إِلَيْهِمْ } ، قرأ أبو جعفر وحفص : (نوحي) بالنون وكسر الحاء ، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء . { مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } ، يعني : من أهل الأمصار دون أهل البوادي لأن أهل الأمصار أعقل من أهل البوادي لغلظهم وجفائهم . { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } ، يعني : هؤلاء المشركين المكذبين ، { فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ } ، آخر أمر ، { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، يعني : الأمم المكذبة فيعتبروا ، { وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا } يقول جل ذكره : هذا فعلنا بأهل ولايتنا وطاعتنا أن ننجيهم عند نزول العذاب ، وما في الدار الآخرة خير لهم ، فترك ما ذكرنا اكتفاء بدلالة الكلام عليه . قوله (ولدار الآخرة) ، قيل : معناه ولدار الحال الآخرة خير . وقيل : هو إضافة الشيء إلى نفسه ، كقوله : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ } ، وكقولهم : يوم الخميس وربيع الآخر { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } فتؤمنون .

[110] { حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا } ، اختلف القراء في قوله : (كذبوا) فقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر : (كذبوا) بالتخفيف ، وكانت عائشة تنكر هذه القراءة . وقرأ الآخرون بالتشديد ، فمن

شدده قال : معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أي أيقنوا- يعني الرسل- أن الأمم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعد إيمانه ، والظن لمعنى اليقين . وهذا معنى قول قتادة . وقال بعضهم : معناه حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومه أن يصدقوهم ، وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم استبطاء النصر . ومن قرأ بالتخفيف قال : معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أي : ظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم في وعيد العقاب . وروي عن ابن عباس . أن معناه ضعف قلوبهم . يعني : وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر ، وكانوا بشرا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا ، ثم تلا : { حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } (جاءهم) أي : جاء الرسل نصرنا . { فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ } ، قرأ

العامة بنونين ، أي : نحن ننجي من نشاء . وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله ، لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة مضمومة ، فيكون محل (من) رفعا على هذه القراءة ، وعلى القراءة الأولى يكون نصبا ، فنجي من نشاء عند نزول العذاب ، وهم المؤمنون المطيعون . { وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا } ، عذابنا ، { عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } ، أي : المشركين .
[111] { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ } , أي : في خبر يوسف وإخوته, { عِبْرَةٌ } عظة, { لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ } يعني : القرآن, { حَدِيثًا يُفْتَرَى } , أي يختلق, { وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي } , أي ولكن كان تصديق الذي, { بَيْنَ يَدَيْهِ } , من التوراة والإنجيل, { وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ } , مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي, { وَهُدًى وَرَحْمَةً } , بيانا ونعمة, { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .

(13) سورة الرعد
[1] { المر } قال ابن عباس : معناه أنا الله أعلم وأرى , { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } , يعني : تلك الأخبار التي قصصتها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتاب المتقدمة ، { وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ } ، يعني : وهذا القرآن الذي أنزل إليك { مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ } أي : هو الحق فاعتصم به ، فيكون محل الذي رفعا على الابتداء والحق خبره, وقيل : محله خفض يعني تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك, ثم ابتدأ الحق يعني ذلك الحق وقال ابن عباس : أراد بالكتاب القرآن , ثم قال : وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } ، قال مقاتل : نزلت في مشركي مكة حين قالوا : إن محمدا يتولد من تلقاء نفسه ، فرد قولهم ثم بين دلائل ربوبيته ، فقال عز من قائل :

[2] { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } يعني : السواري واحدها عمود مثل أديم وأدم وعمد أيضا جمعه مثل رسول ورسل ، معناه نفي العمد أصلا هو الأصح يعني ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } ، علا عليه ، { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } ، ذللها لمنافع خلقه فهما مقهوران, { كُلٌّ يَجْرِي } ، أي : يجريان على ما يريد الله عز وجل ، { لِأَجَلٍ مُسَمًّى } ، أي : إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا . وقال ابن عباس . أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما ينتهيان إليها ولا يجاوزانها ، { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } ، يقضيه وحده ، { يُفَصِّلُ الْآيَاتِ } ، يبين الدلالات ، { لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } ، لكي توقنوا بوعده وتصدقوه .

[3] { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ } ، بسطها ، { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ } ، جبالا ثابتة ، واحدتها : راسية { وَأَنْهَارًا } أي : وجعل فيها أنهارا . { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } ، أي : صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا ، { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } ، أي : يلبس النهار بظلمة الليل ويلبس الليل بضوء النهار { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ، فيستدلون ، والتفكر تصرف القلب في طلب معاني الأشياء .

[4] { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ } ، متقاربات يقرب بعضها من بعض وهي مختلفة هذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت ، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع ، { وَجَنَّاتٌ } ، أي : بساتين { مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ } الصنوان جمع صنو وهو النخلات يجمعهن أصل واحد ، { وَغَيْرُ صِنْوَانٍ } هي النخلة المنفردة بأصلها . وقال أهل التفسير : صنوان مجتمع وغير صنوان متفرق نظيره من الكلام قنوان جمع قنو { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ } قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ماله يسقي بالياء أي : يسقى ذلك كله بماء واحد وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى : { وَجَنَّاتٌ } ولقوله تعالى من بعد { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي } ولم يقل بعضه ، والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام ، { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } ، في الثمر والطعم ، قرأ حمزة والكسائي (ويفصل) بالياء ، لقوله تعالى : { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ } . وقرأ الآخرون بالنون على معنى . ونحن نفضل بعضها على بعض في الأكل ، وجاء في الحديث : { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } . قال الفارسي : كجيد

التمر والدقل والحلو والحامض . قال مجاهد : كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد . قال الحسن : هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم ، كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عز وجل فسطحها فصارت قطعا متجاورة فينزل عليها المطر من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها ، وكل يسقى بماء واحد ، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع ، وتقسو قلوب فتلهو ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ } الذي ذكرت { لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } .

[5] { وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ } العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ومعناه إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق فعجب أمرهم ، وكان المشركون ينكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى ، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء ، فهذا موضع العجب ، وقيل : معناه وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم ما لا يضر ولا ينفع آلهة يعبدونها وهم قد رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم ، أي : فتعجب أيضا من قولهم ، { أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا } ، بعد الموت ، { أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } ، أي : نعاد خلقا جديدا كما كنا قبل الموت قال الله تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ } يوم القيامة { وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

[6] قوله : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } ، الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته ، والسيئة هاهنا هي العقوبة والحسنة العافية ، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلا من العافية استهزاء منهم يقولون :

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . { وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ } ، أي : مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات ، والمثلات جمع المثلة بفتح الميم وضم الثاء مثل صدقة وصدقات . { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } .

[7] { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ } ، أي : على محمد - صلى الله عليه وسلم - { آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } أي : علامة وحجة على نبوته ، قال الله تعالى : { إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ } ، مخوف ، { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } ، أي : لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى ، وقال الكلبي : داع يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة . وقال عكرمه : الهادي محمد - صلى الله عليه وسلم - يقول إنما أنت منذر وأنت هاد لكل قوم أي داع ، وقال سعيد بن جبير : الهادي هو الله تعالى .

[8] قوله تعالى : { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى } ، من ذكر أو أنثى سوي الخلق أو ناقص الخلق واحدا أو اثنين أو أكثر { وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ } ، أي : ما تنقص { وَمَا تَزْدَادُ } ، قال أهل التفسير : غيض الأرحام الحيض على الحمل ، فإذا حاضت الحامل كان نقصانا في الولد ، لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد ، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم . وقيل : إذا حاضت ينتقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرا فإن رأت خمسة أيام دما وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء والزيادة في المدة . وقال الحسن : غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر . وقيل : النقصان السقط ، والزيادة تمام الخلق ، وأقل مدة الحمل ستة أشهر ، فقد يولد المولود لهذه المدة ويعيش { وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ } ، أي : بتقدير وحد لا يجاوزه ولا يقصر عنه .
[9] { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ } ، الذي كل شيء دونه { الْمُتَعَالِ } على كل شيء .

[10] قوله تعالى : { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ } ، أي : يستوي في علم الله المسر بالقول والجاهر به ، { وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ } ، أي : مستتر بظلمة الليل ، { وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } ، أي : ذاهب في سربه ظاهر ، والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق ، قال القتيبي : سارب بالنهار أي متصرف في حوائجه ، قال ابن عباس : هو صاحب ريبة مستخف بالليل فإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم ، وقيل : مستخف بالليل أي ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا كتمته ، وسارب بالنهار أي : متوار داخل في سرب .

[11] { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ } ، أي : لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل ، والتعقيب : العود بعد البدء وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب ، وجمعه معقبة ، ثم جمع الجمع معقبات كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر { مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } ، يعني : من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ، ومن خلفه من وراء ظهره ، { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

} ، يعني : بأمر الله ، أي : يحفظونه بإذن الله ما لم يجيء القدر ، فإذا جاء القدر خلوا عنه . وقيل : يحفظونه من أمر الله أي مما أمر الله به من الحفظ عنه . قال مجاهد : ما من عبد إلا وله ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما منهم شيء يأتيه يريده إلا قال : وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ } ، من العافية والنعمة ، { حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } ، من الحال الجميلة فيعصوا ربهم ، { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا } ، أي : عذابا وهلاكا { فَلَا مَرَدَّ

لَهُ } أي : لا راد له ، { وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } ، أي : ملجأ يلجئون إليه ، وقيل : والٍ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم .
[12] قوله : { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا } ، قيل : خوفا من الصاعقة طمعا في نفع المطر ، وقيل : الخوف للمسافر يخاف منه الأذى أو المشقة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة ، وقيل : الخوف من المطر في غير مكانه وأبانه والطمع إذا كان في مكانه وأبانه ومن البلدان ما إذا مطروا قحطوا وإذ لم يمطروا أخصبوا . { وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ } ، بالمطر . يقال : أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت ، والسحب جمع واحدتها سحابة .

[13] { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ } ، قال ابن عباس : من سمع صوت الرعد فقال : سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى ديته ، وعن عبد الله بن الزبير : أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته { وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ } ، أي : تسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وخشيته { وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ } ، جمع صاعقة وهي العذاب المهلك ينزل من البرق فيحرق من يصيبه ، { فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ } ، يخاصمون ، { فِي اللَّهِ } نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : مم ربك آمن دُرّ أم من يا قوت أم من ذهب ؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته { وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } ، قال علي رضي الله عنه : شديد الأخذ . وقال ابن عباس : شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة . وقال أبو عبيدة : شديد العقوبة . وقيل : شديد المكر . والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة .

[14] { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ } ، أي : لله دعوة الصدق . قال علي رضي الله عنه : دعوة الحق التوحيد . وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عز وجل . { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ } ، أي : يعبدون الأصنام من دون الله تعالى . { لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ } ، أي : لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر . { إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ } ، أي : إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء والقابض على الماء لا يكون في يده شيء ولا يبلغ إلى فيه منه شيء ، كذلك الذين يدعون الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع لا يكون بيده شيء . وقيل : معناه كالرجل العطشان الجالس على شفير البئر يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء ولا يرتفع إليه الماء فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه له ، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم نداؤها ودعاؤها ، وهي لا تقدر على شيء ، وعن ابن عباس : كالعطشان إذا بسط كفيه إلى الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطا كفيه ,

مثل ضربه الله لخيبة الكفار . { وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ } ، أصنامهم ، { إِلَّا فِي ضَلَالٍ } ، يضل عنهم إذا احتاجوا إليه كما قال : { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ، { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ } وقال الضحاك عن ابن عباس : وما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى .
[15] { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا } ، يعني : الملائكة والمؤمنين ، { وَكَرْهًا } ، يعني : المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف . { وَظِلَالُهُمْ } يعني : ظلال الساجدين طوعا وكرها تسجد لله عز وجل طوعا . قال مجاهد : ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظل الكافر يسجد طوعا وهو كاره . { بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } ، يعني إذا سجد بالغدو والعشي يسجد معه ظله ، والآصال : جمع الأصل والأصل جمع الأصيل وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس . وقيل : ظلالهم أي : أشخاصهم بالغدو والآصال بالبكر والعشايا . وقيل : سجود الظل تذليله لما أريد له .

[16] قوله تعالى : { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، أي : خالقهما ومدبرهما فسيقولون الله ، إنهم يقرون بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض إذا أجابوك ، فقل أنت أيضا يا محمد : الله . وروي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا : أجب أنت ، فأمره الله عز وجل فقال : { قُلْ } ، أنت يا محمد ، { اللَّهُ } ، ثم قال الله لهم إلزاما للحجة : { قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } ، معناه : إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السماوات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله, يعني : الأصنام, وهم { لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا } فكيف يملكون لكم ؟ ثم ضرب لهم مثلا فقال : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ، { أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ } أي : كما لا يستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان . { أَمْ جَعَلُوا } ، أي : جعلوا ، { لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ } ، أي : اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم {

قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } .
ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل .

[17] فقال عز وجل : { أَنْزَلَ } يعني الله عز وجل ، { مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } ، يعني المطر ، { فَسَالَتْ } ، من ذلك الماء { أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } ، أي : في الصغر والكبر ، { فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ } ، الذي حدث من ذلك الماء ، { زَبَدًا رَابِيًا } ، الزبد الخبث الذي يظهر على وجه الماء ، رابيا أي عاليا مرتفعا فوق الماء الصافي الباقي هو الحق . والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل . وقيل : قوله أنزل من السماء ماء هذا مثل للقرآن والأودية مثل للقلوب يريد ينزل القرآن ، فتحتمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشك والجهل ، فهذا أحد المثلين والمثل الآخر قوله عز وجل : { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص { يُوقِدُونَ } بالياء لقوله تعالى : { مَا يَنْفَعُ النَّاسَ } ، ولا مخاطبة ها هنا ، قرأ الآخرون بالتاء ومما توقدون ، أي : ومن الذي توقدون عليه النار ، والإيقاد جعل النار تحت الشيء ليذوب ، { ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ } ، أي : لطلب زينة ، وأراد الذهب والفضة لأن الحلية تطلب منهما ، { أَوْ مَتَاعٍ } أي : طلب متاع وهو ما ينتفع به ، وذلك مثل الحديد

والنحاس والرصاص ، والصفر تذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها ، { زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ } أي : إذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء ، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق ، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل ، { فَأَمَّا الزَّبَدُ } ، الذي علا السيل { فَيَذْهَبُ جُفَاءً } أي : ضائعا باطلا ، والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد والقدر إلى جنباته ، يقال : جفا الوادي وأجفأ إذا ألقى غثاءه ، وأجفأت القدر وجفأت إذا غلت وألقت زبدها ، فإذا سكنت لم يبق فيها شيء معناه : إن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل . وقيل : جفاء أي : متفرقا . يقال : جفأت الريح الغيم إذا فرقته وذهبت به ، { وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ } ، يعني : الماء والذهب والفضة والصفر والنحاس ، { فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ } ، أي : يبقى ولا يذهب ، { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } ، جعل الله هذا مثالا للحق والباطل ، يعني أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع والحق كالماء يبقى في القلوب . وقيل : هذا تسلية للمؤمنين ، يعني : أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئا وليس له حقيقة ، وأمر

المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات .
[18] قوله تعالى : { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا } أجابوا ، { لِرَبِّهِمُ } ، فأطاعوه ، { الْحُسْنَى } الجنة ، { وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ } ، أي : لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداء من النار ، { أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ } قال إبراهيم النخعي : سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له منه شيء ، { وَمَأْوَاهُمْ } في الآخرة { جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } ، الفراش ، أي : بئس ما مهد لهم .

[19] قوله تعالى . { أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ } ، فيؤمن به ويعمل بما فيه ، { كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } ، عنه لا يعلمه ولا يعمل به ، قيل : نزلت في حمزة وأبي جهل ، وقيل : في عمار وأبي جهل ، فالأول حمزة أو عمار والثاني أبو جهل ، وهو الأعمى ، أي : لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه . { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ } يتعظ, { أُولُو الْأَلْبَابِ } ذوو العقول .
[20] { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ } بما أمرهم الله تعالى به وفرضه عليهم فلا يخالفونه . { وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } ، وقيل : أراد العهد الذي أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من صلبه .
[21] { وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } ، قيل : أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما ، والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم { وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ } .

[22] { وَالَّذِينَ صَبَرُوا } ، على طاعة الله ، وقال ابن عباس : على أمر الله عز وجل ، وقال عطاء : على المصائب والنوائب . وقيل : عن الشهوات . وقيل : عن المعاصي . { ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ } ، طلب تعظيمه أن يخالفوه ، { ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ } ، يعني يؤدون الزكاة ، { وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يدفعون بالصالح من العمل السيئ من العمل ، وهو معنى قوله : { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } ، وجاء في الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية » (1) .
وقال ابن كيسان : معنى الآية يدفعون الذنب بالتوبة . وقيل : لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير .

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده 5 / 169 بلفظ : «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها» وأشار الحافظ السيوطي في جامعه الصغير إلى تصحيح هذه الرواية ، وذكر أخرى بلفظ : «إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية» رواها الإمام أحمد عن عطاء مرسلا .

وقال القتيبي : معناه إذا سفه عليهم حلموا ، فالسفه : السيئة ، والحلم : الحسنة . وقال قتادة : ردوا عليهم معروفا نظيره قوله تعالى : { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } ، وقال الحسن : إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا { أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } ، يعني الجنة ، أي : عاقبتهم دار الثواب . ثم بين ذلك فقال :
[23] { جَنَّاتُ عَدْنٍ } ، بساتين إقامة ، { يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ } ، قيل : من أبواب الجنة . وقيل : من أبواب القصور .
[24] { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } ، أي : يقولون سلام عليكم . وقيل : يقولون سلمكم الله من الآفات التي تخافون منها . قال مقاتل : يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات معهم الهدايا والتحف من الله عز وجل ، يقولون سلام عليكم { بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } .

[25] { وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } ، هذا في الكفار . { وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } ، أي : يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض . وقيل : يقطعون الرحم ، { وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } ، أي : يعملون بالمعاصي ، { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } ، يعني : النار ، وقيل : سوء المنقلب لأن منقلب الناس دورهم .
[26] قوله تعالى : { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } ، أي : يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، { وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، يعني : مشركي مكة أشروا وبطروا ، والفرح لذة في القلب بنيل المشتهى ، { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ } أي : قليل ذاهب . قال الكلبي : كمثل القصعة والقدح والقدر ينتفع بها ثم تذهب .
[27] { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، من أهل مكة { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ } أي : يهدي إليه من يشاء بالإنابة . وقيل : يرشد إلى دينه من يرجع إليه بقلبه .

[28] { الَّذِينَ آمَنُوا } ، في محل النصب بدل من قوله : { مَنْ أَنَابَ } ، { وَتَطْمَئِنُّ } , تسكن, { قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ } قال مقاتل : بالقرآن ، والسكون يكون باليقين ، والاضطراب يكون بالشك ، { أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } ، تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين ، قال ابن عباس : هذا في الحلف ، يقول : إذا حلف المسلم بالله على شيء تسكن قلوب المؤمنين إليه ، فإن قيل : أليس قد قال الله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } ، فكيف تكون الطمأنينة والوجل في حالة واحدة ؟ قيل : الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب ، فالقلوب توجل إذا ذكرت وعيد الله وشدة حسابه ، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه .

[29] { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } ، ابتداء ، وقوله : { طُوبَى لَهُمْ } خبره ، واختلفوا في تفسير { طُوبَى } روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : فرح لهم وقرة عين . وقال عكرمة : نعم مالهم . وقال قتادة : حسنى لهم . وقال معمر ، عن قتادة : هذه كلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أي أصبت خيرا . وقال إبراهيم : خير لهم وكرامة . قال الفراء : أصله من الطيب والواو فيه لضمة الطاء وفيه لغتان ، تقول العرب : طوباك وطوبى لك أي لهم الطيب . { وَحُسْنُ مَآبٍ } أي : حسن المنقلب . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : طوبى اسم الجنة بالحبشية . وقال الربيع : هو البستان بلغة الهند . وروي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء قال : طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها (1) .

____

(1) انظر صحيح البخاري (6552, 6553) كتاب الرقاق ، ومسلم (2826-2828) كتاب صفة الجنة .

[30] قوله تعالى : { كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ } أي : كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة ، { قَدْ خَلَتْ } ، مضت, { مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ } ، لتقرأ ، { عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } ، قال قتادة ومقاتل وابن جريج : الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية ، وذلك أن سهيل بن عمرو لما جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلي : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، قالوا : لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب ، اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم ، فهذا معنى قوله : { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } ، والمعروف أن الآية مكية وسبب نزولها : أن أبا جهل سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في الحجر يدعو : يا الله يا رحمن ، فرجع إلى المشركين فقال : إن محمدا يدعو إليهن يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن ، ولا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى : { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا

فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } ، وروى الضحاك عن ابن عباس : أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - : اسجدوا لله للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ قال الله تعالى . { قُلْ } ، لهم يا محمد إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته { هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } ، اعتمدت { وَإِلَيْهِ مَتَابِ } أي : توبتي ومرجعي .

[31] قوله : { وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ } فأذهبت عن وجه الأرض, { أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ } أي : شققت فجعلت أنهارا وعيونا { أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى } { بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا } ، أي : في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، { أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا } ، قال أكثر المفسرين : معناه أفلم يعلم . قال الكلبي : هي لغة النخع . وقيل : هي لغة هوازن ، يدل عليه قراءة ابن عباس : (أفلم يتبين الذين آمنوا) ، وأنكر الفراء أن يكون ذلك بمعنى العلم وزعم أنه لم يسمع أحدا من العرب يقول : يئست بمعنى علمت ، ولكن معنى العلم فيه مضمر ، وذلك أن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل : { أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا } يعني : الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء أي لم

ييأسوا علما وكل من علم شيئا يئس من خلافه, يقول : ألم ييئسهم العلم, { أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا } من كفرهم وأعمالهم الخبيثة {

قَارِعَةٌ } أي : نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء أحيانا بالجدب وأحيانا بالسلب وأحيانا بالقتل والأسر { أَوْ تَحُلُّ } ، يعني : القارعة ، { قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ }، وقيل : أو تحل أي تنزل أنت يا محمد بنفسك قريبا من ديارهم ، { حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ } ، قيل : يوم القيامة . وقيل : الفتح والنصر وظهور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودينه . { إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } ، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسلية لنبيه - صلى الله عليه وسلم - :
[32] { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ } ، كما استهزءوا بك ، { فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } ، أمهلتهم وأطلت لهم المدة ومنه الملوان وهما الليل والنهار ، { ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار, { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } ، أي : عقابي لهم .

[33] { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } أي : حافظها ورازقها وعالم بها ومجازيها بما عملت ، وجوابه محذوف تقديره : كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه, { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ } بينوا أسماءهم وقيل صفوهم ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد { أَمْ تُنَبِّئُونَهُ } أي : تخبرون الله { بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ } فإنه لا يعلم لنفسه شريكا ولا في الأرض إلها غيره { أَمْ بِظَاهِرٍ } يعني : أم تتعلقون بظاهر ، { مِنَ الْقَوْلِ } ، مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له . وقيل : بزائل من القول { بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ } . كيدهم . وقال مجاهد : شركهم وكذبهم على الله, { وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ } أي : صرفوا عن الدين { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ } . بخذلانه إياه, { فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }
[34] { لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، بالقتل والأسر, { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ } , أشد { وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ } مانع يمنعهم من العذاب .

[35] قوله عز وجل : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ } صفة الجنة ، كقوله تعالى : { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } أي : الصفة العليا, { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } أي : صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها . وقيل : مثل صلة مجازها الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار . { أُكُلُهَا دَائِمٌ } أي : لا ينقطع ثمرها ونعيمها ، { وَظِلُّهَا } أي : ظلها ظليل لا يزول وهو رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى . { تِلْكَ عُقْبَى } أي عاقبة { الَّذِينَ اتَّقَوْا } يعني الجنة, { وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ }

[36] قوله تعالى : { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } يعني : القرآن وهم أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - { يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } من القرآن, { وَمِنَ الْأَحْزَابِ } يعني : الكفار الذين تحزبوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم اليهود والنصارى, { مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ } ، هذا قول مجاهد وقتادة . وقال الآخرون : كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة , فلما كرر الله ذكره في القرآن فرحوا به فأنزل الله سبحانه

وتعالى : { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ } يعني : مشركي مكة حين كتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم , قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة , يعنون مسيلمة الكذاب , فأنزل الله عز وجل { وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ } , { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } , وإنما قال : { بَعْضَهُ } لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن . {

قُلْ } , يا محمد , { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ } أي : مرجعي .
[37] { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا } ، يقول : كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد فأنكره الأحزاب كذلك أنزلنا إليك الحكم والدين عربيا ، نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب . وقيل : نظم الآية كما أنزل الكتب على الرسل بلغاتهم فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكما عربيا . { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ } . وقيل : في القبلة ، { أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ } يعني : من ناصر ولا حافظ .

[38] قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ } ، روي أن اليهود ، وقيل : إن المشركين قالوا : إن هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء فأنزل الله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً } ، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ، { وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } ، يقول : لكل أمر قضاه الله كتاب قد كتبه فيه . وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره أي : لكل كتاب أجل ومدة أي : الكتب المنزلة لكل واحد منها وقت ينزل فيه .

[39] { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ } ، قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم ويعقوب { وَيُثْبِتُ } بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد . واختلفوا في معنى الآية فقال سعيد بن جبير وقتادة : يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه . وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة وقيل : معنى الآية إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قوله : أكلت ، شربت ، دخلت ، خرجت ، ونحوها من كلام هو صادق فيه ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ، هذا قول الضحاك والكلبي . وقال الكلبي : يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، وقال عطية عن ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله عز وجل ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بطاعة الله فيموت وهو في طاعة الله عز وجل فهو الذي يثبت . وقال الحسن : { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ } أي من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجىء أجله إلى يوم أجله . وعن سعيد ابن جبير قال : { يَمْحُوا

اللَّهُ مَا يَشَاءُ } من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها . وقال عكرمة : { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ } من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات ، كما قال الله تعالى : { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } . وقال السدي : { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ } يعني القمر { وَيُثْبِتُ } يعني الشمس بيانه قوله تعالى : { فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } وقال الربيع : هذا

في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه فأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه ، بيانه قوله عز وجل : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } الآية . { وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } ، أي : أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير . وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : هما كتابان : كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت ، وأم الكتاب الذي لا يغير منه شيء . وعن عطاء عن ابن عباس قال : إن لله تعالى لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من يا قوت لله في كل يوم فيه ثلاثمائة وستون لحظة { يَمْحُوا اللَّهُ مَا

يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } . وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون .
[40] { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ } ، من العذاب قبل وفاتك ، { أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ } ، قبل ذلك ، { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } ، ليس عليك إلا ذلك ، { وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } ، الجزاء يوم القيامة .

[41] قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا } يعني : أهل مكة الذين يسألون محمدا - صلى الله عليه وسلم - الآيات ، { أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } ، أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك ، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقصر مع ديار الشرك ، يقول : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } فنفتحها لمحمد أرضا بعد أرض حوالي أرضهم ، أفلا يعتبرون ؟ هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة . وقال قوم : هو خراب الأرض معناه أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم ذلك ؟ وقال مجاهد : هو خراب الأرض وقبض أهلها . وعن عكرمة قال : قبض الناس . وعن الشعبي مثله . وقال عطاء وجماعة : نقصانها موت العلماء ، وذهاب الفقهاء قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » (1) .

______

(1) أخرجه البخاري في العلم 1 / 194 ومسلم في العلم رقم (2673) 4 / 2058 .

{ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ } ، لاراد لقضائه ولا ناقض لحكمه ، { وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } .
[42] { وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، يعني : من قبل مشركي مكة ، والمكر : إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر ، { فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا } ، أي : عند الله جزاء مكرهم . وقيل : إن الله خالق مكرهم جميعا بيده الخير والشر وإليه النفع والضر ، فلا يضر أحد أحدا إلا بإذنه ، { يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ } أي : عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة .
{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ }

[43] { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ، إني رسول إليكم { وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } ، يريد مؤمني أهل الكتاب

يشهدون أيضا على ذلك . قال قتادة : هو عبد الله بن سلام . وأنكر الشعبي هذا وقال : السورة مكية ، وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة ، وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير { وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } أهو عبد الله بن سلام ؟ فقال : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية ؟ وقال الحسن ومجاهد : ومن عنده علم الكتاب هو الله عز وجل يدل عليه قراءة عبد الله بن عباس ، وَمِنْ عِنْدِهُ بكسر الميم والدال أي : من عند الله عز وجل . وقرأ الحسن وسعيد بن جبير وَمَنْ عِنْدَهُ بكسر الميم والدال عُلِم الكتاب على الفعل المجهول ، دليل هذه القراءة : { وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا } وقوله : { الرَّحْمَنُ }{ عَلَّمَ الْقُرْآنَ } .

(14) سورة إبراهيم

[1] { الر كِتَابٌ } أي : هذا كتاب { أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ } ، يا محمد يعني القرآن ، { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } أي : لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان ، { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } ، بأمر ربهم . وقيل : بعلم ربهم ، { إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } أي : إلى دينه والعزيز هو الغالب والحميد المستحق بالحمد .

[2] { اللَّهِ } قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر الله بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعده ، وقرأ الآخرون بالخفض نعتا للعزيز الحميد ، وكان يعقوب إذا وصل خفض وقال أبو عمرو : الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد ، { الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } .

[3] { الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ } ، يختارون ، { الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي : يمنعون الناس عن قبول دين الله ، { وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا } ، يطلبونها زيغا وميلا يريد يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد . وقيل : الهاء راجعة إلى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق ، أي بجهة الحرام . { أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ } .

[4] قوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } ، بلغتهم ليفهموا عنه فإن قيل : كيف هذا وقد بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى كافة الخلق ؟ قيل : بعث من العرب بلسانهم والناس تبع لهم ثم بث الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عز وجل ويترجمون لهم بألسنتهم ، { فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

[5] { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } أي : من الكفر إلى الإيمان بالدعوة ، { وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } ، قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة : بنعم الله . وقال مقاتل : بوقائع الله في الأمم السالفة . يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم ، وإنما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } ، الصبار : الكثير الصبر ، والشكور : الكثير الشكر ، وأراد لكل مؤمن لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين .

[6] { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } ، قال الفراء : العلة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع العذاب غير

التذبيح ، وبالتذبيح وحيث طرح الواو في يذبحون ويقتلون أراد تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم ، { وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } ، يتركوهن أحياء { وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } .
[7] { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ } ، أي : أعلم ، يقال : أذن وتأذن بمعنى واحد ، مثل أوعد وتوعد ، { لَئِنْ شَكَرْتُمْ } نعمتي فآمنتم وأطعتم { لَأَزِيدَنَّكُمْ } في النعمة .
وقيل : الشكر قيد الموجود وصيد المفقود . وقيل : لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب .
{ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ } ، نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها ، { إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } .
[8] { وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } أي : غني عن خلقه حميد محمود في أفعاله لأنه فيها متفضل وعادل .

[9] { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ } ، خبر الذين { مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ } ، يعني : من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود { جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } بالدلالات الواضحات ، { فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } ، قال ابن مسعود : عضوا على أيديهم غيظا كما قال : عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . قال مجاهد وقتادة : كذبوا الرسل وردوا ما جاءوا به ، يقال : رددت قول فلان في فيه أي كذبته . وقال الكلبي : يعني أن الأمم ردوا أيديهم في أفواههم أي في أفواه أنفسهم أي وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة إلى الرسل أن اسكتوا . وقال مقاتل : فردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك . وقيل : إن الأيدي بمعنى النعم معناه . ردوا ما لو قبلوا كانت أيادي ونعما في أفواههم أي : بأفواههم يعني : بألسنتهم . { وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } ، موجب للريبة موقع للتهمة .

[10] { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ } ، هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه ، { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، خالقهما ، { يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ } ، أي : ذنوبكم ، و { مِنْ } صلة ، { وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } ، إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب ، { قَالُوا } ، للرسل ، { إِنْ أَنْتُمْ } ، ما أنتم ، { إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } ، في الصورة والجسم ولستم ملائكة وإنما { تُرِيدُونَ } ، بقولكم ، { أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } ، حجة بينة على صحة دعواكم .

[11] { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } ، بالنبوة والحكمة ، { وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } .
[12] { وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ } وقد عرفنا أن لا ننال شيئا إلا بقضائه وقدره ، { وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا } ، بين لنا الرشد وبصرنا طريق النجاة .
{ وَلَنَصْبِرَنَّ } ، اللام لام القسم مجازا ، والله لنصبرن { عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } .
[13] { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } ، يعنون إلا أن ترجعوا أو حتى ترجعوا إلى ديننا ، { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } .

[14] { وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ } أي : بعد هلاكهم ، { ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي } أي : خاف قيامه بين يدي كما قال : { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } ، فأضاف قيام العبد إلى نفسه ، كما تقول : ندمت على ضربك أي على ضربي إياك ، { وَخَافَ وَعِيدِ } أي عقابي .

[15] قوله : { وَاسْتَفْتَحُوا } أي : استنصروا . قال ابن عباس ومقاتل : يعني الأمم وذلك أنهم قالوا : اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ، نظيره قوله تعالى : { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ } ، وقال مجاهد وقتادة : واستفتحوا يعني الرسل وذلك أنهم لما يئسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب ، كما قال نوح : { رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } وقال موسى : { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ } ، الآية : { وَخَابَ } ، خسر . وقيل : هلك ، { كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } والجبار : الذي لا يرى فوقه أحدا . والجبرية : طلب العلو بما لا غاية وراءه . وهذا الوصف لا يكون إلا لله عز وجل . وقيل : الجبار : الذي يجبر الخلق على مراده ، والعنيد : المعاند للحق ومجانبه . قاله مجاهد ، وعن ابن عباس : هو المعرض عن الحق . وقال مقاتل : هو المتكبر . وقال قتادة : العنيد الذي أبى أن يقول : لا إله إلا الله .

[16] { مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ } أي : أمامه كقوله تعالى : { وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ } أي أمامهم . قال أبو عبيدة : هو من الأضداد . وقال الأخفش : هو كما يقال : هذا الأمر من ورائك يريد أنه سيأتيك ، وأنا من وراء فلان يعني أصل إليه . وقال مقاتل : من ورائه جهنم أي بعده . { وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ } أي : من ماء هو صديد وهو ما يسيل من أبدان الكفار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب : ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر .

[17] { يَتَجَرَّعُهُ } أي : يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة جرعة لمرارته وحرارته ، { وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ } ، يكاد صلة أي لا يسيغه ، كقوله تعالى : { لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا } أي : لم يرها ، قال ابن عباس : لا يجيزه . وقيل : معناه : يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه يقول الله عز وجل : { وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } , ويقول : { وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ } , يعني يجدهم الموت وألمه من كل مكان من أعضائه , قال إبراهيم التيمي : حتى من تحت كل شعرة من جسده . وقيل : يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله, { وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ } , فيستريح ، قال ابن جريج : تعلق بنفسه عند حنجرته ولا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة . نظيرها { لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا } , { وَمِنْ وَرَائِهِ } , أمامه , { عَذَابٌ غَلِيظٌ } , شديد, وقيل : العذاب الغليظ : الخلود في النار .
[18] { مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ }

يعني : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كقوله تعالى : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ } أي : ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة { كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ } ، وصف اليوم بالعصوف ، والعصوف من صفة الريح لأن الريح تكون فيه ، كما يقال : يوم حار ، ويوم بارد لأن الحر والبرد فيه . وقيل : معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنها قد

ذكرت من قبل ، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يريد أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ؛ لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذرته الريح لا ينتفع به ، فذلك قوله تعالى : { لَا يَقْدِرُونَ } ، يعني : الكفار { مِمَّا كَسَبُوا } ، في الدنيا ، { عَلَى شَيْءٍ } ، في الآخرة ، { ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } .

[19] { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } ، قرأ حمزة والكسائي خالَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وفي سورة النور (خالق كل دابة) مضافا ، وقرأ الآخرون (خلق) على الماضي وَالْأَرْض وكل بالنصب ، { بِالْحَقِّ} أي : لم يخلقهما باطلا وإنما خلقهما لأمر عظيم ، { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } ، سواكم أطوع لله منكم .
[20] { وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } منيع شديد ، يعني أن الأشياء تسهل في القدرة لا يصعب على الله شيء وإن جل وعظم .

[21] قوله تعالى : { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا } أي : خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعا ، { فَقَالَ الضُّعَفَاءُ } ، يعني الأتباع ، { لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا } ، أي : تكبروا على الناس وهم القادة والرؤساء ، { إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا } جمع تابع مثل حرس وحارس ، { فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ } ، دافعون ، { عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا } ، يعني القادة للمتبوعين ، { لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ } أي : لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهدى ، فلما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة ، { سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } ، مهرب ولا منجا .

[22] { وَقَالَ الشَّيْطَانُ } ، يعني : إبليس ، { لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ } ، أي فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وقال مقاتل : يوضع له منبر في النار فيرقاه فيجتمع عليه الكفار بالأئمة فيقول لهم ، { إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ } ، فوفى لكم به ، { وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ } ، وقيل : يقول لهم : قلت لكم : لا بعث ولا جنة ولا نار . { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ } ولاية . وقيل : لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه ، { إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ } ، هذا استثناء منقطع معناه : ولكن { دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ } ، بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان ، { مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ } ، بمغيثكم { وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } بمغيثي { إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ } أي : كفرت بجعلكم إياي شريكا في عبادته وتبرأت من ذلك ، { إِنَّ الظَّالِمِينَ } ، الكافرين ، { لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

[23] قوله تعالى : { وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } ، يسلم بعضهم على بعض وتسلم الملائكة عليهم . وقيل : المحيي بالسلام هو الله عز وجل .
[24] وقوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا } ، ألم تعلم ، والمثل قول سائر لتشبيه شيء بشيء { كَلِمَةً طَيِّبَةً } ، وهي قول : لا إله إلا الله ، { كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ } ، وهي النخلة يريد كشجرة طيبة الثمرة ، وقال أبو ظبيان عن ابن عباس : هي شجرة في الجنة { أَصْلُهَا ثَابِتٌ } ، في الأرض { وَفَرْعُهَا } ، أعلاها ، { فِي السَّمَاءِ } ، كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق فإذا تكلم بها عرجت فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عز وجل . قال الله تعالى : { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } .

[25] { تُؤْتِي أُكُلَهَا } ، تغطي ثمرها ، { كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا } ، والحين في اللغة هو الوقت ، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره وبركة إيمانه لا تنقطع أبدا ، بل تصل إليه في كل وقت ، والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وفرع عال كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان . { وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } .
[26] { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ } . وهي الشرك ، { كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ } وهي الحنظل . وقيل : هي الثوم . وقيل : الكشوت (1) .
{ اجْتُثَّتْ } ، يعني انقلعت ، { مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } ، ثبات ، معناه وليس لها أصل ثابت في الأرض ، ولا فرع صاعد إلى السماء , كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح .

---

(1) في لسان العرب 2 / 181 «الكشوث والأكشوث» نبات مجتث مقطوع الأصل, وقيل لا أصل له, وهو أصفر يتعلق بأطراف الشوك وغيره وقال الجوهري : نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض .

[27] قوله تعالى : { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ } , كلمة التوحيد وهي قول لا إله إلا الله { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } , يعني قبل الموت , { وَفِي الْآخِرَةِ } , يعني في القبر هذا قول أكثر المفسرين وقيل في الحياة الدنيا عند السؤال في القبر, وفي الآخرة : عند البعث , والأول أصح { وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ } أي : لا يهدي المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر { وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } , من التوفيق والخذلان والتثبيت وترك التثبت .
[28] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا } عن ابن عباس : هم كفار قريش ، وقال عمر : هم قريش ، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - نعمة الله { وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } ، قال : البوار يوم بدر ، قوله : { بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ } أي : غيروا نعمة الله عليهم في محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث ابتعثه الله منهم كفرا كفروا به فأحلوا أي أنزلوا قومهم ممن تابعهم على كفرهم دار البوار الهلاك ، ثم بين دار البوار فقال :

[29] { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا } ، يدخلونها { وَبِئْسَ الْقَرَارُ } ، المستقر .
[30] { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } ، أمثالا وليس لله تعالى ند ، { لِيُضِلُّوا } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكذلك في الحج وسورة لقمان والزمر (ليضل) وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى : ليضلوا الناس ، { عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا } ، عيشوا في الدنيا ، { فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } .
[31] { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ } قال الفراء : هذا جزم على الجزاء, { وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ } مخاللة وصداقة .
[32] { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } بإذنه . { وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ } ذللها لكم تجرونها حيث شئتم .

[33] { وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ } يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفتران ، قال ابن عباس : دؤوبهما في طاعة الله عز وجل ، { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } ، يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة .

[34] { وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ } ، يعني : آتاكم من كل شيء سألتموه شيئا ، فحذف الشيء الثاني اكتفاء بدلالة الكلام على التبغيض , وقيل : هو على التكثير نحو قولك : فلان يعلم كل شيء, وآتاه كل الناس ، وأنت تريد بعضهم نظيره قوله تعالى : { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } ، وقرأ الحسن مِنْ كُلٍّ بالتنوين ما على النفي يعني من كل ما لم تسألوه ، يعني : أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها ، { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ } ، أي : نعم الله ، { لَا تُحْصُوهَا } ، أي : لا تطيقوا عدها ولا القيام بشكرها ، { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } ، أي ظالم لنفسه بالمعصية كافر بربه في نعمته وقيل : الظلوم الذي يشكر غير من أنعم عليه والكافر من يجحد منعمه .

[35] قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ } ، يعني : الحرم ، { آمِنًا } ذا أمن يؤمن فيه ، { وَاجْنُبْنِي } أبعدني ، { وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } ، يقال : جنبت الشيء وأجنبته جنبا وجنبته تجنيبا واجتنبته اجتنابا بمعنى واحد ، فإن قيل : قد كان إبراهيم معصوما من عبادة بنيه الأصنام فكيف يستقيم السؤال وقد عبد كثير من بنيه الأصنام فأين الإجابة ؟ قيل : الدعاء في حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه ولم يعبد منهم أحد الصنم . وقيل : إن دعاءه لمن كان مؤمنا من بنيه .

[36] { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ } يعني : ضل بهن كثير من الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهن ، وهذا من المقلوب نظيره قوله تعالى : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } ، أي : يخوفهم بأوليائه ، وقيل : نسب الإضلال إلى الأصنام لأنهن سبب فيه كما يقول القائل : فتنتني الدنيا ، نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها سبب الفتنة . { فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي } ، أي : من أهل ديني وملتي ، { وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، قال السدي : معناه : " ومن عصاني ثم تاب " وقال مقاتل بن حيان : ومن عصاني فيما دون الشرك . وقيل : قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك .

[37] قوله تعالى : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي } ، أدخل من للتبعيض ، ومجاز الآية : أسكنت من ذريتي ولدا ، { بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ } ، وهو مكة لأن مكة واد بين جبلين ، { عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } سماه محرماً لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره { رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ } الأفئدة جمع الفؤاد { تَهْوِي إِلَيْهِمْ } ، تشتاق وتحن إليهن . قال السدي : معناه : أمل قلوبهم إلى هذا الموضع ، قال مجاهد : لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند . وقال سعيد بن جبير : لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال : أفئدة من الناس وهم المسلمون . { وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ } ، ما رزقت سكان القرى ذوات الماء ، { لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } .

[38] { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ } ، من أمورنا . وقال ابن عباس ومقاتل : من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع . { وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } قيل : هذا كله قول إبراهيم متصل بما قبله . وقال الأكثرون : يقول الله عز وجل { وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } .
[39] { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ } ، أعطاني على كبر السن ، { إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } ، قال ابن عباس : ولد إسماعيل

لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة . وقال سعيد بن جبير : بشر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة .
[40] { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ } ، يعني : ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها ، { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } يعني : اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة . { رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ } ، أي : عملي وعبادتي ، سمى العبادة دعاء وقيل : معناه استجب دعائي .

[41] { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ } ، فإن قيل : كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين ؟ قيل : قد قيل : إن أمه أسلمت ، وقيل : أراد إن أسلما وتابا ، وقيل : قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه وقد بين الله عذر خليله في استغفاره لأبيه في سورة التوبة . { وَلِلْمُؤْمِنِينَ } ، أي : اغفر للمؤمنين كلهم ، { يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } ، أي يبدو ويظهر . وقيل : أراد يوم الحساب يوم يقوم الناس للحساب ، فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما .
[42] قوله تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور ، والآية لتسلية المظلوم وتهديد للظالم ، { إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } أي : لا تغمض من هول ما ترى في ذلك اليوم ، وقيل : ترتفع وتزول عن أماكنها .

[43] { مُهْطِعِينَ } ، قال قتادة : مسرعين . قال سعيد بن جبير : الاهطاع النسلان كعدو الذئب ، وقال مجاهد : مديمي النظر ، ومعنى الإهطاع أنهم لا يلتفتون يمينا ولا شمالا ، ولا يعرفون مواطن أقدامهم ، { مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ } ، أي رافعي رءوسهم ، قال القتيبي : المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل بصره على ما بين يديه . وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى الماء لا ينظر أحد إلى أحد ، { لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ } ، لا ترجع إليهم أبصارهم مع شدة النظر ، وهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم . { وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ } ، أي خالية . قال قتادة : خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم ، لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى مكانها ، فأفئدتهم هواء لا شيء فيها ومنه سمي ما بين السماء والأرض هواء لخلوه ، وقيل : خالية لا تعي شيئا ولا تعقل من الخوف . وقال الأخفش : جوفا لا عقول لها . والعرب تسمي كل أجوف خلو هواء . قال سعيد بن جبير : وأفئدتهم هواء أي : مترددة تمور في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ، وحقيقة المعنى : أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم .

[44] { وَأَنْذِرِ النَّاسَ } ، خوفهم ، { يَوْمَ } ، أي : بيوم { يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ } . هو يوم القيامة { فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، أشركوا ، { رَبَّنَا أَخِّرْنَا } ، أمهلنا { إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ } ، هذا سؤالهم الرد إلى الدنيا ، أي : ارجعنا { نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } ، فيجابون : { أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ } ، حلفتم في دار الدنيا ، { مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ } ، عنها أي : لا تبعثون . وهو قوله تعالى : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ } .
[45] { وَسَكَنْتُمْ } ، في الدنيا ، { فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } ، بالكفر والعصيان ، يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . { وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ } ، أي : عرفتم عقوبتنا إياهم ، { وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ } ، أي بينا مثلكم كمثلهم .

[46] { وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ } ، أي : جزاء مكرهم ، { وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ } ، قرأ علي وابن مسعود : (وإن كاد مكرهم) بالدال ، وقرأ العامة بالنون . { لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } ، قرأ العامة لتزول بكسر اللام الأولى ونصب الثانية ، معناه : وما كان مكرهم لتزول . قال الحسن : إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال . وقيل : معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي هو ثابت كثبوت الجبال . وقرأ ابن جريج والكسائي : لَتَزُولُ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية ، معناه : إن مكرهم وإن عظم حتى بلغ محلا يزيل الجبال لم يقدروا على إزالة أمر محمد . وقال قتادة : معناه : وإن كان مكرهم شركهم لتزول منه الجبال وهو قوله تعالى . { وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا } { أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا } .
[47] { فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ } ، بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه ، وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده ، { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } .

[48] قوله تعالى : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد » (1) .
وعن ابن مسعود في هذه الآية قال : تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل فيها خطيئة وقيل : معنى التبديل جعل السماوات جنانا وجعل الأرض نيرانا . وقيل : تبديل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة ، وهي تسيير جبالها ولهم أنهارها وتسوية أوديتها وقلع أشجارها وجعلها قاعا صفصفا ، وتبديل السماوات تغييرها عن حالها بتكوير شمسها ، وخسوف قمرها وانتثار نجومها ، وكونها مرة كالدهان ، ومرة كالمهل . عن عائشة قالت : « سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله عز وجل : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : (على الصراط » (2) .
{ وَبَرَزُوا } ، خرجوا من قبورهم ، { لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

---

(1) أخرجه البخاري في الرقاق 11 / 372 ومسلم في صفات المنافقين رقم (2790) 4 / 2150 والمصنف في شرح السنة 5 / 112 .
(2) أخرجه مسلم في صفات المنافقين رقم (2791) 4 / 2150 والمصنف في شرح السنة 15 / 107 .

[49] { وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ } ، مشدودين بعضهم ببعض ، { فِي الْأَصْفَادِ } ، في القيود والأغلال واحدها : صفد ، وكل من شددته شدا وثيقا فقد صفدته وقيل : يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة ، بيانه قوله تعالى : { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ } ، يعني : قرناءهم من الشياطين وقيل : معناه مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد والقيود ، ومنه قيل للجبل : قرن .
[50] { سَرَابِيلُهُمْ } ، أي : قمصهم ، واحدها : سربال . { مِنْ قَطِرَانٍ } هو ما تهنأ به الإبل ، وقرأ عكرمة ويعقوب مِنْ قَطِرٍ آنٍ على كلمتين منونتين ، والقطر النحاس والصفر المذاب ، والآن الذي انتهى حره ، قال الله تعالى : { يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ } . { وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ } ، أي : تعلو .

[51] { لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ } ، من خير وشر ، { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } .
[52] { هَذَا } ، أي : هذا القرآن ، { بَلَاغٌ } ، أي تبليغ وعظة ، { لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا } .

وليخوفوا ، { بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ } ، أي ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله ، { وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } ، أي : ليتعظ أولو العقول .

(15) سورة الحجر
[1] { الر } معناه أنا الله أرى ، { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } ، أي : هذه آيات الكتاب ، { وَقُرْآنٍ } أي : وآيات قرآن ، { مُبِينٍ } ، أي : بيَّن الحلال من الحرام والحق من الباطل ، فإن قيل : لما ذكر الكتاب ثم قال : { وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } وكلاهما واحد ؟ قلنا : قد قيل كل واحد منهما يفيد فائدة أخرى فإن الكتاب ما يكتب والقرآن ما يجمع بعضه إلى بعض . وقيل : المراد بالكتاب التوراة والإنجيل وبالقرآن هذا الكتاب .
[2] { رُبَمَا } ، قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتحفيف الباء والباقون بتشديدهما وهما لغتان ، ورب للتقليل وكم للتكثير ، ورب تدخل على الاسم وربما على الفعل ، يقال : رب رجل جاءني وربما جاءني رجل ، وأدخل ما هاهنا للفعل بعدها . { يَوَدُّ } يتمنى ، { الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ } ، واختلف في الحالة التي يتمنى الكافر فيها الإسلام ، قال الضحاك : حالة المعاينة . وقيل : يوم القيامة . والمشهور أنه حين يخرج الله المؤمنين من النار .

[3] { ذَرْهُمْ } ، يا محمد يعني الذين كفروا ، { يَأْكُلُوا } في الدنيا ، { وَيَتَمَتَّعُوا } ، من لذاتهم { وَيُلْهِهِمُ } ، يشغلهم ، { الْأَمَلُ } ، عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة ، { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ، إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا ، وهذا تهديد ووعيد . وقال بعض أهل العلم : ذرهم تهديد وقوله : فسوف يعلمون ، تهديد آخر ، فمتى يهنأ العيش بين تهديدين . والآية نسختها آية القتال .
[4] { وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ } ، أي : من أهل قرية ، { إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ } ، أي أجل مضروب لا يتقدم عليه ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه ولا يتأخر عنهم .
[5]ه{ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا } ، من صلة أي : ما تسبق أمة أجلها { وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } ، أي : الموت لا يتقدم ولا يتأخر ، وقيل : العذاب . وقيل : الأجل المضروب .
[6] { وَقَالُوا } يعني : مشركي مكة ، { يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } ، أي : القرآن وأرادوا به محمدا - صلى الله عليه وسلم - ، { إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } ، وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء .

[7] { لَوْ مَا } هلا { تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ } ، شاهدين لك بالصدق على ما تقول إن الله أرسلك ، { إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ، إنك نبي .
[8] { مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ } ، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بنونين الْمَلَائِكَةَ نصب ، وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاي الملائكة رفع وقرأ الباقون بالتاء وفتحها وفتح الزاي الْمَلَائِكَةُ رفع . { إِلَّا بِالْحَقِّ } أي : بالعذاب ولو نزلت يعني الملائكة لعجلوا بالعذاب ، { وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ } أي : مؤخرين ، وقد كان الكفار

يطلبون إنزال الملائكة عيانا فأجابهم الله تعالى بهذا . ومعناه أنهم لو نزلوا أعيانا لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال .

[9] { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ } ، يعني القرآن ، { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } ، أي : نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه أو يبدلوا بغيره ، قال الله تعالى : { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ } والباطل : هو إبليس لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه . وقيل : الهاء في (له) راجعة إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - أي : إنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء كما قال جل ذكره : { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } .
[10] قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ } ، أي رسلا ، { فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ } ، أي : في الأمم والقرون الماضية ، والشيعة : هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم على رأي واحد .
[11] { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ، كما فعلوا بك ، ذكره تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

[12] { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ } ، أي : كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأولين كذلك نسلكه : ندخله ، { فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } ، يعني مشركي مكة قومك ، وفيه رد على القدرية (1) .

[13] { لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ } ، يعني : لا يؤمنون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن ، { وَقَدْ خَلَتْ } ، مضت ، { سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } ، أي : وقائع الله تعالى الإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية يخوف أهل مكة .
[14] { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ } ، يعني : على الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة ، { بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ } ، فظلت الملائكة يعرجون فيه وهم يرونها عيانا ، هذا قول الأكثرين . وقال الحسن : معناه فظل هؤلاء الكفار يعرجون فيه أي : يصعدون . والأول أصح .
[15] { لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ } ، سدت ، { أَبْصَارُنَا } ، قاله ابن عباس . وقال الحسن : سحرت ، وقال قتادة : أخذت ، وقال الكلبي : عميت . وقرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف ، أي : حبست ومنعت النظر كما يسكر النهر لحبس الماء ، { بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } ، أي : عمل فينا السحر فسحرنا محمد .

---

(1) القدرية هم الذين ينكرون القدر ويزعمون أن كل عبد خالق لفعله ليخرجوا بذلك فعل الإنسان عن قدرة الله . انظر الوصية الكبرى لابن تيمية ص 57 تعليق (5) .

[16] قوله تعالى : { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا } ، والبروج هي النجوم الكبار مأخوذة من الظهور ، يقال : تبرجت المرأة أي : ظهرت ، وأراد بها المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة ، وهي اثنا عشر برجا : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت . وقال عطية : هي قصور في السماء عليها الحرس { وَزَيَّنَّاهَا } ، أي السماء بالشمس والقمر والنجوم . { لِلنَّاظِرِينَ } .
[17] { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } ، مرجوم . وقيل : ملعون قال ابن عباس : كانت الشياطين لا يحجبون عن السماوات وكانوا يدخلونها ، ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة ما سمعوا ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا

من ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد . - صلى الله عليه وسلم - منعوا من السماوات أجمع ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب ، فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس ، فقال : لقد حدث في الأرض حادث ، قال : فبعثهم فوجدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتلو القرآن فقالوا : هذا والله حدث .

[18] { إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ } ، لكن من استرق السمع ، { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ } ، والشهاب الشعلة من النار .
[19] قوله تعالى : { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا } ، بسطناها { وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ } ، جبالا ثوابت ، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال ، { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا } ، أي : في الأرض ، { مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ } ، بقدر معلوم ، وقيل : يعني في الجبال وهي جواهر من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها .
[20] { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ } ، جمع معيشة ، قيل : أراد بها المطاعم والمشارب والملابس . وقيل : ما يعيش به الآدمي في الدنيا ، { وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } ، أي : جعلنا فيها معايش من لستم له برازقين من الدواب والأنعام ، أي : جعلنا لكم وكفيناكم رزقها و (من) في الآية بمعنى ما ، كقوله تعالى : { فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ } ، وقيل : من في موضعها لأنه أراد المماليك مع الدواب . وقيل : من في محل الخفض عطفا على الكاف والميم في لكم .

[21] { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ } ، أي : وما من شيء ، أي : وما من شيء,{ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ } , أي مفاتيح خزائنه . وقيل : أراد به المطر ، { وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } ، لكل أرض حد مقدر .

[22] { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ } أي : حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب ، وهو جمع لاقحة ، يقال : ناقة لاقحة إذا حملت الولد . قال ابن مسعود : يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب فيدر كما تدر اللقحة ثم تمطر . وقال أبو عبيدة : أراد باللواقح الملاقح واحدتها ملقحه ، لأنها تلقح الأشجار . قال عبيد بن عمير : يبعث الله الريح المبشرة فتقم الأرض قما ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاما, ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر . وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه, فالصبا تهيجه والشمال تجمعه والجنوب تذره والدبور تفرقه, { فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ } أي : جعلنا المطر لكم سقيا وسقاه إذا أعطاه ما يشرب . وتقول العرب : سقيت الرجل ماء ولبنا إذا كان لسقيه, فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه ودوابه تقول العرب : أسقيته . { وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } , يعني المطر في خزائننا لا في خزائنكم . وقال سفيان : بمانعين .

[23] { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } نميت جميع الخلائق, فلا يبقى حي سوانا .
[24] { وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ } قال ابن عباس : أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء . قال الشعبي : الأولين والآخرين . وقال عكرمة : المستقدمون من خلق الله والمستأخرون من لم يخلق الله . قال مجاهد : الستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقال الحسن : المستقدمون في الطاعة

والخير ، والمستأخرون المبطئون عنها . وقيل : المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها .
وقال الأوزاعي . أراد المصلين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره . وقال مقاتل : أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال . وقال ابن عيينة : أراد من يسلم ومن لا يسلم .
[25] { وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } على ما علم منهم . وقيل : يملك الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين . قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من مات على شيء بعثه الله عليه » (1) .

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 4 / 313 وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرجه الإمام أحمد في المسند 3 / 313 والمصنف في شرح السنة 14 / 401 وصححه الألباني في الصحيحة رقم (283) 1 / 510 وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها برقم (2878) 4 / 2204 (يبعث كل عبد على ما مات عليه) .

[26] قوله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ } ، يعني : آدم عليه السلام ، سمي إنسانا لظهوره وإدراك البصر إياه . وقيل : من النسيان لأنه عهد إليه فنسي . { مِنْ صَلْصَالٍ } وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلة ، أي : صوتا . قال ابن عباس : هو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع . وقال مجاهد : هو الطين المنتن . واختاره الكسائي ، وقال : هو من صل اللحم إذا أنتن ، { مِنْ حَمَإٍ } ، والحمأ : الطين المنتن الأسود ، { مَسْنُونٍ } ، أي : متغير . قال مجاهد وقتادة : هو المنتن المتغير . وقال أبو عبيدة : هو المصبوب . تقول العرب : سننت الماء أي صببته . قال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار .

[27] { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ } ، قال ابن عباس : هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر . وقال قتادة : هو إبليس خلق قبل آدم . ويقال : الجان أبو الجن وإبليس أبو الشيطان ، وفي الجن مسلمون وكافرون ، ويحيون ويموتون ، وأما الشياطين فليس منهم مسلمون ويموتون إذا مات إبليس . وذكر وهب : إن من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ، ومن الجن من هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون . { مِنْ نَارِ السَّمُومِ } ، والسموم ريح حارة تدخل مسام الإنسان فتقتله . يقال : السموم بالنهار والحرور بالليل . وقيل : نار السموم لهب النار . وقيل : من نار السموم أي : من نار جهنم . وعن الضحاك عن ابن عباس قال : كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم : الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار ، فأما الملائكة فإنهم خلقوا من النور .
[28] قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا } ، أي : سأخلق بشرا ، { مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ } .

[29] { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ } ، وعدلت صورته ، وأتممت خلقه ، { وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } ، فصار بشرا حيا والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان وأضافه إلى نفسه تشريفا ، { فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } ، سجود تحية لا سجود عبادة .
[30] { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ } ، الذين أمروا بالسجود ، { كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } ، فإن قيل : لم قال (كلهم أجمعون) وقد حصل المقصود بقوله : فسجد الملائكة ؟

قلنا : زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيدا وذكر المبرد أن قوله (فسجد الملائكة) كان من المحتمل أنه سجد بعضهم فذكر كلهم ليزول هذا الإشكال ، ثم كان يحتمل أنهم سجدوا في أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله : (أجمعون) .
[31] { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ }

[32] { قَالَ يا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } .
[33] { قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ } ، أراد : إني أفضل منه لأنه طيني ، وأنا ناري والنار تأكل الطين .
[34] { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا } أي : من الجنة { فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } ، طريد .
[35] { وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } ، قيل : إن أهل السماوات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون في السماء والأرض .
[36] { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ، أراد الخبيث أن لا يموت .
[37] { قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ } .
[38] { إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } ، أي : الوقت الذي يموت فيه الخلائق وهو النفخة الأولى .
[39] { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي } ، أضللتني . وقيل : خيبتني من رحمتك ، { لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ } حب الدنيا ومعاصيك ، { وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ } ، أي : لأضلنهم ، { أَجْمَعِينَ } .

[40] { إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } ، المؤمنين الذين أخلصوا لك بالطاعة والتوحيد ، ومن فتح اللام أي من أخلصته بتوحيدك فهديته واصطفيته .
[41] { قَالَ } ، الله تعالى { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } ، قال الحسن : معناه صراط مستقيم . قال مجاهد : الحق يرجع إلى الله تعالى وعليه طريقه ولا يعوج عليه شيء . وقال الأخفش : يعني على الدلالة على الصراط المستقيم . قال الكسائي : هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك , أي : لا تفلت مني , كما قال عز وجل : { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } . وقيل : معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية .
[42] { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } , أي : قوة . قال أهل المعاني : يعني على قلوبهم . معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي , وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم . { إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } .
[43] { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } , يعني موعد إبليس ومن تبعه .

[44] { لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ } , أطباق . قال علي كرم الله وجهه : تدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى, أي : سبهة أبواب بعضها فوق بعض وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض . قال ابن جريج : النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . { لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ } أي : لكل دركة قوم يسكنونها . وقال الضحاك : في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون ، وفي الثانية النصارى ، وفي الثالثة اليهود ، وفي الرابعة الصابئون ، في الخامسة المجوس ، وفي السادسة أهل الشرك ، وفي السابعة المنافقون ، فذلك قوله تعالى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } .

[45] قوله تعالى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } ، أي : في بساتين وأنهار .

[46] { ادْخُلُوهَا } أي : يقال لهم : ادخلوا الجنة ، { بِسَلَامٍ } ، أي : بسلامة { آمِنِينَ } ، من الموت والخروج والآفات .

[47] { وَنَزَعْنَا } ، أخرجنا ، { مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } ، هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد ، { إِخْوَانًا } ، نصب على الحال ، { عَلَى سُرُرٍ } ، جمع سرير { مُتَقَابِلِينَ } يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه .

[48] { لَا يَمَسُّهُمْ } ، لا يصيبهم ، { فِيهَا نَصَبٌ } أي : تعب ، { وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ } ، هذه أنص آية في القرآن على الخلود .

[49] قوله تعالى : { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } ، قال ابن عباس : يعني لمن تاب منهم .

[50] { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } عن أبي هريرة قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار » (1) .

---

(1) أخرجه البخاري في الرقاق 11 / 301 والمصنف في شرح السنة 14 / 378 .

[51] قوله تعالى : { وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } أي : عن الضيافة ، والضيف اسم يقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط .

[52] { إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ } ، إبراهيم ، { إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه .

[53] { قَالُوا لَا تَوْجَلْ } لا تخف ، { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } ، أي : غلام في صغره عليم في كبره يعني إسحاق ، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته .

[54] { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي } أي : بالولد { عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ } ، أي : على حال الكبر قاله على طريق التعجب ، { فَبِمَ تُبَشِّرُونَ } فبأي شيء تبشرون .

[55] { قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ } أي بالصدق ، { فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } .

[56] { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ } قنط يقنط أي : من ييأس ، { مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } ، أي : الخاسرون ، والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره .

[57] { قَالَ } إبراهيم لهم ، { فَمَا خَطْبُكُمْ } ، ما شأنكم ، { أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ } .

[58] { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ } ، مشركين .

[59] { إِلَّا آلَ لُوطٍ } ، أتباعه وأهل دينه ، { إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ } خفف الجيم حمزة والكسائي وشدده الباقون .

[60] . { إِلَّا امْرَأَتَهُ } ، أي : امرأة لوط ، { قَدَّرْنَا } ، قضينا ، { إِنَّهَا لَمِنَ

الْغَابِرِينَ } الباقين في العذاب ، والاستثناء من النفي إثبات ، ومن الإثبات نفي ، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين ، قرأ أبو بكر (قدرنا) هاهنا وفي سورة النمل بتخفيف الدال . والباقون بتشديدها .
[61] { فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ } .
[62] { قَالَ } لوط لهم { إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ } أي : أنا لا أعرفكم .
[63] { قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ } ، أي : يشكون في أنه نازل بهم وهو العذاب لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه .
[64] { وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ } ، باليقين . وقيل : بالعذاب ، { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } .

[65] { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ } أي : خلفهم ، { وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ } ، حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم . وقيل : جعل الله ذلك علامة لمن ينجو من آل لوط ، { وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ } ، قال ابن عباس : يعني الشام . وقال مقاتل : يعني زغر . وقيل : الأردن .
[66] { وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ } ، أي وقضينا إلى آل لوط ذلك الأمر أي أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط ، وأخبرناه { أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ } ، يدل عليه قراءة عبد الله وقلنا له إن دابر هؤلاء يعني أصلهم ، { مَقْطُوعٌ } ، مستأصل ، { مُصْبِحِينَ } ، إذا دخلوا في الصبح .
[67] { وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ } ، يعني سدوم ، { يَسْتَبْشِرُونَ } ، بأضياف لوط أي : يبشر بعضهم بعضا طمعا في ركوب الفاحشة منهم .
[68] { قَالَ } ، لوط لقومه ، { إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي } ، وحق على الرجل إكرام ضيفه , { فَلَا تَفْضَحُونِ } , فيهم .
[69] { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ } , ولا تخجلون .

[70] { قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ } ، أي : ألم ننهك عن أن تضيف أحدا من العالمين . وقيل : ألم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة فإنا نركب منهم الفاحشة .

[71] { قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي } أزوجهن إياكم إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام, { إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } , ما آمركم به . وقيل : أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته .
[72] قال الله تعالى : { لَعَمْرُكَ } , يا محمد أي وحياتك, { إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ } , حيرتهم وضلالتهم { يَعْمَهُونَ } , يترددون, قال قتادة : يلعبون . روي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال : ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمد - صلى الله عليه وسلم - وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياته (1) .
[73] { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ } ، أي : حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا وتمامه حين أشرقوا .
[74] { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ }
[75] { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } ، قال ابن عباس : للناظرين . وقال مجاهد : للمتفرسين . وقال قتادة : للمعتبرين . وقال مقاتل : للمتفكرين .
[76] { وَإِنَّهَا } ، يعني قرى قوم لوط ، { لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } ، أي : بطريق واضح ، وقال مجاهد : بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل .

---
(1) أخرجه الطبري في تفسيره 14 / 44 والحارث بن أبي أسامة في مسنده

وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردوية . انظر الدر المنثور 5 / 89 والمطالب العالية 3 / 347 .

[77] { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ } .
[78] { وَإِنْ كَانَ } ، وقد كان { أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ } الغيضة , { لَظَالِمِينَ } لكافرين واللام للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف ، وكانت عامة شجرهم الدوم وهو المقل .
[79] { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } ، بالعذاب وذلك أن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجئوا إليها يلتمسون الروح ، فبعث عليهم منها نارا فأحرقتهما ، فذلك قوله تعالى : { فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ }{ وَإِنَّهُمَا } يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة { لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } ، لبطريق واضح مستبين .
[80] قوله تعالى : { وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ } ، وهي مدينة ثمود قوم صالح وهي بين المدينة والشام ، { الْمُرْسَلِينَ } ، أراد صالحا وحده ، وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل كلهم .
[81] { وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا } يعني : الناقة وولدها والبئر والآية في الناقة خروجها من الصخرة وكبرها وقرب ولادها وغزارة لبنها , { فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } .

[82] { وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ } , من الخراب ووقوع الجبل عليهم .
[83] { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } , يعني : صيحة العذاب, { مُصْبِحِينَ } , أي : داخلين في وقت الصبح .
[84] قوله تعالى : { فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } , من الشرك والأعمال الخبيثة .
[85] قوله تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ } , يعني : القيامة{ لَآتِيَةٌ } , يجازي المحسن بإحسانه والمسيئ بإساءته { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } ، فأعرض عنهم واعف عفوا حسنا . نسختها آية القتال .
[86] { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } بخلقه .

[87] قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } ، قال عمر وعلي : فاتحة الكتاب . وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم » (1) .
، وعن ابن مسعود قال : السبع المثاني هي فاتحة الكتاب والقرآن العظيم سائر القرآن ، واختلفوا في أن الفاتحة لم سميت مثاني ؟ فقال ابن عباس والحسن وقتادة : لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة . وقيل : لأنها مقسومة بين الله وبين العبد بنصفين نصفها ثناء ونصفها دعاء ، كما روينا عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال . « يقول الله : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » (2) .

---
(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجر 8 / 381 .
(2) أخرجه مسلم في الصلاة رقم (395) 1 / 396 والمصنف في شرح السنة 3 / 47 .

، وقال الحسين بن الفضل : سميت مثاني لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة . وقال مجاهد : سميت مثاني لأن الله تعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم . وقال أبو زيد البلخي : سميت مثاني لأنها تثني أهل الشر عن الفسق من قول العرب ثنيت عناني . وقيل : لأن أولها ثناء . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : إن السبع المثاني هي السبع الطوال أولها سورة البقرة وآخرها الأنفال مع التوبة . وقال بعضهم : سورة يونس بدل الأنفال ، عن ثوبان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال . « إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني مكان الزبور المثاني ، وفضلني ربي بالمفصل » . وقال طاووس : القرآن كله مثاني قال الله تعالي : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ } . وسمي القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه ، وعلى هذا القول المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن ، فيكون تقديره على هذا وهي القرآن العظيم .

[88] قوله تعالى : { لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } , يا محمد , { إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا } , أصنافا , { مِنْهُمْ } أي : من الكفار متمنيا لها, نهى الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها, { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } , أي : لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل : هذه الآية متصلة بما قبلها وذلك أنه لما من الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا : , { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ } , لين جانبك { لِلْمُؤْمِنِينَ } , وارفق بهم والجناحان من ابن آدم جانباه .

[89] { وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ } .

[90] { كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ } قال الفراء : مجازة أنذركم عذابا كعذاب المقتسمين, حكي عن ابن عباس أنه قال : هم اليهود والنصارى .

[91] { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } , جزّؤوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وقال مجاهد : هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففرقوه وبدلوه . وقيل : المقتسمون قوم اقتسموا القرآن, فقال بعضهم : سحر . وقال بعضهم : شعر . وقال بعضهم : كذب . وقال بعضهم : أساطير الأولين . وقيل : الاقتسام هو أنهم فرقوا القول في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : ساحر كاهن شاعر , وقال مقاتل : كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقاب مكة وطرفها , وقعدوا على نقابها فيقولون لمن جاء من الحجاج : لا تغتروا بهذا الرجل الخارج الذي يدعي النبوة منا, وتقول طائفة منهم : إنه مجنون وطائفة إنه كاهن وطائفة إنه شاعر, والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكما فإذا سئل عنه قال : صدق أولئك يعني المقتسمين . وقوله : { عِضِينَ } قيل : هو جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشيء تعضية ، إذا فرقته ومعناه أنهم جعلوا القرآن أعضاء ، فقال بعضهم : سحر . وقال بعضهم : كهانة . وقال بعضهم : أساطير الأولين . وقيل : هو جمع عضة . يقال : عضة وعضين مثل برة وبرين وعزة وعزين ، وأصلها عضهة ذهبت هاؤها الأصلية

كما نقصوا من الشفة وأصلها شفهة بدليل أنك تقول في التصغير شفيهة ، والمراد بالعضة الكذب والبهتان . وقيل : المراد بالعضين العضة وهو السحر

يريد أنهم سموا القرآن سحرا .
[92] { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ، يوم القيامة .

[93] { عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } في الدنيا قال محمد بن إسماعيل : قال عدة من أهل العلم عن قوله لا إله إلا الله ، فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ } قيل : قال ابن عباس : لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم بهم منهم ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا ؟ واعتمده قطرب فقال : السؤال ضربان : سؤال استعلام وسؤال توبيخ ، فقوله تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ } ، يعني : استعلاما . وقوله : { لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } يعني : توبيخا وتقريعا . وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين : إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف مختلفة يسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها ، نظير ذلك قوله تعالى : { هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ } ، وقال في آية أخرى : { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ } .

[94] قوله تعالى : { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } ، قال ابن عباس : أظهره . ويروى عنه : أمضه . وقال الضحاك : أعلم . وقال الأخفش : أفرق ، أي : أفرق بالقرآن بين الحق والباطل . وقال سيبويه : اقض بما تؤمر ، وأصل الصدع الفصل والفرق ، أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذه الآية بإظهار الدعوة . وروي عن عبد الله بن عبيدة قال : كان مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه { وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } ، نسختها آية القتال .
[95] { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } ، يقول الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : فاصدع بأمر الله ولا تخف أحدا غير الله عز وجل فإن الله كافيك من عاداك كما كفاك المستهزئين ، وهم خمسة نفر من رؤساء قريش : الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان رأسهم- والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن عبد المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة ، والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، والحارث بن قيس بن الطلاطلة .

[96] { الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } وقيل : استهزاؤهم واقتسامهم هو أن الله لما أنزل في القرآن سورة البقرة وسورة النحل وسورة النمل وسورة العنكبوت ، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء يقول هذا في سورة البقرة ويقول هذا في سورة النحل ويقول هذا في سورة العنكبوت .
[97] فأنزل الله تعالى : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ }
[98] { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } ، قال ابن عباس : فصل بأمر ربك ، { وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ } ، من المصلين المتواضعين ، وقال الضحاك : فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده ، وكن من الساجدين ، يعني : من المصلين . وروي « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » (1) .
[99] { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } ، أي الموت الموقن به ، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم . { وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا } .

---

(1) أخرجه أبو داود في الصلاة 2 / 94 والإمام أحمد في المسند 5 / 388 والمصنف في شرح السنة 4 / 155 وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة 1 / 416 .

(16) سورة النحل
[1] { أَتَى } أي : جاء ودنا وقرب ، { أَمْرُ اللَّهِ } ، قال ابن عرفة : تقول العرب : أتاك الأمر وهو متوقع بعد ، أي : أتى أمر الله وعده . { فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ } ، وقوعا ، (أمر الله) قال الكلبي وغيره : المراد منه القيامة . قال ابن عباس : « لما نزل قوله تعالى : { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ } قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن ، فلما لم ينزل شيء قالوا : ما نرى شيئا فنزل قوله : { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } ، فأشفقوا فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فأنزل الله تعالى : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ) فوثب النبي - صلى الله عليه وسلم - ورفع الناس رءوسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزلت (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) فاطمأنوا » (1) .

---

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 321 بدون إسناد وبمعناه أخرجه الطبري 14 / 75 .

والاستعجال : طلب الشيء قبل حينه ، ولما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه وإن كادت لتسبقني » وقال قوم : المراد بالأمر هاهنا عقوبة المكذوبين والعذاب بالسيف ، وذلك أن النضر بن الحارث قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية » (1) . وقتل النضر يوم بدر صبرا . { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، معناه تعاظم بالأوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند 2 / 50 قال ابن حجر في الفتح : أخرجه أحمد والطبري وسنده حسن وأصل الحديث في البخاري كتاب الرقاق 11 / 347 وفي مسلم في كتاب الفتن 4 / 2268 .

[2] { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ } ، قرأ العامة بضم الياء وكسر الزاي ، و (الملائكة) نصب . وقرأ يعقوب بالتاء وفتحها وفتح الزاي و (الملائكة) رفع ، { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ } بالوحي سماه روحا لأنه يحيي به القلوب والحق . قال عطاء : بالنبوة . وقال قتادة : بالرحمة . قال أبو عبيدة : بالروح يعني مع الروح وهو جبرائيل . { مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا } ، اعلموا { أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } وقيل : معناه مروهم بقول لا إله إلا الله منذرين مخوفين بالقرآن إن لم يقولوا . وقوله : فاتقون أي : فخافون .
[3] { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، أي : ارتفع عما يشركون .

[4] { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ }{ خَصِيمٌ } ، جدل بالباطل ، { مُبِينٌ } ، نزلت في أبي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء بعظم رميم فقال . أتقول إن الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد رم ؟ كما قال جل ذكره { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ } نزلت فيه أيضا . والصحيح أن الآية عامة ، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه ، من جحود نعم الله مع ظهورها عليهم .
[5] قوله تعالى : { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا } ، يعني الإبل والبقر والغنم ، { لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ } يعني : من أوبارها وأشعارها وأصوافها ملابس ولحفا تستدفئون بها ، {

وَمَنَافِعُ } ، بالنسل والدر والركوب والحمل وغيرها ، { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } ، يعني لحومها .
[6] { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ } ، زينة ، { حِينَ تُرِيحُونَ } أي : حين تردونها بالعشي من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها ، { وَحِينَ تَسْرَحُونَ } ، أي : تخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها ، وقدم الرواح لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح ، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت .

[7] { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ } ، أحمالكم , { إِلَى بَلَدٍ } آخر غير بلدكم . { لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ } ، أي : بالمشقة والجهد . والشق : النصف أيضا أي : لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها . وقرأ أبو جعفر (بشق) بفتح الشين وهما لغتان مثل رَطل ورِطل . { إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } ، بخلقه حيث جعل لكم هذه المنافع .
[8] { وَالْخَيْلَ } ، يعني : وخلق الخيل وهي اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء والسماء . { وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً } ، يعني وجعلها زينة لكم مع المنافع التي فيها ، { وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } من وسائل الانتقال وأسباب الزينة ، وقيل : يعني ما أعد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر عدى قلب بشر .

[9] قوله تعالى : { وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } يعني : بيان طريق الهدى من الضلالة . وقيل : بيان الحق بالآيات والبراهين ، والقصد : الصراط المستقيم . { وَمِنْهَا جَائِرٌ } يعني : ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوج ، فالقصد من السبيل دين الإسلام ، والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر . قال جابر بن عبد الله : قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض . وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله . قصد السبيل السنة . ومنها جائر : الأهواء والبدع ، دليله قوله تعالى : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ } . { وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } ، نظيره قوله تعالى : { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } .
[10] قوله . { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ } ، تشربونه ، { وَمِنْهُ شَجَرٌ } ، أي : من ذلك الماء شراب أشجاركم حياة نباتكم ، { فِيهِ } يعني : في الشجر ، { تُسِيمُونَ } ، ترعون مواشيكم .

[11] { يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ } أي : ينبت الله لكم به يعني الماء الذي أنزل وقرأ أبو بكر عن عاصم (ننبت) بالنون . { الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } .
[12] { وَسَخَّرَ لَكُمُ } ، ذلل لكم { اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ } ، مذللات ، { بِأَمْرِهِ } أي : بإذنه وقرأ حفص عن عاصم (والنجوم مسخرات) بالرفع على الابتداء . { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } .
[13] { وَمَا ذَرَأَ } ، خلق ، { لَكُمْ } ، لأجلكم : أي : وسخر ما خلق لأجلكم ، { فِي الْأَرْضِ } ، من الدواب والأشجار والثمار وغيرها ، { مُخْتَلِفًا } نصب على الحال ، { أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } ، يعتبرون .

[14] { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا } يعني : السمك ، { وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } يعني : اللؤلؤ والمرجان ، { وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ } ، جواري فيه . قال قتادة : مقبلة ومدبرة وهو أنك ترى سفينتين

إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة . وقال الحسن : مواخر أي مملوءة . وقال الفراء والأخفش : مواخر شواق تشق الماء بجؤجؤها . قال مجاهد : تمخر السفن الرياح . وأصل المخر : الرفع والشق ، وفي الحديث : « إذا أراد أحدكم البول فليستمخر الريح » (1) .
(1) أي : لينظر من أين مجراها وهبوبها حتى لا يرث عليه البول . وقال أبو عبيدة : صوائخ . والمخر : صوت هبوب الريح عند شدتها ، { وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } يعني : التجارة ، { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، إذ رأيتم صنع الله فيما سخر لكم .

____
(1) أخرجه ابن حبان في المجروحين 3 / 108 وذكره الزمخشري في الفائق 3 / 305 وابن الأثير في النهاية 4 / 305 والزيلعي في نصب الراية 2 / 103 .

[15] { وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ } أي لئلا تميد بكم أي تتحرك وتميل ، والميد : هو الاضطراب والتكفؤ ومنه قيل للدوار الذي يعتري راكب البحر : ميد قال وهب : لما خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة : إن هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال ، { وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا } أي : وجعل فيها أنهارا وطرقا مختلفة { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } ، إلى ما تريدون فلا تضلون .
[16] { وَعَلَامَاتٍ } يعني : معالم الطرق . قال بعضهم : ها هنا تم الكلام ثم ابتدأ ، { وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } ، قال محمد بن كعب والكلبي : أراد بالعلامات الجبال والجبال تكون علامات النهار والنجوم علامات الليل . وقال مجاهد : أراد بالكل النجوم منها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به .
[17] { أَفَمَنْ يَخْلُقُ } ، يعني : الله تعالى ، { كَمَنْ لَا يَخْلُقُ } ، يعني : الأصنام ، { أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } .

[18] { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ } لتقصيركم في شكر نعمه { رَحِيمٌ } بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي .
[19] { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ }
[20] { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } يعني : الأصنام ، وقرأ عاصم ويعقوب (يدعون) بالياء . { لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } .
[21] { أَمْوَاتٌ } أي : الأصنام { غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ } ، يعني الأصنام { أَيَّانَ } متى { يُبْعَثُونَ } ، والقرآن يدل على أن الأصنام تبعث وتجعل فيها الحياة فتتبرأ من عابديها وقيل : ما يدري الكفار عبدة الأصنام متى يبعثون .
[22] قوله تعالى : { إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ } ، جاحدة ، { وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } ، متعظمون .

[23] { لَا جَرَمَ } ، حقا { أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ } عن عبد الله عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان" ، فقال رجل : يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ؟ قال : "إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (1) .
[24] { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ } ، يعني : لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم مشركو مكة الذين اقتسموا عقابها إذا سأل منهم الحاج ، { مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } ، أحاديثهم وأباطيلهم .

____
(1) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (91) 1 / 53 والمصنف في شرح السنة 13 / 165 .

[25] { لِيَحْمِلُوا } أي : ليجعلوا ، { أَوْزَارَهُمْ } ، ذنوب أنفسهم ، { كَامِلَةً } ، وإنما ذكر الكمال لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون فيها من الحسنات لا تكفر عنهم شيئا ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، بغير حجة فيصدونهم عن الإيمان ، { أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } ، ما يحملون . عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (1) .

____
(1) أخرجه مسلم في العلم رقم (2674) 4 / 2060 والمصنف في شرح السنة 1 / 232 .

[26] قوله تعالى : { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، وهو نمرود بن كنعان ، بنى الصرح ببابل ليصعد السماء . قال ابن عباس ووهب : كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع . وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين فهبت ريح وألقت رأسه في البحر وخر عليهم الباقي وهم تحته ، فذلك قوله تعالى : { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ } أي : قصد تخريب بنيانهم من أصولها ، { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ } يعني أعلى البيوت { مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ } ، من مأمنهم .

[27] { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ } ، يهينهم بالعذاب ، { وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ } ، تخالفون ، المؤمنون فيهم ما لهم لا يحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب ، وكسر نافع النون من (تشاقون) على الإضافة ، والآخرون بفتحها . { قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } ، وهم المؤمنون ، { إِنَّ الْخِزْيَ } ، الهوان ، { الْيَوْمَ وَالسُّوءَ } ، أي : العذاب ، { عَلَى الْكَافِرِينَ } .
[28] { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ } يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ، قرأ حمزة (يتوفاهم) بالياء وكذا ما بعده ، { ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } ، بالكفر ونصب على الحال أي : في حال كفرهم ، { فَأَلْقَوُا السَّلَمَ } أي : استسلموا وانقادوا وقالوا ، { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ } ، شرك فقال لهم الملائكة ، { بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . قال عكرمة : عنى بذلك من قتل من الكفار ببدر .

[29] { فَادْخُلُوا } أي : قال لهم ادخلوا { أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } ، عن الإيمان ، (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - فإذا جاء يسأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون : ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون ، ولو لم تلقه خير ، فيقول السائل : إنا شر وفد إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فيخبرونه بصدقه وأنه نبي ، مبعوث .

[30] فذلك قوله : { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا } يعني : أنزل خيرا ، ثم ابتدأ فقال : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ } ، كرامة من الله . قال ابن عباس : هي تضعيف الأجر إلى العشر . وقال الضحاك : هي النصر والفتح . وقال مجاهد : هي الرزق الحسن { وَلَدَارُ الْآخِرَةِ } ، أي ولدار الحال الآخرة ، { خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } ، قال الحسن : هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة . وقال أكثر المفسرين : هي الجنة ، ثم فسرها .
[31] فقال : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ } .
[32] { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ } ، مؤمنين طاهرين من الشرك . قال مجاهد : زاكية أفعالهم وأقوالهم . وقيل : معناه إن وفاتهم تقع طيبة سهلة . { يَقُولُونَ } يعني : الملائكة لهم, { سَلَامٌ عَلَيْكُمُ } وقيل : معناه يبلغونهم سلام الله, { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } .

[33] قوله : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ } , لقبض أرواحهم, { أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ } , يعني : يوم القيامة, وقيل : العذاب . { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } , أي : كفروا كما كفر الذين من قبلهم, { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ } بتعذيبه إياهم, { وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }
[34] { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا } , عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة, { وَحَاقَ بِهِمْ } , نزل بهم, { مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }

[35] { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ }{ شَيْءٍ } يعني في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فلولا أن الله رضيها لنا لغير ذلك وهدانا إلى غيرها ، { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } ، أي : ليس إليهم الهداية إنما إليهم التبليغ .
[36] { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا } أي : كما بعثنا فيكم ، { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } ، وهو معبود من دون الله ، { فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ } ، أي : هداه الله إلى دينه ، { وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } أي وجبت : بالقضاء السابق حتى مات على كفره ، { فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } ، أي : مال أمرهم وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك .

[37] { إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ } ، يا محمد ، { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ } ، قرأ أهل الكوفة (يهدي) بفتح الياء وكسر الدال أي : لا يهدي الله من أضله . وقيل : معناه لا يهتدي من أضله الله ، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الدال يعني من أضله الله فلا هادي له كما قال : { مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ } ، { وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } أي : مانعين من العذاب .
[38] قوله تعالى : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ } ، وهم منكرو البعث قال الله تعالى ردا عليهم : { بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } .
[39] { لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ } أي : ليظهر لهم الحق فيما يختلفون ، { فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ } .
[40] { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ، يقول الله تعالى : إذا أردنا أن نبعث الموتى فلا تعب علينا في إحيائهم ولا في شيء مما يحدث إنما نقول له : كن فيكون .

[41] قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } ، عذبوا وأوذوا في الله ، قال قتادة : هم أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } ، وهو أنه أنزلهم المدينة . وقيل : معناه لنحسنن إليهم في الدنيا . وقيل : الحسنة في الدنيا التوفيق والهداية . { وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } . وقوله : (لو كانوا يعلمون) ينصرف إلى المشركين لأن المؤمنين كانوا يعلمونه .
[42] { الَّذِينَ صَبَرُوا } ، في الله على ما نالهم ، { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } .

[43] { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ } ، نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فهل بعث إلينا ملكا ، { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ } ، يعني مؤمني أهل الكتاب ، { إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } .
[44] { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } ، واختلفوا في الجالب للباء في قوله (بالبينات) قيل : هي راجعة إلى قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا) ، وإلا بمعنى غير ، مجاز : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر غير رجال يوحى إليهم ولم نبعث ملائكة . وقيل : تأويله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر . { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } ، أراد بالذكر الوحي وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - مبينا للوحي وبيان الكتاب يطلب من السنة { وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } .

[45] { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا } ، عملوا { السَّيِّئَاتِ } من قبل يعني نمرود بن كنعان وغيره الكفار ، { أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ } .
[46] { أَوْ يَأْخُذَهُمْ } ، بالعذاب ، { فِي تَقَلُّبِهِمْ } ، تصرفهم في الأسفار . وقال ابن عباس : في اختلافهم . وقال ابن جريج : في إقبالهم وإدبارهم ، { فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ } ، السابقين الله .
[47] { أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ } ، والتخوف : النقص ، أي : ينقص من أطرافهم ونواحيهم شيئا بعد شيء حتى يهلك جميعهم ، يقال : تخوفه الدهر وتخونه إذا نقصه وأخذ ماله وحشمه ، ويقال : هذا لغة بني هذيل . وقال الضحاك والكلبي : هو من الخوف ، أي : أن يعذب طائفة ليتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم . { فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } ، حين لم يعجل بالعقوبة .

[48] قوله : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } ، قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب وكذلك في سورة العنكبوت ، والآخرون بالياء خبرا عن الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من شيء من جسم قائم له ظل ، { يَتَفَيَّأُ } ، قرأ أبو عمر ، ويعقوب بالتاء والآخرون بالياء . { ظِلَالُهُ } ، أي : تميل وتدور من جانب إلى جانب فهي في أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود في آخر النهار إلى حال أخرى, سجدا لله فميلانها ودورانها سجودها لله عز وجل . ويقال للظل بالعشي : فيء لأنه فاء أي رجع من المغرب إلى المشرق, فالفيء الرجوع, والسجود الميل . يقال : سجدت النخلة إذا مالت .

قوله عز وجل { عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ } ، قول قتادة والضحاك : أما اليمين فأول النهار والشمال آخر النهار , تسجد الظلال لله . وقيل : المراد من الظلال سجود الأشخاص فإذا قيل : لم وحد اليمين وجمع الشمائل ؟ قيل : من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة , كقوله تعالى : { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ } , وقوله : { يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } , وقيل : اليمين يرجع إلى قوله : (وما خلق الله) ولفظ (ما) واحد والشمائل جمع يرجع إلى المعنى . { وَهُمْ دَاخِرُونَ } ، صاغرون .

[49] { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } إنما أخبر بـ (ما) لغلبة ما لا يعقل على من يعقل في العدد ، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث ، { مِنْ دَابَّةٍ } ، أراد من كل حيوان يدب . ويقال : السجود الطاعة والأشياء كلها مطيعة لله عز وجل من حيوان وجماد ، قال الله تعالى : { قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } ، وقيل : سجود الأشياء تذللها وتسخرها لما أريدت له وسخرت له . وقيل : سجود الجمادات وما لا يعقل ظهور أثر الصنع فيه على معنى أنه يدعو الغافلين إلى السجود عند التأمل والتدبر فيه ، قال الله تعالى :
{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ } . { وَالْمَلَائِكَةُ } ، خص الملائكة بالذكر مع كونهم من جملة ما في السماوات والأرض تشريفا ورفعا لشأنهم . وقيل : لخروجهم من الموصوفين بالدبيب إذ لهم أجنحة يطيرون بها . وقيل : أراد ولله يسجد ما في السماوات من الملائكة وما في الأرض من دابة ، وتسجد الملائكة . { وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } .
[50] { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ } كقوله : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } .
{ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }

[51] قوله تعالى : { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } .
[52] { وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ } ، الطاعة والإخلاص { وَاصِبًا } ، دائما ثابتا ، معناه : ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك غير الله عز وجل فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع . { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } ، أي : تخافون ، استفهام على طريق الإنكار .
[53] قوله تعالى : { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } ، أي : وما يكن من نعمة فمن الله ، { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ } ، القحط والمرض ، { فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } ، تضجون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة .
[54] { ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } .

[55] { لِيَكْفُرُوا } ، ليجحدوا ، { بِمَا آتَيْنَاهُمْ } ، وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، أي : حاصل أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم أعطيناهم من النعماء وكشف الضراء والبلاء ، { فَتَمَتَّعُوا } ، أي : عيشوا في الدنيا المدة التي ضربتها لكم ، { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } عاقبة أمركم ، هذا وعيد لهم .
[56] { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ } ، له حقا أي : الأصنام ، { نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } ، من الأموال وهو ما جعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : { تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ } ، يوم القيامة ، { عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } ، في الدنيا .
[57] { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } ، وهم خزاعة وكنانة ، قالوا : الملائكة بنات الله تعالى : { سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } ، أي : ويجعلون لأنفسهم البنين الذين

يشتهونهم فيكون (ما) في محل النصب ، ويجوز أن يكون على الابتداء فيكون (ما) في محل الرفع .

[58] { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا } ، متغيرا من الغم والكراهية ، { وَهُوَ كَظِيمٌ } ، وهو ممتلئ حزنا وغيظا فهو يكظمه ، أي : يمسكه ولا يظهره .

[59] { يَتَوَارَى } ، أي : يختفي ، { مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ } . من الحزن والعار ثم يتفكر { أَيُمْسِكُهُ } ، ذكر الكناية ردا على (ما) { عَلَى هُونٍ } أي : هوان ، { أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ } ، أي : يخفيه فيئده ، وذلك أن مضر وخزاعة وتميما كانوا يدفنون البنات أحياء خوفا من الفقر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن ، وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى صارت سداسية قال : لأمها زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئرا في الصحراء فإذا بلغ بها البئر قال لها : انظري إلى هذه البئر ، فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض ، فذلك قوله عز وجل : (أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) { أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } ، بئس ما يقضون لله البنات ولأنفسهم البنين ، نظيره : { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى }{ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى } ، وقيل : بئس حكمهم وأد البنات .

[60] { لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } ، يعني : لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنين { مَثَلُ السَّوْءِ } ، صفة السوء من الاحتياج إلى الولد وكراهية الإناث وقتلهن خوف الفقر ، { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } الصفة العليا وهي التوحيد وأنه لا إله إلا هو . وقيل : جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء وغيرها من الصفات . قال ابن عباس : مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله . { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .
[61] { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ } ، فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم ، { مَا تَرَكَ عَلَيْهَا } ، أي : على الأرض ، كناية عن غير مذكور ، { مِنْ دَابَّةٍ } ، قال قتادة في الآية : قد فعل الله ذلك من زمن نوح فأهلك من على الأرض إلا من كان في سفينة نوح عليه السلام . وقيل : إن معنى الآية لو يؤاخذ الله آباء الظالمين بظلمهم انقطع النسل ولم توجد الأبناء فلم يبق في الأرض أحد . { وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } ، يمهلهم بحلمه إلى أجل ، { مُسَمًّى } ، إلى منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم .

{ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } .
[62] قوله عز وجل : { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ } ، لأنفسهم يعني البنات ، { وَتَصِفُ } ، أي : تقول : { أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى } , يعني البنين محل (إن) نصب بدل عن الكذب, قال يمان : يعني بالحسنى : الجنة في المعاد يقولون نحن في الجنة إن كان محمد صادقا بالوعد في البعث . { لَا جَرَمَ } , حقا . قال ابن عباس : بلى, { أَنَّ لَهُمُ النَّارَ } , في الآخرة, { وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ } , قرأ نافع بكسر الراء وكسرها أي : مضيعون أمر الله, وقرأ الآخرون بفتح الراء وتخفيفها أي : منسيون في النار, قاله ابن عباس , وقال سعيد بن جبير : مبعدون, وقال مقاتل : متروكون . قال قتادة : معجلون إلى

النار . قال الفراء : مقدمون على النار, ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا فرطكم على الحوض » (1) أي : متقدمكم .

---

(1) قطعة من حديث أخرجه البخاري في الرقاق 11 / 463 ومسلم في الطهارة رقم (249) 1 / 218 .

[63] { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ } كما أرسلنا إلى هذه الأمة ، { فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } ، الخبيثة ، { فَهُوَ وَلِيُّهُمُ } ، ناصرهم ، { الْيَوْمَ } ، وقرينهم سماه وليا لهم لطاعتهم إياه ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، في الآخرة .
[64] { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ } ، من الدين والأحكام ، { وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ، أي : ما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانا وهدى ورحمة فالهدى والرحمة عطف على قوله (لتبين) .

[65] { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } ، يعني المطر , { فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ } ، بالنبات, { بَعْدَ مَوْتِهَا } يبوستها ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } ، سمع القلوب لا سمع الآذان .
[66] { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } ، لعظة ، { نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ } ، قال الفراء : رد الكناية إلى النعم ، والنعم والأنعام واحد ، ولفظ النعم مذكر قال أبو عبيدة والأخفش : النعم يذكر ويؤنث فمن أنث فالمعنى الجمع ومن ذكر فلحكم اللفظ . قال الكسائي : رده إلى ما يعني في بطون ما ذكرنا ، وقال المؤرج : الكناية مردودة إلى البعض والجزء كأنه قال نسقيكم مما في بطونه اللبن إذا ليس لكلها لبن واللبن فيه مضمر ، { مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ } ، وهو ما في الكرش من الثقل فإذا خرج منه لا يسمى فرثا ، { وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا } ، من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث ، { سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } ، هنيئا يجري على السهولة في الحلق .

[67] { وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ } يعني : ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ، { تَتَّخِذُونَ مِنْهُ } والكناية في (منه) عائدة إلى (ما) محذوفة أي : ما تتخذون منه ، { سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا } ، قال قوم : السكر : الخمر ، والرزق الحسن الخل والزبيب والتمر والرُّبّ, قالوا : وهذا قبل تحريم الخمر, وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد , وقال الشعبي : السكر ما شربت, والرزق الحسن : ما أكلت . وروى العوفي عن ابن عباس : أن السكر هو الخل بلغة الحبشة ، وقال بعضهم : السكر النبيذ المسكر ، وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد والمطبوخ من العصير ، وهو قول الضحاك والنخعي ، ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرم يقول : المراد من الآية الإخبار لا الإحلال وأولى الأقاويل أن قوله : (تتخذون منه سكرا) منسوخ ، روي عن ابن عباس قال : السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما أحل . وقال أبو عبيدة : السكر الطعم يقال : هذا سكر لك أي : طعم ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

[68] { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } ، أي : ألهمها وقذف في أنفسها ففهمته ، والنحل زنابير العسل واحدتها نحلة . { أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } ، يبنون ، وقد جرت العادة أن أهلها يبنون لها الأماكن فهي

تأوي إليها ، قال ابن زيد : هي الكروم .
[69] { ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } ، ليس معنى الكل العموم ، وهو كقوله تعالى : { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } { فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا } . قيل : هي نعت الطرق ، يقول : هي مذللة للنحل سهلة المسالك . قال مجاهد : لا يتوعر عليها مكان سلكته . وقال آخرون : الذلل نعت النحل ، أي : مطيعة منقادة بالتسخير . يقال : إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ، { يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ } ، يعني : العسل { مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ } ، أبيض وأحمر وأصفر . { فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ } ، أي : في العسل وقال مجاهد : أي في القرآن والأول أولى ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ، فيعتبرون .

[70] { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ } ، صبيانا أو شبانا أو { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } ، أردئه قال مقاتل . يعني الهرم . قال قتادة : أرذل العمر : تسعون سنة روي عن علي قال : أرذل العمر : خمس وسبعون . وقيل : ثمانون سنة . { لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا } ، لكيلا يعقل بعد عقله الأول شيئا ، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } .
[71] { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ } ، بسط عن واحد وضيق على الآخر وقلل وكثر . { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ، من العبيد ، { فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ } ، أي : حتى يستووا هم وعبيدهم في ذلك ، يقول الله تعالى : لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم الله سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم به الحجة على المشركين . قال قتادة : هذا مثل ضربه الله عز وجل فهل منكم أحد يشركه مملوكه في زوجته وفراشه وماله أفتعدلون بالله خلقه وعباده . { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } . بالإشراك به .

[72] قوله تعالى : { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } . يعني : النساء خلق من آدم وزوجته حواء ، وقيل : من أنفسكم أي : من جنسكم أزواجا ، { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً } . قال ابن مسعود والنخعي : الحفدة أختان الرجل على بناته ، وعن ابن مسعود أيضا أنهم الأصهار ، فيكون معنى الآية على هذا القول : وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار . وقال عكرمة والحسن والضحاك : هم الخدم . قال مجاهد : هم الأعوان من أعانك فقد حفدك . وقال عطاء : هم ولد ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه . وقال قتادة : مهنة تمتهنونهم ويخدمونكم من أولادكم . قال الكلبي ومقاتل : البنين الصغار والحفدة كبار الأولاد الذين يعينونه على عمله . وروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس : أنهم ولد الولد . وروى العوفي عنه : أنهم بنو امرأة الرجل ليسوا منه { وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ } ، من النعم الحلال ، { أَفَبِالْبَاطِلِ } ، يعني الأصنام ، { يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } ، يعني التوحيد والإسلام ، وقيل : الباطل الشيطان أمرهم بتحريم البحيرة

والسائبة ، وبنعمة الله أي بما أحل الله لهم يكفرون يجحدون تحليله .

[73] { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ } ، يعني المطر ، { وَالْأَرْضِ } ، يعني النبات ، { شَيْئًا } قال الأخفش : هو بدل من

الرزق معناه أنهم لا يملكون من أمر الرزق شيئا قليلا ولا كثيرا . وقال الفراء : نصب شيئا بوقوع الرزق عليه أي لا يرزق شيئا ، { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ } ، ولا يقدرون على شيء بذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضر .
[74] { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } ، يعني الأشباه فتشبهونه بخلقه وتجعلون له شريكا فإنه واحد لا مثل له ، { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } ، خطأ ما تضربون من الأمثال ، ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر ، فقال جل ذكره .

[75] { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ } هذا مثل الكافر رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرا { وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا } ، هذا مثل المؤمن أعطاه الله مالا فعمل فيه بطاعة الله وأنفقه في رضاء الله سرا وجهرا فأثابه الله عليه الجنة . { هَلْ يَسْتَوُونَ } ، ولم يقل هل يستويان لمكان (من) وهو اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع ، وكذلك قوله (لا يستطيعون) بالجمع لأجل من ، معناه : هل يستوي هذا الفقير البخيل والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العامي والمؤمن المطيع . { الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ، يقول ليس الأمر كما يقولون ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله عز وجل لأنه المنعم والخالق والرازق ، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون ، ثم ضرب مثلا للأصنام فقال :

[76] { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ } ، كَلٌّ ثقل ووبال على مولاه ابن عمه وأهل ولايته ، { أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ } ، يرسله ، { لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ } ، لأنه لا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه ، هذا مثل الأصنام لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل ، (وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) عابده يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه ، { هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } ، يعني : الله فإنه قادر متكلم يأمر بالتوحيد ، { وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، قال الكلبي : يعني يدلكم على صراط مستقيم . وقيل : هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . وقيل : كلا المثلين للمؤمن والكافر ، يرويه عطية عن ابن عباس قال عطاء : الأبكم أبي بن خلف ، ومن يأمر بالعدل : حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون . وقال مقاتل : نزلت في هاشم بن عمرو بن الحرث بن ربيعة القرشي ، وكان قليل الخير يعادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقيل : نزلت في عثمان بن عفان ومولاه ، كان عثمان ينفق عليه وكان مولاه يكره الإسلام .

[77] { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ } ، في قرب كونها ، { إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ } ، إذا قال له كن فيكون ، { أَوْ هُوَ أَقْرَبُ } ، بل هو أقرب ، { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ، نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء .
[78] { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا } تم الكلام ثم ابتدأ فقال جل وعلا ، { وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ } ، لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج ، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، نعمة كون السمع والأبصار والأفئدة قبل الخروج إذ يسمع الطفل ويبصر ولا يعلم ، وهذه الجوارح من غير هذه الصفات كالمعدوم ، كما قال فيمن لا يسمع الحق ولا يبصر العبر ولا يعقل الثواب :
{ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } لا يشكرون نعمه .

[79] { أَلَمْ يَرَوْا } ، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء والباقون بالياء لقوله : (ويعبدون) . { إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ } ، مذللات ، { فِي جَوِّ السَّمَاءِ } وهو الهدف بين السماء والأرض ، روى كعب الأحبار أن الطير ترفع اثني عشر ميلا ولا ترفع فوق هذا وفوق الجو السكاك السماء { مَا يُمْسِكُهُنَّ } في الهواء { إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .

[80] { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ } التي هي من الحجر والمدر ، { سَكَنًا } أي : مسكنا تسكنونه ، { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا } ، يعني الخيام والقباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم ، { تَسْتَخِفُّونَهَا } أي : يخف عليكم حملها ، { يَوْمَ ظَعْنِكُمْ } ، رحلتكم في سفركم ، { وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ } ، في بلدكم لا تثقل عليكم في الحالين ، { وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا } ، يعني أصواف الضأن وأوبار الإبل أشعار المعز ، والكناية راجعة إلى الأنعام ، { أَثَاثًا } قال ابن عباس : مالا . قال مجاهد : متاعا . قال القتيبي : الأثاث المال جميعه من الإبل والغنم والمتاع ، وقال غيره : هو متاع البيت من الفرش والأكسية ، { وَمَتَاعًا } ، بلاغا ينتفعون بها ، { إِلَى حِينٍ } يعني إلى حين الموت . وقيل : إلى حين تبلى .

[81] { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا } تستظلون بها من شدة الحر وهي ظلال الأبنية والأشجار, { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا } , يعني : الأسراب والغيران واحدها كن { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ } قمصا من الكتان والقز والقطن والصوف, { تَقِيكُمُ } , تمنعكم, { الْحَرَّ } , قال أهل المعاني : أراد الحر والبرد اكتفاء بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه . { وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ } , يعني : الدروع , والبأس : الحرب, يعني تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } , تخلصون له الطاعة .
[82] { فَإِنْ تَوَلَّوْا } , فإن أعرضوا فلا يلحق في ذلك عتيب ولا سمة تقصير, { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } .

[83] { يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ } , قال السدي يعني : محمدا - صلى الله عليه وسلم -, { ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا } , يكذبون به . وقال قوم : هي الإسلام . وقال مجاهد وقتادة : يعني ما عُدّ لهم من النعم في هذه السورة يقرون أنها من الله, ثم قيل لهم : تصدقوا وامتثلوا لأمر الله فيها ينكرونها فيقولون ورثتها من آبائنا . وقال الكلبي : هو أنه لما ذكر لهم هذه النعمة قالوا : نعم هذه كلها من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا . وقال عوف بن عبد الله : هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا وكذا ولولا فلان لما كان كذا ، { وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } ، الجاحدون .
[84] قوله عز وجل : { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا } ، يعني رسولا { ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } ، في الاعتذار ، وقيل : في الكلام أصلا ، { وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } ، يسترضون ، يعني : لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون ، وحقيقة المعنى في الاستعتاب أنه التعرض لطلب الرضا وهذا الباب منسد في الآخرة على الكفار .

[85] { وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، كفروا ، { الْعَذَابَ } يعني جهنم ، { فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ } .
[86] { وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا } ، يوم القيامة ، { شُرَكَاءَهُمْ } ، أوثانهم ، { قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ } ، أربابا ونعبدهم ،

{ فَأَلْقَوْا } ، يعني الأوثان ، { إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ } ، أي : قالوا لهم ، { إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } ، في تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا .
[87] { وَأَلْقَوْا } ، يعني المشركين { إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ } ، استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم ، ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا ، { وَضَلَّ } ، وزال ، { عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ، من أنها تشفع لهم .

[88] { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، منعوا الناس عن طريق الحق { زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } ، في الدنيا بالكفر وصد الناس عن الإيمان .
[89] { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ، يعني نبيها لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم منها . { وَجِئْنَا بِكَ } ، يا محمد { شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ } ، الذين بعثت إليهم { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا } بيانا ، { لِكُلِّ شَيْءٍ } ، يحتاج إليه من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام ، { وَهُدًى } ، من الضلالة { وَرَحْمَةً وَبُشْرَى } ، بشارة { لِلْمُسْلِمِينَ } .
[90] { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } ، بالإنصاف ، { وَالْإِحْسَانِ } ، إلى الناس وعن ابن عباس : العدل : التوحيد والإحسان : أداء الفرائض . وعنه أيضا : الإحسان : الإخلاص في التوحيد ، وذلك معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » (1) .

---

(1) قطعة من الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري في الإيمان 1 / 114 ومسلم في الإيمان برقم (8) 1 / 36 .

وقال مقاتل : العدل التوحيد ، والإحسان : العفو عن الناس ، { وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } ، صلة الرحم ، { وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ } ، ما قبح من القول والفعل . وقال ابن عباس : الزنا ، { وَالْمُنْكَرِ } ، ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ، { وَالْبَغْيِ } ، الكبر والظلم . وقال ابن عيينة : العدل استواء السر والعلانية ، والإحسان : أن يكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته ، { يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ، لعلكم تتعظون . قال ابن مسعود : أجمع آية في القرآن هذه الآية . وقال أيوب عن عكرمة : إن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) إلى آخر الآية فقال له : يا ابن أخي أعد فعاد عليه ، فقال : إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

[91] قوله تعالى : { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } ، والعهد هاهنا هو اليمين ، قال الشعبي : العهد يمين وكفارته كفارة اليمين ، { وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } ، تشديدها فتحنثوا فيها ، { وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا } ، شهيدا بالوفاء ، { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } ، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية وإن كان حكمها عاما ، قيل : نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرهم الله بالوفاء بها . وقال مجاهد وقتادة : نزلت في حلف أهل الجاهلية . ثم ضرب الله مثلا لنقض العهد .

[92] فقال : { وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ } ، أي : من بعد غزله وإحكامه معناه : أنها لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض ، فكذلك أنتم إذا أنقضتم العهد ، لا كففتم عن العهد ولا حين عاهدتم وفيتم به ،

{ أَنْكَاثًا } ، يعني أنقاضا واحدتها نكث وهو ما نقض بعد الفتل غزلا كان أو حبلا . { تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ } ، أي : دخلا وخيانة وخديعة والدخل : ما يدخل في شيء للفساد ، وقيل : الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض . { أَنْ تَكُونَ } أي : لأن تكون ، { أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى } ، أي : أكثر وأعلى ، { مِنْ أُمَّةٍ } قال مجاهد : وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوما أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر ، فمعناه : طلبتم العز بنقض العهد بأن كانت أمة أكثر من أمة فنهاهم الله عن ذلك . { إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ } ، يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ، { وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } ، في الدنيا .

[93] { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } ، على ملة واحدة وهي الإسلام ، { وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ } ، بخذلانه إياهم عدلا منه ، { وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } ، بتوفيقه إياهم فضلا منه ، { وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، يوم القيامة .

[94] { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا } ، خديعة وفسادا ، { بَيْنَكُمْ } ، فتغرون بها الناس فيسكنون إلى أيمانكم ويأمنون ثم تنقضونها ، { فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا } ، فتهلكوا بعد ما كنتم آمنين والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة بعد سلامة زلت قدمه ، { وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، قيل : معناه سهلتم طريق نقض العهد على الناس بنقضكم العهد ، { وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } .
[95] { وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } ، يعني لا تنقضوا عهودكم تطلبون بنقضها عرضا قليلا من الدنيا ، ولكن أوفوا بها . { إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ } ، من الثواب لكم على الوفاء بالعهد ، { خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك .
[96] فقال : { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ } ، أي : الدنيا وما فيها يفنى ، { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ } ، قرأ أبو جعفر وابن كثير وعاصم بالنون والباقون بالياء ، { الَّذِينَ صَبَرُوا } ، على الوفاء في السراء والضراء ، { أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

[97] قوله تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ } { أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } قال سعيد بن جبير وعطاء : هي الرزق الحلال . قال الحسن : هي القناعة . وقال مقاتل بن حيان : يعني العيش في الطاعة . قال أبو بكر الوراق : هي حلاوة الطاعة . وقال مجاهد وقتادة : هي الجنة . ورواه عوف عن الحسن . وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة . { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .
[98] { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } ، أي : إذا أردت قراءة القرآن { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } ، كقوله تعالى : { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا } ، والاستعاذة سنة عند قراءة القرآن ، وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة . وقال أبو هريرة : بعدها ولفظه أن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . والاستعاذة بالله هي الاعتصام به .
[99] { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ } ، حجة وولاية ، { عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } ، قال سفيان : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر .

[100] { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ } ، يطيعونه ويدخلون في ولايته ، { وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } ، أي : بالله مشركون . وقيل : الكناية راجعة إلى الشيطان ، ومجازه الذين هم من أجله مشركون بالله .
[101] { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ } ، يعني وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر ، { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ } ، أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكامه ، { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ } ، يا محمد ، { مُفْتَرٍ } ، مختلق وذلك أن المشركين قالوا : إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه ، قال الله : { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ، حقيقة القرآن ، وبيان الناسخ والمنسوخ .
[102] { قُلْ نَزَّلَهُ } ، يعني القرآن ، { رُوحُ الْقُدُسِ } ، جبريل ، { مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } بالصدق ، { لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا } ، أي : ليثبت قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا ويقينا ، { وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } .

[103] { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } ، آدمي وما هو من عند الله ، واختلفوا في هذا البشر ، قال ابن عباس : اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمي اللسان ، « فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج ، فكانوا يقولون : إنما يعلمه بلعام » (1) . وقال عكرمة : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبني المغيرة يقال له يعيش ، وكان يقرأ الكتب ، فقالت قريش : إنما يعلمه بشر ، يعيش » . وقال الفراء : قال المشركون إنما يتعلم من عايش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى ، وكان قد أسلم وحسن إسلامه ، وكان أعجمي اللسان . وقال ابن إسحاق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني عبد لبعض بني الحضرمي ، يقال له جبر ، وكان يقرأ الكتب ، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي : كان لنا عبدان من أهل عين النمر وكانا يصنعان السيوف بمكة ، وكان يقرآن التوراة والإنجيل فربما مر بهما النبي صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن التوراة ، فيقف ويستمع . قال الضحاك : وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا آذاه الكفار يقعد إليهما ويستريح بكلامهما ،

____
(1) أخرجه ابن جرير 14 / 177 .

فقال المشركون : إنما يتعلم محمد منهما ، فنزلت هذه الآية قال الله تعالى تكذيبا لهم : { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ } ، أي يميلون ويشيرون إليه ، { أَعْجَمِيٌّ } ، الأعجمي الذي لا يفصح وإن كان ينزل بالبادية ، والعجمي منسوب إلى العجم ، وإن كان فصيحا ، والأعرابي البدوي ، والعربي منسوب إلى العرب ، وإن لم يكن فصيحا ، { وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } ، فصيح وأراد باللسان القرآن ، والعرب تقول : اللغة لسان .
[104] { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ } ، لا يرشدهم الله ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون .
[105] فقال : { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } ، لا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن قيل : قد قال إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون فما معنى قوله : (وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) ، قيل : إنما يفتري الكذب أخبار عن فعلهم وهم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أي كذبت في هذا القول ، ومن عادتك الكذب .

[106] { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ } قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عمار وذلك أن المشركين أخذوه وأباه يا سرا وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم, فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قُبُلها بحربة فقتلت وقتل زوجها يا سر وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام, وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها, فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما وراءك ؟ قال : شر يا رسول الله نلت منهم وذكرت آلهتهم بخير, قال : كيف وجدت قلبك ؟ قال : مطمئنا بالإيمان فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت, فنزلت هذه الآية » (1) وقال مقاتل : نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها, { وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } , ثم أسلم مولى عامر بن الحضرمي وحسن إسلامه وهاجر جبر مع سيده ، { وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا } أي : فتح صدره بالكفر بالقبول فاختاره ، { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } . وأجمع العلماء على أن من أكره

---

(1) أخرجه الطبري 14 / 181 وعبد بن حميد والحاكم انظر الدر المنثور 5 / 172 .

على كلمة الكفر ، يجوز له أن يقول بلسانه ، وإذا قال بلسانه غير معتقد لا يكون كفرا وإن أبى أن يقول حتى يقتل كان أفضل .

[107] { ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا } ، آثروا ، { الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } ، لا يرشدهم .

[108] { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ، عما يراد بهم .

[109] { لَا جَرَمَ } ، أي حقا ، { أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ، أي المغبونون .

[110] { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا } ، عذبوا ومنعوا من الإسلام فتنهم المشركون { ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا } على الإيمان والهجرة والجهاد ، { إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا } ، من بعد تلك الفتنة والغفلة { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[111] { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ } ، تخاصم وتحتج, { عَنْ نَفْسِهَا } بما أسلفت من خير وشر مشتغلا بها لا تتفرغ إلى غيرها ، { وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } .

[112] قوله تعالى : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً } ، يعني . مكة كانت آمنة لا يهاج أهلها ولا يغار عليها ، { مُطْمَئِنَّةً } ، قارة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب ، { يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ } ، يحمل إليها من البر والبحر ، نظيره : { يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ } . { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ } ، جمع النعمة ، وقيل : جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس ، { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ } ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة ، والجيف والكلاب الميتة ، ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : ما هذا ؟ هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان

؟ فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون ، وذكر اللباس لأن ما أصابهم من الهزال والشحوب وتغير ظاهرهم عما كانوا عليه من قبل كاللباس لهم ، { وَالْخَوْفِ } ، يعني : بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التي كانت تطيف بهم { بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ } .
[113] { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ } ، محمد صلى الله عليه وسلم ، { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } .
[114] { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } .
[115] { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا }{ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .
[116] قوله تعالى : { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ } ، أي : لا تقولوا لوصف ألسنتكم أو لأجل وصفكم الكذب أي : أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره ، { هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ } ، يعني البحيرة والسائبة ، { لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } ، فتقولون إن الله أمرنا بهذا ، { إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } ، لا ينجون من عذاب الله .

[117] { مَتَاعٌ قَلِيلٌ } يعني : الذي هم فيه متاع قليل أو لهم متاع قليل في الدنيا . { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، في الآخرة .
[118] { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ } يعني في سورة الأنعام . وقوله تعالى : { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } الآية { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } بتحريم ذلك عليهم ، { وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } فحرمنا عليهم ببغيهم .
[119] { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا } يعني : بالإصلاح والاستقامة على التوبة ، { إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا } ، أي : من بعد الجهالة ، { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[120] قوله تعالى . { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } قال ابن مسعود : الأمة معلم الخير أي : كان معلم الخير ، يأتم به أهل الدنيا ، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما اجتمع في أمة ، قال مجاهد : كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار . قال قتادة : ليس من أهل دين إلا يتولونه ويرضونه { قَانِتًا لِلَّهِ } مطيعا . وقيل . قائما بأوامر الله تعالى، { حَنِيفًا } مستقيما على دين الإسلام . وقيل : مخلصا . { وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .
[121] { شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ } ، اختاره ، { وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، أي : إلى دين الحق .

[122] { وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } ، يعني الرسالة والخلة . وقيل : لسان الصدق والثناء الحسن . وقال مقاتل بن حيان . يعني الصلاة عليه في قول هذه الأمة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم . وقيل : أولادا أبرارا على الكبر . وقيل : القبول العام في جميع الأمم . { وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } ، مع آبائه الصالحين في الجنة . وفي الآية تقديم وتأخير مجازه : وآتيناه في الدنيا والآخرة حسنة ، وإنه لمن الصالحين .
[123] { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } ، يا محمد { أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } ، حاجا

مسلما ، { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ، وقال أهل الأصول : كان النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة إبراهيم إلا ما نسخ في شريعته ، وما لم ينسخ صار شرعا .

[124] قوله تعالى : { إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى }{ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ } أي : خالفوا فيه . قيل : معناه إنما جعل السبت لعنة على الذين اختلفوا فيه . وقيل : معناه ما فرض الله تعظيم السبت وتحريمه إلا على الذين اختلفوا فيه ، يعني اليهود ، قال قتادة : الذين اختلفوا فيه هم اليهود استحله بعضهم وحرمه بعضهم . { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } .

[125] { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ } ، بالقرآن, { وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } ، يعني مواعظ القرآن . وقيل : الموعظة الحسنة هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب . وقيل : هو قول اللين الرقيق من غير تغليظ ولا تعنيف ، { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ، وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن أي أعرض عن أذاهم ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق ، نسختها آية القتال . { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } .

[126] { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } ، هذه الآيات نزلت بالمدينة في شهداء أحد وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به غير حنظلة بن الراهب فإن أباه أبا عمر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك ، فقال المسلمون حين رأوا ذلك : لئن أظهرنا الله عليهم لنزيدن على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه فقال : « لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك » ، فأنزل الله تعالى : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا) الآية . { وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } ، أي : ولئن عفوتم لهو خير للعافين فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل نصير ، وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه » ، قال ابن عباس والضحاك : كان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله ومنع من الابتداء بالقتال ، فلما أعز الإسلام وأهله نزلت براءة ، وأمروا

بالجهاد ونسخت هذه الآية ، قال النخعي والثوري ومجاهد وابن سيرين : الآية محكمة نزلت فيمن ظلم بظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه ، أمر بالجزاء والعفو ومنع من الاعتداء ، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم .

[127] { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ } ، أي : بمعونة الله وتوفيقه ، { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } ، في إعراضهم عنك ، { وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } ، أي : مما فعلوا من الأفاعيل ، وقال أبو عبيدة : الضيق بالكسر في قلة المعاش وفي المساكن ، فأما ما كان في القلب والصدر فإنه بفتح الضاد . وقال ابن قتيبة : الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ، ولين ولين ، فعلى هذا هو صفة كأنه قال : ولا تكن في أمر ضيق من مكرهم .

[128] { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا } ، المناهي ، { وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } بالعون والنصرة .

(17) سورة الإسراء

[1] { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا } ، سبحان الله تنزه الله تعالى من كل سوء ووصف بالبراءة من كل نقص على طريق المبالغة وتكون سبحان بمعنى التعجب أسرى بعبده ، أي : سيره ، وكذلك سرى به ، والعبد هو : محمد صلى الله عليه وسلم ، { مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، قيل : كان الإسراء من مسجد مكة . روى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق » ، فذكر حديث المعراج وقال قوم : عرج به من دار أم هانئ بنت أبي طالب ومعنى قوله : (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي : من الحرم . قال مقاتل : كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة . ويقال : كان في رجب . وقيل : كان في رمضان . { إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى } ، يعني : بيت المقدس ، وسمي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار . وقيل : لبعده من المسجد الحرام . { الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } ، بالأنهار والأشجار والثمار . وقال مجاهد : سماه مباركا لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي ، وفيه الصخرة ومنه يحشر الناس يوم القيامة . { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا }

من عجائب قدرتنا ، وقد رأى هناك الأنبياء والآيات الكبرى ، { إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، ذكر السميع لينبه على أنه المجيب لدعائه ، وذكر البصير لينبه على أنه الحافظ له في ظلمة الليل . وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : « ما فقد جسد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أسرى بروحه » . والأكثرون على أنه أسري بجسده في اليقظة وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك .

[2] قوله عز وجل : { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا } ، بألا ، { تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا } ، ربا كفيلا ، قرأ أبو عمرو : (لا يتخذوا) بالياء لأنه خبر عنهم والآخرون بالتاء ، يعني قلنا لهم لا تتخذوا .

[3] { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا } ، قال مجاهد : هذا نداء يعني : يا ذرية من حملنا ، { مَعَ نُوحٍ } ، في السفينة فأنجيناهم من الطوفان ، { إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } ، كان نوح عليه السلام إذا أكل طعاما أو شرب شرابا أو لبس ثوبا قال : الحمد لله ، فسمي عبدا شكورا ، أي : كثير الشكر .

[4] قوله عز وجل : { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ } أي : أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون ، والقضاء على وجوه : يكون أمرا كقوله : { وَقَضَى رَبُّكَ } ، ويكون حكما كقوله : { إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ } ويكون خلقا : كقوله { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } ، وقال ابن عباس وقتادة : يعني وقضينا عليهم ، فإلى بمعنى على ، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، { لَتُفْسِدُنَّ } ، لام القسم مجازه : والله لتفسدن ، { فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ } ، بالمعاصي ، والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس ، { وَلَتَعْلُنَّ } ، ولتستكبرن ولتظلمن الناس ، { عُلُوًّا كَبِيرًا } .

[5] { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا } ، يعني أولى مرتين ، قال قتادة : إفسادهم في المرة الأولى ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا المحارم . وقال محمد بن إسحاق : إفسادهم في المرة الأولى : قتل شعياء وارتكابهم المعاصي . { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا } ، قال قتادة : يعني جالوت الخزري وجنوده ، وهو الذي قتله

داود . وقال سعيد بن جبير : يعني سنجاريب من أهل نينوى . وقال ابن إسحاق : بختنصر البابلي وأصحابه ، وهو الأظهر . { أُولِي } { بَأْسٍ } ، ذوي بطش ، { شَدِيدٍ } ، في الحرب ، { فَجَاسُوا } ، أي : فطافوا وداروا ، { خِلَالَ الدِّيَارِ } ، وسطها يطلبونكم ، والجوس : طلب الشيء بالاستقصاء. قال الفراء : جاسوا قتلوكم بين بيوتكم ، { وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا } ، قضاء كائنا لا خلف فيه .
[6] { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ } ، يعني : الرجعة والدولة ، { عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا } ، عددا ، أي : من ينفر معهم وعاد البلد أحسن مما كان .

[7] { إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ } ، أي : لها ثوابها ، { وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } ، أي : فعليها ، كقوله تعالى : { فَسَلَامٌ لَكَ } أي : عليك . وقيل : فلها الجزاء والعقاب ، { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ } أي : المرة الأخيرة من إفسادكم وذلك قصدهم قتل عيسى عليه السلام حين رفع وقتلهم يحيى بن زكريا عليهما السلام ، فسلط الله عليهم الفرس والروم حتى قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم ، فذلك قوله تعالى : { لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ } ، أي : تحزن وجوهكم وسوء الوجه بإدخال الغم والحزن . قرأ الكسائي ويعقوب : (لنسوء) بالنون وفتح الهمزة على التعظيم ، كقوله (وقضينا) و (بعثنا) وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء وفتح الهمزة على التوحيد ، أي ليسوء الله وجوهكم ، وقيل : ليسوء الوعد وجوهكم ، وقرأ الباقون بالياء وضم الهمزة على الجمع ، أي ليسوء العباد أولوا البأس الشديد { وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ } ، يعني : بيت المقدس ونواحيه ، { كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا } ، وليهلكوا ، { مَا عَلَوْا } أي : ما غلبوا عليه من بلادكم { تَتْبِيرًا } .

[8] { عَسَى رَبُّكُمْ } ، يا بني إسرائيل ، { أَنْ يَرْحَمَكُمْ } ، بعد انتقامه منكم فيرد الدولة إليكم ، { وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا } ، أي : إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة . قال قتادة : فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ، { وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا } ، سجنا ومحبسا من الحصر وهو الحبس . قال الحسن : حصيرا أي : فراشا . وذهب إلى الحصير الذي يبسط ويفرش .

[9] { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } ، أي : إلى الطريقة التي هي أصوب . وقيل : الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، { وَيُبَشِّرُ } ، يعني : القرآن ، { الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ } بأن لهم ، { أَجْرًا كَبِيرًا } ، وهو الجنة .
[10] { وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } ، وهو النار .
[11] وقوله تعالى : { وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ } ، حذف الواو لفظا لاستقلال اللام الساكنة كقوله : { سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ } ، وحذف في الخط أيضا وهي غير محذوفة في المعنى ، ومعناه : ويدعو الإنسان على ماله وولده ونفسه ، { بِالشَّرِّ } ، فيقول عند الغضب : اللهم العنه وأهلكه ونحوهما ، { دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ } ، أي : كدعائه ربه بالخير أن يهب له النعمة والعافية لو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ، ولكن الله لا يستجيب بفضله ، { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه . قال جماعة من أهل التفسير ، وقال ابن عباس : ضجرا لا صبر له على السراء والضراء .

[12] قوله عز وجل : { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ } ، أي : علامتين دالتين على وجودنا ووحدانيتنا وقدرتنا ، { فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ } ، قال ابن عباس : جعل الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعلها مع نور الشمس ، { وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } ، منيرة مضيئة ، يعني يبصر بها . قال الكسائي : تقول العرب : أبصر النهار إذا أضاءت بحيث يبصر بها ، { لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } ، أي : لو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يدر وقت الحج ولا وقت حلول الآجال ولا وقت السكون والراحة . { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا } .

[13] قوله عز وجل : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } ، قال ابن عباس : عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان . وقال الكلبي ومقاتل : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسبه به . وقال الحسن : يمنه وشؤمه . وعن مجاهد : ما من مولود إلا في عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد . وقال أهل المعاني : أراد بالطائر ما قضى الله عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة سمي طائرا على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها . وقال أبو عبيدة والقتيبي : أراد بالطائر حظه من الخير والشر من قولهم طار سهم فلان بكذا وكذا ، وخص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق وغيرهما مما يزين أو يشين ، فجرى كلام العرب بتشبيه الأشياء اللازمة إلى الأعناق ، { وَنُخْرِجُ لَهُ } يقول الله تعالى : ونحن نخرج له ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا } ، وقرأ الحسن ومجاهد ويعقوب : (ويخرج له) بفتح الياء وضم الراء ، معناه : ويخرج له الطائر يوم القيامة كتابا . وقرأ أبو جعفر (يخرج) بالياء وضمها وفتح الراء ، { يَلْقَاهُ } ، قرأ ابن عامر وأبو جعفر (يلقاه) بضم الياء وفتح

اللام وتشديد القاف ، يعني : يلقى الإنسان ذلك الكتاب ، أي : يؤتاه . وقرأ الباقون بفتح الياء خفيفة أي يراه { مَنْشُورًا } ، وفي الآثار : أن الله تعالى يأمر الملك بطي الصحيفة إذا تم عمر العبد فلا تنشر إلا في يوم القيامة .
[14] { اقْرَأْ كِتَابَكَ } ، أي : يقال له : اقرأ كتابك ، قوله تعالى : { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } ، محاسبا . قال الحسن : لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك . قال قتادة : سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا.
[15] { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } ، لها ثوابه ، { وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } ، لأن عليها عقابه ، { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ، أي : لا تحمل حاملة حمل أخرى من الآثام ، أي : لا يؤخذ أحد بذنب أحد . { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } إقامة للحجة وقطعا لعذر ، وفيه دليل على أن ما وجب وجب بالسمع لا بالعقل .

[16] { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا } ، قرأ مجاهد : (أمرنا) بالتشديد أي : سلطنا شرارها فعصوا ، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب (أمرنا) بالمد ، أي : أكثرنا . وقرأ الباقون بالقصر مختلفا ، أي أمرناهم بالطاعة فعصوا ، ويحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء ويحتمل أن تكون بمعنى أكثرنا ، يقال : أمرهم الله أي كثرهم الله واختار أبو عبيدة قراءة العامة وقال : لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها يعني الأمر والإمارة والكثرة . (مترفيها) منعميها وأغنياءها

{ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ } ، وجب عليها العذاب ، { فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } ، أي : خربناها وأهلكنا من فيها .

[17] قوله : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ } ، أي : المكذبة ، { مِنْ بَعْدِ نُوحٍ } ، يخوف كفار مكة ، { وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } ، قال عبد الله بن أبي أوفى . القرن : مائة وعشرون سنة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول قرن ، وكان في آخره يزيد بن معاوية . وقيل : مائة سنة . وروي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال : « سيعيش هذا الغلام قرنا » (1) ، قال محمد بن القاسم فما زلنا نعد له حتى تم له مائة سنة ، ثم مات . قال الكلبي : القرن : ثمانون سنة . وقيل : أربعون سنة.

---

(1) أخرجه ابن جرير 15 / 58 وذكره البخاري في التاريخ الصغير ص (39) وأخرجه أبو نعيم كما في التهذيب 5 / 139 .

[18] { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ } ، يعني الدنيا أي الدار العاجلة ، { عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ } ، من البسط والتقتير ، { لِمَنْ نُرِيدُ } ، أن نفعل به ذلك أو إهلاكه ، { ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ } في الآخرة ، { جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا } ، يدخل نارها ، { مَذْمُومًا مَدْحُورًا } ، مطرودا مبعدا .
[19] { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } ، عمل عملها ، { وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } ، مقبولا .
[20] { كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ } ، أي : نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة ، { مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ } ، أي : يرزقهما جميعا ثم يخلف بهما الحال في المآل ، { وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ } ، رزق ربك ، { مَحْظُورًا } ، ممنوعا عن عباده فالمراد من العطاء العطاء في الدنيا وإلا فلا حظ للكفار في الآخرة .
[21] { انْظُرْ } ، يا محمد ، { كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } ، في الرزق والعمل الصالح, يعني : طالب العاجلة وطالب الآخرة, { وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } .

[22] { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } , الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره . وقيل : معناه لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلها آخر, { فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا } , مذموما من غير حمد مخذولا من غير نصر .

[23] قوله عز وجل : { وَقَضَى رَبُّكَ } , وأمر ربك, قال ابن عباس وقتادة والحسن : قال الربيع بن أنس : وأوجب ربك . قال مجاهد : وأوصى ربك, { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } أي : وأمر بالوالدين إحسانا برا بهما وعطفا عليهما, { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ } قرأ حمزة والكسائي بالألف على التثنية فعلى هذا قوله : { أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا } ، كلام مستأنف ، كقوله تعالى : { ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ } وقوله : { وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } وقوله : (الذين ظلموا) ابتداء وقرأ الباقون (يَبْلُغَنَّ) علي التوحيد ، { فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ } كلمة كراهية ، قال أبو عبيدة أصل التف والأف الوسخ على الأصابع إذا فتلتها . وقيل : الأف ما يكون في المغابن من الوسخ ، والتف ما يكون في الأصابع . وقيل : الأف وسخ الأنف والتف وسخ الأظفار . وقيل . الأف وسخ الظفر والتف ما رفعته بيدك من الأرض من شيء حقير ، { وَلَا تَنْهَرْهُمَا } ، ولا

تزجرهما ، { وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } ، حسنا جميلا لينا قال ابن المسيب : كقول العبد المذنب للسيد

الفظ . وقال مجاهد : لا تسميهما ولا تكنيهما وقل لهما يا أبتاه يا أماه . وقال مجاهد : في هذه الآية أيضا إذا بلغا عندك من الكبر ما يبولان فلا تتقذرهما ولا تقل لهما أف حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرا .
[24] { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ } ، أي : ألن جانبك لهما واخضع لهما . قال عروة بن الزبير : ألن لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحباه { مِنَ الرَّحْمَةِ } ، من الشفقة ، { وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } , أراد إذا كانا مسلمين . قال ابن عباس : هذا منسوخ بقوله : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رضا الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد » (1) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » (2) .

---

(1) أخرجه الترمذي في البر 6 / 25 مرفوعا وموقوفا وقال في الموقوف : أصح ، وأخرجه ابن حبان برقم (2026) ص (496) من موارد الظمآن وصححه الحاكم 4 / 152 والمصنف في شرح السنة 13 / 12 .
(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند 3 / 28 و 44 ، والمصنف في شرح السنة 13 / 17 وفيه يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف وللحديث شواهد كثيرا وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 2 / 285 .

[25] { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ } ، من بر الوالدين وعقوقهما ، { إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ } ، أبرارا مطيعين بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين وغير ذلك ، { فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ } ، بعد المعصية { غَفُورًا } ، قال سعيد بن جبير في هذه الآية : هو الرجل يكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد به إلا الخير فإنه لا يؤاخذ به . قال سعيد بن المسيب : الأواب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . قال سعيد بن جبير : الرجاع إلى الخير . وعن ابن عباس قال : هو الرجاع إلى الله فيما يحزنه وينوبه . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : هم المسبحون ، دليله قوله : { يا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ } . قال قتادة : هم المصلون ، قال عون العقيلي : هم الذين يصلون صلاة الضحى .

[26] قوله تعالى : { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } ، يعني صلة الرحم ، وأراد به قرابة الإنسان وعليه الأكثرون وعن علي بن الحسين : أراد به قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، { وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا } ، أي : لا تنفق مالك في المعصية . وقال مجاهد : لو أنفق الإنسان ماله كله كان تبذيرا ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا . وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال : إنفاق المال في غير حقه .
[27] { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } ، أي : أولياءهم ، والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم هو أخوهم . { وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } ، جحودا لنعمه .

[28] { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ } ، نزلت في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد

فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول ، فنزل (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ) ، وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم ، { ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا } ، انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك ، { فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا } لينا وهي العدة ، أي : عدهم وعدا جميلا . وقيل : القول الميسور أن تقول : رزقنا الله وإياك .

[29] { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ } يعني : ولا تمسك يدك عن النفقة في الحق كالمغلولة يده لا يقدر على مدها ، { وَلَا تَبْسُطْهَا } ، بالعطاء ، { كُلَّ الْبَسْطِ } ، فتعطي جميع ما عندك ، { فَتَقْعُدَ مَلُومًا } ، يلومك سائلوك بالإمساك إذا لم تعطهم ، والملوم الذي أتى بما يلوم نفسه أو يلوم غيره ، { مَحْسُورًا } منقطعا لا شيء عندك تنفقه . يقال : حسرته بالمسألة إذا ألحفت عليه ودابة حسيرة إذا كانت كالة رازحة . قاد قتادة : (محسورا) نادما على ما فرط منك .
[30] { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ } ، يوسع { الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } أي : يقتر ويضيق ، { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } .
[31] قوله تعالى : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ } ، فقر ، { نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ } ، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنهوا عنه ، وأخبروا أن رزقهم ورزق أولادهم على الله تعالى ، { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } ، قرأ ابن عامر وأبو جعفر (خطأ) أي : إثما كبيرا .

[32] { وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } .
[33] { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } ، وحقها : ما روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل كفر بعد إيمانه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفسا بغير نفس فيقتل بها » (1) .

---
(1) أخرجه أبو داود في الديات 6 / 301 ، والترمذي في الفتن 3 / 373 ، وابن ماجه في الحدود 2 / 847 ، والمصنف في شرح السنة 1 / 148 وأخرجه الشيخان عن ابن مسعود نحوه .

{ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا } ، أي : قوة وولاية على القاتل بالقتل ، قاله مجاهد ، وقال الضحاك : سلطانه هو أنه يتخير فإن شاء استفاد منه وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء عفا عنه . { فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ } ، قرأ حمزة والكسائي : (فلا تسرف) بالتاء يخاطب ولي القتيل ، وقرأ الآخرون بالياء على الغائب أي : لا يسرف الولي في القتل ، واختلفوا في هذا الإسراف الذي منع منه ولي القتيل ، فقال ابن عباس وأكثر المفسرين : معناه لا يقتل غير القاتل وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه . وقال سعيد بن جبير : إذا كان القاتل واحدا فلا يقتل جماعة بدل واحد ، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفا لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه . وقال قتادة : معناه لا يمثل بالقاتل . { إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } ، فالهاء راجعة إلى المقتول في قوله : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا) يعني : أن المقتول منصور في الدنيا بإيجاب القول على قاتله ، وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله ، هذا قول مجاهد ، وقال قتادة : الهاء

راجعة إلى ولي المقتول معناه أنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية . وقيل في قوله : (فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ) أنه أراد به القاتل المعتدي ، يقول : لا يعتدي بالقتل بغير الحق شأنه إن فعل ذلك فولي المقتول منصور عليه باستيفاء القصاص منه .
[34] { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ } ، بالإتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى الله عنه . وقيل : أراد بالعهد ما يلتزمه الإنسان على نفسه ، { إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } ، وقال السدي : كان مطلوبا . وقيل : العهد يسأل عن صاحب العهد ، فيقال : فيما نقضت كالموءودة تسأل فيم قتلت .
[35] { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص (بالقسطاس) بكسر القاف والباقون بضمه ، وهما لغتان وهو الميزان صغيرا كان أو كبيرا أي : بميزان العدل . وقال الحسن : هو القبان- قال مجاهد : هو رومي . وقال غيره : هو عربي مأخوذ من القسط وهو العدل ، أي : زنوا بالعدل . { الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } ، أي : عاقبة .

[36] { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } ، قال قتادة . لا تقل رأيت ولم تره وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلمه . وقال مجاهد : لا ترم أحدا بما ليس لك به علم . قال القتيبي : لا تتبعه بالحدس والظن . وهو في اللغة اتباع الأثر ، يقال : قفوت فلانا أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره ، وبه سميت القافية لتتبعهم الآثار . قال القتيبي : هو مأخوذ من القفو كأنه يقفو الأمور ، أي : يكون في إقفائها يتبعها ويتعرفها . وحقيقة المعنى : لا تتكلم أيها الإنسان بالحدس والظن . { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } ، قيل : معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده . وقيل . يسأل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء . وقوله (كُلُّ أُولَئِكَ) أي حل هذه الجوارح والأعضاء ، وعلى القول الأول يرجع أولئك إلى أربابها .

[37] { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا } ، أي بطرا وكبرا وخيلاء وهو تفسير المشي فلذلك أخرجه على المصدر ، { إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ } أي : لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها ، { وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا } أي : لا تقدر أن تطال الجبال وتساويها بكبرك ، معناه أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئا كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال لا يحصل على شيء . وقيل : ذكر ذلك لأن من مشى مختالا يمشي مرة على عقبه ومرة على صدور قدميه ، فقيل له : إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك ، ولن تبلغ الجبال طولا إن مشيت على صدور قدميك .

[38] { كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } ، قرأ ابن عامر وأهل الكوفة برفع الهمزة وضم الهاء على الإضافة ، ومعناه كل الذي ذكرنا من قوله { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } (كَانَ سَيِّئُهُ) أي : سيئ ما عددنا عليك عند ربك مكروها لأن فيما عددنا أمورا حسنة كقوله : { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ } وغير ذلك ، وقرأ الآخرون (سَيِّئَةً) منصوبة منونة يعني : كل الذي ذكرنا من قوله : { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ } إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه ، إذ الكل يرجع إلى المنهي عنه دون غيره ، ولم يقل مكروهة لأن فيه تقديما وتأخيرا تقديره كل ذلك كان مكروها سيئه . وقوله (مَكْرُوهًا) على

التكرير لا على الصفة مجازه كل ذلك كان سيئه وكان مكروها ، راجع إلى المعنى دون اللفظ ، لأن السيئة الذنب وهو مذكر .

[39] { ذَلِكَ } ، الذي ذكرناه ، { مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } ، وكل ما أمر الله به أو نهى الله عنه فهو حكمة . { وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } ، خاطب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات والمراد منه الأمة ، { فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا } ، مطرودا مبعدا من كل خير .
[40] قوله عز وجل : { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ } ، أي : اختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة ، يعني اختاركم ، { بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا } لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله ، { إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } ، يخاطب مشركي مكة .
[41] { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ } ، يعني الصبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام والتشديد للتكثير والتكرير ، { لِيَذَّكَّرُوا } أي : ليتذكروا ويتعظوا ، وقرأ حمزة والكسائي بإسكان الذال وضم الكاف وكذلك في الفرقان . { وَمَا يَزِيدُهُمْ } ، تصريفنا وتذكيرنا وتكريرنا ، { إِلَّا نُفُورًا } ، ذهابا وتباعدا عن الحق .

[42] { قُلْ } ، يا محمد لهؤلاء المشركين ، { لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ } ، قرأ حفص وابن كثير (يَقُولُونَ) بالياء وقرأ الآخرون بالتاء ، { إِذًا لَابْتَغَوْا } ، لطلبوا يعني الآلهة { إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } ، بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه ، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقيل : معناه لطلبوا إلى ذي العرش سبيلا بالتقرب إليه . قال قتادة : لعرفوا الله بفضله وابتغوا ما يقربهم إليه . والأول أصح ، ثم نزه نفسه .
فقال عز من قائل : { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ } ، قرأ حمزة والكسائي (تقولون) بالتاء والآخرون بالياء ، { عُلُوًّا كَبِيرًا } .

[44] { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } ، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب (تُسَبِّحُ) بالتاء وقرأ الآخرون بالياء للحائل بين الفعل والتأنيث ، { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } ، روي عن ابن عباس أنه قال : وإن من شيء حي إلا يسبح بحمده . وقال قتادة : يعني الحيوانات والناميات . وقال بعض أهل المعاني : تسبح السموات والأرض والجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء ما دامت تدل بلطيف تركيبها وعجيب هيئتها على خالقها ، فيصير ذلك بمنزلة التسبيح منها . والأول هو المنقول عن السلف واعلم أن لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن يوكل علمه إليه . { وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } ، أي لا تعلمون تسبيح ما عدا من يسبح بلغاتكم وألسنتكم ، { إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } .

[45] { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا } ، يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به . قال قتادة : وهو الأكنة ، والمستور بمعنى الساتر كقوله : { كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا } مفعول بمعنى فاعل . وقيل : مستور عن أعين الناس فلا يرونه . وفسره بعضهم بالحجاب عن الأعين الظاهر كما روي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت : { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ } . جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر فلم تره ، فقالت لأبي بكر : أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني ؟ فقال : والله ما

ينطق عن الهوى ولا ينطق بالشعر ولا يقوله ، فرجعت وهي تقول : قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ برأسه ، فقال أبو بكر : ما رأتك يا رسول الله ؟ قال : لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني (1) .

---

(1) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم . انظر تفسير ابن كثير 3 / 44 و 4 / 565 ومجمع الزوائد .

[46] { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً } ، أغطية ، { أَنْ يَفْقَهُوهُ } ، كراهية أن يفقهوه . وقيل : لئلا يفقهوه ، { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } ، ثقلا لئلا يسمعوه . { وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ } ، يعني إذا قلت : لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه ، { وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } ، جمع نافر مثل قاعد وقعود وجالس وجلوس ، أي نافرين .
[47] { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ } ، قيل : به صلة أي : يطلبون سمعه ، { إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ } ، وأنت تقرأ القرآن ، { وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } ، يتناجون في أمرك . وقيل : ذو نجوى ، فبعضهم يقول : هو مجنون ، وبعضهم يقول : كاهن ، وبعضهم يقول : ساحر ، وبعضهم يقول : شاعر . { إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ } ، يعني الوليد بن المغيرة وأصحابه ، { إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا } ، مطبوبا . وقال مجاهد : مخدوعا . وقيل : مصروفا عن الحق . يقال : ما سحرك عن كذا ؟ أي ما صرفك عنه ؟ وقال أبو عبيدة : أي رجلا له سحر ، والسحر : الرئة أي : إنه بشر مثلكم تغذى معللا بالطعام والشراب يأكل ويشرب .

[48] { انْظُرْ } ، يا محمد ، { كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ } ، الأشباه ، قالوا : شاعر وساحر وكاهن ومجنون ، { فَضَلُّوا } ، فحاروا وحادوا ، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا } أي : وصولا إلى طريق الحق .
[49] { وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا } بعد الموت . قال مجاهد : ترابا . وقيل : حطاما . والرفات : كل ما يكسر ويبلى من كل شيء كالفتات والحطام . { أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } .

[50] { قُلْ } ، لهم يا محمد { كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا } ، في الشدة والقوة ، وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز ، أي : استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة .
[51] { أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ } ، قيل : السماء والأرض والجبال . وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين : إنه الموت ، فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت ، أي : ولو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم ، { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا } ، من يبعثنا بعد الموت ، { قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ } ، خلقكم ، { أَوَّلَ مَرَّةٍ } ، ومن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة ، { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ } ، أي : يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بها ، { وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ } ، أي : البعث والقيامة ، { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا } أي : هو قريب ، لأن عسى من الله واجب ، نظيره قوله تعالى : { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا } .

[52] { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ } من قبوركم إلى موقف القيامة ، { فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ } ، قال ابن عباس : بأمره . وقال قتادة . بطاعته . وقيل : مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حتى لا ينفعهم الحمد . قيل : هذا خطاب مع المؤمنين فإنهم

يبعثون حامدين . { وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ } ، في الدنيا أو في القبور ، { إِلَّا قَلِيلًا } ، لأن الإنسان لو مكث ألوفا من السنين في الدنيا أو في القبور عد ذلك قليلا في مدة القيامة والخلود . قال قتادة : يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة .

[53] قوله تعالى : { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا } ، للكافرين { الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ولا يكافئوهم بسفههم . قال الحسن : يقول له يهديك الله . وكان هذا قبل الإذن في الجهاد والقتال . وقيل : أمر الله المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا التي هي أحسن أي : الخلة التي هي أحسن . وقيل : الأحسن : كلمة الإخلاص لا إله إلا الله . { إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ } ، أي : يفسد ويلقي العداوة بينهم ، { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا } ، ظاهر العداوة .

[54] { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ } ، يوفقكم فتؤمنوا ، { أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ } ، يميتكم على الشرك فتعذبوا ، قاله ابن جريج . وقال الكلبي : إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة ، وإن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم ، { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا } حفيظا وكفيلا . قيل : نسختها آية القتال .

[55] { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، أي : ربك العالم بمن في السموات والأرض فجعلهم مختلفين في صورهم وأخلاقهم وأحوالهم وملكهما ، { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ } ، قيل : جعل أهل السموات والأرض مختلفين كما فضل بعض النبيين على بعض . قال قتادة : في هذه الآية اتخذ الله إبراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما وقال لعيسى كن فيكون ، وآتى سليمان ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعده ، وآتى داود زبورا كما قال : { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } ، والزبور كتاب علمه الله داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وتمجيد وثناء على الله عز وجل ، وليس فيها حرام ولا حلال ولا فرائض ولا حدود ، معناه : إنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبي صلى الله عليه وسلم وإعطاءه القرآن ؟ وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم السلام من أهل الكتاب وغيرهم .

[56] قوله عز وجل : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ } ، وذلك أن المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم ، قال الله تعالى : { قُلِ } للمشركين { ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ } أنها آلهة { مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ } ، القحط والجوع ، { عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } ، إلى غيركم أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر .

[57] { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } ، يعني الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم . قال ابن عباس ومجاهد : وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة ، والشمس والقمر والنجوم ، { يَبْتَغُونَ } أي يطلبون { إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } ، أي القربة . وقيل : الوسيلة الدرجة أي يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا . وقيل : الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى . وقوله { أَيُّهُمْ أَقْرَبُ } ، معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به . وقال الزجاج : أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح ، { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ } ، جنته ، { وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } ، أي يطلب منه الحذر . وقال عبد الله بن مسعود : نزلت الآية في

نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون ولم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم ، فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية ، وقرأ ابن مسعود (الذين تدعون) بالتاء .

[58] { وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ } وما من قرية { إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ، أي : مخربوها ومهلكوا أهلها ، { أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا } ، بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا . وقال مقاتل وغيره : مهلكوها في حق المؤمنين بالإماتة ومعذبوها في حق الكفار بأنواع العذاب . قال عبد الله بن مسعود : إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في إهلاكها . { كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ } ، في اللوح المحفوظ ، { مَسْطُورًا } ، مكتوبا . قال عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، فقال : ما أكتب ؟ قال : القدر ، وما كان وما هو كائن إلى الأبد » (1) .

---

(1) أخرجه أبو داود في السنة 7 / 69 والترمذي في القدر 6 / 368 والإمام أحمد في المسند 5 / 317 والطيالسي في مسنده ص 79 وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة 1 / 34 .

[59] قوله : { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } ، قال ابن عباس : « سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا فأوحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن أستأني بهم فعلت ، وإن شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت ، فإن لم يؤمنوا أهلكهم كما أهلكت من كان قبلهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا بل تستأني بهم » (1) ، فأنزل الله عز وجل : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ) التي سألها كفار قريش (إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) فأهلكناهم ، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم ، لأن من شأننا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم ، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب ، فقال جل ذكره : { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } ، ثم قال : { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً } ، مضيئة بينة ، { فَظَلَمُوا بِهَا } ، أي : جحدوا بها أنها من عند الله كما قال : { بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ } ، أي :

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند 1 / 258 والحاكم في المستدرك 2 / 362 قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

يجحدون وقيل : ظلموا أنفسهم بتكذيبها يريد فعاجلناهم بالعقوبة ، { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ } أي : العبر والدلالات ، { إِلَّا تَخْوِيفًا } ، للعباد ليؤمنوا . قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون .

[60] قوله عز وجل : { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } ، أي : هم في قبضته لا يقدرون على الخروج عن مشيئته فهو حافظك ومانعك منهم فلا تهبهم وامض إلى ما أمر الله به من تبليغ الرسالة ، كما قال : { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } ، { وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ } ، فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات . قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو

قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرون (1) ، والعرب تقول : رأيت بعيني رؤية ورؤيا ، فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك ، وكذبوا وكان فتنة للناس . وقال قوم : أسري بروحه دون بدنه . وقال بعضهم : كان له معراجان رؤية بالعين ومعراج رؤيا بالقلب ، وقال قوم : أراد بهذه الرؤيا ما رأى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه فجعل السير إلى مكة قبل الأجل فصده المشركون ، فرجع إلى المدينة وكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فكان رجوعه فتنة

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء 8 / 398 .

لبعضهم ، حتى دخلها في العام المقبل ، فأنزل الله تعالى : { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ } ، { وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ } ، يعني شجرة الزقوم ، مجازه والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن ، والعرب تقول لكل طعام كريه : طعام ملعون . وقيل : معناه الملعون أكلها ، ونصب الشجرة عطفا على الرؤيا ، أي : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة للناس ، فكانت الفتنة في الرؤيا ما ذكرنا ، والفتنة في الشجرة الملعونة من وجهين : أحدهما : أن أبا جهل قال : إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة ، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة ، والثاني : أن عبد الله بن الزبعري قال : إن محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر ، وقال أبو جهل : يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر والزبد ، فقال : يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوفكم به محمد ، فوصفها الله تعالى في الصافات . وقيل : الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر فتخنقه ، يعني الكشوث ، { وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ } ، التخويف ، { إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا } أي : تمردا

وعتوا عظيما .
[61] قوله عز وجل : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } ، أي : خلقته من طين .
[62] { قَالَ } ، يعني إبليس ، { أَرَأَيْتَكَ } أي أخبرني والكاف لتأكيد المخاطبة ، { هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ } أي : فضلته علي : { لَئِنْ أَخَّرْتَنِي } أمهلتني { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ } أي : لأستأصلنهم بالإضلال ، يقال : احتنك الجراد الزرع إذا أكله كله . وقيل : هو من قول العرب حنك الدابة يحنك إذا شد في حنكها الأسفل حبلا يقودها ، أي لأقودنهم كيف شئت . وقيل : لأستولين عليهم بالإغواء ، { إِلَّا قَلِيلًا } ، يعني المعصومين الذين استثناهم الله عز وجل في قوله : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } .
[63] { قَالَ } الله { اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ }{ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ } أي : جزاءك وجزاء أتباعك ، { جَزَاءً مَوْفُورًا } ، وافرا مكملا, يقال : وفرته أوفره وفرا .

[64] وقوله : { وَاسْتَفْزِزْ } ، واستخفف واستجهد ، { مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ } ، أي : من ذرية آدم ، { بِصَوْتِكَ } ، قال ابن عباس وقتادة : بدعائك إلى معصية الله ، وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس . قال الأزهري : معناه ادعهم دعاء تستفزهم به إلى جانبك ، أي : تستخفهم . وقال مجاهد : بالغناء

والمزامير ، { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ } ، قيل : اجمع عليهم مكايدك وخيلك ، ويقال : اجلبوا وجلبوا إذا صاحوا ، يقول : صح بخيلك ورجلك وحثهم عليه بالإغواء ، قال مقاتل : استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم ، والخيل : الركبان ، والرجل : المشاة . قال أهل التفسير : كل راكب وماش في معاصي الله فهو من جند إبليس . وقال مجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس وهو كل ما يقاتل في المعصية ، والرجل والرجالة والراجلة واحد ، يقال : راجل ورجل مثل تاجر وتجر وراكب وركب ، وقرأ حفص ورجلك بكسر الجيم وهما لغتان ، { وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } ، فالمشاركة في الأموال كل ما أصيب من حرام أو أنفق في حرام ، هذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ، وقال عطاء : هو الربا وقال قتادة : هو ما

كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وقال الضحاك : هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم ، وأما الشركة في الأولاد ، روي عن ابن عباس : أنها الموءودة . وقال مجاهد والضحاك : هم أولاد الزنا . وقال الحسن وقتادة : هو أنهم هودوا أولادهم ونصروهم ومجسوهم . وروي عن جعفر بن محمد أن الشيطان يقعد على ذكر الرجل فإذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل . { وَعِدْهُمْ } ، أي : خذ منهم الجميل في طاعتك . وقيل : قل لهم : لا جنة ولا نار ولا بعث . { وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } ، والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه حق ، فإن قيل : كيف ذكر الله هذه الأشياء وهو يقول : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } ؟ قيل : هذا على طريق التهديد ، كقوله تعالى : { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } ، وكقول القائل : افعل ما شئت فسترى .
[65] قوله : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } ، أي حافظا ومن يوكل الأمر إليه .

[66] قوله عز وجل : { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ } أي : يسوق ويجري لكم الفلك ، { فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } ، لتطلبوا من رزقه ، { إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } .

[67] { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ } ، الشدة وخوف الغرق ، { فِي الْبَحْرِ ضَلَّ } ، أي : بطل وسقط ، { مَنْ تَدْعُونَ } ، من الآلهة ، { إِلَّا إِيَّاهُ } ، إلا الله فلم تجدوا مغيثا سواه ، { فَلَمَّا نَجَّاكُمْ } ، أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم ، { إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ } ، عن الإيمان والإخلاص والطاعة كفرا منكم لنعمه ، { وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } .
[68] { أَفَأَمِنْتُمْ } ، بعد ذلك ، { أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ } ، يغور بكم ، { جَانِبَ الْبَرِّ } ، ناحية البر وهي الأرض ، { أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا } ، أي : يمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطر على قوم لوط . وقال أبو عبيدة والقتيبي : الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء ، وهي الحصا الصغار ، { ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا } ، قال قتادة : مانعا .

[69] { أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ } ، يعني في البحر ، { تَارَةً } مرة ، { أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ } ، قال ابن عباس : أي : عاصفا وهي الريح الشديدة . وقال أبو عبيدة : هي الريح التي تقصف كل شيء ، أي تدقه وتحطمه . وقال القتيبي : هي التي تقصف الشجر ، أي تكسره ، { فَيُغْرِقَكُمْ

بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } ، ناصرا ولا ثائرا ، وتبيع بمعنى تابع أي تابعا أي مطالبا بالثأر . وقيل . من يتبعنا بالإنكار . قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أن نخسف ، ونرسل ، ونعيدكم ، فنرسل ، فنغرقكم) ، بالنون فيهن ، لقوله (علينا) وقرأ الآخرون بالياء لقوله : (إلا إياه) وقرأ أبو جعفر ويعقوب (فتغرقكم) بالتاء يعني الريح .

[70] قوله عز وجل : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ } ، روي عن ابن عباس أنه قال : هو أنهم يأكلون بالأيدي وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض . وروي عنه أنه قال : بالعقل . وقال الضحاك : بالنطق . وقال عطاء : بتعديل القامة وامتدادها ، والدواب منكبة على وجوهها . وقيل : بحسن الصورة . وقيل . الرجال باللحى والنساء بالذوائب . وقيل : بأن سخر لهم سائر الأشياء . وقيل : بأن منهم خير أمة أخرجت للناس . { وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، أي : حملناهم في البر على الدواب وفي البحر على السفن ، { وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ } ، يعني : لذيذ المطاعم والمشارب . قال مقاتل : السمن والزبد والتمر والحلوى ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى . { وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } ، وظاهر الآية أنه فضلهم على كثير ممن خلقهم لا على الكل . وقال قوم : فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة . وقال الكلبي : فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة . جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وأشباههم .

[71] قوله تعالى : { يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } ، قال مجاهد وقتادة : بنبيهم . وقال أبو صالح والضحاك : بكتابهم الذي أنزل عليهم . وقال الحسن وأبو العالية : بأعمالهم . وقال قتادة أيضا : بكتابهم الذي فيه أعمالهم ، بدليل سياق الآية ، { فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ } ويسمى الكتاب إماما كما قال عز وجل : { وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ } . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى ، قال الله تعالى : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } ، وقال : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) ، وقيل : بمعبودهم . وعن سعيد بن المسيب قال : كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر . وقال محمد بن كعب : (بِإِمَامِهِمْ) ، قيل : يعني بأمهاتهم ، وفيه ثلاثة أوجه من الحكمة أحدها : لأجل عيسى عليه السلام ، والثاني : لشرف الحسن والحسين ، والثالث : لئلا يفتضح أولاد الزنا . { فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } أي : لا ينقص

من حقهم قدر فتيل .
[72] { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى } ، اختلفوا في هذه الإشارة فقال قوم : هي راجعة إلى النعم التي عددها الله تعالى في هذه الآيات من قوله : { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ } إلى قوله (تفضيلا) يقول : ومن كان منكم في هذه النعم التي قد عاين أعمى ، { فَهُوَ فِي } ، أمر ، { الْآخِرَةِ } ، التي لم يعاين ولم ير ، { أَعْمَى وَأَضَلَّ سَبِيلًا } ، يروى هذا عن ابن عباس ، وقال الآخرون : هي راجعة إلى الدنيا يقول من كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق ، فهو في الآخرة أعمى أي أشد عمى وأضل سبيلا أي أخطأ طريقا . وقيل . من كان في هذه الدنيا أعمى عن الاعتبار فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار . وقال الحسن : من كان في هذه الدنيا ضالا كافرا فهو في

الآخرة أعمى وأضل سبيلا لأنه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة لا تقبل توبته ، وأمال بعض القراء هذين الحرفين وفتحهما بعضهم ، وكان أبو عمرو يكسر الأول ويفتح الثاني فهو في الآخرة أشد عمى لقوله . (وأضل سبيلا) .

[73] قوله عز وجل : { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } ليصرفونك { عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } من القرآن { لِتَفْتَرِيَ } ، لتختلق ، { عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا } ، لو فعلت ما دعوك إليه { لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا } أي : والوك وصافوك .
[74] { وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ } ، على الحق بعصمتنا ، { لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ } أي : تميل ، { إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا } أي قريبا من الفعل .
[75] { إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ } ، أي : لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، يعني أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة . وقيل : الضعف هو العذاب سمي ضعفا لتضاعف الألم فيه . { ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } ، أي : ناصرا يمنعك من عذابنا .

[76] قوله تعالى : { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا } ، اختلفوا في معنى الآية فقال بعضهم : هذه الآية مدنية . قال الكلبي : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة حسدا منهم ، فأتوه وقالوا : يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء فإن أرض الأنبياء الشام ، وهي الأرض المقدسة ، فإن كنت نبيا مثلهم فأت الشام ، فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أميال من المدينة . وفي رواية : إلى ذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويخرج ، فأنزل الله هذه الآية والأرض هاهنا هي المدينة . وقال مجاهد وقتادة : الأرض أرض مكة ، والآية مكية ، هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالهجرة ، فخرج بنفسه . وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وقيل : هم الكفار كلهم أرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه ، فمنع الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم ولم ينالوا منه ما أملوا ، والاستفزاز هو الإزعاج بسرعة ، { وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ } أي : بعدك { إِلَّا قَلِيلًا } أي : لا يلبثون بعدك إلا قليلا

حتى يهلكوا ، فعلى هذا القول الأول مدة حياتهم ، وعلى الثاني ما بين خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة إلى أن قتلوا ببدر .
[77] قوله عز وجل : { سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا } أي : كسنتنا ، فانتصب بحذف الكاف ، وسنة الله في الرسل إذا كذبتهم الأمم ألا يعذبهم ما دام نبيهم بين أظهرهم ، فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذبهم . { وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا } ، أي تبديلا .

[78] قوله : { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } ، اختلفوا في الدلوك ، روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الدلوك هو الغروب ، وقال ابن عباس وابن عمر وجابر : هو زوال الشمس ومعنى اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل إذا زالت وغربت ، والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به ، ولأنا إذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها ، فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر وإلى غسق الليل يتناول المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر هو صلاة الصبح ، قوله عز وجل : { إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ } ، أي : ظهور ظلمته ، وقال ابن عباس : بدو الليل . وقال قتادة : وقت صلاة

المغرب . وقال مجاهد : غروب الشمس ، { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } ، يعني صلاة الفجر ، سمي صلاة الفجر قرآنا لأنها لا تجوز إلا بقرآن ، وانتصاب القرآن من وجهين أحدهما أنه عطف على الصلاة ، أي : وأقم قرآن الفجر ، قاله الفراء ، وقال أهل البصرة : على الإغراء أي : وعليك قرآن الفجر ، { إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } ، أي : يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

[79] قوله تعالى : { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ } أي : قم بعد نومك ، والتهجد لا يكون إلا بعد النوم ، يقال : تهجد إذا قام بعد ما نام ، وهجد إذا نام ، والمراد من الآية : قيام الليل للصلاة ، وكانت صلاة الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم في الابتداء ، وعلى الأمة ، لقوله تعالى : { يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ }{ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا } ، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا في حق الأمة بالصلوات الخمس ، وبقي الاستحباب : قال الله تعالى : { فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ } ، وبقي الوجوب في حق النبي صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل : { نَافِلَةً لَكَ } أي : زيادة لك ، يريد فضيلة زائدة ، على سائر الفرائض ، فرضها الله عليك . وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخا في حقه كما في حق الأمة ، فصارت نافلة ، وهو قول مجاهد وقتادة ، لأن الله تعالى قال : (نَافِلَةً لَكَ) ولم يقل عليك ، قوله عز وجل : { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا } عسى من الله تعالى واجب لأنه لا يدع أن يعطي عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه ، والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لأمته لأنه يحمده فيه الأولون

والآخرون ، والأخبار في الشفاعة متواترة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة .

[80] قوله عز وجل : { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ } ، المراد من المدخل والمخرج الإدخال والإخراج ، واختلف أهل التفسير فيه ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة : أدخلني مدخل صدق المدينة ، وأخرجني مخرج صدق من مكة ، نزلت حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة . وقال الضحاك : وأخرجني مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين ، وأدخلني مدخل صدق مكة ظاهرا عليها بالفتح . وقال مجاهد : أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق ، وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حقها مخرج صدق . وعن الحسن أنه قال : أدخلني مدخل صدق الجنة وأخرجني مخرج صدق من مكة وقيل : أدخلني في طاعتك وأخرجني من المناهي وقيل : معناه أدخلني حيث ما أدخلتني بالصدق ، وأخرجني بالصدق ، أي : لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه ، فإن ذا الوجهين لا يكون أمينا ووجيها عند الله . ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يئول إليه الخروج والدخول من النصر والعز ودولة الدين ، كما وصف القدم بالصدق فقال : { أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ } . { وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } ، قال

مجاهد : حجة بينة . وقال الحسن : ملكا قويا تنصرني به على من ناوأني وعزا ظاهرا أقيم به دينك ، فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له . قال قتادة : علم نبي الله صلى الله عليه وسلم ألا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان نصير ، فسأل سلطانا نصيرا كتاب الله وحدوده وإقامة دينه .
[81] قوله عز وجل : { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ } ، يعني القرآن ، { وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } ، أي الشيطان ، قال قتادة ، وقال السدي : الحق الإسلام ، والباطل الشرك .

وقيل : الحق عبادة الله ، والباطل عبادة الأصنام . { إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } ذاهبا ، يقال : زهقت نفسه أي خرجت . عن أبي معمر عن عبد الله ، قال : « دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : " جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، { جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ }» (1) .

____

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 400 .

[82] قوله عز وجل : { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } ، قيل : (من) ليس للتبعيض ، ومعناه : وننزل من القرآن ما هو كله شفاء ، أي : بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة ، وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها ورحمة للمؤمنين . { وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } ، لأن الظالم لا ينتفع به والمؤمن من ينتفع به فيكون رحمة له ، وقيل : زيادة الخسارة للظالم من حيث أن كل آية تنزل يتجدد منهم تكذيب ويزداد لهم خسارة ، قال قتادة : لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، قضى الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا .

[83] قوله تعالى : { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ } ، عن ذكرنا ودعائنا ، { وَنَأَى بِجَانِبِهِ } ، أي تباعد منا بنفسه ، أي ترك التقرب إلى الله بالدعاء . وقال عطاء : تعظم وتكبر ، ويكسر النون والهمزة حمزة والكسائي ، ويفتح النون ويكسر الهمزة أبو بكر وقرأ ابن عامر وأبو جعفر (وناء) مثل جاء قيل : هو بمعنى نأى ، وقيل : ناء من النوء وهو النهوض والقيام . { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ } ، الشدة والضر ، { كَانَ يَئُوسًا } , أي آيسا قنوطا . وقيل معناه أنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة, فإذا تأخرت الإجابة يئس ولا ينبغي للمؤمن أن ييأس من الإجابة, وإن تأخرت فيدع الدعاء .

[84] قوله عز وجل : { قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ } , قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مقاتل : على خليقته . قال الفراء : على طريقته التي جبل عليها . وقال القتيبي : على طبيعته وجبلته . وقيل : على السبيل الذي اختاره لنفسه, وهو من الشكل, يقال : لست على شكلي ولا شاكلتي, وكلها لغات متقاربة, تقول العرب : طريق ذو شواكل إذا تشعبت منه الطرق, ومجاز الآية : كل يعمل على ما يشبهه كما يقال في المثل : كل امرئ يشبهه فعله .
{ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا } ، أوضح طريقا .

[85] قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } ، واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه ، فروى عن ابن عباس : إنه جبريل ، وهو قول الحسن وقتادة ، روي عن علي أنه قال : ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها . وقال مجاهد : خلق على صور بني آدم لهم أيد وأرجل ورءوس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام ، وقال سعيد بن جبير : لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش . وقيل : الروح هو القرآن . وقيل : المراد منه عيسى عليه السلام ، فإنه روح الله وكلمته ، ومعناه أنه ليس كما يقول اليهود ولا كما يقول النصارى ، وقال قوم : هو الروح المركب في الخلق الذي يحيل به الإنسان ، وهو الأصح . وتكلم فيه

قوم فقال بعضهم : هو الدم ألا ترى أن الحيوان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم . وقال قوم : هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس . وقال قوم . هو عرض . وقال قوم : هو جسم لطيف . وقال بعضهم : الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلو والعلم والبقاء ، ألا ترى أنه إذا كان موجودا يكون الإنسان موصوفا بجميع هذه الصفات ، فإذا خرج ذهب الكل ، وأولى

الأقاويل : أن يوكل علمه إلى الله عز وجل ، وهو قول أهل السنة . قال عبد الله بن بريدة : إن الله لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله عز وجل : { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } قيل : من علم ربي ، { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } أي : في جنب علم الله قيل : هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم . وقيل : خطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون : أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير . وقيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به أحدا لأن ترك إخباره به كان علما لنبوته . والأول أصح لأن الله عز وجل استأثر بعلمه .
[86] قوله تعالى : { وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } ، يعني القرآن ، معناه : إنا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك ، لو شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك يعني القرآن ، { ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا } ، أي : من يتوكل برد القرآن إليك .

[87] { إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ } ، هذا استثناء منقطع معناه : ولكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك . { إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا } ، فإن قيل كيف يذهب القرآن وهو كلام الله عز وجل ؟ قيل : المراد منه محوه من المصاحف وإذهاب ما في الصدور . وقال عبد الله بن مسعود . اقرءوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع . قيل : هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس ؟ قال : يسري عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئا ولا يجدون في المصاحف شيئا .

[88] قوله جل وعلا : { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } ، لا يقدرون على ذلك ، { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } ، عونا ومظاهرا ، نزلت حين قال الكفار : لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله تعالى ، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب ، وهو كلام في أعلى طبقات المبالغة لا يشبه كلام الخلق ، لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله .
[89] قوله عز وجل : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } ، من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها ، { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } ، جحودا .
[90] { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ } ، لن نصدقك ، { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ } يعني . أرض مكة { يَنْبُوعًا } أي : عيونا .
[91] { أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ } ، بستان ، { مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا } ، تشقيقا .

[92] { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا } ، قرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح السين ، أي : قطعا وهي جمع كسفة ، وهي القطعة والجانب مثل كسرة وكسر ، وقرأ الآخرون بسكون السين على التوحيد ، وجمعه أكساف

وكسوف ، أي : تسقطها طبقا واحدا . وقيل : أراد جانبها علينا . وقيل : معناه أيضا القطع ، وهي جمع التكسير مثل سدرة وسدر في الشعراء وسبأ (كِسفا) بالفتح ، حفص ، وفي الروم ساكنة أبو جعفر ، وابن عامر . { أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا } ، قال ابن عباس : كفيلا أي يكفلون بما تقول . وقال الضحاك : ضامنا . وقال مجاهد : هو جمع القبيلة أي : بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة . وقال قتادة : عيانا أي نراهم مقابلة أي معاينة . وقال الفراء : هو من قول العرب لقيت فلانا قبيلا ، وقبيلا أي : معاينة .

[93] { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } أي : من ذهب ، وأصله الزينة ، { أَوْ تَرْقَى } ، تصعد ، { فِي السَّمَاءِ } ، هذا قول عبد الله بن أبي أمية ، { وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ } ، لصعودك ، { حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ } ، أمرنا فيه باتباعك ، { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي } ، وقرأ ابن كثير وابن عامر (قال) يعني محمدا ، وقرأ الآخرون على الأمر ، أي : قل يا محمد ، { هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا } ، أمره بتنزيهه وتمجيده ، على معنى أنه لو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل ، ولكن الله لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر ، وما أنا إلا بشر وليس ما سألتم في طوق البشر ، واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله ، مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الأصابع وما أشبهها ، والقوم عامتهم كانوا متعنتين لم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا ، فرد الله عليهم سؤالهم .

[94] قوله عز وجل : { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا } ، جهلا منهم ، { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } ، أراد أن الكفار كانوا يقولون : لن نؤمن لك لأنك بشر ، وهلا بعث الله إلينا ملكا فأجابهم الله تعالى :
[95] { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ } ، مستوطنين مقيمين ، { لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } ، من جنسهم لأن القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس .
[96] { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ، أني رسوله إليكم ، { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } .

[97] { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ } ، يهدونهم ، { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه » (1) { عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } ، فإن قيل كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم . وقد قال : { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ } ، وقال : { دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا } وقال : { سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا } ، أثبت الرؤية والكلام والسمع ؟ قيل : يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد إليهم هذه الأشياء ، وجواب آخر : قال ابن عباس : عميا لا يرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون شيئا يسرهم . وقال الحسن : هذا حين يساقون إلى الموقف إلى أن يدخلوا النار . وقال مقاتل : هذا حين يقال لهم : { اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } يصيرون بأجمعهم عميا وبكما وصما لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون . { مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ } ، قال ابن عباس : كلما سكنت ،

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 492 ومسلم في المنافقين 4 / 2161

أي : سكن لهيبها . وقال مجاهد : طفئت وقال قتادة : ضعفت وقيل : هو الهدو من غير أن يوجد نقصان في ألم الكفار ، لأن الله تعالى قال : { لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ } ، وقيل : كلما خبت أي أرادت أن تخبو ، { زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } ، أي : وقودا ، وقيل : المراد من قوله : { كُلَّمَا خَبَتْ } أي : نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا فيها إلى ما كانوا عليه وزيد في تسعير النار لتحرقهم .
[98] { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } ، فأجابهم الله تعالى .
[99] فقال : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ } ، في عظمتها وشدتها ، { قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } ، في صغرهم وضعفهم ، نظيره قوله تعالى : { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } . { وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا } ، أي : وقتا لعذابهم ، { لَا رَيْبَ فِيهِ } ، أنه يأتيهم ، قيل : هو الموت ، وقيل : هو يوم القيامة ، { فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } ، أي : جحودا وعنادا .

[100] { قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي } أي : نعمة ربي . وقيل : رزق ربي ، { إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ } ، لبخلتم وحبستم ، { خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ } ، أي : خشية الفاقة ، قاله قتادة ، وقيل : خشية النفاد ، يقال : أنفق الرجل أي أملق وذهب ماله ونفق الشيء ، أي : ذهب ، وقيل : لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر ، { وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا } ، أي : بخيلا ممسكا عن الإنفاق .
[101] قوله عز وجل : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } ، أي : دلالات واضحات ، فهي الآيات التسع ، قال ابن عباس والضحاك : هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وقال عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء : هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص الثمرات .

وذكر محمد بن كعب القرظي : الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات . وقال بعضهم : هن آيات الكتاب { فَاسْأَلْ } ، يا محمد ، { بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ } ، موسى ، يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غيره ، ويجوز أن يكون خاطبه عليه السلام وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم . { فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسَى مَسْحُورًا } ، أي : مطبوبا سحروك ، قاله الكلبي ، وقال ابن عباس : مخدوعا . وقيل : مصروفا عن الحق . وقال الفراء وأبو عبيدة : ساحرا فوضع المفعول موضع الفاعل . وقال محمد بن جرير : معطى علم السحر ، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك .

[102] { قَالَ } ، موسى { لَقَدْ عَلِمْتَ } ، قرأ العامة بفتح التاء خطابا لفرعون ، وقرأ الكسائي بضم التاء ، ويروى ذلك عن علي ، وقال : لم يعلم الخبيث أن موسى على الحق ، ولو علم لآمن ولكن موسى هو الذي علم ، قال ابن عباس : علمه فرعون ولكنه عاند ، قال الله تعالى : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } ، وهذه القراءة وهي نصب التاء أصح في المعنى وعليه أكثر القراء ، لأن موسى لا يحتج عليه بعلم نفسه ، ولا يثبت عن علي رفع التاء لأنه روي عن رجل من مراد عن علي ، وذلك الرجل مجهول ولم يتمسك بها أحد من القراء غير الكسائي ، { مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ } ، هذه الآيات التسع ، { إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ } ، جمع بصيرة أي يبصر بها ، { وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } ، قال ابن عباس : ملعونا . وقال مجاهد :

هالكا . وقال قتادة : مهلكا . وقال الفراء : أي مصروفا ممنوعا عن الخير يقال : ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما منعك وصرفك عنه .

[103] { فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ } ، أي : أراد فرعون أن يستفزهم موسى وبني إسرائيل أي يخرجهم ، { مِنَ الْأَرْضِ } ، يعني أرض مصر ، { فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا } ، ونجينا موسى وقومه .
[104] { وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ } ، أي من بعد هلاك فرعون ، { لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ } ، يعني أرض مصر والشام ، { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ } ، يعني يوم القيامة ، { جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا } أي : جميعا إلى موقف القيامة . واللفيف : الجمع الكثير إذا كانوا مختلطين من كل نوع ، يقال : لفت الجيوش إذا اختلطوا وجمع القيامة كذلك فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر . وقال الكلبي : فإذا جاء وعد الآخرة يعني مجيء عيسى من السماء جئنا بكم لفيفا أي : النزاع من كل قوم من هنا وهنا لفوا جميعا .

[105] { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } ، يعني القرآن ، { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا } ، للمطيعين, { وَنَذِيرًا } ، للعاصين .
[106] { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ } ، قيل : أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة ، بدليل قراءة ابن عباس : (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ) بالتشديد ، وقراءة العامة بالتخفيف ، أي : فصلناه . وقيل : بيناه . وقال الحسن : معناه فرقنا به بين الحق والباطل . { لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ } أي : على تؤدة وترسل في ثلاث وعشرين سنة ، { وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } .
[107] { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا } ، هذا على طريق الوعيد والتهديد ، { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ } ، قيل : هم مؤمنو أهل الكتاب وهم الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلموا بعد مبعثه ، مثل زيد بن عمر بن نفيل وسلمان الفارسي وأبي ذر وغيرهم . { إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ } ، يعني القرآن { يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ } أي : يسقطون على الأذقان ، قال ابن عباس : أراد بها الوجوه ، { سُجَّدًا } .

[108] { وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } ، أي : كائنا واقعا .
[109] { وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ } ، أي : يقعون على الوجوه يبكون ، البكاء مستحب عند قراءة القرآن ، { وَيَزِيدُهُمْ } ، نزول القرآن ، { خُشُوعًا } ، خضوعا لربهم ، نظيره قوله تعالى : { إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } .

[110] { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ } ، قال ابن عباس : سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات ليلة فجعل يبكي ويقول في سجوده : يا الله يا رحمن ، فقال أبو جهل : إن محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (1) . ومعناه أنهما اسمان لواحد { أَيًّا مَا تَدْعُوا } ، (ما) صلة معناه أيا ما تدعوا من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه ، { فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا } نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم { وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } (

2) ، أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن . وقال قوم : نزلت الآية في الدعاء . عن عائشة رضي الله عنها قالت : أنزل ذلك في الدعاء .

---

(1) أخرجه الطبري في التفسير 15 / 182 وانظر أسباب النزول للواحدي ص 341 والدر المنثور 5 / 348 .
(2) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء 8 / 404 ومسلم في الصلاة 1 / 329 .

[111] { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا } ، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يحمد على وحدانيته ، ومعنى الحمد لله هو الثناء عليه بما هو أهله ، قال الحسين بن الفضل : معناه الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولدا ، { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ } ، قال مجاهد : لم يذل حتى يحتاج إلى ولي يتعزز به { وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا } ، أي : وعظمه عن أن يكون له شريك أو ولي .

(18) سورة الكهف
[1] { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ } أثنى الله على نفسه بإنعامه على خلقه ، وخص رسول صلى الله عليه وسلم بالذكر ، لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم . { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا } .

[2] { قَيِّمًا } ، فيه تقديم وتأخير معناه أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا (قيما) أي مستقيما . قال ابن عباس : عدلا . وقال الفراء : قيما على الكتب كلها أي : مصدقا لها ناسخا لشرائعها . وقال قتادة : ليس على التقديم والتأخير بل معناه : أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، ولكن جعله قيما . قوله عز وجل : { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا } أي : مختلفا ، على ما قال الله تعالى : { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } وقيل : معناه لم يجعله مخلوقا . وروي عن ابن عباس في قوله { قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } أي : غير مخلوق . { لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا } ، أي لينذر ببأس شديد ، { مِنْ لَدُنْهُ } ، أي من عنده ، { وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا } . أي الجنة .
[3] { مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا } أي : مقيمين فيه .
[4] { وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } .

[5] { مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ } ، أي قالوه عن جهل لا عن علم ، { كَبُرَتْ } ، أي عظمت ، { كَلِمَةً } ، نصب على التمييز ، يقال : تقديره كبرت الكلمة كلمة . وقيل : من كلمة ، فحذف (من) فانتصب ، { تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } أي : تظهر من أفواههم ، { إِنْ يَقُولُونَ } ، ما يقولون ، { إِلَّا كَذِبًا } .
[6] { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ } ، من بعدهم, { إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ } أي : القرآن ، { أَسَفًا } ، أي حزنا وقيل : غضبا .
[7] { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا } ، فإن قيل : أي زينة في الحيات والعقارب والشياطين ؟ قيل : فيها زينة على معنى أنها تدل على وحدانية الله تعالى . وقال مجاهد : أراد به الرجال خاصة هم زينة الأرض . وقيل : أراد بهم

العلماء والصلحاء . وقيل : الزينة بالنبات والأشجار والأنهار ، كما قال . { حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ } . { لِنَبْلُوَهُمْ } ، لنختبرهم ، { أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } ، أي أصلح عملا . وقيل . أيهم أترك للدنيا .

[8] { وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا } , فالصعيد وجه الأرض, وقيل هو التراب, جرزا يا بسا أملس لا ينبت شيئا . يقال : جزرت الأرض إذا أكل نباتها .
[9] قوله تعالى : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا } , يعني أظننت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا أي هم عجب من آياتنا . وقيل : معناه إنهم ليسوا بأعجب من آياتنا فإن ما خلقت من السموات والأرض وما فيهن من العجائب أعجب منهم, والكهف : هو الغار في الجبل, واختلفوا في الرقيم, قال سعيد بن جبير : هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم وهذا أظهر الأقاويل ، ثم وضعوه على باب الكهف وكان اللوح من رصاص, وقيل, من حجار, فعلى هذا يكون الرقيم بمعنى المرقوم ، أي : المكتوب ، والرقم : الكتابة . وحكي عن ابن عباس أنه قال : هو اسم للوادي الذي فيه أصحاب الكهف ، وعلى هذا هو من رقمة الوادي وهو جانبه ، وقال كعب الأحبار : هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف ، وقيل : اسم للجبل الذي فيه الكهف ، ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف .

[10] فقال : { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ } ، أي صاروا إليه ، يقال : أوى فلان إلى موضع كذا أي : اتخذه منزلا { إِلَى الْكَهْفِ } ، وهو غار في جبل مخلوس واسم الكهف : خيرم . { فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً } . ومعنى الرحمة الهداية في الدين . وقيل : الرزق ، { وَهَيِّئْ لَنَا } ، يسر لنا ، { مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا } ، أي : ما نلتمس من خير رضاك وما فيه رشدنا ، وقال ابن عباس : رشدا أي : مخرجا من الغار في سلامة .
[11] { فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ } ، أي أنمناهم وألقينا عليهم النوم . وقيل : معناه منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم ، فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه ، { فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا } ، أي : أنمناهم سنين معدودة وذكر العدد على سبيل التأكيد . وقيل : ذكره يدل على الكثرة فإن القليل لا يعد في العادة .

[12] { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ } ، يعني من نومهم ، { لِنَعْلَمَ } أي : علم المشاهدة { أَيُّ الْحِزْبَيْنِ } ، أي : الطائفتين ، { أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا } . وذلك أن أهل القرية تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف واختلفوا في قوله { أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا } حفظ لما مكثوا في كهفهم نياما أمدا أي : غاية . وقال مجاهد : عددا ونصبه على التفسير .
[13] { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ } نقرأ عليك { نَبَأَهُمْ } ، خبر أصحاب الكهف . { بِالْحَقِّ } ، بالصدق { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ } ، شبان ، { آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } ، إيمانا وبصيرة .

[14] { وَرَبَطْنَا } شددنا ، { عَلَى قُلُوبِهِمْ } ، بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف ، { إِذْ قَامُوا } ، بين يدي دقيانوس حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم ، { فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا } ، قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأوثان ، { لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا } ، يعني إن دعونا غير الله لقد قلنا إذا شططا ، قال ابن عباس : جورا

. وقال قتادة : كذبا . وأصل الشطط والإشطاط مجاوزة القدر والإفراط .
[15] { هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا } ، يعني أهل بلدهم ، { اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ }، أي من دون الله ، { آلِهَةً } ، يعني الأصنام يعبدونها ، { لَوْلَا } ، أي هلا ، { يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ } ، أي على عبادتهم ، { بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ } ، بحجة واضحة ، { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، وزعم أن له شريكا أو ولدا .

[16] ثم قال بعضهم لبعض : { وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ } ، يعني قومكم ، { وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ } ، قرأ ابن مسعود وَمَا يَعْبُدُونَ من دون اللَّهَ ، وأما القراءة المعروفة فمعناها أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان يقول : إذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلا الله فإنكم لم تعتزلوا ، { فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ } ، فالجأوا إليه ، { يَنْشُرْ لَكُمْ } ، يبسط لكم ، { رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ } ، يسهل لكم ، { مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا } أي : ما يعود إليه يسركم ورفقكم . قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر (مرفقا) بفتح الميم وكسر الفاء ، وقرأ الآخرون بكسر الميم وفتح الفاء ، ومعناهما واحد ، وهو ما يرتفق به الإنسان .

[17] قوله تعالى : { وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ } ، قرأ ابن عامر ويعقوب : بسكون الزاي وتشديد الراء على وزن تحمر ، وقرأ أهل الكوفة بفتح الزاي خفيفة وألف بعدها ، وقرأ الآخرون بتشديد الزاي ، وكلها بمعنى واحد ، أي : تميل وتعدل ، { عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ } أي : جانب اليمين ، { وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ } ، أي : تتركهم وتعدل عنهم ، { ذَاتَ الشِّمَالِ } ، أصل القرض القطع ، { وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ } أي : متسع من الكهف وجمعها فجوات ، قال ابن قتيبة : كان كهفهم مستقبل بنات نعش ، لا تقع فيه الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب وفيما بين ذلك ، قال : اختار الله لهم مضطجعا في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم وهم في متسع ينالهم برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمومه . وقال بعضهم : هذا القول خطأ وهو أن الكهف كان مستقبل بنات نعش فكانت الشمس لا تقع عليهم ولكن الله صرف الشمس عنهم بقدرته وحال بينها وبينهم ، ألا ترى أنه قال : { ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ } ، من عجائب صنع الله ودلالات قدرته التي يعتبر بها ، { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي

وَمَنْ يُضْلِلْ } ، أي : من يضلله الله ولم يرشده ، { فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا } ، معينا ، { مُرْشِدًا } .

[18] قوله تعالى : { وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا } أي : منتبهين جمع : يقظ ، { وَهُمْ رُقُودٌ } ، نيام جمع راقد مثل قاعد وقعود وإنما اشتبه حالهم لأنهم كانوا مفتحة أعينهم يتنفسون ولا يتكلمون ، { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } ، مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر . قال ابن عباس : كانوا يقلبون في السنة مرة من جنب إلى جنب لئلا تأكل الأرض لحومهم . وقيل : كان يوم عاشوراء يوم تقلبهم . وقال أبو هريرة : كان لهم في كل سنة تقلبان ، { وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } ، أكثر أهل التفسير على أنه كان من جنس الكلاب . وروي عن ابن جريج : أنه كان أسد أو سمي الأسد كلبا فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي لهب فقال : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » (1) فافترسه أسد ، والأول المعروف قوله { بِالْوَصِيدِ } قال مجاهد والضحاك : والوصيد فناء الكهف . وقال عطاء : عتبة الباب . وقال السدي : الوصيد الباب

. وهو رواية عكرمة عن ابن عباس ، فإن قيل : لم يكن للكهف باب ولا عتبة ؟ قيل : معناه موضع الباب والعتبة كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم . قال السدي : كان أصحاب الكهف

---

(1) صححه الحاكم في المستدرك 2 / 539 ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري 4 / 39 .

إذا انقلبوا انقلب الكلب معهم وإذا انقلبوا إلى اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها ، وإذا انقلبوا إلى الشمال كسر أذنه اليسرى . ورقد عليها . { لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ } ، يا محمد ، { لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا } ، لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم ، { وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا } ، خوفا قرأ أهل الحجاز بتشديد اللام والآخرون بتخفيفها واختلفوا في أن الرعب كان لماذا ؟ قيل : من وحشة المكان . وقال الكلبي : لأن أعينهم كانت مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا شعور . وقيل : إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد .

[19] قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ } ، أي كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسادهم من البلى على طول الزمان فكذلك بعثناهم من النومة التي تشبه الموت ، { لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ } ليسأل بعضهم بعضا واللام فيه لام العاقبة لأنهم لم يبعثوا للسؤال ، { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ } ، وهو رئيسهم مكسلمينا ، { كَمْ لَبِثْتُمْ } ، في نومكم وذلك أنهم استنكروا طول نومهم . ويقال : إنهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك ، { قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا } ، وذلك أنهم دخلوا الكهف غدوة فقالوا فانتبهوا حين انتبهوا عشية فقالوا : لبثنا يوما ثم نظروا وقد بقيت من الشمس بقية ، فقالوا : { أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } ، فلما نظروا إلى شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم ، { قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } ، وقيل : إن رئيسهم مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال . دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم ، { فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ } ، يعني تمليخا ، قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر بورقكم ساكنة الراء والباقون بكسرهما ومعناهما واحد وهي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة . { إِلَى الْمَدِينَةِ }

، قيل : هي طرسوس وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فسموها في الإسلام طرسوس ، { فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا } أي : أحل طعاما حتى لا يكون من غصب أو سبب حرام ، وقيل : أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا يكون من ذبيحة من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم . وقال الضحاك : أطيب طعاما . وقال مقاتل بن حيان : أجود طعاما . وقال عكرمة : أكثر ، وأصل الزكاة الزيادة . وقيل : أرخص طعاما . { فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ } ، أي قوت وطعام تأكلونه ، { وَلْيَتَلَطَّفْ } ، وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتمان ، { وَلَا يُشْعِرَنَّ } ، ولا يعلمن { بِكُمْ أَحَدًا } ، من الناس .

[20] { إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ } ، أي : يعلموا بمكانكم ، { يَرْجُمُوكُمْ } قال ابن جريج : يشتموكم ويؤذوكم بالقول . وقيل : يقتلوكم ، وقيل : كان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل . وقيل : يضربوكم ، { أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ } أي : إلى الكفر ، { وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا } ، إن عدتم إليه .

[21] قوله عز وجل : { وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا } أي : أطلعنا ، { عَلَيْهِمْ } ، يقال : عثرت على الشيء إذا اطلعت عليه وأعثرت غيري أي أطلعته ، { لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ، يعني أصحاب بيدروس الحاكم حين بعثوا الذين أنكروا البعث ، { وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ } ، قال ابن عباس . يتنازعون في البنيان ، فقال المسلمون : نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس لأنهم على ديننا ، وقال المشركون : نبني عليهم بنيانا لأنهم من أهل ديننا .
وقال عكرمة : تنازعوا في البعث ، فقال المسلمون : البعث للأجساد والأرواح ، وقال قوم للأرواح دون الأجساد ، فبعثهم الله تعالى وأراهم أن البعث للأجساد والأرواح .
وقيل : تنازعوا في مدة لبثهم . وقيل: في عددهم . { فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ } ، بيدروس الملك وأصحابه ، { لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا } .

[22] { سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ }{ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ } , أي ظنا وحدسا مع غير يقين ، ولم يقل هذا في حق السبعة ، فقال : { وَيَقُولُونَ } يعني : المسلمين ، { سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ } ، اختلفوا في الواو في قوله : { وَثَامِنُهُمْ } وقيل . تركها وذكرها سواء . وقيل : هي واو الحكم والتحقيق كأنه حكى اختلافهم ، وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله : { وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ } والثامن لا يكون إلا بعد السابع . وقيل : هذه واو الثمانية ، وذلك أن العرب تعد فتقول : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية ، لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ، نظيره قوله تعالى : { التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ } إلى قوله : { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ } ، وقال في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم : { عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا } . { قُلْ رَبِّي

أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } ، أي : بعددهم { مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ } ، أي : إلا قليل من الناس . قال ابن عباس : إنا من القليل كانوا سبعة . وقال محمد بن إسحاق : كانوا ثمانية { فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ } ، أي : لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ، { إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا } ، إلا بظاهر ما قصصنا عليك ، يقول : بحسبك ما قصصت عليك فلا تزد عليه وقف عنده ، { وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ } ، من أهل الكتاب ، { أَحَدًا } أي : لا ترجع إلى قولهم بعد أن أخبرناك .
[23] { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا } .

[24] { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ، يعني : إذا عزمت على أن تفعل غدا شيئا فلا تقل أفعل غداً حتى تقول إن شاء الله ، وذلك أن أهل مكة سألوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين ، فقال : أخبركم غدا ولم يقل : إن شاء الله ، فلبث الوحي أياما ثم نزلت هذه الآية ، { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } ، قال ابن عباس ومجاهد والحسن : معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن ، وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وإن كان إلى سنة وجوزه الحسن ما دام في المجلس ، وجوزه بعضهم إذا قرب الزمان ، فإن بعد فلا يصح ، ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلا بالكلام . وقال عكرمة : معنى الآية واذكر ربك إذا غضبت . وقال وهب : مكتوب في الإنجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب . وقال الضحاك والسدي : هذا في الصلاة ، عن أنس قال :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها » (1) . { وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا } ، أي يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد . وقيل : أمر الله نبيه أن يذكره إذا نسي شيئا ويسأله أن يهديه لما هو خير له من ذكر ما نسيه . ويقال : هو أن القوم لما

____

(1) أخرجه البخاري في المواقيت 2 / 70 ومسلم في المساجد رقم (597) 2 / 241 والمصنف في شرح السنة 2 / 241 .

سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله عز وجل أن يخبرهم أن الله سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل حيث أتاه من علم الغيب حال المرسلين ما كان أوضح لهم في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف ، وقال بعضهم : هذا شيء أمر أن يقوله مع قوله إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسي الإنسان إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول : (عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) .

[25] قوله عز وجل : { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ } ، يعني أصحاب الكهف . قال بعضهم : هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك ، ولو كان خبرا من الله عز وجل عن قدر لبثهم لم يكن لقوله : { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } وجه ، وهذا قول قتادة ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود : (وقالوا لبثوا في كهفهم) ثم رد الله تعالى عليهم فقال : { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } وقال الآخرون . هذا إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم في الكهف ، وهو الأصح ، وأما قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } فمعناه أن الأمر من مدة لبثهم كما ذكرنا فإن نازعوك فيها فأجبهم : وقل الله أعلم بما لبثوا ، أي : هو أعلم منكم ، وقد أخبرنا بمدة لبثهم . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إن هذه المدة من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين فرد الله عليهم وقال : قل الله أعلم بما لبثوا يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلا الله . قوله تعالى : { ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ } قرأ حمزة والكسائي : (ثلاث مائة) بلا تنوين ، وقرأ الآخرون : بالتنوين ، فإن قيل : لم قال ثلاثمائة سنين ولم يقل سنة ؟ قيل : نزل قوله : {

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ } ، فقالوا : أياما أو شهورا أو سنين ؟ فنزلت { سِنِينَ } ، قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين في موضع سنة . وقيل : معناه ولبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة . { وَازْدَادُوا تِسْعًا } ، قال الكلبي : قالت نصارى نجران : أما ثلاثمائة فقد عرفنا وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت .

[26] { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } روي عن علي أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة شمسية والله تعالى ذكر ثلاثمائة قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين ، فيكون في ثلاثمائة تسع سنين فلذلك قال : { وَازْدَادُوا تِسْعًا } . { لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، فالغيب ما يغيب عن إدراكك والله عز وجل لا يغيب عن إدراكه شيء . { أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ } أي ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع ، أي لا يغيب عن سمعه وبصره شيء ، { مَا لَهُمْ } أي : ما لأهل السموات والأرض ، { مِنْ دُونِهِ } أي : من دون الله ، { مِنْ وَلِيٍّ } ، ناصر, { وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } ، قرأ ابن عامر ويعقوب : ولا تشرك بالتاء على المخاطبة والنهي ، وقرأ الآخرون بالياء أي لا

يشرك الله في حكمه أحدا . وقيل : الحكم هنا علم الغيب لا يشرك في علم غيبه أحدا .

[27] قوله عز وجل : { وَاتْلُ } أي : واقرأ يا محمد ، { مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ } ، يعني القرآن ، واتبع ما فيه ، { لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } ، قال الكلبي : لا مغير للقرآن . وقيل : لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه ، { وَلَنْ تَجِدَ } ، أنت ، { مِنْ دُونِهِ } ، إن لم تتبع القرآن ، { مُلْتَحَدًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حرزا . وقال الحسن : مدخلا . وقال مجاهد : ملجأ . وقيل : معدلا . وقيل : مهربا . وأصله من الميل .

[28] قوله عز وجل : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ } الآية ، نزلت في عيينة بن حصن الفزاري أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوصة يشقها ثم ينسجها ، فقال عيينة للنبي صلى الله عليه وسلم : أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها ، فإن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا ، فأنزل الله عز وجل : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ } ، أي : احبس يا محمد نفسك ، { مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } ، طرفي النهار { يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } لا يريدون به عرضا من الدنيا . قال قتادة : نزلت في أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى ، فلما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم » . { وَلَا تَعْدُ } أي : لا تصرف ولا تتجاوز ، { عَيْنَاكَ عَنْهُمْ } ، إلى غيرهم ، { تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، أي

طلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا ، { وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا } ، أي جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا يعني عيينة بن حصن . وقيل : أمية بن خلف ، { وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } ، أي مراده في طلب الشهوات ، { وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } ، قال قتادة ومجاهد : ضياعا . وقيل : معناه ضيع أمره وعطل أيامه . وقيل : ندما . وقال مقاتل ابن حيان : سرفا . وقال الفراء : متروكا . وقيل : باطلا . وقيل : مخالفا للحق . وقال الأخفش : مجاوز للحد . قيل : معنى التجاوز في الحد ، هو قول عيينة : إن أسلمنا أسلم الناس وهذا إفراط عظيم .

[29] { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ } ، أي ما ذكر من الإيمان والقرآن ، معناه : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس الحق من ربكم وإليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ، ليس إليّ من ذلك شيء . { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } ، هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله : { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } ، وقيل : معنى الآية : وقل الحق من ربكم ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا فإن كفرتم فقد أعد لكم ربكم نارا أحاط بكم سرادقها ، وإن آمنتم فلكم ما وصف الله عز وجل لأهل طاعته . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية : من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر ، كفر وهو قوله : { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } . { إِنَّا أَعْتَدْنَا } ، أعددنا وهيأنا من العتاد وهو العدة ، { لِلظَّالِمِينَ } للكافرين ، { نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } ، السرادق الحجزة التي تطيف

بالفساطيط ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار مثل مسيرة أربعين سنة » (1) . قال ابن

---

(1) أخرجه الترمذي في صفة جهنم 7 / 306 وقال : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين وفي رشدين بن سعد مقال ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند 3 / 29 والحاكم 4 / 601 والطبري 15 / 239 والمصنف في شرح السنة 15 / 245 .

عباس : هو حائط من نار . وقال الكلبي : هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار وهو الذي ذكره الله تعالى : { انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ } . { وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا } من شدة العطش ، { يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ } عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «{ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ } قال كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه » (1) . وقال ابن عباس : هو ماء غليظ مثل دردي الزيت . وقال مجاهد : هو القيح والدم ، وسئل ابن مسعود عن المهل ؟ فدعا بذهب وفضة فأوقد عليهما النار حتى ذابا ، ثم قال : هذا أشبه شيء بالمهل ، { يَشْوِي الْوُجُوهَ } ، ينضج الوجوه من حره ، { بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ } النار ، { مُرْتَفَقًا } ، قال ابن عباس : منزلا . وقال مجاهد : مجتمعا . وقال عطاء : مقرا . وقال القتيبي : مجلسا . وأصل المرتفق المتكأ .

---

(1) أخرجه الترمذي في الموضع السابق 7 / 305 وأحمد في المسند 3 / 70 والحاكم 4 / 604 والمصنف في شرح السنة 15 / 245 بنفس الإسناد ، وهو ضعيف .

[30] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا } ، فإن قيل : أين جواب قوله : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } ؟ قيل : جوابه قوله : { أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي } ، وأما قوله : { إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ } فكلام معترض . وقيل : فيه إضمار معناه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجرهم بل نجازيهم ، ثم ذكر الجزاء .

[31] فقال : { أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ } ، أي : إقامة ، يقال : عدن فلان بالمكان إذا أقام به ، سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها ، { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } ، قال سعيد بن جبير : يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور : واحد من ذهب, وواحد من فضة ، وواحد من لؤلؤ ويواقيت ، { وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ } ، وهو مارق من الديباج ، { وَإِسْتَبْرَقٍ } ، وهو ما غلظ منه ، ومعنى الغلظ في ثياب الجنة إحكامه . وعن أبي عمران الجوني قال : السندس هو الديباج المنسوج بالذهب ، { مُتَّكِئِينَ فِيهَا } ، في الجنان ، { عَلَى الْأَرَائِكِ } ، وهي السرر في الحجال واحدتها أريكة ، { نِعْمَ الثَّوَابُ } أي نعم الجزاء ، { وَحَسُنَتْ } الجنان { مُرْتَفَقًا } أي : مجلسا ومقرا .

[32] { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ } اذكر لهم خبر رجلين ، { جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ } ، بستانين ، { مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ } ، أي : أطفناهما من

جوانبهما بنخل, والحفاف الجانب ، وجمعه أحفة ، يقال : حف به القوم أي طافوا بجوانبه ، { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا } ، أي جعلنا حول الأعناب النخيل ووسط الأعناب الزرع . وقيل : بينهما أي بين الجنتين زرعا يعني لم يكن بين الجنتين موضوع خراب .
[33] { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ } ، أي أعطت كل واحدة من الجنتين ، { أُكُلَهَا } ، ثمرها تاما ، { وَلَمْ تَظْلِمْ } ، لم تنقص ، { مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا } ، قرأ العامة بالتشديد ، وقرأ يعقوب بتخفيف الجيم ، { خِلَالَهُمَا نَهَرًا } يعني شققنا وأخرجنا وسطهما نهرا .

[34] { وَكَانَ لَهُ } ، لصاحب البستان ، { ثَمَرٌ } قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب ثمر بفتح الثاء والميم ، وكذلك بثمرة ، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء ساكنة الميم ، وقرأ الآخرون بضمهما ، فمن قرأ بالفتح هو جمع ثمرة وهو ما تخرجه الشجرة من الثمار المأكولة ، ومن قرأ بالضم فهي الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف ، جمع ثمار . وقال مجاهد : ذهب وفضة . وقيل : جميع الثمرات . قال الأزهري : الثمرة تجمع على ثمر ، ويجمع الثمر على ثمار ، ثم تجمع الثمار على ثمر . { فَقَالَ } ، يعني صاحب البستان ، { لِصَاحِبِهِ } ، المؤمن ، { وَهُوَ يُحَاوِرُهُ } ، يخاطبه ويجاوبه ، { أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا } أي : عشيرة ورهطا . وقال قتادة : خدما وحشما . وقال مقاتل : ولدا ، تصديقه قوله تعالى : { إِنْ تَرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا } .

[35] { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ } ، يعني الكافر ، أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به فيها ويريه أثمارها ، { وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ } ، بكفره ، { قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ } ، تهلك ، { هَذِهِ أَبَدًا } ، قال أهل المعاني : راقه حسنها وغرته زهرتها فتوهم أنها لا تفنى أبدا وأنكر البعث .
[36] فقال : { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً } ، كائنة, { وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } ، قرأ أهل الحجاز والشام هكذا على التثنية ، يعني من الجنتين ، وكذلك هو في مصاحفهم ، وقرأ الآخرون منها أي : من الجنة التي دخلها ، { مُنْقَلَبًا } أي : مرجعا إن قيل : كيف قال { وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي } ، وهو منكر البعث ؟ قيل : معناه ولئن رددت إلى ربي على ما تزعم أنت يعطيني هنالك خيرا منها فإنه لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها .
[37] { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ } ، المسلم ، { وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ } ، أي خلق أصلك من تراب ، { ثُمَّ } ، خلقك ، { مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا } أي : عدلك بشرا سويا ذكرا .

[38] { لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي } ، قرأ ابن عامر ويعقوب لكنا بالألف في الوصل ، وقرأ الباقون بلا ألف واتفقوا على إثبات الألف في الوقف ، وأصله " لكن أنا " فحذفت الهمزة طلبا للتخفيف لكثرة استعمالها ثم أدغمت إحدى النونين في الأخرى ، قال الكسائي : فيه تقديم وتأخير مجازه : لكن الله هو ربي { وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا } .
[39] { وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ } ، أي هلا إذ دخلت جنتك ، { قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ } أي : الأمر ما شاء الله . وقيل : جوابه مضمر أي ما شاء الله كان ، وقوله : { لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ } ، أي لا أقدر على حفظ مالي أو دفع شيء عنه إلا بالله ، وروي عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى من ماله شيئا يعجبه أو دخل حائطا

من حيطانه . قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . ثم قال : { إِنْ تَرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا } (أنا) عماد (1) ، ولذلك نصب أقل معناه : إن ترني أقل منك مالا وولدا فتكبرت وتعظمت علي .

---

(1) وهكذا في طبعة 1343 هـ وكذا في طبعة النمر وهو صحيح

[40] { فَعَسَى رَبِّي } ، فلعل ربي ، { أَنْ يُؤْتِيَنِي } ، يعطيني في الآخرة ، { خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا } ، أي على جنتك ، { حُسْبَانًا } ، قال قتادة : عذابا . وقال ابن عباس رضي الله عنه : نارا . وقال القتيبي : مرامي . { مِنَ السَّمَاءِ } ، وهي مثل صاعقة أو شيء يهلكها ، واحدتها حسبانة ، { فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا } ، أي أرضا جرداء ملساء لا نبات فيها . وقيل : تزلق فيها الأقدام . وقال مجاهد : رملا هائلا .
[41] { أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا } ، أي : غائرا منقطعا ذاهبا لا تناله الأيدي ، ولا الدلاء ، والغور مصدر وضع موضع الاسم ، مثل زور وعدل ، { فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا } ، يعني : إن طلبته لم تجده .

[42] { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } ، أي أحاط العذاب بثمر جنته ، وذلك أن الله تعالى أرسل عليها نارا فأهلكتها وغار ماؤها ، { فَأَصْبَحَ } ، صاحبها الكافر { يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ } ، أي يصفق بيده على الأخرى ويقلب كفيه ظهرا لبطن تأسفا وتلهفا ، { عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ } ، أي ساقطة ، { عَلَى عُرُوشِهَا } ، سقوفها ، { وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا } .
[43] قال الله تعالى : { وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ } ، جماعة ، { يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، يمنعونه من عذاب الله { وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا } ، ممتنعا منتقما لا يقدر على الانتصار لنفسه . وقيل : لا يقدر على رد ما ذهب عنه .

[44] { هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ } ، يعني في القيامة ، قرأ حمزة والكسائي (الوِلاية) بكسر الواو ، يعني السلطان ، وقرأ الآخرون بفتح الواو من الموالاة والنصر ، كقوله تعالى : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا } ، قال القتيبي : يريد أنهم يتلونه يومئذ ويتبرءون مما كانوا يعبدون . وقيل : بالفتح الربوبية وبالكسر الإمارة ، { الْحَقُّ } برفع القاف أبو عمرو والكسائي على نعت الولاية ، وتصديقه قراءة أبي : (هنالك الولاية الحق لله) ، وقرأ الآخرون بالجر على صفة الله كقوله تعالى : { ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ }{ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا } ، أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب ، { وَخَيْرٌ عُقْبًا } ، أي عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره ، فهو خير إثابة ، وعاقبة : طاعة ، قرأ حمزة وعاصم (عقبا) ساكنة القاف ، وقرأ الآخرون بضمها .

[45] قوله تعالى : { وَاضْرِبْ لَهُمْ } ، يا محمد أي لقومك : { مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ } ، يعني المطر ، { فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ } ، خرج منه كل لون وزهرة ، { فَأَصْبَحَ } ، عن قريب { هَشِيمًا } ، يا بسا . قال ابن عباس وقال الضحاك : كسيرا . والهشيم : ما يبس وتفتت من النباتات فأصبح هشيما ، { تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ } ، قال ابن عباس : تفرقه الرياح . وقال أبو عبيدة مثله . وقال القتيبي : تنسفه ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا } ، قادرا .

[46] { الْمَالُ وَالْبَنُونَ } ، التي يفتخر بها عتبة وأصحابه الأغنياء ، { زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، ليست من زاد الآخرة ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة ، وقد يجمعها الله لأقوام . { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } ، اختلفوا فيها ، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : هي قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وقد روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الكلام أربع كلمات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » (1) . وقال سعيد بن جبير ومسروق وإبراهيم : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس . ويروى هذا عن ابن عباس ، وعنه رواية أخرى أنها الأعمال الصالحة ، وهو قول قتادة . قوله تعالى : { خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا } ، أي جزاء ، المراد { وَخَيْرٌ أَمَلًا } أي ما يأمله الإنسان .

______
(1) أخرجه البخاري تعليقا في الأيمان والنذور 11 / 566 ومسلم من حديث سمرة بن جندب 3 / 1675 والنسائي وابن حبان . انظر فتح الباري 11 / 567 .

[47] { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ } . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (تسير " بالتاء وفتح الياء " الجبال " رفع ") دليله قوله تعالى : { وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ } ، وقرأ الآخرون بالنون وكسر الياء ، الجبال نصب ، وسير الجبال نقلها من مكان إلى مكان ، { وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً } ، أي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا نبات ، كما قال : { فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا }{ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا } ، قال عطاء : هو بروز ما في باطنها من الموتى وغيرهم ، فترى باطن الأرض ظاهرا ، { وَحَشَرْنَاهُمْ } ، جميعا إلى الموقف والحساب ، { فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ } ، أي نترك منهم ، { أَحَدًا } .
[48] { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا } ، أي صفا صفا فوجا فوجا ، لا أنهم صف واحد . وقيل : قياما ، ثم يقال لهم يعني الكفار : { لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ، يعني أحياء ، وقيل : فرادى كما ذكر في سورة الأنعام . وقيل : غرلا . { بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا } ، يوم القيامة ، يقوله لمنكري البعث .

[49] قوله تعالى : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ } ، يعني كتاب أعمال العباد يوضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم وقيل : معناه يوضع بين يدي الله تعالى . { فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ } ، خائفين ، { مِمَّا فِيهِ } ، من الأعمال السيئة ، { وَيَقُولُونَ } ، إذا رأوها ، { يا وَيْلَتَنَا } ، يا هلاكنا ، والويل والويلة الهلكة ، وكان من وقع في هلكة دعا بالويل ، ومعنى النداء تنبيه المخاطبين ، { مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً } ، من ذنوبنا . قال ابن عباس : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : القهقهة . وقال سعيد بن جبير : الصغيرة : اللمم واللمس والقبلة ، والكبيرة : الزنا . { إِلَّا أَحْصَاهَا } ، عددها ، قال السدي : كتبها أثبتها . قال مقاتل بن حيان : حفظها { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا } ، مكتوبا مثبتا في كتابهم ، { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } ، أي لا ينقص ثواب أحد عمل خيرا . وقال الضحاك : لا يؤاخذ أحدا بجرم لم يعمله . وقال عبد الله بن قيس : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات, فأما العرضتان فجدال ومعاذير, وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي, فآخذ

بيمينه وآخذ بشماله . ورفعه بعضهم عن أبي موسى .

[50] قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } , يقول : واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم { فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ } , قال ابن عباس : كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم . وقال الحسن : كان من الجن ولم يكن من الملائكة, فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس, { فَفَسَقَ } , أي خرج, { عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } , عن طاعة ربه, { أَفَتَتَّخِذُونَهُ } , يعني يا بني آدم { وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ } , أي أعداء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبليس يضع »« عرشه على الماء ثم يبعث سراياه يفتنون الناس ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول . فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئا ، قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت » . قال الأعمش : أراه قال : فيلتزمه (1) . قوله تعالى : { بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } ، قال قتادة : بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم .

---

(1) أخرجه مسلم في صفات المنافقين برقم (2813) (4 / 216) والمصنف في شرح السنة (14 / 410) .

[51] { مَا أَشْهَدْتُهُمْ } ، ما أحضرتهم ، وقرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) بالنون والألف على التعظيم ، أي أحضرناهم يعني إبليس وذريته . وقيل : الكفار ، وقال الكلبي : يعني الملائكة ، { خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ } ، يقول ما أشهدتهم خلقا فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها ، { وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا } ، أي الشياطين الذين يضلون الناس عضدا أي : أنصارا وأعوانا .

[52] قوله تعالى : { وَيَوْمَ يَقُولُ } قرأ حمزة بالنون والآخرون بالياء أي : يقول الله لهم يوم القيامة ، { نَادُوا شُرَكَائِيَ } ، يعني الأوثان { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ } ، أنهم شركائي ، { فَدَعَوْهُمْ } ، فاستغاثوا بهم ، { فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } ، أي لم يجيبوهم ولم ينصروهم { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ } ، يعني بين الأوثان وعبدتها وقيل : بين أهل الهدى وأهل الضلال ، { مَوْبِقًا } مهلكا قاله عطاء والضحاك . وقال ابن عباس : هو واد في النار . وقال مجاهد : واد في جهنم . وقال عكرمة : هو نهر في النار يسيل نارا على حافته حيات مثل البغال الدهم . قال ابن الأعرابي : وكل حاجز بين شيئين فهو موبق ، وأصله الهلاك يقال : أوبقه أي أهلكه ، قال الفراء : وجعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكا لهم في الآخرة ، والبين على هذا القول التواصل كقوله تعالى : (لقد تقطع بينكم) على قراءة من قرأ بالرفع .

[53] { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ } ، أي المشركون ، { فَظَنُّوا } ، أيقنوا ، { أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا } ، داخلوها وواقعون فيها ، { وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا } ، معدلا لأنها أحاطت بهم من كل جانب .

[54] قوله تعالى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا } ، بينا ، { فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } ، أي ليتذكروا ويتعظوا ، { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا } ، خصومة في الباطل . قال ابن عباس : أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن . قال الكلبي : أراد به أبي بن خلف الجمحي . وقيل : المراد من الآية الكفار ، لقوله تعالى : { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ } ، وقيل : هي على العموم ، وهذا أصح .

[55] قوله عز وجل : { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى } ، القرآن والإسلام والبيان من الله عز وجل . وقيل : إنه الرسول صلى الله عليه وسلم . { وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } ، يعني سنتنا في إهلاكهم إن لم يؤمنوا . وقيل : إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين من معاينة العذاب ، كما قالوا : { اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ، { أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا } ، قال ابن عباس : أي : عيانا من المقابلة . وقال مجاهد : فجأة ، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة { قُبُلًا } بضم القاف والباء ، جمع قبيل أي : أصناف العذاب نوعا نوعا .

[56] { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ } ، ومجادلتهم قولهم : { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } وقوله : { لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } وما أشبهه . { لِيُدْحِضُوا } ، ليبطلوا ، { بِهِ الْحَقَّ } ، وأصل الدحض الزلق يريد ليزيلوا به الحق ، { وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا } ، فيه إضمار يعني وما أنذروا به وهو القرآن, هزوا أي استهزاً .
[57] { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ } ، وعظ ، { بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا } ، تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها ، { وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } ، أي ما عمل من المعاصي من قبل ، { إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً } ، أغطية ، { أَنْ يَفْقَهُوهُ } ، أي يفهموه يريد لئلا يفهموه ، { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } ، أي صمما وثقلا ، { وَإِنْ تَدْعُهُمْ } ، يا محمد { إِلَى الْهُدَى } ، إلى الدين ، { فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا } ، وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون .

[58] { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ } ، ذو النعمة { لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ } ، يعاقب الكفار ، { بِمَا كَسَبُوا } ، من الذنوب { لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ } ، في الدنيا ، { بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ } ، يعني البعث والحساب ، { لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا } ، ملجأ .
[59] { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ } ، يعني قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ، { لَمَّا ظَلَمُوا } ، كفروا ، { وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا } ، أي أجلا ، قرأ أبو بكر (لمهلكهم) بفتح الميم واللام ، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام ، وكذلك في النمل { مَهْلِكَ } أي لوقت هلاكهم ، وقرأ الآخرون بضم الميم وفتح اللام أي : لإهلاكهم .

[60] قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ } ، عامة أهل العلم قالوا : إنه موسى بن عمران . وقال بعضهم : هو موسى بن ميشا من أولاد يوسف . والأول أصح { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ } ، يوشع بن نون ، { لَا أَبْرَحُ } ، أي لا أزال أسير { حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا } ، أي وإن كان حقبا أي دهرا طويلا وزمانا ، وجمعه أحقاب ، والحقب : جمع الحقب . قال عبد الله بن عمر : والحقب ثمانون سنة ، فحملا خبزا وسمكة مالحة حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين ليلا .
[61] فذلك قوله : { فَلَمَّا بَلَغَا } ، يعني موسى وفتاه ، { مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا } أي : بين الفريقين ، { نَسِيَا } ، تركا ، { حُوتَهُمَا } ، وإنما كان الحوت مع يوشع ، وهو الذي نسيه وأضاف النسيان إليهما لأنهما جميعا تزوداه لسفرهما ، كما يقال : خرج القوم إلى موضع كذا وحملوا من الزاد كذا وإنما حمله واحد منهم ، { فَاتَّخَذَ } ، أي الحوت ، { سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ } ، أي مسلكا قال ابن عباس : جعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى صار صخرة .

[62] قوله تعالى : { فَلَمَّا جَاوَزَا } ، يعني ذلك الموضع وهو مجمع البحرين ، { قَالَ } ، موسى { لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا } ، أي طعامنا ، والغداء ما يعد للأكل غدوة ، والعشاء ما يعد للأكل عشية ، { لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا } ، أي تعبا وشدة وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعد مجاوزة الصخرة ، ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه .

[63] { قَالَ } له فتاه يذكر { أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ } ، وهي صخرة كانت بالموضع الموعود { فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ } ، أي تركته وفقدته ، وذلك أن يوشع حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى فيخبره ، فنسي أن يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد . قيل : في الآية إضمار معناه : نسيت أن أذكر لك أمر الحوت ، ثم قال : { وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ } ، أي وما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان ، وقيل : معناه أنسانيه لئلا أذكره ، { وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا } ، قيل : هذا من قول يوشع ، ويقول طفر الحوت إلى البحر فاتخذ فيه مسلكا فعجبت من ذلك عجبا . وروينا في الخبر : كان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا (1) .

---

(1) في رواية البخاري في كتاب التفسير : (فكان لفتاه عجبا وللحوت سربا) .

[64] { قَالَ } موسى { ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } ، أي نطلب ، { فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا } أي : رجعا يقصان الأثر الذي جاءا منه يبتغيانه ، فوجدا عبدا من عبادنا ، قيل : كان ملكا من الملائكة ، والصحيح الذي جاء في التواريخ ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه الخضر » (1) ، واسمه بليا بن ملكان ، قيل : كان من نسل بني إسرائيل . وقيل : كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا في الدنيا ، والخضر لقب له .
[65] فذلك قوله تعالى : { فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً } ، أي نعمة ، { مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا } ، أي إلهاما ولم يكن الخضر نبيا عند أكثر أهل العلم ، يقول : جئت لأتبعك .
[66] { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ } ، وأصحبك ، { عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا } قرأ أبو عمرو ويعقوب : (رشدا) بفتح الراء والشين ، وقرأ الآخرون بضم الراء وسكون الشين ، أي صوابا . وقيل : علما ترشدني به . وفي بعض الأخبار أنه لما قال له موسى هذا قال له الخضر : كفى بالتوراة علما وبني إسرائيل شغلا, فقال له موسى : إن الله أمرني بهذا فحينئذ .

---

(1) انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى (6 / 431) .

[67] { قَالَ } , له الخضر , { إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } , وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أمورا منكرة, ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات, ثم بين عذره في ترك الصبر .
[68] فقال له : { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا } . أي علما .
[69] { قَالَ } , موسى , { سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا } , إنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر { وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا } , أي لا أخالفك فيما تأمرني .
[70] { قَالَ } الخضر ، { فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي } ، فإن صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن

جعل الاختيار إليه إلا أنه شرط عليه شرطا فقال ، { فَلَا تَسْأَلْنِي } ، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون ، والآخرون بسكون اللام وتخفيف النون ، { عَنْ شَيْءٍ } أعمله فيما تنكره وتعترض عليه ، عن شيء ، حتى ابتدأ لك بذكره فأبين لك شأنه .

[71] { فَانْطَلَقَا } يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها ، وروينا عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما لججوا البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من السفينة » فذلك قوله : { حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ } ، له موسى ، { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا } ، قرأ حمزة والكسائي : ليغرق بالياء وفتحها وفتح الراء وقرأ الآخرون بالتاء ورفعها وكسر الراء أهلها النصب على أن الفعل للخضر ، { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا } أي منكرا ، والإمر في كلام العرب الداهية ، وأصله كل شيء شديد كثير ، يقال : إمر القوم إذا كثروا واشتد أمرهم . وقال القتيبي : { إِمْرًا } أي عجبا .
[72] { قَالَ } ، العالم وهو الخضر ، { أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } .

[73] { قَالَ } ، موسى ، { لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ } ، قال ابن عباس : إنه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام ، فكأنه نسي شيئا آخر . وقيل : معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك . وقال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كانت الأولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا » (1) ، { وَلَا تُرْهِقْنِي } ، ولا تغشني ، { مِنْ أَمْرِي عُسْرًا } ، وقيل : لا تكلفني مشقة ، يقال : أرهقته عسرا أي كلفته ذلك ، يقول لا تضيق على أمري وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر .

(1) انظر صحيح البخاري 5 / 326 ومسلم 4 / 1847 .

[74] { فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ } ، في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاما ظريفا وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين قال الضحاك : كان غلاما يعمل بالفساد وتأذى منه أبواه ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا » (1) . { قَالَ } موسى ، { أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً } ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو : (زاكية) بالألف ، وقرأ الآخرون : زَكِيَّةً، قال الكسائي والفراء : معناهما واحد ، مثل : القاسية والقسية ، وقال أبو عمرو بن العلاء : الزاكية التي لم تذنب قط ، والزكية التي أذنبت ثم تابت ، { بِغَيْرِ نَفْسٍ } ، أي لم تقتل نفسا بشيء وجب به عليها القتل ، { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا } ، أي منكرا . قال قتادة : النكر أعظم من الإمر لأنه حقيقة الهلاك ، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك ، وقيل : الأمر أعظم لأنه كان فيه تغريق جمع كثير . قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر هاهنا نكرا وفي سورة الطلاق بضم الكاف ، والآخرون بسكونها .

(1) أخرجه مسلم في القدر برقم (2661) 4 / 2050 .

[75] { قَالَ } ، يعني الخضر { أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } ، قيل : زاد هنا لأنه نقض العهد مرتين ، وفي القصة أن يوشع كان يقول لموسى

يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه .
[76] { قال } ، موسى ، { إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا } ، بعد هذه المرة ، { فَلَا تُصَاحِبْنِي } ، وفارقني ، وقرأ يعقوب : فَلَا تصحبني بغير ألف من الصحبة . { قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا } ، قرأ أبو جعفر ونافع وأبو بكر من لدني خفيفة النون وقرأ الآخرون ، بتشديدها ، قال ابن عباس : أي قد أعذرت فيما بيني وبينك . وقيل : قد حذرتني أني لا أستطيع معك صبرا . وقيل : اتضح لك العذر في مفارقتي . عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب » (1) { إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا } فلو صبر لرأى العجب .

---

(1) أخرجه مسلم في الفضائل برقم (2380) 14 / 1851 .

[77] قوله تعالى : { فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ } ، قال ابن عباس : يعني أنطاكيه . وقال ابن سيرين . هي الأيلة وهي أبعد الأرض من السماء . وقيل : برقة . وعن أبي هريرة : بلدة بالأندلس . { اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا } ، قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما » (1) . وروي أنهما طافا في القرية فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما . وروي أنهما طافا في القوم فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافوهم فلم يضيفوهما . قال قتادة : شر القرى التي لا تضيف الضيف . قوله تعالى : { فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ } ، أي يسقط ، وهذا من مجاز كلام العرب ، لأن الجدار لا إرادة له وإنما معناه قرب ودنا من السقوط ، كما تقول العرب : داري تنظر إلي دار فلان إذا كانت تقابلها . { فَأَقَامَهُ } ، أي سواه { قَالَ } موسى { لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب لَتَخِذْتَ بتخفيف التاء وكسر الخاء ، وقرأ الآخرون لتخذت بتشديد التاء وفتح الخاء ، وهما

---

(1) قطعة من الحديث السابق .

لغتان مثل اتبع وتبع عليه يعني على إصلاح الجدار ، { أَجْرًا } يعني جعلا ، معناه : إنك قد علمت وإننا جياع وإن أهل القرية لم يطعمونا فلو أخذت على عملك أجرا .
[78] قال الخضر ، { هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ } ، يعني هذا وقت فراق بيني وبينك . وقيل : هذا الإنكار على ترك الأجر هو المفرق بيننا . وقال الزجاج : معناه هذا فراق بيننا أي فراق اتصالنا وكرر بين تأكيدا { سَأُنَبِّئُكَ } ، أي سوف أخبرك { بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } ، وفي بعض التفاسير أن موسى أخذ بثوبه ، فقال . أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني .

[79] فقال : { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ } ، أي : يؤاجرون ويكتسبون بها ، { فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } ، أجعلها ذات عيب ، { وَكَانَ وَرَاءَهُمْ } ، أي أمامهم ، / 360 ملك ، كقوله : { مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ } ، وقيل : وراءهم خلفهم ، وكان رجوعهم في طريقهم عليه ، والأول أصح يدل عليه قراءة ابن عباس وكان أمامهم { مَلِكٌ } ، { يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا } ، أي : كل سفينة صالحة غصبا وكان ابن عباس يقرأ كذلك فخرقها وعيبها الخضر حتى لا

يأخذها الملك الغاصب .
[80] قوله تعالى : { وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا } ، أي فعلمنا ، وفي قراءة ابن عباس : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخشينا ، أي فعلمنا ، { أَنْ يُرْهِقَهُمَا } ، يغشيهما ، وقال الكلبي : يكلفهما ، { طُغْيَانًا وَكُفْرًا } ، قال سعيد بن جبير : فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه .

[81] { فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا } ، قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمر بالتشديد هاهنا وفي سورة التحريم والقلم ، وقرأ الآخرون بالتخفيف ، وهما لغتان وفرق بعضهم فقال : التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قاصم والإبدال رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه ، { رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً } ، أي صلاحا وتقوى ، { وَأَقْرَبَ رُحْمًا } ، قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء والباقون بجزمها أي : عطفا من الرحمة . وقيل : هو من الرحم والقرابة ، قال قتادة : أي أوصل للرحم وأبر بوالديه ، قال مطرف : شرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل . ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .

[82] قوله تعالى : { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ } ، وكان اسمهما أصرم وصريم ، { وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا } ، اختلفوا في ذلك الكنز ، روي عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان ذهبا وفضة » (1) . وقال عكرمة : كان مالا . وعن سعيد بن جبير : كان الكنز صحفا فيها علم { وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا } ، قيل : كان اسمه كاشح وكان من الأتقياء . قال ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما ، وقيل : كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء ، قال محمد بن المنكدر : إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده ، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم . قال سعيد بن المسيب : إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي . قوله عز وجل : { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا } ، أي يبلغا ويعقلا . وقيل : أن يدركا شدتهما وقوتهما . وقيل : ثمان عشرة سنة ، { وَيَسْتَخْرِجَا } حينئذ { كَنْزَهُمَا رَحْمَةً } ، نعمة ، { مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } ، أي باختياري ورأيي ، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ، { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ

---

(1) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الكهف 8 / 600 والحاكم في المستدرك 2 / 369 والبخاري في تاريخه والطبراني . انظر تحفة الأحوذي 8 / 601 .

تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } ، أي لم تطق عليه صبرا ، واستطاع واسطاع بمعنى واحد .
[83] قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا } ، خبرا ، واختلفوا في نبوته والأكثرون على أنه كان ملكا عادلا صالحا .

[84] قوله عز وجل : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ } ، أوطأنا ، والتمكين : تمهيد الأسباب . وقال علي : سخر له السحاب فحمله عليها ، ومد له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء ، فهذا معنى تمكنه في الأرض ، وهو أنه سهل عليه السير فيها وذلل له طرقها . { وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } أي : من كل شيء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل ما يستعين به الملوك على فتح

المدن ومحاربة الأعداء ، { سَبَبًا } ، أي : علما يتسبب به إلى كل ما يريد ، ويسير به في أقطار الأرض ، والسبب : ما يوصل به إلى الشيء . وقال الحسن : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : قربنا إليه أقطار الأرض .
[85] { فَأَتْبَعَ سَبَبًا } ، أي : سلك وسار طريقا ، قرأ أهل الحجاز والبصرة : فاتبع ثم اتبع موصولا مشددا ، قرأ الآخرون بقطع الألف وجزم التاء : وقيل : معناهما واحد ، والصحيح الفرق بينهما فمن قطع الألف فمعناه أدرك ولحق ، ومن قرأ بالتشديد فمعناه سار ، يقال : ما زلت أتبعه حتى اتبعته أي : ما زلت أسير خلفه حتى لحقته . وقوله : سببا أي طريقا . وقال ابن عباس : منزلا .

[86] { حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ } ، قرأ أبو جعفر وأبو عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر (حامية) بالألف غير مهموزة ، أي حارة ، وقرأ الآخرون { حَمِئَةٍ } مهموزا بغير الألف أي ذات حماة ، وهي الطينة السوداء ، وسأل معاوية كعبا : كيف تجد في التوراة أن تغرب الشمس ؟ قال : نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين . قال القتيبي : يجوز أن يكون معنى قوله : { فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ } أي عندها عين حمئة أو في رأي العين . { وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا } ، أي عند العين أمة { قُلْنَا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ } ، يستدل بهذا من زعم أنه كان نبيا فإن الله تعالى خاطبه ، والأصح أنه لم يكن نبيا والمراد منه الإلهام ، { إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ } ، يعني إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام ، { وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا } ، يعني تعفو وتصفح . وقيل : تأسرهم فتعلمهم الهدى ، خيره الله بين الأمرين .

[87] { قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ } ، كفر ، { فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ } ، أي : نقتله ، { ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ } ، في الآخرة { فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا } أي : منكرا يعني بالنار ، والنار أنكر من القتل .
[88] { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى } ، قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب { جَزَاءً } منصوبا منونا أي : فله الحسنى جزاء نصب على المصدر ، وقرأ الآخرون بالرفع على الإضافة ، والحسنى الجنة وإضافة الحسن إليها كما قال : { وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ } ، والدار هي الآخرة . وقيل : المراد بالحسنى على هذه القراءة الأعمال الصالحة . { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا } ، أي نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا . وقال مجاهد : يسرا أي معروفا .
[89] { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } ، أي سلك طرقا ومنازل .

[90] { حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ } ، أي موضع طلوعها ، { وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا } ، قال قتادة والحسن : لم يكن بينهم وبين الشمس ستر ، وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء ، فكانوا يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم .
[91] قوله عز وجل : { كَذَلِكَ } ، قيل : معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها ، والصحيح أن معناه كما حكم في القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك حكم في الذين هم عند طلوع الشمس ، { وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا } ، يعني بما عنده ومعه من الجند والعدة والآلات خبرا أي علما .
[92] { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } .

[93] { حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ } هما هنا جبلان سدد ، والقرنين ما بينهما حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن ورائهم . { وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا } يعني : أمام السدين . { لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا } ، قرأ حمزة والكسائي (يفقهون) بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يفهمون غيرهم قولا ، وقرأ الآخرون بفتح الياء والقاف ، أي لا يفهمون كلام غيرهم ، قال ابن عباس : لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم .

[94] { قَالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ } فإن قيل : كيف قالوا ذلك وهم لا يفهمون ؟ قيل : كلم عنهم مترجم ، دليله قراءة ابن مسعود : لا يكادون يفقهون قولا قال الذين من دونهم يا ذا القرنين . { إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ } ، قرأهما عاصم مهموزين ، والآخرون بغير همز ، وهما لغتان أصلهما من أجيج النار ، وهو ضوؤها وشررها ، شبهوا به لكثرتهم وشدتهم ، وقيل : بالهمز من أجيج النار وبترك الهمز اسمان أعجميان ، مثل هاروت وماروت قوله تعالى : { مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } ، قال الكلبي : فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه ولا يا بسا إلا احتملوه ، وأدخلوه أرضهم ، وقد لقوا منهم أذى شديدا وقتلا . وقيل : فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس . وقيل : معناه أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم . { فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا } ، قرأ حمزة والكسائي (خراجا) بالألف ، وقرأ الآخرون خرجا بغير ألف وهما لغتان بمعنى واحد ، أي جعلا وأجرا من أموالنا . وقال أبو عمرو : الخرج ما تبرعت به ، والخراج ما لزمك أداؤه . وقيل : الخراج على الأرض والخرج على الرقاب . يقال : أد خرج رأسك وخراج مدينتك .

{ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا } ، أي حاجزا فلا يصلون إلينا .
[95] { قَالَ } ، لهم ذو القرنين : { مَا مَكَّنِّي فِيهِ } ، قرأ ابن كثير (مكنني) بنونين ظاهرين . وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة على الإدغام ، أي ما قواني عليه ، { رَبِّي خَيْرٌ } ، من جعلكم ، { فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ } ، معناه إني لا أريد المال بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم ، { أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا } ، أي سدا ، قالوا : وما تلك القوة ؟ قال : فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل ، والآلة . قالوا وما تلك الآلة ؟ قال :

[96] { آتُونِي } ، أعطوني وقرأ أبو بكر ائتوني أي جيئوني ، { زُبَرَ الْحَدِيدِ } ، أي قطع الحديد واحدتها زبرة ، فأتوه بها وبالحطب وجعل بعضها على بعض فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد ، { حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ } ، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بضم الصاد والدال ، وجزم أبو بكر الدال ، وقرأ الآخرون بفتحها ، وهما الجبلان ، ساوى أي : سوى بين طرفي الجبلين . { قَالَ انْفُخُوا } ، وفي القصة أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد ثم قال انفخوا يعني في النار ، { حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا } ، أي صار الحديد نارا ، { قَالَ آتُونِي } ، قرأ حمزة وأبو بكر وصلا ، وقرأ الآخرون بقطع الألف . { أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا } ، أي آتوني قطرا أفرغ عليه ، والإفراغ الصب والقطر هو النحاس المذاب ، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس . قال قتادة : هو كالبر والبحر طريقة سوداء وطريقة حمراء ، وفي القصة أن عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتي ذراع وطوله فرسخ .

[97] { فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ } ، أن يعلوه من فوقه لطوله وملاسته ، { وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا } ، من أسفله لشدته ولصلابته . وقرأ حمزة { فَمَا اسْطَاعُوا } بتشديد الطاء أدغم تاء الافتعال في الطاء .

[98] { قَالَ } يعني ذا القرنين ، { هَذَا } ، أي السد ، { رَحْمَةٌ } ، نعمة ، { مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي } ، قيل : القيامة . وقيل : وقت خروجهم . { جَعَلَهُ دَكَّاءَ } ، قرأ أهل الكوفة { دَكَّاءَ } بالمد والهمز ، أي أرضا ملساء ، وقرا الآخرون بلا مد أي : جعله مدكوكا مستويا مع وجه الأرض ، { وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا } .
[99] قوله تعالى : { وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ } ، قيل : هذا عند فتح السد ، يقول : تركنا يأجوج ومأجوج يموج أي يدخل بعضهم على بعض ، كموج الماء ويختلط بعضهم ببعض لكثرتهم ، وقيل : هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض ، ويختلط إنسيهم بجنيهم حيارى ، { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ } ، لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة ، { فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا } ، في صعيد واحد .
[100] { وَعَرَضْنَا } ، أبرزنا ، { جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا } ، حتى يشاهدوها عيانا .

[101] { الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ } ، أي غشاء والغطاء ما يغطى به الشيء ويستره ، { عَنْ ذِكْرِي } ، يعني عن الإيمان والقرآن . وعن الهدى والبيان . وقيل . عن رؤية الدلائل . { وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } ، أي سمع القبول ، والإيمان لغلبة الشقاوة عليهم . وقيل : لا يعقلون وقيل : كانوا لا يستطيعون أي لا يقدرون أن يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يتلوه عليهم لشدة عداوتهم ، كقول الرجل : لا أستطيع أن أسمع من فلان شيئا لعداوته .

[102] { أَفَحَسِبَ } ، أفظن ، { الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ } ، أربابا يريد بالعباد عيسى والملائكة ، كلا بل هم لهم أعداء ويتبرءون منهم . قال ابن عباس : يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله . وقال مقاتل : الأصنام سماها عبادا ، كما قال : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } ، وجواب هذا الاستفهام محذوف . قال ابن عباس : يريد إني لأغضب لنفسي ، يقول أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم ؟ ! وقيل : أفظنوا أنهم ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء . { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } ، أي : منزلا ، قال ابن عباس : هي مثواهم . وقيل : النزل ما يهيأ للضيف ، يريد هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف .
[103] { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا } ، يعني الذين اتبعوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا ، كمن يشتري سلعة يرجو عليها ربحا فخسر وخاب سعيه ، واختلفوا فيهم ، قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص : هم اليهود والنصارى . وقيل : هم الرهبان .

[104] { الَّذِينَ } حبسوا أنفسهم في الصوامع . وقال علي بن أبي طالب : هم أهل حروراء . { ضَلَّ سَعْيُهُمْ } ، بطل عملهم واجتهادهم ، { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } ، أي عملا .

[105] { أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ } ، بطلت ، { أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } ، أي لا نجعل لهم خطرا وقدرا ، تقول العرب : ما لفلان عندي وزن أي قدر لخسته ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » (1) وقال : { فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } ، قال أبو سعيد الخدري : يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة ، فإذا وزنوها لم تزن شيئا ، فذلك قوله تعالى : { فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } .

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 426 ومسلم في صفات المنافقين برقم (2785) 4 / 2147 .

[106] { ذَلِكَ } الذي ذكرت من حبوط أعمالهم وخسة أقدارهم ، ثم ابتدأ فقال : { جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي } ، يعني القرآن ، { وَرُسُلِي هُزُوًا } ، أي سخرية ومهزوءا بهم .

[107] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ } ، روينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (1) . قال كعب : ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأقصاها وأرفعها . قال كعب : الفردوس هو البستان الذي فيه الأعناب . وقال مجاهد . هو البستان بالرومية . وقال عكرمة : هي الجنة بلسان الحبش . قال الزجاج : هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية ، وقال الضحاك : هي الجنة الملتفة الأشجار . وقيل : هي الروضة المستحسنة . وقيل . هي التي تنبت ضروبا من النبات ، وجمعه فراديس, { نُزُلًا } ، قيل أي منزلا . وقيل : ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلا ، ومعنى كانت لهم أي في علم الله قبل أن يخلقوا .

---

(1) قطعة من حديث أخرجه البخاري في التوحيد 13 / 404 .

[108] { خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ } ، لا يطلبون ، { عَنْهَا حِوَلًا } ، أي تحولا إلى غيرها . قال ابن عباس : لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إلى دار إذا توافقه إلى دار أخرى .

[109] { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي } ، قال ابن عباس : قالت اليهود يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة, وفي كتابك { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا } , ثم تقول : { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } ؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل لما نزلت : { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } , قالت اليهود : أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء, فأنزل الله : { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا } سمي المداد مدادا لإمداد الكتاب, وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء . قال مجاهد : لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب, { لَنَفِدَ الْبَحْرُ } أي ماؤه, { قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ } , قرأ حمزة والكسائي ينفد بالياء لتقدم الفعل,

والباقون بالتاء, { كَلِمَاتُ رَبِّي } , أي علمه وحكمه, { وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } , معناه لو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم لنفد البحر ولم تنفد كلمات الله ، ولو جئنا بمثله مددا بمثل ماء البحر في كثرته مدادا وزيادة ، نظيره قوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ

يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } .
[110] { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } ، قال ابن عباس علم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه ، فأمره الله أن يقر فيقول : أنا آدمي مثلكم إلا إني خصصت بالوحي وأكرمني الله به ، يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد لا شريك له ، { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ } ، أي يخاف المصير إليه . وقيل : يأمل رؤية ربه ، فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعا فجمع به المعنيين ، { فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } ، أي لا يرائي بعمله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سمع سمع الله به ، ومن يرائي يرائي الله به » (1) وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " ، قالوا : يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال : " الرياء » (2) .

---

(1) أخرجه البخاري في الرقاق 11 / 235 ومسلم في البر والصلة برقم (2642) 4 / 2034 والمصنف في شرح السنة 14 / 323 .
(2) أخرج هذه الرواية الإمام أحمد في مسنده ج 5 ص 428 ،429 والمصنف في شرح السنة 14 / 324 قال الهيثمي : (رجاله رجال الصحيح) وقال المسند : « إسناده جيد » .

(19) سورة مريم
[1] قوله عز وجل { كهيعص } ، قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء وضده ابن عامر وحمزة وبكسرهما الكسائي وأبو بكر والباقون بفتحهما . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو اسم من أسماء الله تعالى . وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن . وقيل : اسم للسورة . وقيل : هو قسم أقسم الله به . وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله { كهيعص } قال : الكاف من كريم وكبير ، والهاء من هاد ، والياء من رحيم ، والعين من عليم ، وعظيم ، والصاد من صادق . وقال الكلبي : معناه كاف لخلقه ، هاد لعباده ، يده فوق أيديهم ، عالم ببريته ، صادق في وعده .
[2] { ذِكْرُ } ، رفع بالمضمر أي هذا الذي نتلوه عليك ذكر { رَحْمَةِ رَبِّكَ } ، وفيه تقديم وتأخير معناه : ذكر ربك ، { عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } ، برحمته .
[3] { إِذْ نَادَى } ، دعا { رَبَّهُ } , في محرابه ، { نِدَاءً خَفِيًّا } ، دعا سرا من قومه في جوف الليل .

[4] { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ } ، ضعف ورق ، { الْعَظْمُ مِنِّي } ، من الكبر . قال قتادة : اشتكى سقوط الأضراس ، { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ } ، أي أبيض شعر الرأس ، { شَيْبًا } ، شمطا ، { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا } ، يقول عودتني الإجابة فيما مضى ولم تخيبني . وقيل : معناه لما دعوتني إلى الإيمان آمنت ولم أشق بترك الإيمان .
[5] { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ } ، والموالى : بنو العم . قال مجاهد : العصبة . وقال أبو صالح : الكلالة . وقال الكلبي : الورثة . { مِنْ وَرَائِي } ، من بعد

موتي ، قرأ ابن كثير { مِنْ وَرَائِي } بفتح الياء ، والآخرون بإسكانها . { وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا } ، لا تلد ، { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ } ، أعطني من عندك { وَلِيًّا } .

[6] { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } ، قرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الثاء فيهما على جواب الدعاء ، وقرأ الآخرون بالرفع على الحال والصفة ، يعني وليا وارثا ، واختلفوا في هذا الإرث ، قال الحسن : معناه يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة . وقيل : أراد ميراث النبوة والعلم . وقيل : أراد إرث الحبورة ، لأن زكريا كان رأس الأحبار . وقال الزجاج : والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأنه يبعد أن يشفق زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يرثه بنو عمه ماله ، والمعنى : أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء ، فسأل ربه ولدا صالحا يأمنه على أمته ، ويرث نبوته وعمله لئلا يضيع الدين . وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما . { وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا } ، أي برا تقيا مرضيا .

[7] قوله عز وجل : { يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ } ، وفيه اختصار ، معناه فاستجاب الله دعاءه ، فقال : يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ، { بِغُلَامٍ } بولد ذكر ، { اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } ، قال قتادة والكلبي : لم يسم أحد قبله يحيى . وقال سعيد بن جبير وعطاء : لم نجعل له شبها ومثلا ، كما قال الله تعالى : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } ، أي مثلا ، والمعنى : أنه لم يكن له مثل لأنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط . وقيل : لم يكن له ميل في أمر النساء ، لأنه كان سيدا وحصورا . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أي لم تلد العواقر مثله ولدا . وقيل : لم يرد الله به اجتماع الفضائل كلها ليحيى إنما أراد بعضها لأن الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه .

[8] { قَالَ رَبِّ أَنَّى } ، من أين ، { يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا } ، أي يبسا ، وقال قتادة : يريد تحول العظم ، يقال : عتا الشيخ يعتو عتيا وعسيا ، إذا انتهى سنه وكبر ، وشيخ عات وعاس إذا صار إلى حالة اليبس والجفاف . وقرأ حمزة والكسائي : عتيا وبكيا وصليا وجثيا بكسر أوائلهن ، والباقون برفعها ، وهما لغتان .
[9] { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } ، يسير ، { وَقَدْ خَلَقْتُكَ } ، قرأ حمزة ، والكسائي (خلقناك) بالنون والألف على التعظيم ، { مِنْ قَبْلُ } ، أي من قبل يحيى ، { وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } .
[10] { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً } ، دلالة على حمل امرأتي ، { قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } ، أي صحيحا سليما من غير ما بأس ولا خرس . قال مجاهد : أي لا يمنعك من الكلام مرض . وقيل : ثلاث ليال سويا أي متتابعا ، والأول أصح . وفي القصة : أنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فإذا أراد ذكر الله تعالى انطلق لسانه .

[11] قوله تعالى : { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ } ، وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون إذ خرج عليهم زكريا متغيرا لونه فأنكروه ، فقالوا : مالك يا زكريا ؟ { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } ، قال مجاهد : كتب لهم بالأرض ، { أَنْ سَبِّحُوا } ، أي صلوا لله { بُكْرَةً } ، غدوة ، { وَعَشِيًّا } ، أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة ، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع الكلام خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة .

[12] قوله عز وجل : { يا يَحْيَى } ، قيل : فيه حذف معناه : وهبنا له يحيى وقلنا له : يا يحيى ، { خُذِ الْكِتَابَ } ، يعني التوراة ، { بِقُوَّةٍ } ، بجد ، { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : النبوة ، { صَبِيًّا } ، وهو ابن ثلاث سنين . وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب ، فقرأ التوراة وهو صغير . وعن بعض السلف قال . من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبيا (1) .
[13] { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا } ، رحمة من عندنا { وَزَكَاةً } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص . وقال قتادة رضي الله عنه : هي العمل الصالح ، وهو قول الضحاك ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ، ليدعوهم إلى طاعة ربهم ويعمل عملا صالحا في إخلاص . وقال الكلبي : يعني صدقة تصدق الله بها على أبويه ، { وَكَانَ تَقِيًّا } ، مسلما ومخلصا مطيعا ، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا هم بها .
[14] { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ } ، أي بارا لطيفا بهما محسنا إليهما . { وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا } ، الجبار المتكبر ، وقيل : الجبار الذي يضرب ، ويقتل على الغضب ، والعصي العاصي .

---

(1) أخرجه ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس مرفوعا ، وأخرجه ابن أبي حاتم والديلمي موقوفا على ابن عباس . انظر الدر المنثور 5 / 485 كشف الخفا للعجلوني 2 / 86 .

[15] { وَسَلَامٌ عَلَيْهِ } ، أي : سلام له ، { يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } ، قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال يوم ولد فيخرج مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث حيا فيرى نفسه في محشر لم ير مثله ، فخصر يحيى بالسلامة في هذه المواطن .
[16] قوله عز وجل : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ } ، في القرآن ، { مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ } ، تنحت واعتزلت ، { مِنْ أَهْلِهَا } ، من قومها ، { مَكَانًا شَرْقِيًّا } ، أي مكانا في الدار مما يلي المشرق ، وكان يوما شاتيا شديد البرد فجلست في مشرقة تفلي رأسها . وقيل : كانت طهرت من الحيض ، فذهبت لتغتسل . قال الحسن : ومن ثم اتخذت النصارى المشرق قبلة .

[17] { فَاتَّخَذَتْ } ، فضربت ، { مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : سترا . وقيل : جلست وراء جدار ، وقال مقاتل : وراء جبل . وقال عكرمة : إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد ، فبينما هي تغتسل من الحيض قد تجردت إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق ، فذلك قوله . { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } ، يعني جبريل عليه السلام ، { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } ، وقيل : المراد بالروح عيسى عليه السلام ، جاء في صورة بشر فحملت به . الأول أصح فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد .
[18] و { قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا } ، مؤمنا مطيعا ، فإن قيل : إنما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ؟ قيل : هذا كقول القائل : إن كنت مؤمنا فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون إيمانك مانعا من الظلم ، وكذلك هاهنا معناه : وينبغي أن يكون تقواك مانعا لك من الفجور .

[19] { قَالَ } ، لها جبريل ، { إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ } ، قرأ نافع وأهل البصرة : (لهيب لك) أي لهيب لكربك ، وقرأ الآخرون : { لِأَهَبَ لَكِ } أسند الفعل إلى الرسول ، وإن كانت الهبة من الله تعالى ، لأنه أرسل به ، { غُلَامًا زَكِيًّا } ، ولدا صالحا طاهرا من الذنوب .
[20] { قَالَتْ } ، مريم { أَنَّى } ، من أين ، { يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } ، لم يقربني زوج ، { وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا } فاجرة ، تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح ، ولم يكن هنا واحد منهما .
[21] { قَالَ } ، جبريل ، { كَذَلِكِ } ، قيل : معنا ، كما قلت يا مريم ولكن ، { قَالَ رَبُّكِ } ، وقيل : هكذا قال ربك { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } أي خلق ولد بلا أب { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً } علامة { لِلنَّاسِ } دلالة على قدرتنا ، { وَرَحْمَةً مِنَّا } ، ونعمة لمن تبعه على دينه ، { وَكَانَ } ذلك ، { أَمْرًا مَقْضِيًّا } ، محكوما مفروغا عنه لا يرد ولا يبدل .

[22] قوله عز وجل : { فَحَمَلَتْهُ } ، قيل : إن جبريل رفع عنها درعها فنفخ في جيبها فحملت حين أصبحت . وقيل : مد جيب درعها بأصبعه ثم نفخ في الجيب . وقيل : نفخ في كم قميصها . وقيل : في فيها . وقيل . نفخ جبريل عليه السلام نفخا من بعيد فوصل الريح إليها فحملت بعيسى في الحال ، { فَانْتَبَذَتْ بِهِ } ، أي تنحت بالحمل فلما حملته انتبذت به أي وانفردت ، { مَكَانًا قَصِيًّا } ، أي بعيدا من أهلها . قال ابن عباس رضي الله عنهما : أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم ، فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج ، واختلفوا في مدة حملها ووقت وضعها ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان الحمل والولادة في ساعة واحدة . وقيل . كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء . وقيل : كان مدة ثمانية أشهر ، وكان ذلك آية أخرى لأنه ليلا يعيش ولد يولد لثمانية أشهر ، وولد عيسى لهذه المدة وعاش . وقيل . ولدت لستة أشهر . وقال مقاتل بن سليمان . حملته مريم في ساعة وصور في ساعة ووضعته حين زالت الشمس من يومها ، وهي بنت عشر سنين ، وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى .

[23] { فَأَجَاءَهَا } ، أي ألجأها وجاء بها ، { الْمَخَاضُ } ، وهو وجع الولادة ، { إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ } وكانت نخلة يا بسة في الصحراء ، في شدة الشتاء ، لم يكن لها سعف ، وقيل : التجأت إليها لتستند إليها وتتمسك بها على وجع الولادة ، { قَالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا } ، تمنت الموت استحياء من الناس وخوف الفضيحة ، { وَكُنْتُ نَسْيًا } ، قرأ حمزة وحفص (نسيا) بفتح النون ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان ، مثل الوتر والوتر والجسر والجسر ، وهو الشيء المنسي ، والنسي في اللغة كل ما ألقي ونسي ولم يذكر لحقارته ، { مَنْسِيًّا } ، أي متروكا . قال قتادة : شيء لا يعرف ولا يذكر . قال عكرمة والضحاك ومجاهد : جيفة ملقاة . وقيل : تعني لم أخلق .

[24] { فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا } ، قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفص من تحتها بكسر الميم والتاء يعني جبريل عليه السلام ، وكانت مريم على أكمة وجبريل وراء الأكمة تحتها فناداها ، وقرأ الآخرون بفتح الميم والتاء وأراد جبريل عليه السلام أيضا ناداها من سفح الجبل . وقيل : هو عيسى لما خرج من بطن أمه ناداها ، { أَلَّا تَحْزَنِي } ، وهو قول مجاهد والحسن ، والأول قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والسدي وقتادة والضحاك وجماعة أن المنادي كان

جبريل لما سمع كلامها وعرف جزعها ناداها ألا تحزني ، { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا } ، والسري : النهر الصغير . وقيل : تحتك أي جعله الله تحت أمرك إن أمرتيه أن يجري جرى وإن أمرتيه بالإمساك أمسك . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ضرب جبريل عليه السلام . ويقال : ضرب عيسى عليه الصلاة والسلام برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى . وقيل : كان هناك نهر يا بس أجرى الله سبحانه وتعالى فيه الماء وحييت النخلة اليابسة ، فأورقت وأثمرت وأرطبت . وقال الحسن : تحتك سريا يعني عيسى وكان والله عبدا سريا يعني رفيعا .

[25] { وَهُزِّي إِلَيْكِ } ، يعني قيل لمريم : حركي { بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } ، تقول العرب : هزه وهز به ، كما يقول حز رأسه وحز برأسه ، وأمدد الجبل وأمدد به ، { تُسَاقِطْ عَلَيْكِ } ، القراءة المعروفة بفتح التاء والقاف وتشديد السين ، يعني تتساقط ، فأدغمت إحدى التاءين في السين يعني تسقط عليك النخلة رطبا ، وخفف حمزة السين وحذف التاء التي أدغمها غيره ، وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف خفيف على وزن تفاعل وتساقط بمعنى أسقط ، والتأنيث لأجل النخلة ، وقرأ يعقوب (يساقط) بالياء مشددة رده إلى الجذع ، { رُطَبًا جَنِيًّا } ، مجنيا . وقيل : الجني هو الذي بلغ الغاية ، وجاء أوان اجتنائه . قال الربيع بن خثيم : ما للنفساء عندي خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل .

[26] قوله سبحانه وتعالى : { فَكُلِي وَاشْرَبِي } ، يعني فكلي يا مريم من الرطب واشربي من ماء النهر ، { وَقَرِّي عَيْنًا } ، يعني طيبي نفسا وقيل : قري عينك بولدك عيسى . يقال : أقر الله عينك يعني صادف فؤادك ما يرضيك ، فتقر عينك من النظر إليه . وقيل : أقر الله عينه يعني أنامها ، يقال : قر يقر إذا سكن . وقيل : إن العين إذا بكت من السرور فالدمع بارد وإذا بكت من الحزن فالدمع يكون حارا ، فمن هذا قيل : أقر الله عينه وأسخن الله عينه ، { فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا } ، يعني ترين ، فدخل عليه نون التأكيد فكسرت الياء لالتقاء الساكنين ، معناه : فإما ترين من البشر أحدا فيسألك عن ولدك { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا } ، يعني : صمتا ، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود رضي الله عنه ، والصوم في اللغة : الإمساك عن الطعام والشراب والكلام . قال السدي : كان في بني إسرائيل من إذا أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي . وقيل : إن الله تعالى أمرها أن تقول هذا إشارة . وقيل : أمرها أن تقول هذا القدر نطقا ثم تمسك عن الكلام بعده ، { فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

إِنْسِيًّا } ، يقال كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس .
[27] { فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ } ، وقيل : إنه ولدته ثم حملته في الحال إلى قومها . وقال الكلبي : حمل يوسف النجار مريم عليها السلام وابنها عيسى صلوات الله على نبينا وعليه إلى غار ومكث أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ، ثم حملته مريم عليها السلام إلى قومها . فكلمها عيسى عليه السلام في الطريق فقال : يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه ، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين ، { قَالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا } ، عظيما منكرا ، قال أبو عبيدة : كل أمر فائق من عجب أو عمل فهو فري ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في عمر : « فلم أر عبقريا يفري فريه » (1) يعني عمله .

(1) أخرجه البخاري في المناقب 6 / 629 ومسلم في فضائل الصحابة برقم (2393) 4 / 1862

[28] { يا أُخْتَ هَارُونَ } ، يريد يا شبيهة هارون ، قال قتادة وغيره : كان هارون رجلا صالحا عابدا في بني إسرائيل . وروي أنه اتبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل سوى سائر الناس ، شبهوها على معنى إنا ظننا أنك مثله في الصلاح ، وليس المراد منه الأخوة في النسب كما قال الله تعالى : { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } أي أشباههم . وقال الكلبي : كان هارون أخا مريم من أبيها ، وكان أمثل رجل في بني إسرائيل . وقال السدي : إنما عنوا به هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم . وقيل : كان هارون رجلا فاسقا في بني إسرائيل عظيم الفسق فشبهوها به .
{ مَا كَانَ أَبُوكِ } عمران ، { امْرَأَ سَوْءٍ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : زانيا ، { وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ } ، حنة ، { بَغِيًّا } ، أي زانية فمن أين لك هذا الولد ؟

[29] { فَأَشَارَتْ } مريم { إِلَيْهِ } ، أي إلى عيسى عليه السلام أن كلموه . قال ابن عباس رضي الله عنهما . لما لم تكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها ، وفى القصة : لما أشارت إليه غضب القوم ، وقالوا مع ما فعلت أتسخرين بنا ؟ ثم ، { قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا } أي : من هو في المهد ، وهو حجرها . وقيل : هو المهد بعينه ، { كَانَ } بمعنى هو ، وقال أبو عبيدة : كان صلة أي كيف نكلم صبيا في المهد ، وقد يجيء كان حشوا في الكلام لا معنى له كقوله : { هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا } أي : هل أنا ؟ قال السدي : فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم . وقيل : لما أشارت إليه ترك الثدي واتكأ على يساره ، وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه .

[30] { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ } ، وقال وهب : أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى : انطق بحجتك إن كنت أمرت بها ، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوما . وقال مقاتل : بل هو يوم ولد : إني عبد الله ، أقر على نفسه بالعبودية لله عز وجل أول ما تكلم لئلا يتخذ إلها ، { آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا } ، قيل : معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا . وقيل : هذا إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ ، كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : متى كنت نبيا ؟ قال : « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد » (1) . وقال الأكثرون : أوتي الإنجيل وهو صغير طفل ، وكان يعقل عقل الرجال . وعن الحسن أنه قال : ألهم التوراة وهو في بطن أمه .

(1) صححه الحاكم في المستدرك 2 / 609 وأخرجه الإمام أحمد في المسند 5 / 379 والبخاري في تاريخه 7 / 374 .

[31] { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ } ، أي نفاعا حيث ما توجهت . وقال مجاهد : معلما للخير . وقال عطاء : أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته . وقيل : مباركا على من تبعني : { وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ } ، أي أمرني بهما ، فإن قيل : لم يكن لعيسى مال فكيف يؤمر بالزكاة ؟ قيل : معناه بالزكاة لو كان لي مال . وقيل : أوصاني بالزكاة أي أمرني أن أوصيكم بالزكاة . وقيل :

بالاستكثار من الخير . { مَا دُمْتُ حَيًّا } .
[32] { وَبَرًّا بِوَالِدَتِي } أي وجعلني برا بوالدتي ، { وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا } ، أي عاصيا لربه . وقيل : الشقي الذي يذنب ولا يتوب .
[33] { وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ } ، أي السلام عند الولادة من طعن الشيطان . { وَيَوْمَ أَمُوتُ } ، أي عند الموت من الشرك ، { وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا } ، من الأهوال ، فلما كلمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم ثم سكت عيسى عليه السلام فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان .

[34] { ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } ، قال الزجاج : أي ذلك الذي قال : إني عبد الله عيسى ابن مريم ، { قَوْلَ الْحَقِّ } ، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب : { قَوْلَ الْحَقِّ } بنصب اللام وهو نصب على المصدر أي : قال : قول الحق ، { الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } ، يختلفون ، فقائل يقول : هو ابن الله ، وقائل يقول : هو الله ، وقائل يقول : هو ساحر كذاب, وقرأ الآخرون برفع اللام يعني هو قول الحق ، أي هذا الكلام هو قول الحق ، أضاف القول إلى الحق ، كما قال : حق اليقين ، ووعد الصدق ، وقيل : هو نعت لعيسى ابن مريم ، يعني ذلك عيسى ابن مريم كلمة الله الحق هو الله الذي فيه يمترون ويشكون ويختلفون ويقولون غير الحق ، ثم نفى عن نفسه الولد ، ثم عظم نفسه فقال :
[35] { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } ، أي ما كان من صفته اتخاذ الولد . وقيل : اللام منقولة أي ما كان الله أن يتخذ من ولد ، { سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا } ، إذا أراد أن يحدث أمرا ، { فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } .

[36] { وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ } ، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو أن الله بفتح الألف يرجع إلى قوله : { وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ } وبأن الله ربي وربكم ، وقرأ أهل الشام والكوفة ويعقوب بكسر الألف على الاستئناف ، { فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } .
[37] قوله : { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ } ، يعني النصارى سموا أحزابا لأنهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى ، النسطورية والملكانية واليعقوبية . { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ، يعني يوم القيامة .
[38] { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } ، أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر ، أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ولم يبصروا في الدنيا . قال الكلبي : لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين يقول الله تعالى لعيسى : { أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ } الآية . { يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } ، أي : في خطأ بين .

[39] { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ } ، فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وذبح الموت . عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد : يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرفون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » (1) ثم قرأ : { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } .
{ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ } . أي عما يفعل بهم في الآخرة ، { وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } ، لا يصدقون .

[40] قوله عز وجل : { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا } أي نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعا ، ويبقى الرب وحده فيرثهم ، { وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } ، فنجزيهم بأعمالهم .

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 428 ومسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم (2849) 4 / 2188

[41] { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } ، الصديق الكثير الصدق القائم عليه . وقيل : من صدق الله في وحدانيته ، وصدق أنبياءه ورسله ، وصدق بالبعث ، وقام بالأوامر فعمل بها ، فهو الصديق . والنبي العالي في الرتبة بإرسال الله تعالى إياه .
[42] قوله تعالى : { إِذْ قَالَ } ، إبراهيم ، { لِأَبِيهِ } ، آزر وهو يعبد الأصنام ، { يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ } ، صوتا ، { وَلَا يُبْصِرُ } ، شيئا ، { وَلَا يُغْنِي عَنْكَ } ، أي لا يكفيك ، { شَيْئًا } .
[43] { يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ } ، بالله والمعرفة ، { مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي } ، على ديني ، { أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } ، مستقيما .
[44] { يا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } ، لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والشرك ، { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } ، عاصيا ، كان بمعنى الحال ، أي هو كذلك .

[45] { يا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ } ، أي أعلم ، { أَنْ يَمَسَّكَ } ، يصيبك ، { عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ } ، إن أقمت على الكفر ، { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } ، قرينا في النار .
[46] { قَالَ } أبوه مجيبا له ، { أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ } ، لئن لم تسكت وترجع عن عيبك آلهتنا وشتمك إياها ، { لَأَرْجُمَنَّكَ } ، قال الكلبي ومقاتل والضحاك : لأشتمنك ولأبعدنك عني بالقول القبيح . قال ابن عباس : لأضربنك . وقال الحسن : لأقتلنك بالحجارة . { وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا } ، قال الكلبي : اجتنبني طويلا . وقال مجاهد وعكرمة : حينا . وقال سعيد بن جبير : دهرا . أصله المكث ، ومنه يقال : تمليت حينا ، والملوان : الليل والنهار . وقال قتادة وعطاء : سالما . وقال ابن عباس : اعتزلني سالما لا تصيبك مني معرة ، يقال : فلان ملي بأمر كذا إذا كان كافيا .

[47] { قَالَ } إبراهيم ، { سَلَامٌ عَلَيْكَ } ، أي سلمت مني لا أصيبك بمكروه ، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره . وقيل : هذا سلام هجران ومفارقة . وقيل : سلام بر ولطف ، هو جواب الحليم للسفيه . قال الله تعالى : { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } . { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } ، قيل . إنه لما أعياه أمره ووعده أن يراجع الله فيه ، فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له ، معناه سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها المغفرة . { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } ، برا لطيفا . قال الكلبي : عالما يستجيب لي إذا دعوته . قال مجاهد : عودني الإجابة لدعائي .
[48] { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، أي : أعتزل ما تعبدون من دون الله . قال مقاتل : كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثى ، فهاجر منها إلى الأرض المقدسة ، { وَأَدْعُو رَبِّي } ، أي أعبد ربي ، { عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } ، أي عسى ألا أشقى بدعائه وعبادته ، كما أنتم تشقون بعبادة الأصنام . وقيل : عسى أن يجيبني إذا دعوته ولا يخيبني .

[49] { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، فذهب مهاجرا .
[50] { وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا } أي : نعمتنا . قال الكلبي : المال والولد ، وهو قول الأكثرين ، قالوا معناه : ما بسط لهم في الدنيا من سعة الرزق . وقيل : الكتاب والنبوة ، { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } ، يعني ثناء حسنا رفيعا في كل أهل الأديان ، فكلهم يتولونهم ويثنون عليهم .

[51] قوله عز وجل : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا } ، غير مراء أخلص العبادة والطاعة لله عز وجل . وقرأ أهل الكوفة ميم مخلصا بفتح اللام أي مختارا اختاره الله عز وجل . وقيل : أخلصه الله من الدنس { وكان رسولا نبيا } .
[52] { وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ } ، يعني يمين موسى ، والطور : جبل بين مصر ومدين . ويقال اسمه الزبير ، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار { أَنْ يا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } . { وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } ، أي : مناجيا ، فالنجي المناجي ، كما يقال : جليس ونديم . قال ابن عباس : معناه قربه فكلمه ، ومعنى التقريب إسماعه كلامه . وقيل : رفعه على الحجب حتى سمع صرير القلم .
[53] { وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا } ، وذلك حين دعا موسى فقال : { وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي }{ هَارُونَ أَخِي } ، فأجاب الله دعاءه وأرسل إلى هارون ، ولذلك سماه هبة له .

[54] { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ } ، وهو إسماعيل بن إبراهيم جد النبي صلى الله عليه وسلم { إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } ، قال مجاهد : لم يعد شيئا إلا وفى به { وَكَانَ رَسُولًا } ، إلى جرهم ، { نَبِيًّا } ، مخبرا عن الله عز وجل .
[55] { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ } أي : قومه . وقيل : أهله وجميع أمته ، { بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ } ، قال ابن عباس : يريد التي افترضها الله تعالى عليهم ، وهي الحنيفية التي افترضت علينا ، { وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا } ، قائما لله بطاعته . وقيل : رضيه الله عز وجل لنبوته ورسالته .
[56] قوله : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ } ، هو جد أبي نوح ، واسمه : أخنوخ ، سمي إدريس لكثرة درسه الكتب . وكان خياطا وهو أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ، ولبس الثياب المخيطة ، وكانوا من قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح, وقاتل الكفار ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، { إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } .

[57] { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } ، قيل : هي الجنة . وقيل : هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا . وقيل : إنه رفع إلى السماء الرابعة .
[58] { أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ } ، أي إدريس ونوحا ، { وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } ، أي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة ، يريد إبراهيم لأنه ولد سام بن نوح ، { وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ } ، يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، قوله : { وَإِسْرَائِيلَ } ، أي ومن ذرية إسرائيل وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى ، { وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا } ، هؤلاء كانوا ممن أرشدنا واصطفينا ، { إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } ، سجدا جمع ساجد وبكيا جمع باك ، أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا .

[59] قوله تعالى : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } ، أي : من بعد النبيين المذكورين خلف وهم قوم سوء والخلف بالفتح الصالح وبالجزم الطالح قال السدي : أراد بهم اليهود ومن لحق بهم . وقال مجاهد وقتادة : هم قوم في هذه الأمة ، { أَضَاعُوا الصَّلَاةَ } ، تركوا الصلاة المفروضة . وقال ابن مسعود وإبراهيم : أخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب : هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تغرب الشمس ، { وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ } ، أي المعاصي وشرب الخمر ، أي آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله . وقال مجاهد : هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزوا بعضهم على بعض في الأسواق والأزقة . { فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } ، قال ابن وهب : الغي نهر في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه . وقال ابن عباس : الغي واد في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره أعد للزاني المصر عليه ، ولشارب الخمر المدمن عليها ، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ولشاهد الزور ، ولا مرأة أدخلت على زوجها ولدا ، وقال عطاء : الغي واد في جهنم يسيل قيحا ودما . وقال كعب : هو واد في جهنم أبعدها قعرا ، وأشدها حرا فيه بئر تسمى الهيم ، كلما خبت

جهنم فتح الله تلك البئر فيسعر بها جهنم وقال الضحاك : غيا وخسرانا . وقيل : هلاكا . وقيل : عذابا . وقوله : { فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } ليس مراده يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الروية .

[60] { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } .

[61] { جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ } ، ولم يروها ، { إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا } ، يعني أتيا مفعول بمعنى فاعل . وقيل : لم يقل أتيا لأن كل من أتاك فقد أتته ، والعرب لا تفرق بين قول القائل أتت علي خمسون سنة وبين قوله أتيت على خمسين سنة ، ويقول : وصل إلي الخير ووصلت إلى الخير ، قال ابن جرير : وعده أي موعوده ، وهو الجنة مأتيا يأتيه أولياؤه وأهل طاعته .

[62] { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا } ، في الجنة { لَغْوًا} ، باطلا وفحشا وفضولا من الكلام . وقال مقاتل : هو اليمين الكاذبة ، { إِلَّا سَلَامًا } ، استثناء من غير جنسه يعني بل يسمعون فيها سلاما أي قولا يسلمون منه ، والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة ، معناه إن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤثمهم, إنما يسمعون ما يسلمهم . وقيل : هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم . وقيل : هو تسليم الله عليهم ، { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } ، قال أهل التفسير : ليس في الجنة ليل يعرف به البكرة والعشي ، بل هم في نور أبدا ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار . وقيل : إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ، ووقت الليل بإرخاء الحجب . وقيل : المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق ، وكان الحسن البصري يقول : كانت العرب لا تعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي ، فوصف الله عز وجل أهل جنته بذلك .

[63] { تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا } أي : نعطي وننزل . وقيل : يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا ، { مَنْ كَانَ تَقِيًّا } ، أي المتقين من عباده .

[64] { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » فنزلت { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا } الآية : قال : كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم (1) . وقال عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي : « احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ، فقال : أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله ، حتى شق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك " ، فقال له جبريل : إني كنت أشوق ، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست ، فأنزل الله { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } وأنزل : { وَالضُّحَى } /403 L93 L2 L2 /403 وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى } . »{ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ } ، أي له علم ما بين أيدينا ، واختلفوا فيه فقال سعيد بن جبير

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 428 وفي التوحيد 13 / 440 والمصنف في شرح السنة 13 / 325 .

وقتادة ومقاتل : ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب ، وما خلفنا ما مضى من الدنيا وما بين ذلك ما يكون هذا من الوقت إلى قيام الساعة ، وقيل : ما بين أيدينا من أمر الآخرة وما خلفنا من أمر الدنيا وما بين ذلك أي ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة . وقيل : ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها ، وما بين ذلك مدة حياتنا . وقيل : ما بين أيدينا بعد أن نموت وما خلفنا قبل أن نخلق وما بين ذلك مدة الحياة . وقيل : ما بين أيدينا من الأرض إذا أردنا النزول إليها وما خلفنا السماء إذا نزلنا منها ، وما بين ذلك الهواء يريد أن ذلك كله لله عز وجل فلا نقدر على شيء إلا بأمره . { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا } ، أي ناسيا ، يقول : ما نسيك ربك أي ما تركك ، والناسي التارك .
[65] { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } أي اصبر على أمره ونهيه ، { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : مثلا . وقال سعيد بن جبير : عدلا . وقال الكلبي . هل تعلم أحدا يسمى الله غيره .

[66] { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ} ، يعني أبي بن خلف الجمحي كان منكرا للبعث ، قال : { أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا } ، من القبر ، قاله استهزاء وتكذيبا للبعث .
[67] قال الله عز وجل : { أَوَلَا يَذْكُرُ } ، أي يتذكر ويتفكر ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب يذكر خفيف ، { الْإِنْسَانُ } ، يعني أبي بن خلف { أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } ، أي لا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة ، ثم أقسم بنفسه ، فقال :
[68] { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ } أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث ، { وَالشَّيَاطِينَ } ، مع الشياطين ، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة ، { ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ } ، قيل : في جهنم ، { جِثِيًّا } ، قال ابن عباس رضي الله عنه : جماعات ، جمع جثوة ، وقال الحسن والضحاك : جمع جاث أي جاثين على الركب . قال السدي : قائمين على الركب لضيق المكان .

[69] { ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ } ، لنخرجن ، { مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ } ، أي من كل أمة وأهل دين من الكفار . { أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا } ، عتوا قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني جرأة . وقال مجاهد : فجورا يريد الأعتى فالأعتى . وقال الكلبي : قائدهم ورأسهم في الشر يريد أنه يقدم في إدخال النار من هو أكبر جرما وأشد كفرا . وفي بعض الآثار أنهم يحضرون جميعا حول جهنم مسلمين مغلولين ، ثم يقدم الأكفر فالأكفر ورفع أيهم على معنى الذي ، يقال لهم : أيهم أشد على الرحمن عتيا . وقيل على الاستئناف ، ثم لننزعن يعمل في موضع من كل شيعة .
[70] { ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا } ، أي أحق بدخول النار ، يقال : صلي يصلى صليا مثل لقي يلقى لقيا ، صلى يصلي صليا مثل مضى يمضي مضيا إذا دخل النار وقاسى حرها .

[71] { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } ، أي وما منكم إلا واردها, وقيل : القسم في مضمر أي والله ما منكم من أحد إلا واردها, والورود هو موافاة المكان, واختلفوا في الورود هاهنا وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله : { وَارِدُهَا } قال ابن عباس رضي الله عنه وهو قول الأكثرين معنى الورود هاهنا هو الدخول ، والكناية راجعة إلى النار ، وقالوا : النار يدخلها البر والفاجر ، ثم ينجي الله المتقين ، فيخرجهم منها ، والدليل على أن الورود هو الدخول قول الله عز وجل حكاية عن فرعون : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ } وقال قوم : ليس المراد من الورود الدخول, وقالوا : النار لا يدخلها مؤمن أبدا, لقوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ }{ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا } , وقالوا : كل من دخلها لا يخرج منها, والمراد من قوله : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } , الحضور والرؤية, لا الدخول, كما قال تعالى : { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ } أراد به الحضور . وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه قال : وإن منكم إلا واردها يعني

القيامة والكناية راجعة إليها ، والأول أصح ، وعليه أهل السنة أنهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله عز وجل منها أهل الإيمان ، بدليل قوله تعالى : { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا } ، أي اتقوا الشرك ، وهم المؤمنون . والنجاة إنما تكون مما دخلت فيه لا ما وردت والدليل على هذا ما ورد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم » (1) وأراد بالقسم قوله : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } . عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير . ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير » (2) ، وقال أبان عن قتادة " من إيمان " مكان " خير " وأما قوله عز وجل : { لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا } قيل : إن الله عز وجل أخبر عن وقت كونهم في الجنة أنهم لا يسمعون حسيسها فيجوز أن يكون قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة ، لأنه لم يقل لم يسمعوا حسيسها ويجوز ألا يسمعوا حسيسها عند دخولهم إياها ، لأن الله عز وجل يجعلها

---

(1) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور 11 / 541 ومسلم في البر والصلة برقم (2632) 4 / 2028 .

(2) أخرجه البخاري في الإيمان 1 / 103 ومسلم في الإيمان رقم (192) 1 / 182 .

عليهم بردا وسلاما . { كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا } ، أي كان ورودكم جهنم حتما لازما مقضيا قضاه الله عليكم .
[72] { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا } ، أي اتقوا الشرك ، وقرأ الكسائي (ننجي) بالتخفيف ، والباقون بالتشديد { وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } ، جميعا . وقيل : جاثين على الركب ، وفيه دليل على أن الكل دخلوها ثم أخرج الله منها المتقين ، وترك فيها الظالمين ، وهم المشركون .
[73] { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } ، واضحات ، { قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، يعني النضر بن الحارث وذويه من قريش ، { لِلَّذِينَ آمَنُوا } ، يعني فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة ، وكان المشركون يرجلون أشعارهم ويدهنون رءوسهم ويلبسون ثيابهم ، فقالوا للمؤمنين : { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا } ، منزلا ومسكنا ، وهو موضع الإقامة ، وقرأ ابن كثير : (مقاما) بضم الميم أي إقامة ، { وَأَحْسَنُ نَدِيًّا } ، أي مجلسا ، ومثله النادي ، فأجابهم الله تعالى فقال :

[74] { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا } ، أي متاعا وأموالا . وقال مقاتل : لباسا وثيابا ، { وَرِئْيًا } ، قرأ أكثر القراء بالهمز أي منظرا من الرؤية ، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ونافع غير ورش ريا مشددا بغير همز ، وله تفسيران ، أحدهما : هو الأول بطرح الهمز والثاني من الري الذي هو ضد العطش ، ومعناه الارتواء من النعمة ، فإن المتنعم يظهر فيه ارتواء النعمة ، والفقير يظهر عليه ذبول الفقر .
[75] { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا } ، هذا أمر بمعنى الخبر ، معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره ، { حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ } ، وهو الأسر والقتل في الدنيا ، { وَإِمَّا السَّاعَةَ } ، يعني القيامة فيدخلون النار ، { فَسَيَعْلَمُونَ } ، عند ذلك { مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا } ، منزلا ، { وَأَضْعَفُ جُنْدًا } ، أقل ناصرا أهم أم المؤمنون ؟ لأنهم في النار والمؤمنون في الجنة . وهذا رد عليهم في قوله : { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا } .

[76] { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى } ، أي إيمانا وإيقانا على يقينهم ، { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } ، الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ، { خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا } عاقبة ومرجعا .

[77] قوله : { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا } عن مسروق حدثنا خباب قال : كنت قينا فعملت للعاص بن وائل فاجتمع مالي عنده فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : أما والله حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإني لميت ثم مبعوث ؟ قلت : نعم ، قال : إنه سيكون لي ثم مال وولد فأقضيك ، فأنزل الله عز وجل : { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا } (1) .
[78] { أَطَّلَعَ الْغَيْبَ } ، قال ابن عباس : أنظر في اللوح المحفوظ ؟ وقال مجاهد : أعلم الغيب حتى يعلم في الجنة هو أم لا ؟ { أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } ، يعني قال : لا إله إلا الله . وقال قتادة : يعني أعمل عملا صالحا قدمه ؟ وقال الكلبي : أعهد إليه أن يدخل الجنة .

[79] { كَلَّا } ، رد عليه يعني لم يفعل ذلك ، { سَنَكْتُبُ } ، سنحفظ عليه ، { مَا يَقُولُ } ، فنجازيه به في الآخرة . وقيل : نأمر الملائكة حتى يكتبوا ما يقول . { وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا } ، أي نزيده عذابا فوق العذاب . وقيل : نطيل مدة عذابه .

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 430 .

[80] { وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ } ، أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إياه وإبطال ملكه وقوله ما يقول لأنه زعم أن له مالا وولدا في الآخرة ، أي لا نعطيه ونعطي غيره فيكون الإرث راجعا إلى ما تحت القول لا إلى نفس القول . وقيل : معنى قوله : { وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ } أي : نحفظ ما يقول حتى نجازيه به ، { وَيَأْتِينَا فَرْدًا } ، يوم القيامة لا مال ولا ولد .
[81] { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } يعني مشركي قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها ، { لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } ، أي منعة ، يعني يكونون لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب .
[82] { كَلَّا } ، أي ليس الأمر كما زعموا ، { سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ } ، أي يجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرءون منهم ، كما أخبر الله تعالى : { تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } ، { وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } أي أعداء لهم ، وكانوا أولياءهم في الدنيا . وقيل : أعوانا عليهم يكذبونهم ويلعنونهم .

[83] { أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ } ، أي سلطناهم عليهم وذلك حين قال لإبليس : { وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ } ، الآية { تَؤُزُّهُمْ أَزًّا } ، تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية ، والأز والهز التحريك أي تحركهم وتحثهم على المعاصي .
[84] { فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ } ، أي لا تطلب عقوبتهم ، { إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا } ، قال الكلبي : يعني الليالي والأيام والشهور والأعوام . وقيل : الأنفاس التي يتنفسون بها في الدنيا إلى الأجل الذي أجل لعذابهم .
[85] قوله : { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا } أي اذكر لهم يا محمد اليوم الذي يجتمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته { إِلَى الرَّحْمَنِ } أي إلى جنته وفدا أي جماعات جمع وافد ، مثل راكب وركب . وصاحب وصحب . وقال ابن عباس : ركبانا . وقال أبو هريرة : على الإبل . وقال علي بن أبي طالب : ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها الذهب ونجائب سرجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت .

[86] { وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ } ، الكافرين الكاذبين ، { إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا } ، أي مشاة . وقيل : عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش . والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد الماء إلا بعد عطش .
[87] { لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } ، يعني لا إله إلا الله . وقيل : معناه لا يشفع الشافعون إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا يعني المؤمنين ، كقوله : { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ } ، وقيل : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله أي لا يشفع إلا المؤمن .

[88] { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } ، يعني اليهود والنصارى ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله ، وقرأ حمزة والكسائي (ولدا) بضم الواو وسكون اللام هاهنا وفي الزخرف وسورة نوح ، ووافق ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في سورة نوح ، والباقون بفتح الواو هاهنا ، وهما لغتان مثل العرب والعرب العجم والعجم .
[89] { لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا } ، قال ابن عباس : منكرا . وقال قتادة ومجاهد : عظيما . وقال مقاتل : لقد قلتم قولا عظيما . والإد في كلام العرب أعظم الدواهي .

[90] { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ } ، قرأ نافع والكسائي يكاد بالياء هاهنا وفي حمعسق لتقدم الفعل ، وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث السماوات ، { يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ } ، ها هنا وفي حمعسق بالنون من الانفطار ، أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وافق ابن عامر وحمزة هاهنا لقوله تعالى : { إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ } و { السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ } ، وقرأ الباقون بالتاء من التفطير ومعناهما واحد ، يقال : انفطر الشيء وتفطر أي تشقق ، { وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا } ، أي : تنكسر كسرا . وقيل : تنشق الأرض أي تنخسف بهم ، والانفطار في السماء أن تسقط عليهم وتخر الجبال هدا أي تنطبق عليهم .
[91] { أَنْ دَعَوْا } ، أي من أجل أن جعلوا .
[{ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا }] ، قال ابن عباس وكعب : فزعت السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا : اتخذ الله ولدا ، ثم نفى الله عن نفسه الولد فقال :
[92] { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } ، أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به .

[93] { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ } ، أي إلا آتيه يوم القيامة ، { عَبْدًا } ذليلا خاضعا يعني الخلق كلهم عبيده .
[94] { لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا } أي عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم ، فلا يخفى عليه شيء .
[95] { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا } وحيدا ليس معه من الدنيا شيء .
[96] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } أي : محبة . قال مجاهد : يحبهم الله ويحببهم إلى عباده المؤمنين . عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أحب الله العبد قال لجبرائيل : قد أحببت فلانا فأحبَّه ، فيحبه جبرائيل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله عز وجل قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض العبد » قال مالك : لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك (1) .

____
(1) أخرجه مالك في الموطأ 2 / 953 والبخاري في الأدب 10 / 461 ومسلم في البر والصلة رقم (2637) 4 / 2030 .

[97] { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } ، أي سهلنا القرآن بلسانك يا محمد ، { لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } ، يعني المؤمنين ، { وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا } شدادا في الخصومة ، جمع الألد . وقال الحسن : صما عن الحق ، قال مجاهد : الألد الظالم الذي لا

يستقيم . قال أبو عبيدة : الألد الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل .
[98] { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ } ، هل ترى ، وقيل : هل تجد { مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا } ، أي صوتا ، والركز : الصوت الخفي ، قال الحسن : أي بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر .

(20) سورة طه
[1] { طه } ، قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء ، وبكسرهما حمزة والكسائي وأبو بكر ، والباقون بفتحهما ، قيل : هو قسم . وقيل : اسم من أسماء الله تعالى . وقال مجاهد والحسن وعطاء والضحاك : معناه يا رجل . وقال قتادة : هو يا رجل بالسريانية . وقال الكلبي : هو يا إنسان بلغة عك . وقال مقاتل : معناه طأ الأرض بقدميك يريد في التهجد . وقال محمد بن كعب القرظي : هو قسم أقسم الله عز وجل بطوله وهدايته . قال سعيد بن جبير : الطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هاد ، قال الكلبي : لما نزل على رسول الله صلي الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يخفف على نفسه فقال :
[2] { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } ، وقيل : لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا : ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك ، فنزلت { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } أي لتعني وتتعب ، وأصل الشقاء في اللغة العناء .

[3] { إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى } ، أي لكن أنزلناه عظة لمن يخشى . وقيل : تقديره ما أنزل عليك القرآن لتشقى ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى .
[4] { تَنْزِيلًا } ، بدل من قوله تذكرة ، { مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ } أي من الله الذي خلق الأرض ، { وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا } ، يعني العالية الرفيعة وهي جمع العليا كقولهم كبرى وصغرى وصغر .
[5] { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }
[6] { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } ، يعني الهواء ، { وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } ، والثرى هو التراب الندي .

[7] { وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ } ، أي تعلن به { فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } ، قال الحسن : السر ما أسره الرجل إلى غيره ، وأخفى من ذلك ما أسر من نفسه . وعن ابن عباس وسعيد بن جبير : السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله عز وجل في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك تعلم ما تسر به اليوم وما تعلم ما تسر به غدا ، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر به غدا . قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : السر ما أسر ابن آدم في نفسه ، والخفي ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعمله .
وقال مجاهد : السر : العمل الذي تسره من الناس ، وأخفى : الوسوسة . وقيل : السر هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه . وقال زيد بن أسلم : يعلم السر وأخفى أي يعلم أسرار العباد ، وأخفى سره من عباده فلا يعلمه أحد ، ثم وحد نفسه ، فقال :
[8] { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } .
[9] { وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } ، أي قد أتاك استفهام بمعنى التقرير .

[10] { إِذْ رَأَى نَارًا } ، وذلك أن موسى استأذن شعيبا في الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأخته ، فأذن له فخرج بأهله وماله ، وكانت أيام الشتاء فسار في البرية غير عارف بطرقها ، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور { فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا } ، أقيموا ، قرأ حمزة بضم الهاء ههنا وفي القصص ، { إِنِّي آنَسْتُ } ، أي أبصرت ، { نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ } ، قطعة من نار ، والقبس قطعة من نار يأخذها في طرف عمود { أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى } ، أي أجد عند النار من يدلني على الطريق .
[11] { فَلَمَّا أَتَاهَا } قال أهل التفسير : لم يكن الذي رآه موسى نارًا بل كان نورًا ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا . وقال أكثر المفسرين : إنه نور الرب عز وجل ، وقال سعيد بن جبير : هي النار بعينها وهي إحدى حجب الله تعالى ، يدل عليه ما روينا عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال : « حجابه النار لو كشفها الله لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (1) { نُودِيَ يا مُوسَى } .

---

(1) أخرجه مسلم في الايمان برقم (179) 1 / 161 .

[12] { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } ، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ، " أني" بفتح الألف على معنى : نودي بأني ، وقرأ الآخرون بكسر الألف أي نودي ، فقيل : إني أنا ربك { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ } ، أي المطهر ، { طُوًى } ، وطوى اسم الوادي وقال الضحاك : طوى واد مستدير عميق مثل الطوى في استدارته .

[13] { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ } ، اصطفيتك برسالاتي ، قرأ حمزة وأنّا مشددة النون ، اخترناك على التعظيم { فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } ، إليك .
[14] { إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي } ، ولا تعبد غيري ، { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } ، قال مجاهد : أقم الصلاة لتذكرني بها ، وقال مقاتل : إذا تركت صلاة ثم ذكرتها ، فأقمها .
[15] { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا } ، قيل : معناه إن الساعة آتية أخفيها وأكاد صلة وأكثر المفسرين قالوا : معناه أكاد أخفيها من نفسي وذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء يقولون : كتمت سرك من نفسي أي أخفيته غاية الإخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شيء ، وقال : أكاد أي أريد ، ومعنى الآية : إن الساعة آتية أريد أخفيها ، والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت ، وقرأ الحسن بفتح الألف أي أظهرها ، يقال : خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته ، وقوله تعالى : { لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } ، أي تعمل من خير وشر .

[16] { فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا } ، فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ، { مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } ، مراده خالف أمر الله { فَتَرْدَى } ، أي فتهلك .
[17] قوله عز وجل : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسَى } ، سؤال تقرير والحكمة في هذا السؤال تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنه معجزة عظيمة ، وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره : هل تعرف هذا؟ وهو لا يشك أنه يعرفه ، ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه .

[18] { قَالَ هِيَ عَصَايَ } ، قيل : وكانت لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا } ، أعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة ، { وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي } ، أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم ، وقرأ عكرمة (وأهس) بالسين غير المعجمة ، أي أزجر بها الغنم ، والهس زجر الغنم ، { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى } ، حاجات ومنافع أخرى ، جمع مأربة بفتح الراء ، ولم يقل (أخر) لرؤوس الآي ، وأراد بالمأرب ما يستعمل فيه العصا في السفر ، فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر ، ويقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ، ويستظل بها إذا قعد وغير ذلك .
[19] { قَالَ } ، الله تعالى ، { أَلْقِهَا يا مُوسَى } ، انبذها ، قال وهب : ظن موسى أنه يقول ارفضها .

[20] { فَأَلْقَاهَا } ، على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة ، { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ } ، صفراء من أعظم ما يكون من الحيات ، { تَسْعَى } تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر : { كَأَنَّهَا جَانٌّ } وهي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم ، وقال في موضع : { ثُعْبَانٌ } ، وهو أكبر ما يكون من الحيات ، فأما الحية فإنها تجمع الصغير والكبير والذكر والأنثى ، وقيل : الجان عبارة عن ابتداء حالها فإنها كانت حية على قدر العصا ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبان ، والثعبان عبارة عن انتهاء حالها ، وقيل : إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان .
قال محمد بن إسحاق : نظر موسى فإذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ، ثم نودي أن يا موسى أقبل وارجع حيث كنت ، فرجع وهو شديد الخوف .
[21] { قَالَ خُذْهَا } ، بيمينك ، { وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } ، هيئتها الأولى أي نردها عصا كما كانت ، قال المفسرون : أراد الله عز وجل أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون .

[22] قوله تعالى : { وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ } ، يعني إبطك ، قال مجاهد : تحت عضدك ، وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه ، { تَخْرُجْ بَيْضَاءَ } ، نيرة مشرقة ، { مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } ، من غير عيب ، والسوء ههنا بمعنى البرص . قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر ، { آيَةً أُخْرَى } ، يعني دلالة أخرى على صدقك سوى العصا .
[23] { لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } ، ولم يقل الكبر لرؤوس الآي وقيل : فيه إضمار معناه لنريك من آياتنا الكبرى ، دليله قول ابن عباس : كانت يد موسى أكبر آياته .
[24] قوله تعالى : { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } ، يعني جاوز الحد في العصيان والتمرد ، فادعه إلى عبادتي .
[25] { قَالَ } ، موسى ، { رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي } ، وسعه للحق ، قال ابن عباس : يريد حتى لا أخاف غيرك ، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده ، وكان يضيق صدرًا بما كلف من مقاومة فرعون وجنده فسأل الله أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحدا لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله وإذا علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده .

[26] { وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } ، يعني سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون .
[27 ، 28] { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي }{ يَفْقَهُوا قَوْلِي } ، يقول : احلل العقدة كي يفقهوا كلامي .
[29] { وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا } ، معينًا وظهيرًا ، { مِنْ أَهْلِي } والوزير من يوازرك ويعينك ويتحمل عنك بعض ثقل عملك ، ثم بين من هو فقال :
[30] { هَارُونَ أَخِي } ، وكان هارون أكبر من موسى بأربع سنين وكان أفصح منه لسانًا وأجمل وأوسم ، أبيض اللون ، وكان موسى آدم أقنى أجعد .
[31] { اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي } ، قوِّ به ظهري .
[32] { وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي } ، يعني في النبوة وتبليغ الرسالة ، وقرأ ابن عامر (أَشْدُدْ) بفتح الألف (وَأُشْرِكْهُ) بضمها على الجواب حكاية عن موسى يعني أفعل ذلك ، وقرأ الآخرون على الدعاء ، والمسألة عطفا على ما تقدم من قوله : { رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي }{ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } .
[33] { كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا } ، قال الكلبي : نصلي لك كثيرا .
[34] { وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا } ، نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك .
[35] { إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } ، خبيرًا عليمًا .

[36] { قَالَ } ، الله تعالى { قَدْ أُوتِيتَ } ، أعطيت ، { سُؤْلَكَ } ، جميع ما سألته ، { يا مُوسَى } .
[37] { وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ } ، أنعمنا عليك ، { مَرَّةً أُخْرَى } ، يعني قبل هذه المرة وهي .
[38] { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ } ، وحي إلهام ، { مَا يُوحَى } ، ما يلهم . ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليك فقال :

[39] { أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ } ، يعني ألهمناها أن اجعليه في التابوت ، { فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ } ، يعني نهر النيل ، { فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ } ، يعني شاطئ النهر ، لفظه أمر ومعناه خبر ، ومجازه حتى يلقيه اليم بالساحل ، { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ } ، يعني فرعون ، فاتخذت تابوتًا ووضعت فيه موسى ثم ألقته في النيل ، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون ، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ تابوت يجيء به الماء فأمر الغلمان والجواري بإخراجه ، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهًا ، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك ؛ فذلك قوله تعالى : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي } ، قال ابن عباس : أحبه وحببه إلى خلقه . قال عكرمة : ما رآه أحد إلا أحبه . قال قتادة : ملاحة كانت في عيني موسى ، ما رآه أحد إلا عشقه { وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } ، يعني لتربى بمرآي ومخطر مني ، قرأ أبو جعفر وَلِتُصْنَعَ بالجزم .

[40] { إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ } ، واسمها مريم متعرفة خبره ، { فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ } ، يعني على امرأة ، ترضعه وتضمه إليها ، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة ، فلما قالت ذلك لهم أخته ، قالوا : نعم ، فجاءت بالأم فقبل ثديها ، فذلك قوله تعالى : { فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا } ، بلقائك ، { وَلَا تَحْزَنَ } , أي ليذهب عنها الحزن ، { وَقَتَلْتَ نَفْسًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان قتل قبطيًّا كافرًا . قال كعب الأحبار : كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة, { فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ } ، أي من غم القتل وكربه, { وَفَتَنَّاكَ

فُتُونًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنه . اختبرناك اختبارًا . وقال الضحاك ومقاتل : ابتليناك ابتلاءً . وقال مجاهد : أخلصناك إخلاصا .

وعن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير : أن الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلصه الله منها ، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت ، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم أخذ بلحية فرعون حتى هم بقتله ، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة ، ثم قتله القبطي ، وخروجه إلى مدين خائفًا ، فكان ابن عباس يقص القصة على سعيد بن جبير ، فعلى هذا معنى فتناك : خلصناك من تلك المحن كما يفتن الذهب من النار فيخلص من كل خبث فيه ، والفتون مصدر { فَلَبِثْتَ } ، فمكثت أي فخرجت من أرض مصر إلى مدين فلبثت ، { سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ } ، يعني ترعى الأغنام عشر سنين ، ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر ، هرب إليها موسى { ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسَى } ، قال مقاتل : على موعد ولم يكن هذا الموعد مع موسى وإنما كان موعدًا في تقدير الله ، قال محمد بن كعب : جئت على القدر الذي قدرت لك أنك تجيء إلي فيه . وقال عبد الرحمن بن كيسان : على رأس أربعين سنة ، وهو القدر الذي يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهذا معنى قول أكثر المفسرين ، أي على الموعد الذي وعده الله وقدره أنه

يوحى إليه بالرسالة ، وهو أربعون سنة .
[41] قوله عز وجل : { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي } ، أي اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي ، يعني لتتصرف على إرادتي ومحبتي وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته ، قال الزجاج : اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي ، كأني الذي أقمت بك عليهم الحجة وخاطبتهم .
[42] { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي } ، بدلالاتي ، وقال ابن عباس : يعني الآيات التسع التي بعث بها موسى { وَلَا تَنِيَا } ، ولا تضعفا ، وقال السدي : لا تفترا . وقال محمد بن كعب : لا تقصرا ، { فِي ذِكْرِي } .

[43 ، 44] { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى }{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا } ، يقول داriyah وارفقا به ، قال ابن عباس رضي الله عنه : لا تعنفا في قولكما ، وقال السدي وعكرمة : كنياه فقولا يا أبا العباس ، وقيل : يا أبا الوليد وقيل : أمرهما باللطافة في القول لما له من حق التربية وكان هارون يومئذ بمصر ، فأمر الله موسى أن يأتي هارون وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحله وأخبره بما أوحى إليه ،{ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } ، أي يتعظ ويخاف ويسلم ، فإن قيل : كيف قال { لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } وقد سبق في علمه أنه لا يتذكر ولا يسلم؟ قيل : معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع وقضاء الله وراء أمركما . وقال الحسين بن الفضل : هو ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر ويخشى خاش إذا رأى بري وألطافي بمن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية .

[45] { قَالَا } ، يعني موسى وهارون ، { رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعجل علينا بالقتل والعقوبة ، يقال : فرط عليه فلان إذا عجل بمكروه ، وفرط منه أمر أي بدر وسبق ، { أَوْ أَنْ يَطْغَى } ،

أي يجاوز الحد في الإساءة إلينا .
[46] { قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } ، قال ابن عباس : أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتما .
[47] { فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ } ، أرسلنا إليك ، { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، أي خلِّ عنهم وأطلقهم من أعمالك ، { وَلَا تُعَذِّبْهُمْ } ، لا تتعبهم في العمل ، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة ، { قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ } ، قال فرعون : وما هي؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس ، { وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى } ، ليس المراد منه التحية إنما معناه يسلم من عذاب الله من أسلم .

[48] { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } ، أي إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه .
[49] { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يا مُوسَى } ، من إلهكما الذي أرسلكما .
[50] { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } ، قال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه وهداه لما يصلحه . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورته لم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم ، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح . وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلقه يعني اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع .

[51] { قَالَ } فرعون ، { فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } ، ومعنى البال الحال ، أي ما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فيما تدعونني إليه فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث .
[52] { قَالَ } ، موسى ، { عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي } ، أي أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها . وقيل : إنما رد موسى علم ذلك إلى الله لأنه لم يعلم ذلك ، فإن التوراة أنزلت إليه بعد هلاك فرعون وقومه . { فِي كِتَابٍ } ، يعني في اللوح المحفوظ ، { لَا يَضِلُّ رَبِّي } ، أي لا يخطئ . وقيل : لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء ، { وَلَا يَنْسَى } ، ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم وقيل : لا ينسى أي لا يترك الانتقام فينتقم من الكفار ويجازي المؤمن .

[53] { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا } ، قرأ أهل الكوفة : (مَهْدًا) ، ههنا وفي الزخرف فيكون مصدرًا أي فرشا ، وقرأ الآخرون : (مِهَادا) ، كقوله تعالى : { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا } أي فراشا وهو اسم يفرش كالبساط اسم لما يبسط ، { وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا } السلك إدخال الشيء في الشيء والمعنى : أدخل في الأرض لأجلكم طرقًا تسلكونها . قال ابن عباس : سلك لكم فيها طرقًا تسلكونها ، { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } ، يعني المطر ، تم الإخبار عن موسى . ثم أخبر الله عن نفسه بقوله . { فَأَخْرَجْنَا بِهِ } ، بذلك الماء { أَزْوَاجًا } ، أصنافا ، { مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } ، مختلف الألوان والطعوم والمنافع من أبيض وأحمر وأخضر وأصفر ، فكل صنف منها زوج ، فمنها للناس ومنها للدواب .

[54] { كُلُوا وَارْعَوْا } أي وارتعوا ، { أَنْعَامَكُمْ } ، تقول العرب : رعيت الغنم فرعت أي أسيموا أنعامكم ترعى ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ } ، الذي ذكرت ، { لِأُولِي النُّهَى } ، لذوي العقول ، واحدتها نهية سميت نهية لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصي . قال الضحاك : لأولي النهى الذي ينتهون عما حرم الله

عليهم ، قال قتادة : لذوي الورع .
[55] { مِنْهَا } أي من الأرض ، { خَلَقْنَاكُمْ } ، يعني أباكم آدم { وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } ، أي عند الموت والدفن ، { وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } ، يوم البعث .
[56] قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ } ، يعني فرعون ، { آيَاتِنَا كُلَّهَا } ، يعني الآيات التسع التي أعطاها الله موسى ، { فَكَذَّبَ } ، بها وزعم أنها سحر ، { وَأَبَى } ، أن يسلم .
[57] { قَالَ } ، يعني فرعون { أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا } ، يعني أرض مصر ، { بِسِحْرِكَ يا مُوسَى } ، أي تريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها .

[58] { فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا } ، أي فاضرب بيننا وبينك أجلا وميقاتا ، { لَا نُخْلِفُهُ } ، قرأ أبو جعفر { لَا نُخْلِفُهُ } جزمًا لا نجاوزه ، { نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى } ، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب : (سوى) بضم السين ، وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان مثل عُدًى وعِدًى وطُوًى وطِوًى ، قال مقاتل وقتادة : مكانًا عدلا بيننا وبينك . وعن ابن عباس : نَصَفًا ، ومعناه تستوي مسافة الفريقين إليه . قال أبو عبيدة والقتيبي : وسطًا بين الفريقين . قال مجاهد : منصفا . وقال الكلبي : يعني سوى هذا المكان .
[59] { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ } ، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي : كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة . وقيل : هو يوم النيروز . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : يوم عاشوراء ، { وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى } ، أي وقت الضحوة نهارًا جهارًا ليكون أبعد من الريبة .
[60] { فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ } ، مكره وحيلته وسحرته ، { ثُمَّ أَتَى } ، أي الميعاد .

[61] { قَالَ لَهُمْ مُوسَى } ، يعني للسحرة الذين جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد حبل وعصا . وقيل : كانوا أربعمائة . وقال كعب : كانوا اثني عشر ألفا . وقيل : أكثر من ذلك ، { وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص : { فَيُسْحِتَكُمْ } بضم الياء وكسر الحاء ، وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء وهما لغتان . قال مقاتل والكلبي : فيهلككم . وقال قتادة . فيستأصلكم ، { وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى } .
[62] { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ } ، أي تناظروا وتشاوروا ، يعني السحرة في أمر موسى سرا من فرعون . قال الكلبي : قالوا سرًّا : إن غلبنا موسى اتبعناه . وقال محمد بن إسحاق : لما قال لهم موسى : لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، قال بعضهم لبعض : ما هذا بقول السحر . { وَأَسَرُّوا النَّجْوَى } ، أي المناجاة يكون مصدرا واسما .

[63] ثم { قَالُوا } ، وأسر بعضهم إلى بعض يتناجون ، { إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } ، يعني موسى وهارون ، وقرأ ابن كثير وحفص : (إن) بتخفيف النون { هَذَانِ } أي ما هذان إلا ساحران ، كقوله : { وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } ، أي ما نظنك إلا من الكاذبين ، وشدد ابن كثير النون من هذان ، وقرأ أبو عمرو : (إن) بتشديد النون (هذين) بالياء على الأصل ، وقرأ الآخرون : إن بتشديد النون هَذَانِ بالألف واختلفوا فيه وقال قوم : هو لغة بلحارث ابن كعب وخثعم وكنانة فإنهم يجعلون الاثنين في موضع الرفع والنصب والخفض بالألف ، يقولون : أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان ، فلا يتركون ألف التثنية في

شيء ، وكذلك يجعلون كل يا ء ساكنة انفتح ما قبلها ألِفًا ، كما في التثنية ، يقولون : كسرت يداه وركبت علاه ، يعني يديه وعليه . قال شاعرهم :

تزود مني بين أدناه ضربة ... دعته إلى هابي التراب عقيم

وقيل . تقدير الآية (إنه هذان) ، فحذف الهاء ، وذهب جماعة إلى أن حرف (إنّ) ههنا بمعنى نعم ، أي نعم هذان (1) . { يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ } ، مصر ، { بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى } ، قال ابن عباس : يعني بسراة قومكم وأشرافكم ، يقال هؤلاء طريقة قومهم أي أشرافهم ، والمثلى تأنيث الأمثل ، وهو الأفضل ، حديث الشعبي عن علي ، قال : يصرفان وجوه الناس إليهما . قال قتادة : طريقتهم المثلى كان بنو إسرائيل يومئذ أكثر القوم عددًا وأموالا ، فقال عدو الله : يريد أن يذهبا بهم لأنفسهم . وقيل : بطريقتكم المثلى أن بسنتكم ودينكم الذي أنتم عليه ، والمثلى نعت الطريق ، تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى ، يعني على الصراط المستقيم .

---

(1) ذكر الإمام أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ج 6 ص 255- : صحة وثبوت الاستعمال «إن» بمعنى «نعم» في اللغة العربية فقال : «إن» بمعنى «نعم» ، وثبت ذلك في اللغة ، فتحمل الآية عليه ، و«هذان لساحران» مبتدأ وخبر . وقد ساق أوجهًا صحيحة في اللغة لإثبات صحة القراءة المتواترة الثابتة في المصحف الشريف ، فارجع إليه إن شئت . وانظر ما ذكر الإمام الشوكاني في ذلك في تفسيره فيض القدير ج 3 ص 373 .

[64] { فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ } ، قرأ أبو عمرو (فاجمعوا) بوصل الألف وفتح الميم ، من الجمع أي لا تدعوا أشياء من كيدهم إلا جئتم به والصحيح أن معناه العزم والإحكام ، أي اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له لا تختلفوا فيختل أمركم ، { ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا } أي جميعا ، قاله مقاتل والكلبي ، وقال قوم : أي مصطفين مجتمعين ليكون أشد لهيبتكم ، وقال أبو عبدة : الصف المجتمع ، ويسمى المصلى صفا معناه ثم ائتوا المكان الموعد صفًّا ، { وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى } ، أي فاز من غلب .

[65] { قَالُوا } ، يعني السحرة ، { يا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى } عِصِيَّنَا .
[66] { قَالَ } ، موسى ، { بَلْ أَلْقُوا } ، أنتم أولا ، { فَإِذَا حِبَالُهُمْ } ، وفيه إضمار ، أي فألقوا فإذا حبالهم ، { وَعِصِيُّهُمْ } ، جمع العصا ، { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ } ، قرأ ابن عامر ويعقوب تخيل بالتاء رد إلى الحبال والعصي ، وقرأ الآخرون بالياء ردوه إلى الكيد والسحر ، { مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } ، حتى تظن أنها تسعى أي تمشي وذلك أنهم كانوا لطخوا حبالهم وعصيهم بالزئبق ، فلما أصابه حر الشمس انهمست واهتازت فظن موسى أنها تقصده وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأن الأرض امتلأت حيات ، وكانت قد أخذت ميلا من كل جانب ورأوا أنها تسعى .
[67] { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } ، أي وجد ، وقيل . أضمر في نفسه خوفًا ، واختلفوا في خوفه طبع البشرية وذلك أنه ظن أنها تقصده ، وقال مقاتل : خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعونه .

[68] { قُلْنَا } ، لموسى ، { لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } ، أي الغالب ، يعني لك الغلبة والظفر .
[69] { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ } ، يعني العصا ، { تَلْقَفْ } ، تلتقم وتبتلع ، { مَا صَنَعُوا } ، قرا ابن عامر تلقف برفع الفاء ههنا ، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الأمر ، { إِنَّمَا صَنَعُوا } أي الذي صنعوا ، (كَيْدُ سِحْرٍ) ، أي حيلة سحر هكذا قرأ حمزة والكسائي بكسر السين بلا ألف وقرأ الآخرون ، { سَاحِرٍ } لأن إضافة الكيد إلى الفاعل أولى من إضافته إلى الفعل ، وإن كان ذلك لا يمتنع في العربية ، { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } ، من الأرض ، قال ابن عباس : لا يسعد حيث كان . وقيل : معناه حيث احتال .

[70 ، 71] { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى }{ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ } ، لرئيسكم ومعلمكم ، { الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } ، يعني على جذوع النخل ، { وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا } ، يعني على إيمانكم به أنا أو رب موسى على ترك الإيمان به ، { وَأَبْقَى } ، يعني أدوم .
[72] { قَالُوا } ، يعني السحرة ، { لَنْ نُؤْثِرَكَ } ، لن نختارك ، { عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ } ، يعني الدلالات ، قال مقاتل : يعني اليد البيضاء والعصا .
وقيل : كان استدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحرًا فأين حبالنا وعصينا . وقيل : من البينات يعني من اليقين والعلم { وَالَّذِي فَطَرَنَا } ، يعني لن نؤثرك على الله الذي فطرنا ، وقيل : هو قسم ، { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } ، يعني فاصنع ما أنت صانع ، { إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } ، يعني أمرك وسلطانك في الدنيا وسيزول عن قريب .

[73] { إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ } ، فإن قيل كيف قالوا هذا وقد جاءوا مختارين يحلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة . قيل : روي عن الحسن أنه قال : كان فرعون يكره قومًا على تعلم السحر لكيلا يذهب أصله وقد كان أكرههم في الابتداء . وقال مقاتل : كانت السحرة اثنين وسبعين ، اثنان من القبط ، وسبعون من بني إسرائيل ، كان عدو الله فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل على تعلم السحر ، فذلك قوله : { وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ } ، قال عبد العزيز بن أبان : قالت السحرة لفرعون : أرنا موسى إذا نام ، فأراهم موسى نائما وعصاه تحرسه ، فقالوا لفرعون : إن هذا ليس بساحر إن الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى عليهم إلا أن يتعلموا ، فذلك قوله تعالى : { وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ } ، { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } ، قال محمد بن إسحاق : خير منك ثوابًا وأبقى عذابًا ، وقال محمد بن كعب : خير منك ثوابًا إن أطيع وأبقى منك عذابًا إن عصي وهذا جواب لقوله : { وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } .

[74] { إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا } ، قيل : هذا ابتداء كلام من الله تعالى ، وقيل : من تمام قول السحرة مجرما أي مشركًا يعني من مات على الشرك ، { فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا } ، فيستريح ، { وَلَا يَحْيَا } ، حياة ينتفع بها .
[75] { وَمَنْ يَأْتِهِ } ، قرأ أبو عمرو ساكنة الهاء ، ويختلسها أبو جعفر ، وقالون ويعقوب ، وقرأ الآخرون بالإشباع ، { مُؤْمِنًا } ، أي : من مات على الإيمان ، { قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا } ، أي الرفيعة ، والعُلى جمع والعليا تأنيث الأعلى .

[76] { جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى } ، يعني تطهر من الذنوب .

[77] قوله عز وجل : { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي } ، يعني أسر بهم ليلا من أرض مصر ، { فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ } ، يعني اجعل لهم طريقًا في البحر بالضرب بالعصا ، { يَبَسًا } ، ليس فيه ماء ولا طين ، وذلك أن الله أيبس لهم الطريق في البحر ، { لَا تَخَافُ دَرَكًا } ، قرأ حمزة لَا تَخَفْ بالجزم على النهي ، والباقون بالألف والرفع على النفي ، لقوله تعالى : { وَلَا تَخْشَى } ، قيل : لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك .
[78] { فَأَتْبَعَهُمْ } ، فلحقهم ، { فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ } ، وقيل : معناه أمر فرعون جنوده أن يتبعوا موسى وقومه ، والباء فيه زائدة وكان هو فيهم ، { فَغَشِيَهُمْ } ، أصابهم ، { مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ } ، وهو الغرق . وقيل : غشيهم علاهم وسترهم من اليم ما غشيهم يريد غشيهم بعض ماء اليم لا كله . وقيل : غشيهم من اليم ما غشيهم قوم موسى فغرقهم ونجا موسى وقومه .
[79] { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } ، يعني ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون في قوله : { وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } .

[80] قوله : { يا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ } ، فرعون { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى } .
[81] { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } ، قرأ حمزة والكسائي أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم بالتاء على التوحيد ، وقرأ الآخرون بالنون والألف على التعظيم ، ولم يختلفوا في ونزلنا لأنه مكتوب بالألف ، { وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ } ، قال ابن عباس : لا تظلموا . وقال الكلبي : لا تكفروا النعمة فتكونوا ظالمين طاغين . وقيل : لا تنفقوا في معصيتي . وقيل : لا تتقووا بنعمتي على معاصي . وقيل : لا تدخروا فادخروا فتدود ، { فَيَحِلَّ } ، قرأ الأعمش والكسائي فيحل بضم الحاء ، ومن يحلل بضم اللام ، يعني ينزل ، وقرأ الآخرون بكسرها يعني يجب ، { عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى } ، هلك وتردى في النار .

[82] { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ } ، قال ابن عباس : تاب من الشرك ، { وَآمَنَ } ، ووحد الله وصدقه ، { وَعَمِلَ صَالِحًا } ، أدى الفرائض ، { ثُمَّ اهْتَدَى } ، قال عطاء عن ابن عباس : علم أن ذلك توفيق من الله . وقال قتادة وسفيان الثوري : يعني لزم الإسلام حتى مات عليه . قال الشعبي ومقاتل والكلبي : علم أن ذلك ثوابا . وقال زيد بن أسلم : تعلم العلم ليهتدي به كيف يعمل . قال الضحاك : استقام . وقال سعيد بن جبير : أقام على السنة والجماعة .
[83] { وَمَا أَعْجَلَكَ } , يعني وما حملك على العجلة ، { عَنْ قَوْمِكَ } ، وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا حتى يذهبوا معه إلى الجبل ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقا إلى ربه عز وجل وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله تعالى : { وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسَى } .
[84] { قَالَ } ، مجيبا لربه تعالى : { هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي } ، يعني هم بالقرب مني يأتون من بعدي { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } ، لتزداد رضًا .

[85] { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ } ، أي ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفًا ، من بعدك : أي من بعد انطلاقك إلى الجبل ، { وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } ، أي دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل ، وأضافه إلى السامري لأنهم ضلوا بسببه .
[86] { فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا } ، حزينا . { قَالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا } ، صدقا أنه يعطيكم التوراة ، { أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } ، مدة مفارقتي إياكم ، { أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ } أي أردتم أن تفعلوا فعلا يجب عليكم به الغضب من ربكم { فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } .

[87] { قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا } ، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم : { بِمَلْكِنَا } بفتح الميم وقرأ حمزة والكسائي بضمها ، وقرأ الآخرون بكسرها ، أي : ونحن نملك أمرنا . وقيل : باختيارنا ، ومن قرأ بالضم فمعناه بقدرتنا وسلطاننا ، وذلك أن المرء إذا وقع في البلية والفتنة لم يملك نفسه ، { وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا } ، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب حملنا بفتح الحاء ، وتخفيف الميم ، وقرأ الآخرون بضم الحاء وتشديد الميم أي جعلونا نحملها وكلفنا حملها ، { أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ } ، من حُلي قوم فرعون ، سماها أوزارًا لأنهم أخذوها على وجه العارية فلم يردها ، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا حليًّا من القبط وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر . وقيل : إن الله تعالى لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذوها وكانت غنيمة ولما تكن الغنيمة حلالا لهم في ذلك الزمان ، فسماها أوزارًا لذلك ، { فَقَذَفْنَاهَا } ، قيل : إن السامري قال لهم أحفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى ، قال السدي : قال لهم هارون : إن تلك غنيمة لا تحل فاحفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى ، فيرى رأيه

فيها ، ففعلوا . قوله : { فَقَذَفْنَاهَا } أي طرحناها في الحفرة ، { فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ } ، ما معه من الحلي فيها ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : أوقد هارون نارًا وقال : اقذفوا فيها ما معكم ، فألقوه فيها ثم ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل . قال قتادة : كان صر قبضة من ذلك التراب في عمامته .

[88] { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ } ، أي تركه موسى ههنا وذهب يطلبه . وقيل : أخطأ الطريق وضل .
[89] قال الله تعالى : { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا } ، أي : لا يرون أن العجل لا يكلمهم ولا يجيبهم إذا دعوه ، { وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } ، وقيل : إن هارون مر على السامري وهو يصوغ العجل فقال له : ما هذا؟ قال : أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي ، فقال هارون : اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه ، فألقى التراب في فم العجل وقال : كن عجلا يخور فكان ذلك بدعوة هارون ، والحقيقة أن ذلك كان فتنة ابتلى الله بها بني إسرائيل .
[90] { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ } ، أي من قبل رجوع موسى ، { يا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ } ، ابتليتم بالعجل ، { وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي } ، على ديني في عبادة الله ، { وَأَطِيعُوا أَمْرِي } ، في ترك عبادة العجل .

[91] { قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ } ، أي لن نزال ، { عَلَيْهِ } ، على عبادته ، { عَاكِفِينَ } ، مقيمين ، { حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } ، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفا

وهم الذين لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل ، قال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة ، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله .
[92] و { قَالَ } ، له { يا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا } ، أشركوا .
[93] { أَلَّا تَتَّبِعَنِي } ، أي : أن تتبعني و (لا) صلة أي تتبع أمري ووصيتي ، يعني : هلا قاتلتهم وقد علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم .
وقيل : أن لا تتبعني ، أي : ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم ، فتكون مفارقتك إياهم تقريعًا وزجرًا لهم عما أتوه ، { أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } ، أي خالفت أمري .

[94] { قَالَ يا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي } ، أي بشعر رأسي وكان قد أخذ ذوائبه ، { إِنِّي خَشِيتُ } ، لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضا ، { أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، أي خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا أحزابًا يتقاتلون ، فتقول أنت فرقت بين بني إسرائيل ، { وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } , ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك : اخلفني في قومي ، وأصلح أي ارفق بهم ، ثم أقبل موسى على السامري .
[95] { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ } ، أي ما أمرك وشأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟ { يا سَامِرِيُّ } .

[96] { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ } ، رأيت ما لم يروا وعرفت ما لم يعرفوا ، قرأ حمزة والكسائي ما لم تبصروا بالتاء على الخطاب ، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر ، { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } ، أي من تراب أثر فرس جبريل ، { فَنَبَذْتُهَا } أي ألقيتها في فم العجل ، وقال بعضهم : إنما خار لهذا لأن التراب كان مأخوذًا من تحت حافر فرس جبريل ، فإن قيل : كيف عرفه ورأى جبريل من بين سائر الناس؟ قيل : لأن أمه لما ولدته في السنة التي يقتل فيها البنون وضعته في الكهف حذرًا عليه فبعث الله جبريل ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة . { وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ } ، أي زينت ، { لِي نَفْسِي } .

[97] { قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ } ، أي ما دمت حيًّا ، { أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ } ، أي لا تخالط أحدًا ولا يخالطك أحد وأمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه . قال ابن عباس : لا مساس لك ولولدك ، والمساس من المماسة معناه لا يمس بعضنا بعضًا ، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحوش والسباع لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد ، فعاقبه الله بذلك ، وكان إذا لقي أحدًا يقول : لا مساس ، أي لا تقربني ولا تمسني ، وقيل : كان إذا مس أحدًا أو مسه أحد حما جميعًا حتى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك ، وإذا مس أحد من غيرهم أحدًا منهم حما جميعًا في الوقت ، { وَإِنَّ لَكَ } يا سامري ، { مَوْعِدًا } ، لعذابك ، { لَنْ تُخْلَفَهُ } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب : لَنْ تُخْلِفَهُ بكسر اللام أي لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة ، وقرأ الآخرون بفتح اللام أي لن تكذبه ولن يخلفك الله ، ومعناه أن الله تعالى يكافئك على فعلك ولا تفوته ، { وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ } ، بزعمك ، { الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا } ، أي ظلت ودمت عليه مقيمًا تعبده ، والعرب تقول : ظلت أفعل كذا بمعنى ظللت ومستُ

بمعنى مسستُ ، وقرأ أبو جعفر بالتخفيف من الإحراق ، { ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ } ، لنذرينه ، { فِي الْيَمِّ } ، في البحر ، { نَسْفًا } ، روي أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم لأنه كان قد صار لحمًا ودمًا ثم حرقه بالنار ، ثم ذراه في اليم ، قرأ ابن محيصن : لَنَحْرُقَنَّهُ بفتح النون وضم الراء لنبردنه بالمبرد ، ومنه قيل للمبرد المحرق . وقال السدي . أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد ثم ذاره في اليم .
[98] { إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } ، وسع علمه كل شيء .

[99] { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ } ، من الأمور ، { وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا } ، يعني القرآن .
[100] { مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ } ، أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ، { فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا } ، حملا ثقيلا من الإثم .
[101] { خَالِدِينَ فِيهِ } ، مقيمين في عذاب الوزر ، { وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا } ، أي بئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم كفرًا بالقرآن .
[102] { يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } ، قرأ أبو عمرو ننفخ بالنون وفتحها وضم الفاء لقوله : { وَنَحْشُرُ } وقرأ الآخرون بالياء وضمها وفتح الفاء على غير تسمية الفاعل ، { وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ } ، المشركين ، { يَوْمَئِذٍ زُرْقًا } ، والزرقة هي الخضرة في سواد العين فيحشرون زرق العيون سود الوجوه . وقيل : زرقًا أي عميًا . وقيل : عطاشًا .

[103] { يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ } ، أي يتشاورون بينهم ويتكلمون خفية ، { إِنْ لَبِثْتُمْ } ، أي ما مكثتم في الدنيا ، { إِلَّا عَشْرًا } ، أي عشر ليال . وقيل : في القبور : بين النفختين ، وهو أربعون سنة ، لأن العذاب يرفع عنهم بين النفختين استقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا .
[104] قال الله تعالى : { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ } ، أي يتشاورون بينهم ، { إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً } ، أوفاهم عقلا وأعدلهم قولا ، { إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا } ، قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة . وقيل : نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم .
[105] قوله : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا } ، قال ابن عباس : سأل رجل من ثقيف رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال : كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله هذه الآية ، والنسف هو القلع يعني يقلعها من أصلها ويجعلها هباء منثورا .
[106] { فَيَذَرُهَا } ، يعني فيدع أماكن الجبال من الأرض ، { قَاعًا صَفْصَفًا } يعني أرضا ملساء مستوية لا نبات فيها ، والقاع ما انبسط من الأرض والصفصف الأملس .

[107] { لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا } ، قال مجاهد : انخفاضًا وارتفاعًا . وقال الحسن : العوج ما انخفض من الأرض ، والأمت ما نشز من الروابي ، يعني لا ترى واديًا ولا رابية . قال قتادة : لا ترى فيها صدعا ولا أكمة .
[108] { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ } ، أي صوت الداعي الذي يدعوهم إلى موقف القيامة ، وهو إسرافيل ، وذلك أنه يضع الصور في فيه ، ويقول : أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن ، { لَا عِوَجَ لَهُ } ، يعني لدعائه ، وهو من المقلوب يعني لا عوج لهم من دعاء الداعي

لا يزيغون عنه يمينًا ولا شمالا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعًا ، { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } ، يعني سكتت وذلت وخضعت ، وصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها ، { فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } ، يعني صوت وطء الأقدام إلى المحشر ، والهمس الصوت الخفي كصوت أخفاف الإبل في المشي . وقال مجاهد : هو تخافت الكلام وخفض الصوت . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : تحريك الشفاه من غير منطق .

[109] { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ } ، يعني لا تنفع الشفاعة أحدًا من الناس ، { إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ } ، يعني إلا من أذن الله له أن يشفع ، { وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } يعني ورضي قوله ، قال ابن عباس : يعني قال : لا إله إلا الله ، وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن .
[110] { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } ، الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي ، أي يعلم الله ما بين أيديهم وما خلفهم وما خلفوا من أمر الدنيا . وقيل : ما بين أيديهم من الآخرة وما خلفهم من الأعمال ، { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } ، قيل : الكناية ترجع إلى (ما) أي : هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وهم لا يعلمونه . وقيل : الكناية راجعة إلى (الله) لأن عباده لا يحيطون به علمًا .
[111] { وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ } ، أي ذلت وخضعت ، ومنه قيل للأسير : عان ، وقال طلق بن حبيب : هو السجود على الجبهة للحي القيوم ، { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا } ، قال ابن عباس : خسر من أشرك بالله ، والظلم هو الشرك .

[112] { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ } ، قرأ ابن كثير "فلا يخف" مجزومًا على النهي جوابًا لقوله تعالى : (ومن يعمل) ، وقرأ الآخرون (فلا يخافُ) مرفوعا على الخبر ، { ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } ، قال ابن عباس : لا يخاف أن يزداد على سيئاته لا أن ينقص من حسناته . وقال الحسن : لا ينقص من ثواب حسناته ولا يحمل عليه ذنب مسيء . وقال الضحاك : لا يؤخذ بذنب لم يعمله وتبطل حسنة عملها ، وأصل الهضم النقص والكسر ، ومنه هضم الطعام .
[113] { وَكَذَلِكَ } ، أي كما بينا في هذه السورة ، { أَنْزَلْنَاهُ } ، يعني أنزلنا هذا الكتاب ، { قُرْآنًا عَرَبِيًّا } ، يعني بلسان العرب ، { وَصَرَّفْنَا } يعني بينا { فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ } ، أي صرفنا القول فيه بذكر الوعيد ، { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ، أي يجتنبون الشرك ، { أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا } ، أي يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبروا ويتعظوا بذكر عتاب الله للأمم الخالية .

[114] { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } ، جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون ، { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ } ، أراد النبي صلي الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبدر فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة ، ومخافة الانفلات والنسيان ، فنهاه الله عن ذلك ، وقال : { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ } ، أي لا تعجل بقراءته ، { مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ } ، أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ، نظيره قوله تعالى : { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ } وقرأ يعقوب : (نقضي) بالنون وفتحها وكسر الضاد ، وفتح الياء : (وحيه) بالنصب ، وقال مجاهد وقتادة : معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معانيه ، { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } ، يعني بالقرآن ومعانيه . وقيل علما

إلى ما علمت . وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدني إيمانًا ويقينًا .

[115] قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ } يعني أمرناه وأوحينا إليه ألا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدك وتركوا الإيمان بي ، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى : (لعلهم يتقون) ، { فَنَسِيَ } ، فترك الأمر ، والمعنى أنهم نقضوا العهد فإن آدم أيضا عهدنا إليه فنسي ، { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } ، قال الحسن : لم نجد له صبرًا عما نُهي عنه وقال عطية العوفي : حفظاً لما أمر به .
وقال قتيبة : رأيًا معزومًا حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له ، والعزم في اللغة هو توطين النفس على الفعل ، قال أبو أمامة الباهلي : لو وزن حلم آدم بحلم جميع ولده لرجح حلمه ، وقد قال الله : { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } ، فإن قيل : أتقولون إن آدم كان ناسيًا لأمر الله حين أكل من الشجرة؟ قيل : يجوز أن يكون نسي أمره ، ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعًا عن الإنسان بل كان مؤاخذًا به ، وإنما رفع عنا ، وقيل : نسي عقوبة الله وظن أنه نهاه تنزيها .
[116] قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى } ، أن يسجد .

[117] { فَقُلْنَا يا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ } ، حواء ، { فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } ، يعني تتعب وتنصب ، ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك . قال السدي : يعني الحرث والزرع والحصيد والطحن والخبز . وعن سعيد بن جبير : قال أهبط إلى آدم ثورًا أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ، فذلك شقاؤه ، ولم يقل : فتشقيا رجوعًا به إلى آدم لأن تعبه أكثر فإن الرجل هو الساعي على زوجته . وقيل : لأجل رءوس الآي .
[118] { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا } ، أي في الجنة { وَلَا تَعْرَى } .
[119] { وَأَنَّكَ } ، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الألف على الاستئناف ، وقرأ الآخرون بالفتح نسقًا على قوله : { أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا }{ لَا تَظْمَأُ } لا تعطش ، { فِيهَا وَلَا تَضْحَى } يعني لا تبرز للشمس فيؤذيك حرها . وقال عرمة : لا تصيبك الشمس وأذاها ، لأنه ليس في الجنة شمس ، وأهلها في ظل ممدود .

[120] { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ } ، يعني على شجرة إن أكلت منها بقيت مخلدًا ، يعني على شجرة إن أكلت منها بقيت مخلدًا ، { وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى } ، لا يبيد ولا يفنى .
[121] { فَأَكَلَا } ، يعني آدم وحواء عليهما السلام ، { مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ } ، بأكل الشجرة ، { فَغَوَى } ، يعني فعل ما لم يكن له فعله . وقيل : أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد بأكل ما نهي عنه أكله ، فخاب ولم لم ينل مراده . وقال ابن الأعرابي : أي فسد عليه عيشه وصار من العز إلى الذل ، ومن الراحة إلى التعب . قال ابن قتيبة : يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لأنه إنما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية ، كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده .
[122] { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ } ، اختاره واصطفاه ، { فَتَابَ عَلَيْهِ } ، بالعفو ، { وَهَدَى } ، هداه إلى التوبة حتى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا .

[123] { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ } ، يعني الكتاب والرسول ، { فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة ، ووقاه الله يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك بأن الله يقول : { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } . وقال الشعبي عن ابن عباس : أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة ، وقرأ هذه الآية .

[124] { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي } ، يعني القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه ، { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا } ، ضيقًا قيل : هو عذاب القبر وقال الحسن : هو الزقوم والضريع والغسلين في النار . وقال عكرمة : هو الحرام . وقال الضحاك : هو الكسب الخبيث . وعن ابن عباس : قال : الشقاء . ورُوي عنه أنه قال . كل ما أعطي العبد قل أم كثر فلم يتق فيه فلا خير فيه ، وهو الضنك في المعيشة ، وإن أقوامًا أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم ضنكًا ، وذلك أنهم يرون الله ليس بمختلف لهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله ، قال سعيد بن جبير : يسلبه القناعة حتى لا يشبع ، { وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } ، قال ابن عباس . أعمى البصر . وقال مجاهد : أعمى عن الحجة .

[125] { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } ، بالعين أو بصيرا بالحجة .
[126] { قَالَ كَذَلِكَ } ، أي كما { أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا } ، فتركتها وأعرضت عنها ، { وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } تترك في النار . قال قتادة : نسُوا من الخير ولم ينسوا من العذاب .
[127] { وَكَذَلِكَ } ، أي وكما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك ، { نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ } ، أشرك ، { وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ } ، مما يعذبهم به في الدنيا والقبر ، { وَأَبْقَى } ، وأدوم .
[128] { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ } ، يبين لهم القرآن يعني كفار مكة ، { كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ } ، ديارهم ومنازلهم إذا سافروا ، والخطاب لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } ، لذوي العقول .

[129] { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى } فيه تقديم وتأخير ، تقديره : ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا وأجلا مسمى ، والكلمة الحكم بتأخير العذاب عنهم ، أي ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان لزامًا ، أي لكان العذاب لازمًا لهم كما لزم القرون الماضية الكافرة .

[130] { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } ، نسختها آية القتال ، { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } ، أي صل بأمر ربك . وقيل : صلِّ لله بالحمدلة والثناء عليه ، { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ } ، يعني صلاة الصبح ، { وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } ، صلاة العصر ، { وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ } ، ساعاتها واحدها أنى ، { فَسَبِّحْ } ، يعني صلاة المغرب والعشاء . قال ابن عباس : يريد أول الليل ، { وَأَطْرَافَ النَّهَارِ } ، يعني صلاة الظهر ، وسمي

وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال ، وهو النصف الأول انتهاء وطرف النصف الآخر ابتداء ، وقيل : المراد من آناء الليل صلاة العشاء ومن أطراف النهار صلاة الظهر والمغرب ، لأن الظهر في آخر الطرف الأول من النهار ، وفي أول الطرف الآخر من النهار ، فهو في طرفين منه والطرف الثالث غروب الشمس ، وعند ذلك يصلي المغرب ، { لَعَلَّكَ تَرْضَى } ، أي ترضى ثوابه في المعاد ، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم : تُرضي بضم التاء أي تعطي ثوابه . وقيل : ترضى أي يرضاك الله تعالى ، كما قال : { وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا } ، وقيل : معنى الآية لعلك ترضى بالشفاعة ، كما قال : { وَلَسَوْفَ

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } .

[131] قوله تعالى : { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } ، قال أبو رافع : « نزل برسول الله صلي الله عليه وسلم ضيف فبعثني إلى يهودي فقال لي : "قل له : إن رسول الله يقول لك يعني كذا وكذا من الدقيق وأسلفني إلى هلال رجب" فأتيته فقلت له ذلك فقال : والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن ، فأتيت رسول الله صلي الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : والله لئن باعني وأسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض ، اذهب بدرعي الحديد إليه » (1) . فنزلت هذه الآية : { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } ، لا تنظر ، { إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ } ، أعطينا ، { أَزْوَاجًا } ، أصنافا ، { مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } أي زينتها وبهجتها ، وقرأ يعقوب زهرة بفتح الهاء وقرأ العامة بجزمها ، { لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } ، أي لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفرًا وطغيانًا ، { وَرِزْقُ رَبِّكَ } ، في المعاد يعني في الجنة ، { خَيْرٌ وَأَبْقَى } ، قال أبي ابن كعب : من لم يستعز بعز الله تقطعت نفسه حسرات ، ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس بطل حزنه ، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه .

---

(1) أخرجه إسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار والطبري والطبراني وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو متروك انظر الكافي الشافي ص 109 وأسباب النزول للواحدي ص 352 وأيد القرطبي بطلان هذه الرواية 11 / 263 .

[132] { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ } ، أي قومك . وقيل : من كان على دينك ، كقوله تعالى : { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ } ، { وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } ، أي اصبر على الصلاة ، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .
{ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا } ، لا نكلفك أن ترزق أحدا من خلقنا ، ولا أن ترزق نفسك وإنما نكلفك عملا ، { نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ } ، الخاتمة الجميلة المحمودة ، { لِلتَّقْوَى } ، أي لأهل التقوى . قال ابن عباس : يعني الذين صدقوك واتبعوك واتقوني . وفي بعض المسانيد أن النبي صلي الله عليه وسلم : « كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية » .

[133] قوله تعالى : { وَقَالُوا } ، يعني المشركين ، { لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ } ، أي الآية المقترحة فإنه كان قد أتاهم بآيات كثيرة ، { أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ } ، قرأ أهل المدينة والبصرة وحفص عن عاصم { تَأْتِهِمْ } لتأنيث البينة ، وقرأ الآخرون بالياء لتقدم الفعل ، لأن البينة هي البيان فرد إلى المعنى ، { مَا فِي

الصُّحُفِ الْأُولَى } ، يعني بيان ما فيها ، وهو القرآن أقوى دلالة وأوضح آية . وقيل : أو لم يأتهم ما في الصحف الأولى التوراة والإنجيل وغيرهما من أنباء الأمم أنهم اقترحوا الآيات ، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها ، كيف عجلنا لهم العذاب والهلاك ، فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك .
[134] { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ } ، يعني من قبل إرسال الرسول وإنزال القرآن ، { لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا } ، هلا { أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا } ، يدعونا ، أي لقالوا يوم القيامة ، { فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى } ، بالعذاب والذل والهوان والخزي والافتضاح .

[135] { قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ } ، منتظر دوائر الزمان ، وذلك أن المشركين قالوا : نتربص بمحمد حوادث الدهر ، فإذا مات تخلصنا ، قال الله تعالى : { فَتَرَبَّصُوا } ، فانتظروا ، { فَسَتَعْلَمُونَ } ، إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ، { مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ } ، المستقيم ، { وَمَنِ اهْتَدَى } ، من الضلالة نحن أم أنتم؟ .

(21) سورة الأنبياء
[1] { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ } ، قيل : اللام بمعنى من ، يعني اقترب من الناس { حِسَابُهُمْ } ، يعني وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم ، يعني يوم القيامة ، نزلت في منكري البعث ، { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ } ، عن التأهب له .
[2] { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ } ، يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به . قال مقاتل : يحدث الله الأمر بعد الأمر . وقيل : الذكر المحدث ما قاله النبي صلي الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى القرآن ، وأضافه إلى الرب عز وجل لأنه قال بأمر الرب ، { إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } ، يعني استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون .

[3] { لَاهِيَةً } ، ساهية غافلة ، { قُلُوبُهُمْ } ، معرضة عن ذكر الله ، وقوله : { لَاهِيَةً } نعت تقدم الاسم ، ومن حق النعت أن يتبع الاسم في الإعراب ، وإذا تقدم النعت الاسم فله حالتان : فصل ووصل ، فحالته في الفصل النصب كقوله تعالى : { خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ } وفي الوصل حالة ما قبله من الإعراب كقوله : { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا } . { وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، يعني أشركوا ، قوله : { وَأَسَرُّوا } فعل تقدم الجمع وكان حقه وأسر ، قال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، أراد : الذين ظلموا أسروا النجوى . وقيل : محل الذين رفع على أسروا . قال المبرد : هذا كقولك : إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله ، على البدل مما في انطلقوا .
ثم بين سرهم الذي تناجوا به فقال : { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } ، أنكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة ، { أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ } ، يعني تحضرون السحر وتقبلونه ، { وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } ، تعلمون أنه سحر .

[4] { قَالَ } ، لهم محمد ، { رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص : { قَالَ رَبِّي } ، على الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم ، { يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أي لا يخفى عليه شيء ، { وَهُوَ السَّمِيعُ } ، لأقوالهم ، { الْعَلِيمُ } ، بأفعالهم .
[5] { بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ } ، أباطيلها وأقاويلها وأهاويلها رآها في النوم ، { بَلِ افْتَرَاهُ } ، أختلقه ، { بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } ، يعني أن المشركين اقتسموا

القول فيه وفيما يقوله ، قال بعضهم : أضغاث أحلام . وقال بعضهم : بل هو فرية . وقال بعضهم : بل محمد شاعر وما جاءكم به شعر . { فَلْيَأْتِنَا } محمد ، { بِآيَةٍ } ، إن كان صادقًا ماله { كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } ، من الرسل بالآيات .
[6] قال الله تعالى مجيبًا لهم : { مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ } ، أي قبل مشركي مكة ، { مِنْ قَرْيَةٍ } ، أي من أهل قرية آتتهم الآيات ، { أَهْلَكْنَاهَا } ، أهلكناهم بالتكذيب ، { أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ } ، إن جاءتهم آية ، معناه : أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء .

[7] { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ } ، هذا جواب لقولهم : { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } يعني إنا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالا نوحي إليهم ، { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ } ، يعني أهل التوراة والإنجيل يريد علماء أهل الكتاب فإنهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشرًا ، وإن أنكروا نبوة محمد صلي الله عليه وسلم ، وأمر المشركين بمسألتهم لأنهم إلى تصديق من لم يؤمن بالنبي صلي الله عليه وسلم أقرب منهم إلى تصديق من آمن به . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ، { إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } .
[8] { وَمَا جَعَلْنَاهُمْ } ، أي الرسل ، { جَسَدًا } ، ولم يقل أجسادًا لأنه اسم الجنس ، { لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } ، هذا رد لقولهم : { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } ، يقول : لم نجعل الرسل ملائكة بل جعلناهم بشرا يأكلون الطعام ، { وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ } ، في الدنيا .

[9] { ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ } ، الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم ، { فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ } ، يعني أنجينا المؤمنين الذين صدقوهم ، { وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ } ، يعني المشركين المكذبين ، وكل مشرك مسرف على نفسه .
[10] { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا } ، يا معشر قريش ، { فِيهِ ذِكْرُكُمْ } ، يعني شرفكم ، كما قال : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } ، وهو شرف لمن آمن به ، وقال مجاهد : فيه حديثكم . وقال الحسن : فيه ذكركم أي ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم ، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } .

[11] { وَكَمْ قَصَمْنَا } ، أهلكنا ، والقصم الكسر ، { مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً } ، أي كافرة ، يعني أهلها ، { وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا } ، يعني : أحدثنا بعد هلاك أهلها ، { قَوْمًا آخَرِينَ } .
[12] { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا } ، يعني رأوا عذابنا بحاسة البصر ، { إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ } ، يعني يسرعون هاربين .
[13] { لَا تَرْكُضُوا } ، يعني قيل لهم لا تركضوا لا تهربوا لا تذهبوا ، { وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } ، يعنى نعمتم به ، { وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } ، قال ابن عباس : عن قتل نبيكم وقيل : من دنياكم شيئا .
[14] { قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } .
[15] { فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ } ، أي تلك الكلمة وهي قولهم يا ويلنا ، دعاؤهم يدعون بها ويرددونها؟ { حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا } كما يحصد الزرع ، { خَامِدِينَ } ، ميتين .
[16] { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ } ، أي عبثا وباطلا .

[17] { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا } ، اختلفوا في اللهو ، قال ابن عباس في رواية عطاء : اللهو ههنا المرأة ، وهو قول الحسن وقتادة ، وقال في رواية الكلبي . اللهو الولد وهو قول السدي ، وهو في المرأة أظهر لأن الوطء يسمى لهوًا في اللغة ، والمرآة محل الوطء { لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا } ، يعني من عندنا من حور العين لا من عندكم من أهل الأرض . وقيل : معناه لو كان جائزًا ذلك في صفته لم يتخذه بحيث يظهر لهم بل يستر ذلك حتى لا يطلعوا عليه ، وتأويل الآية أن النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بهذا وقال : { لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا } لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده ، لا عند غيره ، { إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ } ، قال قتادة ومقاتل وابن جريج : (إن) للنفي ، معناه : ما كنا فاعلين . وقيل : { إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ } للشرط أي إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا ، ولكنا لم نفعله لأنه لا يليق بالربوبية .

[18] { بَلْ } ، يعني دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل ، { نَقْذِفُ } ، نرمي ونسلط ، { بِالْحَقِّ } ، بالإيمان ، { عَلَى الْبَاطِلِ } ، على الكفر ، وقيل . الحق قول الله ، فإنه لا ولد له ، والباطل قولهم أتخذ الله ولدا ، { فَيَدْمَغُهُ } ، يعني يهلكه ، وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ، { فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } ، ذاهب ، والمعنى : أنا نبطل كذبهم بما تبين من الحق حتى يضمحل ويذهب ، ثم أوعدهم على كذبهم فقال : { وَلَكُمُ الْوَيْلُ } ، يا معشر الكفار . { مِمَّا تَصِفُونَ } ، الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد . وقال مجاهد . مما تكذبون .
[19] { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، عبيدا وملكا ، { وَمَنْ عِنْدَهُ } ، يعني الملائكة . { لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } ، ولا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها ، { وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ } ، لا يعيون ، يقال : حسر واستحسر إذا تعب وأعيا . وقال السدي : لا ينقطعون عن العبادة .
[20] { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } ، لا يضعفون ، قال كعب الأحبار : التسبيح لهم كالنفس لبني آدم .

[21] { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً } استفهام بمعنى الجحد أي لم يتخذوا ، { مِنَ الْأَرْضِ } ، يعني الأصنام من الخشب والحجارة وهما من الأرض ، { هُمْ يُنْشِرُونَ } ، يحيون الأموات ، ولا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم .
[22] { لَوْ كَانَ فِيهِمَا } ، يعني في السماء والأرض ، { آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ } ، يعني غير الله ، { لَفَسَدَتَا } ، لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام ، ثم نزه نفسه فقال : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } ، يعني يصمه به المشركون من الشريك والولد .
[23] { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } ، ويحكم على خلقه لأنه الرب { وَهُمْ يُسْأَلُونَ } ، عن أفعالهم وأعمالهم لأنهم عبيد .

[24] { أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } ، استفهام إنكار وتوبيخ ، { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } ، يعني حجتكم على ذلك ، ثم قال مستأنفا ، { هَذَا } ، يعني القرآن . { ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ } ، فيه خبر من معي على ديني ومن تبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية . { وَذِكْرُ } ، خبر ، { مَنْ قَبْلِي } ، من الأمم السالفة ما فعل بهم في الدنيا وما يفعل بهم في الآخرة . وعن ابن عباس في رواية عطاء : ذكر من معي : القرآن ، وذكر من

قبلي : التوراة والإنجيل ، ومعناه : راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولدا ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ } .

[25] { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم نوحي إليه بالنون وكسر الحاء على التعظيم ، لقوله : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول ، { أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } ، وحدون .
[26] { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } ، نزلت في خزاعة حيث قال : الملائكة بنات الله { سُبْحَانَهُ } ، نزه نفسه عما قالوا ، { بَلْ عِبَادٌ } ، أي هم عباد ، يعني الملائكة ، { مُكْرَمُونَ } .
[27] { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ } ، لا يقدمونه بالقول ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } ، معناه أنهم لا يخالفونه قولا ولا عملا .
[28] { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } ، أي ما عملوا وما هم عاملون . وقيل : ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم ، { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } ، قال ابن عباس : أي إلا لمن قال : لا إله إلا الله ، وقال مجاهد : أي لمن رضي عنه ، { وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } ، خائفون لا يأمنون مكره .

[29] { وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ } ، قال مقاتل : عنى به إبليس حين دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعة نفسه ، فإن أحدا من الملائكة لم يقل إني إله من دون الله ، { فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } ، الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها .

[30] { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، قرأ العامة بالواو وقرأ ابن كثير ألم ير بغير واو ، وكذلك هو في مصاحفهم معناه : ألم يعلم الذين كفروا ، { أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وعطاء وقتادة : كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ، { فَفَتَقْنَاهُمَا } ، فصلنا بينهما بالهواء والرتق في اللغة السد ، والفتق الشق ، قال كعب : خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض ، ثم خلق ريحا فوسطها ففتحهما بها . قال مجاهد والسدي : كانت السماوات مرتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع سماوات ، وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة ففتحها فجعلها سبع أرضين . قال عكرمة وعطية : كانت السماء رتقا لا تمطر والأرض رتقا لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ، وإنما قال : { رَتْقًا } على التوحيد وهو من نعت السماوات والأرض لأنه مصدر وضع موضع الاسم ، مثل الزور والصوم ونحوهما ، { وَجَعَلْنَا } ، وخلقنا ، { مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } ، أي أحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حي أي من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر ، يعني أنه سبب لحياة كل شيء .

والمفسرون يقولون : يعني أن كل شيء حي فهو مخلوق من الماء . لقوله تعالى : { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ } ، قال أبو العالية : يعني النطفة ، فإن قيل : قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء؟ قيل : هذا على وجه التكثير ، يعني أن أكثر الأحياء في الأرض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء ، { أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } .
[31] { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ } ، أي جبالا ثوابت ، { أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } ، لئلا

تميد بهم ، { وَجَعَلْنَا فِيهَا } ، في الرواسي ، { فِجَاجًا } ، طرقا ومسالك ، والفج الطريق الواسع بين الجبلين ، أي جعلنا بين الجبال طرقا كي يهتدوا إلى مقاصدهم ، { سُبُلًا } ، تفسير للفجاج ، { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } .

[32] { وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا } ، من أن تسقط ، دليله قوله تعالى : { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ } ، وقيل : محفوظا من الشياطين بالشهب ، دليله قوله تعالى : { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } ، { وَهُمْ } ، يعني الكفار ، { عَنْ آيَاتِهَا } ، أي عن ما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ، { مُعْرِضُونَ } ، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .
[33] { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } ، يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ، وإنما قال : يسبحون ، ولم يقل تسبح على ما يقال لما لا يعقل لأنه ذكر عنها فعل العقلاء من الجري والسبح ، فذكر على ما يعقل ، والفلك مدار النجوم الذي يضمها ، والفلك في كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك ، ومنه فلكة المغزل ، وقال الحسن : الفلك طاحونة كهيئة فلكة المغزل ، يريد أن الذي يجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة . قال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة سيرها . قال مجاهد : كهيئة حديد الرحى .

وقال بعضهم : الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب ، فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه ، وهو معنى قول قتادة وقال الكلبي : الفلك استدارة السماء . وقال آخرون : الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم .
[34] قوله عز وجل : { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ } ، دوام البقاء في الدنيا ، { أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ } ، أي أفهم الخالدون إن مت ، قيل : نزلت هذه الآية حين قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون .
[35] { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ } ، نختبركم { بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ } ، بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر ، وقيل : بما تحبون وما تكرهون ، { فِتْنَةً } ، ابتلاء لننظر كيف شكرتم فيما تحبون ، وصبركم فيما تكرهون ، { وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } .

[36] { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ } ، ما يتخذونك ، { إِلَّا هُزُوًا } ، سخريا ، قال السدي : نزلت في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلم فضحك ، وقال : هذا نبي بني عبد مناف ، { أَهَذَا الَّذِي } ، أي يقول بعضهم لبعض : أهذا الذي ، { يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ } ، أي يعيبها ، يقال : فلان يذكر فلانا أي يعيبه ، وفلان يذكر الله أي يعظمه ويبجله ، { وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ } ، وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلا مسيلمة ، و { هُمْ } الثانية صلة .

[37] { خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ } ، اختلفوا فيه ، فقال قوم . معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع ، كما قال الله تعالى : { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } والمراد بالإنسان آدم ، وأورث أولاده العجلة ، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء : خلقت منه ، كما يقول : خلقت من تعب وخلقت من غضب ، تريد المبالغة في وصفه بذلك ، يدل على هذا قوله تعالى : { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } ، وقال قوم : معناه خلق الإنسان يعني آدم من تعجيل في خلق الله إياه ، لأن

خلقه كان بعد خلق كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة ، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس { سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } ، هذا خطاب للمشركين ، نزل هذا في المشركين كانوا يستعجلون بالعذاب ويقولون أمطر علينا حجارة من السماء : وقيل : نزلت في النضر بن الحارث ، فقال تعالى : { سَأُرِيكُمْ آيَاتِي } أي مواعيدي فلا تستعجلون ، أي فلا تطلبوا العذاب من وقته ، فأراهم يوم بدر ، وقيل : كانوا يستعجلون القيامة .

[38 ،39] { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، فقال تعالى : { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ } ، لا يدفعون { عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ } ، قيل : ولا عن ظهورهم السياط ،{ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } ، يمنعون من العذاب ، وجواب لو في قوله : { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ } محذوف معناه : ولو علموا لما أقاموا على كفرهم ، ولما استعجلوا ، ولا قالوا متى هذا الوعد .
[40] { بَلْ تَأْتِيهِمْ } ، يعني الساعة { بَغْتَةً } ، فجأة ، { فَتَبْهَتُهُمْ } ، أي تحيرهم ، يقال : فلان مبهوت آي متحير ، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ } ، يمهلون .
[41] { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ } نزل { بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } أي جزاء استهزائهم .

[42] { قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ } ، يحفظكم ، { بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ } ، إن أنزل بكم عذابه ، وقال ابن عباس : من يمنعكم من عذاب الرحمن ، { بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ } ، عن القرآن ومواعظ الله ، { مُعْرِضُونَ } .
[43] { أَمْ لَهُمْ } ، أي : صلة فيه ، وفي أمثاله { آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا } ، فيه تقديم وتأخير ، تقديره : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ، ثم وصف الآلهة بالضعف ، فقال تعالى : { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ } ، منع أنفسهم ، فكيف ينصرون عابديهم ، { وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ } ، قال ابن عباس : يمنعون . وقال عطية : عنه يجارون ، تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ، أي مجير منه . وقال مجاهد : ينصرون ويحفظون . وقال قتادة : لا يصبحون من الله بخير .

[44] { بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ } ، الكفار ، { وَآبَاءَهُمْ } ، في الدنيا أي أمهلناهم . وقيل : أعطيناهم النعمة ،{ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } ، أي امتد بهم الزمان فاغتروا ، { أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } ، أي ما ننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين ، يريد ظهور النبي صلي الله عليه وسلم وفتحه ديار الشرك أرضا فأرضا ، { أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ } ، أم نحن .

[45] { قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ } ، أي أخوفكم بالقرآن ، { وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ } ، قرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالتاء وضمها وكسر الميم ، (الصم) نصبا ، جعل الخطاب للنبي صلي الله عليه وسلم ، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها وفتح الميم ، الصُّمُّ رفع ، { إِذَا مَا يُنْذَرُونَ } ، يخوفون .
[46] { وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ } ، أصابتهم { نَفْحَةٌ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما طرف . وقيل : قليل . وقال ابن جريج . نصيب ، من قولهم نفح فلان لفلان من ماله أي أعطاه حظا ونصيبا منه . وقيل : ضربة من قولهم نفحت الدابة برجلها إذا ضربت بها ، { مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } ، أي بإهلاكنا إنا كنا مشركين ، دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالشرك .

[47] { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ } ، أي ذوات القسط والقسط : العدل ، { لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا } ، أي : لا تنقص من ثواب حسناتها ولا يزاد على سيئاتها { وَإِنْ كَانَ } ، الشيء ، { مِثْقَالَ حَبَّةٍ } ، أي زنة مثقال حبة { مِنْ خَرْدَلٍ } ، قرأ أهل المدينة (مثقال) برفع اللام هاهنا وفي سورة لقمان . يعني : وإن وقع مثقال حبة من خردل ونصبها الآخرون على معنى وإن كان ذلك الشيء مثقال حبة من خردل ، { أَتَيْنَا بِهَا } أحضرناها لنجازي بها ، { وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } ، قال السدي : محصين ، والحسب معناه : العد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : عالمين حافظين ، لأن من حسب شيئا علمه وحفظه .

[48] { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ } ، يعني الكتاب المفرق بين الحق والباطل ، وهو التوراة . وقال ابن زيد : الفرقان النصر على الأعداء ، كما قال الله تعالى : { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ } ، يعني يوم بدر لأنه قال { وَضِيَاءً } ، أدخل الواو فيه أي آتينا موسى النصر والضياء ، وهو التوراة . ومن قال : المراد بالفرقان التوراة ، قال : الواو في قوله : { وَضِيَاءً } ، زائدة مقحمة ، معناه : آتيناه التوراة ضياء ، وقيل : هو صفة أخرى للتوراة ، { وَذِكْرًا } ، تذكيرا ، { لِلْمُتَّقِينَ } .
[49] { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } ، أي يخافونه ولم يروه ، { وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ } ، خائفون .
[50] { وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ } ، يعني القرآن وهو ذكر لمن تذكر به ، مبارك لمن يتبرك به ويطلب منه الخير ، { أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ } ، يا أهل مكة ، { لَهُ مُنْكِرُونَ } ، جاحدون ، هذا استفهام توبيخ وتعبير .

[51] قوله عز وجل : { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ } ، قال القرطبي : أي صلاحه ، { مِنْ قَبْلُ } ، يعني من قبل موسى وهارون ، وقال المفسرون : رشده من قبل ، أي هداه من قبل البلوغ ، وهو حين خرج من السرب وهو صغير ، يريد هديناه صغيرا كما قال تعالى ليحيى عليه السلام : { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا }{ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } ، أنه أهل للهداية والنبوة .
[52] { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ } ، أي الصور ، يعني الأصنام { الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } ، يعني على عبادتها مقيمون .
[53] { قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ } ، فاقتدينا بهم .
[54] { قَالَ } ، إبراهيم ، { لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } ، خطأ بين بعبادتكم إياها .
[55] { قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ } ، يعنون أجاد أنت فيما تقول أم لاعب؟ .

[56] { قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ } ، خلقهن ، { وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } ، يعني على أنه الإله الذي لا يستحق العبادة غيره . وقيل : من الشاهدين على أنه خالق السماوات والأرض.
[57] { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } ، لأمكرن بها ، { بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } ، يعني بعد أن تدبروا منطلقين إلى عيدكم .

[58] { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا } ، قرأ الكسائي "جذاذا" بكسر الجيم أي كسرا وقطعا جمع جذيذ ، وهو الهشم مثل خفيف وخفاف ، وقرأ الآخرون بضمها ، مثل الحطام والرفات ، { إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ } ، فإنه لم يكسره ووضع الفأس في عنقه ،

وقيل : ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من رصاص وشبة وخشب وحجر ، وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر في عينيه يا قوتتان تتقدان . قوله تعالى : { لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } ، قيل : معناه لعلهم يرجعون إلى دينه وإلى ما يدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها ، وقيل : لعلهم إليه يرجعون فيسألونه ، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنامهم جذاذا .
[59] { قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ } ، يعني من المجرمين .
[60] { قَالُوا } يعني الذين سمعوا قول إبراهيم وتالله لأكيدن أصنامكم ، { سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ } ، يعيبهم ويسبهم ، { يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ } ، وهو الذي نظن أنه صنع هذا ، فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه .

[61] { قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ } ، قاله نمرود يقول : جيئوا به ظاهرا بمرأى من الناس ، { لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } ، عليه أنه الذي فعله ، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، قاله الحسن وقتادة والسدي ، وقال محمد ابن إسحاق : { لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } أي يحضرون عقابه وما يصنع به فلما أتوا به .
[62] { قَالُوا } ، له { أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبْرَاهِيمُ } .
[63] { قَالَ } ، إبراهيم ، { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا } ، غضب من أن يعبد معه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن ، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم ، فذلك قوله : { فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ } ، حتى يخبروا من فعل ذلك بهم . قال القتيبي : معناه بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون على سبيل الشرط فجعل النطق شرطا للفعل أي إن قدروا على النطق قدروا على الفعل ، فأراهم عجزهم عن النطق ، وفي ضميره أنا فعلت .

[64] { فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ } ، أي تفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم ، { فَقَالُوا } ، ما نراه إلا كما قال ، { إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ } ، يعني بعبادتكم من لا يتكلم . وقيل : أنتم الظالمون هذا الرجل سؤالكم إياه وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها .
[65] { ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ } ، قال أهل التفسير : أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول ثم أدركتهم الشقاوة ، فهو معنى قوله : { ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ } أي ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم ، يقال : نكس المريض إذا رجع إلى حالته الأولى ، وقالوا : { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ } ، فكيف نسألهم؟ فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليه السلام .
[66] { قَالَ } ، لهم ، { أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا } ، إن عبدتموه، { وَلَا يَضُرُّكُمْ } ، إن تركتم عبادته .
[67] { أُفٍّ لَكُمْ } ، يعني تبا وقذرا لكم ، { وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ، يعني أليس لكم عقل تعرفون به هذا ، فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب .

[68] { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } ، يعني إن كنتم ناصرين لها .
[69] قال الله تعالى : { قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } ، قال ابن عباس لو لم يقل سلاما لمات إبراهيم من بردها .
[70] قوله : { وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } ، قيل : معناه أنهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم ، وقيل : معناه إن الله عز

وجل أرسل على نمرود وأهله البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت واحدة في دماغه فأهلكته .
[71] قوله : { وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا } ، من نمرود وقومه من أرض العراق ، { إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } ، يعني الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار ، ومنها بعث أكثر الأنبياء . خرج من كوثى من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه ، ومعه لوط وسارة ، كما قال الله تعالى : { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه .

[72] { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً } ، قال مجاهد وعطاء : معنى النافلة : العطية وهما جميعا من عطاء الله نافعة يعني عطاء ، قال الحسن والضحاك . فضلا . وعن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي زيد وقتادة رضي الله عنهم : النافلة هو يعقوب لأن الله عز وجل أعطاه إسحاق بدعائه حيث قال : { هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } ، وزاد يعقوب وهو ولد الولد ، والنافلة الزيادة ، { وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ } ، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

[73] { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } ، يقتدى بهم في الخيرات يهدون بأمرنا يدعون الناس إلى ديننا ، { وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ } ، يعني العمل بالشرائع ، { وَإِقَامَ الصَّلَاةِ } ، يعني المحافظة عليها ، { وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ } ، إعطاءها ، { وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } ، موحدين .
[74] { وَلُوطًا آتَيْنَاهُ } ، يعني وآتينا لوطا ، وقيل : واذكر لوطا آتيناه ، { حُكْمًا } ، يعني الفصل بين الخصوم بالحق ، { وَعِلْمًا } ، { وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ } ، يعني سدوما وكان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في أنديتهم مع أشياء أخر ، كانوا يعملونها من المنكرات ، { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ }
[75] { وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } .

[76] { وَنُوحًا إِذْ نَادَى } ، دعا ، { مِنْ قَبْلُ } ، يعني من قبل إبراهيم ولوط ، { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } ، قال ابن عباس : من الغرق وتكذيب قومه . وقيل : لأنه كان أطول الأنبياء عمرا وأشدهم بلاء والكرب أشد الغم .
[77] { وَنَصَرْنَاهُ } ، منعناه ، { مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } ، أن يصلوا إليه بسوء . وقال أبو عبيدة : يعني على القوم ، { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ } .

[78] قوله تعالى : { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ } ، اختلفوا في الحرث ، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وأكثر المفسرين : كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده . وقال قتادة : كان زرعا ، { إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ } ، يعني رعته ليلا فأفسدته ، والنفش الرعي بالليل والهمل بالنهار وهما الرعي بلا راع ، { وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } ، يعني كان ذلك بعلمنا وبمرأى منا لا يخفى علينا علمه ، قال ابن عباس وقتادة والزهري : وذلك أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب زرع والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع إن هذا انفلتت غنمه ليلا ووقعت في حرثي فأفسدته فلم يبق منه شيء ، فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث ، فخرجا فمرا على سليمان فقال : كيف قضى بينكما؟

فأخبراه ، فقال سليمان : لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود فدعاه فقال : كيف تقضي؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الحرث كهيئة يوم أكل دفع إلى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وحكم بذلك .

[79] قوله تعالى : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } ، أي علمناه القضية وألهمناها سليمان ، { وَكُلًّا } ، يعني داود وسليمان ، { آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } ، قال الحسن . لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد أهلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده ، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : « كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك؟ وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان وأخبرتاه فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله فهو ابنها فقضى به للصغرى » (1) . قوله تعالى : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ } ، أي وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح ، قال ابن عباس : كان يفهم تسبيح الحجر والشجر . وقال وهب : كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير . وقال قتادة . يسبحن أي يصلين معه إذا صلى . وقيل : كان داود إذ فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه . { وَكُنَّا فَاعِلِينَ } ، ما ذكر من التفهيم وإيتاء

---

(1) أخرجه البخاري في الأنبياء 6 / 458 ومسلم في الأقضية رقم (1720) 3 / 1343 .

الحكم والتسخير .
[80] { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ } ، المراد باللبوس هنا الدروع لأنها تلبس وهو في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها ، وهو بمعنى الملبوس كالجلوس والركوب ، قال قتادة : أول من صنع الدروع وسردها وحلقها داود وكانت من قبل صفائح والدرع يجمع الخفة والحصانة ، { لِتُحْصِنَكُمْ } لتحرزكم وتمنعكم ، { مِنْ بَأْسِكُمْ } أي من حرب عدوكم ، قال السدي : من وقع السلاح فيكم وقيل : ليحصنكم الله { فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } ، يقول لداود وأهل بيته . وقيل : يقول لأهل مكة . فهل أنتم شاكرون نعمي بطاعة الرسول .

[81] { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً } ، أي وسخرنا لسليمان الريح وهي هواء متحرك وهم جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ، ويظهر للحس بحركته ، والريح يذكر ويؤنث ، عاصفة شديدة الهبوب ، فإن قيل : قد قال في موضع آخر تجري بأمره رخاء والرخاء اللين؟ قيل : كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت ، وإن أراد أن تلين لانت ، { تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } ، يعني الشام وذلك إنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان ثم يعود إلى منزله بالشام { وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ } ، علمناه ، { عَالِمِينَ } ، بصحة التدبير فيه أي علمنا أن ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه عز وجل .

[82] قوله تعالى : { وَمِنَ الشَّيَاطِينِ } ، يعني وسخرنا له من الشياطين ، { مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ } ، يعني يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر ، { وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ } ، يعني دون الغوص وهو ما ذكر الله عز وجل : { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ } الآية . { وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } ، حتى لا يخرجوا من أمره . وقال الزجاج : معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا .

[83] قوله تعالى : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ } ، يعني دعا ربه ، واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله : أني مسني الضر وفي مدة بلائه ، فروى ابن شهاب عن أنس يرفعه أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة . وقال وهب : لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما .

وقال كعب : كان أيوب في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبع أيام . وقار الحسن : مكث أيوب مطروحا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب لا يقربه أحد غير امرأته رحمة صبرت معه بصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمد ، وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله والصبر على ما ابتلاه به فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا لله وقال : رب { أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ، فقيل له : ارفع رأسك فقد استجيب لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها فلم يبق عليه من دائه شيء ظاهر إلا سقط وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان . ثم ركض برجله ركضة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج فقام صحيحا وكسي حلة قال : فجعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من أهل ومال إلا وقد ضاعفه الله فإن قيل : إن الله سماه صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع ، بقوله : { أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ } و { أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ } ، قيل : ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى : { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } ، على أن الجزع إنما هو في الشكوى

إلى الخلق فأما الشكوى إلى الله عز وجل فلا يكون جزعا ولا ترك صبرا كما قال يعقوب : { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ } . قال سفيان بن عيينة : وكذلك من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله لا يكون ذلك جزعا كما روي « أن جبريل دخل على النبي صلي الله عليه وسلم في مرضه فقال : كيف تجدك؟ قال : أجدني مغموما وأجدني مكروبا » (1) . وقال لعائشة حين قالت وارأساه : « قال : بل أنا وارأساه » (2) .

---

(1) قطعة من حديث طويل أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 3 / 139 قال الهيثمي في مجمع الزوائد : فيه عبد الله بن ميمون القداح وهو ذاهب الحديث .

(2) أخرجه البخاري في المرضى 10 / 123 .

[84] قوله : { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ } ، واختلفوا في ذلك فقال ابن مسعود وقتادة وابن عباس والحسن وأكثر المفسرين : رد الله عز وجل إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله وأعطاه مثلهم معهم ، وهو ظاهر القرآن : قال الحسن : آتاه الله المثل من نسل ماله الذي رد الله إليه وأهله ، يدل عليه ما روي عن الضحاك عن ابن عباس : أن

الله عز وجل رد إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا . قال عكرمة : قيل لأيوب : إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا وإن شئت كانوا لك في الآخرة ، وآتيناك مثلهم في الدنيا فقال : يكونون لي في الآخرة ، وأوتى مثلهم في الدنيا ، فعلى هذا يكون معنى الآية : وآتيناه أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا وأراد بالأهل الأولاد ، { رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا } ، أي نعمة من عندنا ، { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } ، أي عظة وعبرة لهم .

[85] قوله : { وَإِسْمَاعِيلَ } ، يعني ابن إبراهيم ، { وَإِدْرِيسَ } ، وهو أخنوخ ، { وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ } ، على أمر الله ، واختلفوا في ذا الكفل ، فقال عطاء : إن نبيا من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله إليه إني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفل لك أن يصلي بالليل ولا يفتر ويصوم بالنهار ولا يفطر ، ويقضي بين الناس ولا يغضب ، فادفع ملكك إليه ففعل ذلك ، فقام شاب فقال : أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ، ووفى به فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل وقيل : إن ذا الكفل رجل كفل أن يصلي كل ليلة مائة ركعة إلى أن يقبضه الله فوفى به ، واختلفوا في أنه كان نبيا ، فقال بعضهم : كان نبيا . وقيل : هو إلياس . وقيل : زكريا . وقال أبو موسى : لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا .
[86] { وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا } ، يعني ما أنعم به عليهم في الدنيا من النبوة وصيرهم إليه في الجنة من الثواب ، { إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ } .

[87] { وَذَا النُّونِ } ، أي اذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ، { إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا } والمغاضبة ههنا من المفاعلة التي تكون من واحد ، كالمسافر والمعاقبة ، فمعنى قوله مغاضبا أي غضبان . وقال الحسن : إنما غاضب ربه عز وجل من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم ، فقيل له إن الأمر أسرع من ذلك حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعلا يلبسها فلم ينظر ، وكان في خلقه ضيق فذهب مغاضبا . وعن ابن عباس ، قال : أتى جبريل يونس فقال : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم ، فقال : ألتمس دابة ، قال : الأمر أعجل من ذلك فغضب فانطلق إلى السفينة { فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } ، أي لن نقضي عليه العقوبة ، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس يقال : قدر الله الشيء تقديرا وقدر يقدر قدرا بمعنى واحد ، ومنه قوله : { نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ } في قراءة من خففها دليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري : { فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ } بالتشديد ، وقال عطاء وكثير من العلماء : معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس ،

كقوله تعالى : { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } ، أي يضيق . وقال ابن زيد : هو استفهام معناه فظن أنه يعجز ربه ، فلا يقدر عليه . وقرأ يعقوب يقدر بضم الياء على المجهول خفيف { فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } ، يعني ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، وروي عن أبي هريرة مرفوعا : أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه : ما هذا؟ فأوحى الله إليه أن هذا تسبيح دواب البحر ، قال : فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه . فقالوا : يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة .

وفي رواية : صوتا معروفا من مكان مجهول ، فقال : ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت ، فقالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال : نعم فشفعوا له ، عند ذلك فأمر الحوت فقذفه إلى الساحل ، كما قال الله تعالى : { فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ } .

[88] فذلك قوله عز وجل : { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } ، أي أجبناه ، { وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ } ، من تلك الظلمات { وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } ، من كل كرب إذا دعونا واستغاثوا بنا واختلفوا في أن رسالة يونس بن متى متى كانت؟ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس : أنها كانت بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت ، بدليل أن الله عز وجل ذكره في سورة الصافات ، { فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ } ، ثم ذكر بعده : { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } ، وقال الآخرون . إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى : { وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }{ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } .
[89] قوله عز وجل : { وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ } ، أي دعا ربه ، { رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا } ، وحيدا لا ولد لي وارزقني وارثا ، { وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ } ، أثنى على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه أفضل من بقي حيا .

[90] { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى } ، ولدا { وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } أي جعلناها ولودا بعد ما كانت عقيما ، قاله أكثر المفسرين ، وقال بعضهم : كانت سيئة الخلق فأصلحها الله له بأن رزقها حسن الخلق . { إِنَّهُمْ } الأنبياء ، يعني الأنبياء الذين سماهم في هذه السورة { كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا } ، طمعا { وَرَهَبًا } ، خوفا ، رغبا في رحمة الله ، ورهبا من عذاب الله ، { وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } ، أي متواضعين ، قال قتادة : ذللا لأمر الله . قال مجاهد : الخشوع هو الخوف اللازم في القلب .

[91] { وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا } ، حفظت من الحرام وأراد مريم بنت عمران ، { فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا } ، أي أمرنا جبرائيل حتى نفخ في جيب درعها ، وأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها ، وأضاف الروح إليه تشريفا لعيسى عليه السلام ، { وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } ، أي دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب ولم يقل آيتين وهما آيتان لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية ولأن الآية كانت فيهما واحدة ، وهي أنها أتت به من غير فحل .
[92] قوله : { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ } ، أي ملتكم ودينكم ، { أُمَّةً وَاحِدَةً } ، أي دينا واحدا وهو الإسلام ، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان ، وأصل الأمة الجماعة التي هي على مقصد واحد فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد واحد ونصب أمة على القطع . { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } .

[93] { وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ } ، أي اختلفوا في الدين فصاروا فرقا وأحزابا ، قال الكلبي : فرقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض ، والتقطع ههنا بمعنى التقطيع ، { كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } ، فنجزيهم بأعمالهم .
[94] { فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ } ، لا يجحد ولا يبطل عمله سعيه بل يشكر ويثاب عليه ، { وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } ، لعمله حافظون ، وقيل : معنى الشكر من الله المجازاة ، ومعنى الكفران ترك المجازاة .

[95] { وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ } ، قال ابن عباس : معنى الآية وحرام على قرية أي أهل قرية ، { أَهْلَكْنَاهَا } أن يرجعوا بعد الهلاك ، فعلى هذا تكون (لا) صلة ، وقال آخرون : الحرام بمعنى الواجب ، فعلى هذا تكون (لا) ثابتة معناه واجب على أهل قرية أهلكناهم { أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } ، إلى الدنيا ، وقال الزجاج : معناه حرام على أهل قرية أهلكناهم أي حكمنا بهلاكهم أن يتقبل أعمالهم لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والدليل على هذا المعنى أنه قال الآية التي قبلها : { فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ } أي يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقيبه وبين أن الكافر لا يتقبل عمله .

[96] قوله تعالى : { حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ } ، قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب : (فتحت) بالتشديد على التكثير ، وقرأ الآخرون بالتخفيف ، { يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ } ، يريد فتح السد عن يأجوج ، { وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ } ، أي نشز وتل ، والحدب المكان المرتفع ، { يَنْسِلُونَ } ، يسرعون النزول من الآكام والتلال كنسلان الذئب ، وهو سرعة مشيه ، واختلفوا في هذه الكناية ، فقال قوم : عنى بها يأجوج ومأجوج وقال قوم : أراد جميع الخلق يعني أنهم يخرجون من قبورهم .

[97] قوله تعالى : { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ } يعني القيامة ، قال الفراء وجماعة : الواو في قوله واقترب مقحمة فمعناه حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وقال قوم : لا يجوز طرح الواو ، وجعلوا جواب حتى إذا فتحت في قوله يا ويلنا ، فيكون مجاز الآية : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق ، قالوا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا . قوله : { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، وفي قوله هي ثلاثة أوجه أحدها : أنها كناية عن الأبصار ، ثم أظهر الأبصار بيانا معناه : فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا . والثاني : أن هي تكون عمدا كقوله : { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ } ، والثالث : أن يكون تمام الكلام عند قوله : { هِيَ } ، على معنى فإذا هي بارزة يعني من قربها كأنها حاضرة ، ثم ابتدأ : { شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، على تقديم الخبر على الابتداء ، مجازها : أبصار الذين كفروا شاخصة . قال الكلبي شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله ، يقولون : { يا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } ، اليوم ، { بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ

} ، بوضعنا العبادة في غير موضعها .

[98] { إِنَّكُمْ } أيها المشركون { وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، يعني الأصنام ، { حَصَبُ جَهَنَّمَ } ، يعني وقودها . وقال مجاهد وقتادة : حطبها ، والحصب في لغة أهل اليمن الحطب . وقال عكرمة : هذا الحطب بلغة الحبشة . قال الضحاك : يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب . وأصل الحصب المرمي ، قال الله عز وجل : { أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا } أي ريحا ترميهم بحجارة ، وقرأ علي بن أبي طالب : حطب جهنم ، { أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } ، أي فيها داخلون .

[99] { لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ } ، يعني الأصنام ، { آلِهَةً } على الحقيقة ، { مَا وَرَدُوهَا } ، أي ما دخل عابدوها النار ، { وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ } ، يعني العابد والمعبودين .

[100 ، 101] { لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ }{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى } ، قال بعض أهل العلم : إن ههنا بمعنى إلا معناه : إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى ، يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة ، { أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } ، قيل : الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة . وقال أكثر المفسرين : عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره .
[102] { لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا } ، يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة ، والحس والحسيس الصوت الخفي ، { وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ } ، مقيمون كما قال : { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ } .

[103] { لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ } ، قال ابن عباس : الفزع الأكبر النفخة الأخيرة بدليل قوله عز وجل : { يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } ، قال الحسن : حين يؤمر بالعبد إلى النار . قال ابن جريج : حين يذبح الموت وتنادي : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت . وقال سعيد بن جبير والضحاك : هو أن تطبق عليهم جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه . { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ } ، أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ، ويقولون : { هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } .

[104] { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ } اختلفوا في السجل ، فقال السدي ، السجل ملك يكتب أعمال العباد ، واللام زائدة ، أي كطي السجل الكتب كقوله : { رَدِفَ لَكُمْ } ، اللام فيه زائدة ، وقال ابن عباس ومجاهد والأكثرون : السجل الصحيفة للكتب أي لأجل ما كتب ، معناه : كطي الصحيفة على مكتوبها ، والسجل اسم مشتق من المساجلة وهي المكاتبة ، والطي الدرج الذي هو ضد النشر ، { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } ، أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة ، نظيره قوله تعالى : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } .

[105] { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ } قال سعيد بن جبير ومجاهد : الزبور جميع الكتب المنزلة ، والذكر أم الكتاب الذي عنده ، والمعنى من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ . وقال ابن عباس والضحاك : الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة . وقال الشعبي : الزبور كتاب داود ، والذكر التوراة ، وقيل : الزبور زبور داود والذكر القرآن ، وبعد بمعنى قبل ، كقوله تعالى : { وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ } : أي أمامهم { أَنَّ الْأَرْضَ } يعني أرض الجنة ، { يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } ، قال مجاهد : يعني أمة محمد صلي الله عليه وسلم دليله قوله تعالى : { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ } ، وقال ابن عباس : أراد أن أراضي الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله بإظهار الدين وإعزاز المسلمين . وقيل : أراد بالأرض الأرض المقدسة .

[106] { إِنَّ فِي هَذَا } ، أي في هذا القرآن ، { لَبَلَاغًا } ، وصولا إلى البغية أي من اتبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجوه من الثواب . وقيل : بلاغا أي كفاية . يقال في هذا الشيء بلاغ وبلغة أي كفاية ، والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر ، { لِقَوْمٍ عَابِدِينَ } ، أي المؤمنين الذين يعبدون الله ، وقال ابن عباس : عالمين وقال كعب الأحبار : هم أمة محمد صلي الله عليه وسلم أهل

الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان .
[107] { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } ، قال ابن زيد : يعني رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم . وقال ابن عباس : هو عام في حق من أمن ومن لم يؤمن ، فمن آمن رحمة له في الدنيا والآخرة؟ ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم ، وقد قال النبي صلي الله عليه وسلم : « إنما أنا رحمة مهداة » . (1) .
[108] { قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } . أي أسلموا .

______
(1) أخرجه الدارمي عن أبي صالح مرسلا 1 / 9 ووصله الحاكم 1 / 35 وصححه على شرط الشيخين . قال الهيثمي في المجمع 8 / 257 : (رواه البزار والطبراني في الصغير ، ورجال البزار رجال الصحيح) .

[109] { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ } ، أي أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا ، { عَلَى سَوَاءٍ } ، يعني إنذارا بينا نستوي في علمه لا استيذانا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم ، يعني أذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به ، وقيل : لتستووا في الإيمان به { وَإِنْ أَدْرِي } ، يعني وما أعلم . { أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ } ، يعني القيامة .
[110] { إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } .
[111] { وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ } ، يعني لعل تأخير العذاب عنكم كناية عن غير مذكور ، { فِتْنَةٌ } اختبار ، { لَكُمْ } ، ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم ، { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } ، يعني تتمتعون إلى انقضاء آجالكم .

[112] { قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ } قرأ حفص عن عاصم : { قَالَ رَبِّ احْكُمْ } ، وقرأ الآخرون : قُل رَبِّ احْكُم يعني افصل بيني وبين من كذبني بالحق ، فإن قيل : كيف قال : احكم بالحق؟ قيل : الحق ههنا بمعنى العذاب لأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر ، نظيره قوله تعالى : { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ } ، قال أهل المعاني : معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب منه أو لم يطلب ، ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب في حكمه من الحق ، { وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } ، من الكذب والباطل .

(22) سورة الحج
[1] { يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ } ، أي : احذروا عقابه بطاعته ، { إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } ، والزلزلة والزلزال شدة الحركة على الحالة الهائلة ، واختلفوا في هذه الزلزلة فقال علقمة والشعبي : هي من أشراط الساعة . وقيل : قيام الساعة . وقال الحسن والسدي : هده الزلزلة تكون يوم القيامة . وقال ابن عباس : زلزلة الساعة قيامها فتكون معها .

[2] { يَوْمَ تَرَوْنَهَا } ، يعني الساعة ، وقيل : الزلزلة ، { تَذْهَلُ } ابن عباس : تشغل ، وقيل : تنسى ، يقال ذهلت عن كذا إذا تركته واشتغلت بغيره عنه { كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ } ، أي : كل امرأة معها ولد ترضعه ، يقال : امرأة مرضع بلا هاء إذا أريد به الصفة مثل حائض وحامل ، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء . { وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا } ، أي : تسقط ولدها من هول ذلك اليوم

قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام ، وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل . ومن قال . تكون في القيامة قال : هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته كقولهم أصابني أمر يشيب منه الوليد يريد به شدته . { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى } قال الحسن . معناه وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب . وقيل : معناه وترى الناس كأنهم سكارى { وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } .

[3] قوله : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } نزلت في النضر بن الحارث ، وكان كثير الجدل وكان يقول : الملائكة بناتٌ الله ، والقرآن أساطير الأولين ، وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابا . قوله تعالى : { وَيَتَّبِعُ } أي : يتبع في جداله في الله بغير علم ، { كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } ، والمريد المتمرد الغالي العاتي المستمر في الشر .
[4] { كُتِبَ عَلَيْهِ } ، قضي على الشيطان ، { أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ } ، اتبعه { فَأَنَّهُ } ، يعني الشيطان { يُضِلُّهُ } ، أي : يضل من تولاه ، { وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } ، ثم ألزم الحجة ، منكري البعث .

[5] فقال : { يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } ، يعني : في شك ، { مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ } يعني : أباكم آدم الذي هو أصل النسل ، { مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } يعني ذريته والنطفة هي المني وأصلها الماء القليل وجمعها نطاف ، { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } ، وهي الدم الغليظ المتجمد الطري ، وجمعها علق وذلك أن النطفة تصير دما غليظا ثم تصير لحما ، { ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ } ، وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ ، { مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } ، قال ابن عباس وقتادة : مخلقة أي تامة وغير مخلقة غير تامة أي ناقصة الخلق . وقال مجاهد : مصورة وغير مصورة يعني السقط . وقيل : المخلقة الولد الذي تأتي به المرأة لوقته ، وغير المخلقة السقط . { لِنُبَيِّنَ لَكُمْ } ، كما قدرتنا وحكمتنا في تصريف أطوار خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة . وقيل . لنبين لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون إليه في العبادة ، { وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ } ، فلا تمجه ولا تسقطه ، { إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } ، إلى وقت خروجها من الرحم تامة الخلق والمدة . { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ }

من بطون أمهاتكم { طِفْلًا } أي : صغارًا ولم يقل أطفالا لأن العرب تذكر الجمع باسم الواحد . وقيل . تشبيها بالمصدر مثل عدل وزور .

{ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ } يعني : الكمال والقوة ، { وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى } ، من قبل بلوغ الكبر ، { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } ، أي : الهرم والخرف ، { لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا } ، أي : يبلغ من السن ما يتغير عقله فلا يعقل شيئا ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال : { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً } ، أي يا بسة لا نبات فيها ، { فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ } ، المطر ، { اهْتَزَّتْ } ، تحركت بالنبات وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها ، { وَرَبَتْ } ، أي : ارتفعت وزادت ، وقرأ أبو جعفر : (وربأت) بالهمزة ، وكذلك في حم السجدة أي : ارتفعت وعلت ، قال المبرد : أراد اهتز وربا نباتها فحذف المضاف ، والاهتزاز في النبات أظهر ، يقال . اهتز النبات أي : طال وإنما أنث لذكر الأرض . وقيل .

فيه تقديم وتأخير معناه : ربت واهتزت ، { وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } ، أي : صنف حسن يبهج به من رآه أي : يسر ، فهذا دليل آخر على البعث .

[6] { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } ، أي : لتعلموا أن الله هو الحق ، { وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .
[7] { وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } .

[8] { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } يعني : النضر بن الحارث ، { وَلَا هُدًى } ، بيان { وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } .
[9] { ثَانِيَ عِطْفِهِ } ، متبخترا لتكبره . وقال . مجاهد وقتادة : أي لاوي عنقه . قال عطية وابن زيد : معرضا عما يدعى إليه تكبرا . وقال ابن جريج : يعرض عن الحق تكبرا . والعطف : الجانب ، وعطفا الرجل : جانباه عن يمين وشمال وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان أي يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء ، نظيره قوله تعالى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا } ، وقال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ } . { لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، عن دين الله ، { لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } ، عذاب وهوان هو القتل ببدر ، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط يوم بدر صبرا . { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } .

[10] ويقال له : { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } ، فيعذبهم بغير ذنب وهو جل ذكره على أي وجه شاء تصرف في عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم .

[11] قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } ، الآية نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته ذكرا وكثر ماله قال : هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيرا واطمأن إليه ، وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية وأجهضت فرسه وقل ماله قال : ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلا شرا فينقلب عن دينه ، وذلك الفتنة فأنزل الله عز وجل . { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } ، أكثر المفسرين قالوا على شك وأصله من حرف الشيء وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذي كالقائم عليه غير مستقر ، فقيل للشاك في الدين أنه يعبد الله على حرف لأنه على طرف وجانب من الدين لم يدخل فيه على الثبات والتمكن كالقائم على حرف الجبل مضطرب غير مستقر يعرض أن يقع في أحد جانبي الطرف لضعف قيامه ، ولو عبدوا الله في الشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف ، قال الحسن : هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه . { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ } ، صحة في جسمه وسعة في معيشته ، { اطْمَأَنَّ بِهِ } ، أي : رضي به وسكن إليه

، { وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ } ، بلاء في جسده وضيق في معيشته ، { انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ } ، ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر ، { خَسِرَ الدُّنْيَا } ، يعني هذا الشاك خسر الدنيا بفوات ما كان يؤمله ، { وَالْآخِرَةَ } ، بذهاب الدين والخلود في النار { ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } الظاهر .
[12] { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ } ، إن عصاه لم يعبده ، { وَمَا لَا يَنْفَعُهُ

} ، إن أطاعه وعبده { ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } ، عن الحق والرشد .
[13] { يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ } أي : ضر عبادته ، فإن قيل : قد قال لمن ضره أقرب من نفعه ولا نفع في عبادة الصنم أصلا؟ قيل : هذا على عادة العرب فإنهم يقولون لما لا يكون أصلا بعيد ، كقوله : { ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } أي : لا رجع أصلا فلما كان نفع الصنم بعيدا على معنى أنه لا نفع فيه أصلا قيل : ضره أقرب من نفعه لأنه كائن . { لَبِئْسَ الْمَوْلَى } : أي : الناصر . وقيل : المعبود . { وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } ، أي : الصاحب والمخالط يعني الوثن ، والعرب تسمي الزوج العشير لأجل المخالطة .

[14] { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } .

[15] { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ } ، يعني نبيه محمدا صلي الله عليه وسلم { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ } ، أي : بحبل { إِلَى السَّمَاءِ } أراد بالسماء سقف البيت على قول الأكثرين أي : ليشدد حبلا في سقف بيته فليختنق به حتى يموت ، { ثُمَّ لِيَقْطَعْ } الحبل بعد الاختناق . وقيل : ثم ليقطع أي ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا ، { فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ } ، صنعه وحيلته ، { مَا يَغِيظُ } (ما) بمعنى المصدر أي : هل يذهبن كيده وحيلته غيظه معناه فليختنق غيظا حتى يموت ، وليس هذا على سبيل الحتم أن يفعله لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق والموت ، ولكنه كما يقال للحاسد : إن لم ترض هذا فاختنق ومت غيظا . وقال ابن زيد : المراد من السماء السماء المعروفة ومعنى الآية : من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فإن أصله من السماء فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع عن النبي صلي الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه من السماء فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل .

[16] { وَكَذَلِكَ } أي مثل ذلك يعني ما تقدم من آيات القرآن ، { أَنْزَلْنَاهُ } ، يعني القرآن { آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ } .
[17] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } ، يعني : عبدة الأوثان ، { إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ } ، يحكم بينهم ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } .

[18] { أَلَمْ } ، ألم تعلم ، وقيل : ألم { تَرَ } بقلبك { أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ } ، قال مجاهد : سجودها تحول ظلالها .

وقال أبو العالية : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . وقيل : سجودها بمعنى الطاعة فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع لله مسبح له كما أخبرنا الله تعالى عن السماوات والأرض { قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } ، وقال في وصف الحجارة { وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } ، وقال تعالى : { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } ، وهذا مذهب حسن موافق لأهل السنة . قوله : { وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ } ، أي : من هذه الأشياء كلها تسبح الله عز وجل وكثير من الناس يعني المسلمين . { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ

الْعَذَابُ } ، وهم الكفار لكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عز وجل والواو في قوله : { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } ، واو الاستئناف . { وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ } أي : يهنه الله { فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ } أي : من يذله الله فلا يكرمه أحد ، { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } ، أي : يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته

.

[19] قوله تعالى : { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } أي : جادلوا في دينه وأمره والخصم اسم شبيه بالمصدر ، فلذلك قال : { اخْتَصَمُوا } بلفظ الجمع كقوله : { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ } ، واختلفوا في هذين الخصمين . فقيل : هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة ابن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . وقال ابن عباس وقتادة : نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلي الله عليه وسلم ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم به حسدا ، فهذه خصومتهم في ربهم . وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والكلبي : هم المؤمنون والكافرون كلهم من أي ملة كانوا . وقال بعضهم جعل الأديان ستة في قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا } الآية فجعل خمسة للنار وواحدا للجنة . فقوله تعالى : { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } ينصرف إليهم فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم ثم بين الله عز وجل ما

للخصمين فقال : { فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ } قال سعيد بن جبير : ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمى أشد حرًّا منه وسمي باسم الثياب لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب . وقال بعضهم : يلبس أهل النار مقطعات من النار ، { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ } ، الحميم : هو الماء الحار الذي انتهت حرارته .
[20] { يُصْهَرُ بِهِ } أي : يذاب بالحميم ، { مَا فِي بُطُونِهِمْ } ، يقال : صهرت الإلية والشحم بالنار إذا أذبتهما أصهرها صهرا معناه يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم حتى يسقط ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء ، { وَالْجُلُودُ } أي : يشوي حرها جلودهم فتتساقط .
[21] قوله تعالى : { وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ } ، سياط من حديد واحدتها مقمعة ، قال الليث : المقمعة شبه الجزر من الحديد ، من قولهم : قمعت رأسه إذا ضربته ضربا عنيفا .

[22] { كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ } ، يعني : كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم { أُعِيدُوا فِيهَا } ، يعني : ردوا إليها بالمقامع . وفي التفسير : إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفا . { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } ، أي : تقول لهم الملائكة : ذوقوا عذاب الحريق ، أي : المحرق مثل الأليم والوجيع ، قال الزجاج : هؤلاء أحد الخصمين . وقال في الآخر وهم المؤمنون .
[23] { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } ، جمع سوار ، { وَلُؤْلُؤًا } ، قرأ أهل المدينة وعاصم (ولؤلؤا) ههنا وفي سورة الملائكة بالنصب وافق يعقوب ههنا على معنى ويحلون لؤلؤا ولأنها مكتوبة في المصاحف بالألف وقرأ الآخرون بالخفض عطفا على قوله من ذهب ، { وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } أي : أنهم يلبسون في الجنة ثياب الإبريسم وهو الذي حرم لبسه في الدنيا على الرجال .

[24] قوله تعالى : { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ } ، قال ابن عباس : هو شهادة أن لا إله إلا الله . وقال ابن زيد : لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله . وقال السدي : أي القرآن . وقيل : هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده . { وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } ، إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المحمود في أفعاله .

[25] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، عطف المستقبل على الماضي لأن المراد من لفظ المستقبل الماضي كما قال تعالى في موضع آخر : { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، وقيل : معناه إن الذين كفروا فيما تقدم ويصدون عن سبيل الله في الحال ، أي : وهم يصدون . { وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، أي : ويصدون عن المسجد الحرام . { الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ } ، قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدًا كما قال : { وُضِعَ لِلنَّاسِ } . { سَوَاءً } ، قرأ حفص عن عاصم ويعقوب : { سَوَاءً } نصبا بإيقاع الجعل عليه يتعدى إلى مفعولين . وقيل : معناه مستويا فيه ، { الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } ، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبر ، وتم الكلام عند قوله : { لِلنَّاسِ } وأراد بالعاكف المقيم فيه ، وبالبادي الطارئ المنتاب إليه من غيره ، واختلفوا في معنى الآية فقال قوم : سواء العاكف فيه والباد يعني في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه ، وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة ، وقالوا : المراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية في تعظيم الكعبة في فضل الصلاة في

المسجد الحرام والطواف بالبيت ، وقال الآخرون : المراد منه جميع الحرم ، ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء في النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الأخر غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منزل ، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد ، قالوا : هما سواء في البيوت والمنازل . وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها ، وعلى القول الأول وهو الأقرب إلى الصواب يجوز لأن الله تعالى قال : { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } ، وقال النبي صلي الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » (1) ، فنسب الدار إليه نسب ملك ، واشترى عمر دارًا للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم ، فدل على جواز بيعها وهذا قول طاوس وعمر بن دينار وبه قال الشافعي . قوله عز وجل : { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } أي : في المسجد الحرام وهو الميل إلى الظلم ، والباء في قوله { بِإِلْحَادٍ } زائدة كقوله : { تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ } ، ومعناه من يرد فيه إلحادا بظلم ، وأنكر المبرد أن تكون الباء زائدة وقال : معنى الآية من تكن إرادته فيه بأن يلحد

---

(1) قطعة من حديث أخرجه مسلم في الجهاد والسير رقم (1780) 3 / 1405 .

بظلم . واختلفوا في هذا الإلحاد فقال مجاهد وقتادة : هو الشرك وهو عبادة غير الله . وقال قوم : هو كل شيء كان منهيا عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم . وقال عطاء : هو دخول الحرم غير محرم أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد أو قطع شجر . وقال ابن عباس : هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم من لا يظلمك ، وهذا معنى قول الضحاك . وعن مجاهد أنه قال : تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات . وقال حبيب بن أبي ثابت : وهو احتكار الطعام بمكة . وقال عبد الله بن مسعود : لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه ما لم يعملها ، ولو أن رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد أخر أذاقه الله من عذاب أليم . قال السدي : إلا أن يتوب .

[26] قوله تعالى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } ، أي : وطأنا . قال ابن عباس : جعلنا . وقيل : بينا . قال الزجاج . جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم . وقال مقاتل بن حيان : هيئنا . وإنما ذكر مكان البيت لأنه لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت لم يدر أين يبني فبعث الله ريحا خجوجا فكنست له ما حول البيت على الأساس . قوله تعالى : { أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا } أي : عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له لا تشرك بي شيئا ، { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ } ، أي : الذين يطوفون بالبيت ، { وَالْقَائِمِينَ } أي : المقيمين ، { وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } ، أي : المصلين .

[27] { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ } أي : أعلم ونادى في الناس ، { بِالْحَجِّ } ، فقال إبراهيم وما يبلغ صوتي؟ فقال : عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فقام إبراهيم وقال : يا أيها الناس ، ألا إن ربكم قد بنى لكم بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من كان يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات : لبيك اللهم لبيك ، قال ابن عباس وزعم الحسن أن قوله : { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ } كلام مستأنف وإن المأمور بهذا التأذين محمد صلي الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع . وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : « أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » (1) . قوله تعالى : { يَأْتُوكَ رِجَالًا } ، أي : مشاة على أرجلهم جمع راجل ، مثل قائم وقيام وصائم وصيام ، { وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ } ، أي : ركبانا على كل ضامر ، والضامر : البعير المهزول . { يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } من كل طريق بعيد .

---

(1) أخرجه مسلم في الحج رقم (1337) 2 / 975 والمصنف في شرح السنة 7 / 3 .

[28] { لِيَشْهَدُوا } ، ليحضروا ، { مَنَافِعَ لَهُمْ } ، قال سعيد بن المسيب : العفو والمغفرة . وقال سعيد بن جبير : التجارة ، وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس ، قال الأسواق . وقال مجاهد : التجارة وما يرضي الله به من أمر الدنيا والآخرة . { وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ } ، يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين . قيل لها : معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في أخرها . ويروى عن علي رضي الله عنه أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، وفي رواية عطاء عن ابن عباس : أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق . وقال مقاتل : المعلومات أيام التشريق .

{ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } ، يعني الهدايا والضحايا تكون من النعم ، وهي الإبل والبقر والغنم . واختار الزجاج أن الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدل على التسمية على نحرها ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام . { فَكُلُوا مِنْهَا } أمر إباحة وليس بواجب ، وإنما قال ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئا واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعا يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع . واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئا مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد ، فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئا وبه قال الشافعي ، وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر ، وقال ابن عمر : لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ، ويأكل مما سوى ذلك ، وبه قال أحمد وإسحاق ، وقال مالك : يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور ، وعند أصحاب الرأي يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما . قوله عز وجل : { وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } ، يعني :

الزمن الفقير الذي لا شيء له والبائس الذي اشتد بؤسه ، والبؤس شدة الفقر .

[29] { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } ، التفث الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار والشعث ، تقول العرب لمن تستقذره : ما أتفثك أي ما أوسخك . والحاج أشعث أغبر أي : لم يحلق شعره ولم يقلم ظفره فقضاء التفث إزالة هذه الأشياء ليقضوا تفثهم ، أي : ليزيلوا أدرانهم ، والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط والاستحداد وقلم الأظفار ولبس الثياب . قال ابن عمر وابن عباس : قضاء التفث مناسك الحج كلها . وقال مجاهد : هو مناسك الحج وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقلم الأظفار . وقيل : التفث ههنا رمي الجمار . قال الزجاج : لا نعرف التفث ومعناه إلا من القرآن . قوله تعالى : { وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ } ، قال مجاهد : أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي : ليتموها بقضائها . وقيل : المراد منه الوفاء بما نذر على ظاهره . وقيل : أراد به الخروج عما وجب عليه نذرا ولم ينذر . والعرب تقول لكل من خرج عن الواجب عليه وفى بنذره . وقرأ عاصم برواية أبي بكر (وليوفوا) بنصب الواو وتشديد الفاء { وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } ، أراد به الطواف الواجب عليه وهو طواف الإفاضة يوم

النحر بعد الرمي والحلق ، والطواف ثلاثة ، طواف القدوم : وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي أربعا ، وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه . والطواف الثاني : هو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق ، وهو واجب لا يحصل التحلل من الإحرام ما لم يأت به . والطواف الثالث هو طواف الوداع لا رخصة فيه لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعا فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض يجوز لها ترك طواف الوداع . قوله : { بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } واختلفوا في معنى العتيق ، فقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة : سمي عتيقا لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه ، فلم يظهر عليه جبار قط . وقال سفيان بن عيينة : سمي عتيقا لأنه لم يملك قط وقال الحسن وابن زيد : سمي به لأنه قديم وهو أول بيت وضع

للناس ، يقال دينار عتيق أي قديم ، وقيل : سمي عتيق لأن الله أعتقه من الغرق فإنه رفع أيام الطوفان .

[30] { ذَلِكَ } أي : الأمر ذلك يعنى ما ذكر من أعمال الحج ، { وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ } ، أي معاصي الله وما نهى عنه وتعظيمها ترك ملابستها . قال الليث : حرمات الله ما لا يحل انتهاكها . وقال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات ههنا المناسك بدليل ما يتصل بها من الآيات . وقال ابن زيد : الحرمات ههنا البيت الحرام ، والبلد الحرام والشهر الحرام والمسجد الحرام والإحرام . { فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ } ، أي : تعظيم الحرمات ، خير له عند الله في الآخرة ، { وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ } أن تأكلوها إذا ذبحتموها وهي الإبل والبقر والغنم ، { إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } ، تحريمه وهو قوله في سورة المائدة { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ } ، الآية ، { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } أي : عبادتها ، يقول : كونوا على جانب منها فإنها رجس ، أي : سبب الرجس ، وهو العذاب والرجس : بمعنى الرجز وقال الزجاج : (من) ههنا للتجنيس أي : اجتنبوا الأوثان التي هي رجس ، { وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } ، يعني : الكذب والبهتان .

وقال ابن مسعود : شهادة الزور ، وقيل : هو قول المشركين في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .

[31] { حُنَفَاءَ لِلَّهِ } ، مخلصين له ، { غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } ، قال قتادة : كانوا في الشرك يحجون ويحرمون البنات والأمهات والأخوات وكانوا يسمون حنفاء ، فنزلت : { حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } أي : حجاجًا لله مسلمين موحدين يعني : من أشرك لا يكون حنيفًا . { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ } ، أي : سقط ، { مِنَ السَّمَاءِ } ، إلى الأرض ، { فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ } ، أي : تستلبه الطير وتذهب به ، والخطف والاختطاف تناول الشيء بسرعة ، وقرأ أهل المدينة فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء ، أي يتخطفه ، { أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ } ، أي : تميل وتذهب به ، { فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } ، أي : بعيد معناه أن بعد من أشرك بالحق كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير ، أو هوت به الريح ، فلا يصل بحال . وقيل : شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع بحيث تسقطه الريح ، فهو هالك لا محالة إما باستلاب الطير لحمه وإما بسقوطه إلى المكان السحيق ، وقال الحسن : شبه أعمال الكفار بهذه الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شيء منها .

[32] { ذَلِكَ } ، يعني : الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور ، { وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } ، قال ابن عباس : شعائر الله البدن والهدي وأصلها من الأشعار وهو إعلامها ليعلم أنها هدي وتعظيمها استسمانها واستحسانها ، وقيل : شعائر الله أعلام دينه فإنها من تقوى القلوب ، أي : فإن تعظيمها من تقوى القلوب .

[33] { لَكُمْ فِيهَا } أي : في البدن قبل تسميتها للهدى ، { مَنَافِعُ } ، في درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها ، { إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } ، وهو أن يسميها ويوجبها هديا فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها ، هذا قول مجاهد ، وقول قتادة والضحاك ، ورواه مقسم عن ابن عباس . وقيل : معناه

لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديًا بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة إلى أجل مسمى ، يعني إلى أن تنحروها وهو قول عطاء ابن أبي رباح . وقال بعضهم : أراد بالشعائر المناسك ومشاهدة مكة ، لكم فيها منافع بالتجارة والأسواق إلى أجل مسمى وهو الخروج من مكة . وقيل . لكم فيها منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى، أي : إلى انقضاء أيام الحج ، { ثُمَّ مَحِلُّهَا } ، أي : منحرها ، { إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } أي : منحرها عند البيت العتيق ، يريد أرض الحرم كلها ، كما قال : { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ } أي : الحرم كله . وروي عن جابر في قصة حجة الوداع أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : « نحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا في رحالكم » (1) . ومن قال : الشعائر المناسك قال معنى

---

(1) أخرجه مسلم في الحج رقم (1218) 2 / 893 والمصنف في شرح السنة 7 / 150 .

قوله { ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } أي : محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق ، أي : أن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر .

[34] قال الله تعالى : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ } ، يعني جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ، { جَعَلْنَا مَنْسَكًا } ، قرأ حمزة والكسائي بكسر السين ههنا وفي آخر السورة ، على معنى الاسم مثل المسجد والمطلع ، يعني مذبحا وهو موضع القربان ، وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر ، مثل المدخل والمخرج يعني إراقة الدماء وذبح القرابين ، { لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } ، عند نحرها وذبحها وسماها بهيمة لأنها لا تتكلم ، وقال : { بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } وقيدها بالنعم لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير ، لا يجوز ذبحها في القرابين . { فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } ، أي : سموا على الذبائح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد ، { فَلَهُ أَسْلِمُوا } ، انقادوا وأطيعوا ، { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } ، قال ابن عباس وقتادة : المتواضعين . وقال مجاهد : المطمئنين إلى الله عز وجل ، والخبت المكان المطمئن من الأرض . وقال الأخفش : الخاشعين . وقال النخعي : المخلصين . وقال الكلبي : هم الرقيقة قلوبهم . وقال عمر بن أوس : هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا .

[35] { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ } ، من البلاء والمصائب ، { وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ } ، أي : المقيمين للصلاة في أوقاتها ، { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } ، أي : يتصدقون .
[36] { وَالْبُدْنَ } ، جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها يريد الإبل العظام الصحاح الأجسام ، يقال : بَدُنَ الرجل بدنًا وبدانةً إذا ضخم ، فأما إذا سن واسترخى يقال : بدن تبدينًا . قال عطاء والسدي : البُدن البقر أما الغنم فلا تسمى بدنة .

{ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } ، من أعلام دينه ، سميت شعائر لأنها تشعر ، وهو أن تُطعن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي ، { لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ } ، النفع في الدنيا والأجر في العقبى ، { فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا } ، أي : عند نحرها ، { صَوَافَّ } ، أي : قيامًا على ثلاث قوائم قد صفت رجلها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك . وقرأ أبي الحسن ومجاهد (صوافي) بالياء أي

صافية خالصة لله لا شريك له فيها ، { فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا } ، يعني : سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض ، وأصل الوجوب : الوقوع . يقال : وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب ، { فَكُلُوا مِنْهَا } ، أمر إباحة ، { وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ } ، اختلفوا في معناهما ، فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة : القانع الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يُعطى ولا يسأل ، والمعترّ الذي يسأل . وروى العوفي عن ابن عباس : القانع الذي لا يعترض ولا يسأل ، فعلى هذين التأويلين يكون القانع من القناعة يقال : قنع قانعة إذا رضي بما قُسم له .

وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي : القانع الذي يسأل والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل ، فيكون القانع من قنع قنوعًا إذا سأل . وقال ابن زيد : القانع المسكين ، والمعتر الذي ليس بمسكين ، ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم . { كَذَلِكَ } يعني : مثل ما وصفنا من نحرها قيامًا { سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ } ، نعمة منا لتتمكنوا من نحرها ، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، لكي تشكروا إنعامي عليكم .

[37] { لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا } ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله فأنزل الله هذه الآية : { لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا } ، قرأ يعقوب (تنال وتناله) بالتاء فيهما ، وقرأ العامة بالياء ، قال مقاتل : لن يُرفع إلى الله لحومها ولا دماؤها ، { وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ } ، ولكن ترفع إليه منكم الأعمال الصالحة والتقوى ، والإخلاص وما أريد به وجه الله ، { كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ } ، يعني : البدن ، { لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ } ، أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه ، وهو أن يقول : الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا ، { وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } ، قال ابن عباس : الموحدين .

[38] قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا } ، قرأ ابن كثير وأهل البصرة (يدفع) ، وقرأ الآخرون (يدافع) بالألف يريد يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم عن المؤمنين . { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } ، يعني : خوان في أمانة الله كفور لنعمته ، قال ابن عباس : خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه . قال الزجاج : من تقرب إلى الأصنام بذبيحته وذكر عليها اسم غير الله فهو خوان كفور .

[39] { أُذِنَ } ، قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم أذن بضم الألف والباقون بفتحها ، أي : أذن الله ، { لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ } ، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص { يُقَاتَلُونَ } بفتح التاء يعني المؤمنين الذين يقاتلهم المشركون ، وقرأ الآخرون بكسر التاء يعني الذين أذن لهم بالجهاد (يقاتلون) المشركين ، قال المفسرون : كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج ، ويشكون ذلك إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ، وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال ، فنزلت هذه الآية بالمدينة وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة ، فكانوا يمنعون فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة ، { بِأَنَّهُمْ

ظُلِمُوا } ، يعني : بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء ، { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } .

[40] { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } ، بدل من الذين الأولى { إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } ، يعني : لم يخرجوا من ديارهم إلا لقولهم ربنا الله وحده ، { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } ، بالجهاد وإقامة الحدود ، { لَهُدِّمَتْ } ، قرا أهل المدينة بتخفيف الدال وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير فالتخفيف يكون للتقليل والتكثير والتشديد يختص بالتكثير ، { صَوَامِعُ } قال مجاهد والضحاك : يعني : صوامع الرهبان . وقال قتادة : صوامع الصابئين ، { وَبِيَعٌ } ، يعني بيع النصارى جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ، { وَصَلَوَاتٌ } يعني كنائس اليهود ويسمونها بالعبرية صلوتا ، { وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } ، يعني مساجد المسلمين من أمة محمد صلي الله عليه وسلم ومعنى الآية : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم ، لهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى البيع والصوامع ، وفي زمن محمد صلي الله عليه وسلم المساجد وقال ابن زيد : أراد بالصلوات صلوات أهل الإسلام فإنها لا تنقطع إذا دخل العدو عليهم . {

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } ، يعني : ينصر دينه ونبيه ، { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } .

[41] { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ } ، قال الزجاج : هذا من صفة ناصريه ومعنى مكناهم نصرناهم على عدوهم حتى يتمكنوا في البلاد قال : هم أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم . قال الحسن : هذه الأمة { وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } ، يعني : أخر أمور الخلق ومصيرهم إليه يعني يبطل كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا منازع ولا مدع .

[42] قوله تعالى : { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ } ، يعزي نبيه صلي الله عليه وسلم ، { فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ } .

[43] { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ }

[44] { وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ } ، يعني : أمهلتهم وأخرت عقوبتهم ، { ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } ، عاقبتهم ، { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } ، يعني : إنكاري ، أي : كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوف به من يخالف النبي صلي الله عليه وسلم ويكذبه .

[45] { فَكَأَيِّنْ } ، فكم { مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } بالنون والألف على التعظيم ، { وَهِيَ ظَالِمَةٌ } ، يعني : وأهلها ظالمون ، { فَهِيَ خَاوِيَةٌ } ساقطة { عَلَى عُرُوشِهَا } ، على سقوفها ، { وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ } : يعني وكم من بئر معطلة متروكة مخلاة عن أهلها { وَقَصْرٍ مَشِيدٍ } ، قال قتادة والضحاك ومقاتل : رفيع طويل ، من قولهم : شاد بناءه إذا رفعه . وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء : مجصص من مشيد ، وهو الجص .

[46] { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } ، يعني : كفار مكة فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية ، { فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } ، يعني : ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها ، { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } ، ذكر التي في الصدور

تأكيدًا كقوله : { يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } معناه أن العمى الضار هو عمى القلب ، فأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين ، قال قتادة : البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلب هو البصر النافع .

[47] { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } ، نزلت في النضر بن الحارث حيث قال : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . { وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } ، فأنجز ذلك يوم بدر . { وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } قال ابن عباس : يعني يومًا من الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض .

وقال مجاهد وعكرمة : يومًا من أيام الآخرة ، والدليل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : « أبشروا يا معاشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة » (1) قال ابن زيد : هذه أيام الآخرة : وقوله : (مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون) يوم القيامة .
والمعني على هذا أنهم يستعجلون بالعذاب ، وإن يوما من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة . وقيل : معناه إن يوما من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدة كألف سنة مما تعدون ، فكيف تستعجلونه هذا كما يقال : أيام الهموم طوال ، وأيام السرور قصار . وقيل : معناه إن يومًا عنده وألف سنة في الإمهال سواء لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء .
[48] { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا } ، يعني أمهلتها ، { وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ }.
[49] { قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ }

---

(1) أخرجه أبو داود في العلم 5 / 255 قال المنذري : في إسناده المعلى بن زياد وفيه مقال .

[50] { فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } الرزق الكريم الذي لا ينقطع أبدا . وقيل : هو الجنة .
[51] { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا } ، يعني عملوا في إبطال آياتنا ، { مُعَاجِزِينَ } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين بالتشديد ههنا وفي سورة سبأ يعني مثبطين الناس عن الإيمان ، وقرأ الآخرون { مُعَاجِزِينَ } بالألف يعني معاندين مشاقين . وقال قتادة . معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم ألا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، ومعنى يعجزوننا أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } ، وقيل : معاجزين مغالبين يريد كل واحد أن يظهر عجز صاحبه .

[52 ، 53] قوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ } وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانًا ، { وَلَا نَبِيٍّ } وهو الذي يكون نبوته إلهاما أو منامًا ، وكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا { إِلَّا إِذَا تَمَنَّى } قال بعضهم . أي: أحب شيئًا واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به { أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } يعني مراده . وعن ابن عباس قال : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ما وجد إليه سبيلا ، وما من نبي إلا تمنى أن يؤمن به قومه ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى

الشيطان عليه ما يرضي به قومه فينسخ الله ما يلقي الشيطان . وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله { تَمَنَّى } يعني تلا وقرأ كتاب الله تعالى ألقى الشيطان في أمنيته يعني في تلاوته ، { فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ } أي : يبطله ويذهبه ، { ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ } ، فيثبتها ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }{ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً } ، أي : محنة وبلية ، { لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } ، شك ونفاق ، { وَالْقَاسِيَةِ } ، يعني : الجافية ، { قُلُوبِهِمْ } ، عن قبول الحق وهم المشركون ، {

وَإِنَّ الظَّالِمِينَ } ، المشركين { لَفِي شِقَاقٍ } ضلال ، { بَعِيدٍ } أي : في خلاف شديد .
[54] { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } ، التوحيد والقرآن . وقال السدي : التصديق بنسخ الله تعالى ، { أَنَّهُ } يعني : الذي أحكم الله من آيات القرآن هو { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ } ، أي : يعتقدون أنه من الله ، { فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ } يعني : فتسكن إليه قلوبهم ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، أي : طريق قويم هو الإسلام .

[55] { وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ } ، يعني في شك مما ألقى الشيطان . وقال ابن جريج : منه أي من القرآن . وقيل : من الدين وهو الصراط المستقيم . { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } ، يعني : القيامة . وقيل : الموت { أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } قال الضحاك وعكرمة : عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة . والأكثرون على أن اليوم العقيم يوم بدر لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة . وسمي يوم بدر عقيمًا لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير والعقم في اللغة : المنع ، يقال : رجل عقيم إذا مُنع من الولد .
وقيل : لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه . وقال ابن جريج : لأنهما لم يُنظروا فيه إلى الليل حتى قتلوا قبل المساء .

[56] { الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ } ، يعني يوم القيامة ، { لِلَّهِ } غير منازع ، { يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ } ، ثم بين الحكم فقال تعالى : { فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } .
[57] { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } .
[58] { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه ، { ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا } ، وهم كذلك ، قرأ ابن عامر (قتلوا) بالتشديد { لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا } ، والرزق الحسن الذي لا ينقطع أبدا وهو رزق الجنة ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } ، قيل : هو قوله : { بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } .
[59] { لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ } ، لأن لهم فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ } ، بنياتهم ، { حَلِيمٌ } ، عنهم .

[60] { ذَلِكَ } ، يعني : الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم ، { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ } ، جازى الظالم بمثل ظلمه . قال الحسن : يعني قاتل المشركين كما قاتلوه ، { ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ } ، يعني ظلم بإخراجه من منزله يعني ما أتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم ، نزلت في قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم

فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم ، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم ، قال تعالى : { لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ } والعقاب الأول بمعنى الجزاء { إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } عفا عن مساوئ المؤمنين وغفر ذنوبهم .
[61] { ذَلِكَ } يعني ذلك النصر { بِأَنَّ اللَّهَ }، القادر على ما يشاء فمن قدرته أنه { يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } .

[62] { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ } قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي وحفص بالياء وقرأ الآخرون بالتاء ، يعني المشركين { مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ } العالي على كل شيء ، { الْكَبِيرُ } العظيم الذي كل شيء دونه
[63] { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً } ، بالنبات ، { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ } ، بأرزاق عباده واستخراج النبات من الأرض ، { خَبِيرٌ } ، بما في قلوب العباد إذا تأخر المطر عنهم .
[64] { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، عبيدا وملكا ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ } ، عن عباده ، { الْحَمِيدُ } ، في أفعاله .

[65] { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ } يعني وسخر لكم الفلك ، { تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } ، وقيل : ما في الأرض الدواب التي تركب في البر ، والفلك التي تركب في البحر ، { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ } ، لكيلا تسقط على الأرض ، { إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } .
[66] { وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ } ، يعني : أنشأكم ولم تكونوا شيئا ، { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } ، عند انقضاء آجالكم ، { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } ، يوم البعث للثواب والعقاب ، { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } ، لنعم الله .

[67] { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ } ، قال ابن عباس : يعني شريعة هم عاملون بها . وروي عنه أنه قال : عيدا . قال قتادة ومجاهد : موضع قربان يذبحون فيه . وقيل : موضع عبادة مَألفًا يألفونه . والمنسك في كلام العرب : الموضع المعتاد لعمل خير أو شر ، ومنه مناسك الحج لتردد الناس إلى أماكن أعمال الحج . { فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ } ، يعني في أمر الذبائح . نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم : ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله؟ قال الزجاج : معنى قوله "لا ينازعنك" أي : لا تنازعهم أنت ، كما يقال : لا يخاصمك فلان ، أي : لا تخاصمه ، وهذا جائز فيما يكون بين الاثنين ، ولا يجوز لا يضربنك فلان وأنت تريد لا تضربه وذلك أن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين ، فإذا ترك أحدهما فلا مخاصمة هناك . { وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ } ، إلى الإيمان بربك ، { إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ } .
[68] { وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } .

[69] { اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } ، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل . والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر .
[70] { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ } ، كله ، { فِي كِتَابٍ } ، يعني اللوح المحفوظ ، { إِنَّ ذَلِكَ } يعني : علمه لجميع ذلك ، { عَلَى

اللَّهِ يَسِيرٌ } .
[71] { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا } ، حجة وبرهانًا ، { وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ } ، يعني أنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل لا عن علم ، { وَمَا لِلظَّالِمِينَ } ، للمشركين ، { مِنْ نَصِيرٍ } ، مانع يمنعهم من عذاب الله .

[72] { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } ، يعني : القرآن ، { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ } ، يعني الإنكار يتبين ذلك في وجوههم من الكراهية والعبوس ، { يَكَادُونَ يَسْطُونَ } ، يعني : يقعون ويبسطون إليكم أيديهم بالسوء . وقيل : يبطشون ، { بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } ، يعني : بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ . يقال : سطا عليه وسطا به إذا تناوشه بالبطش والعنف ، وأصل السطو القهر . { قُلْ } ، يا محمد ، { أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ } ، يعني بشر لكم وأكره إليكم من القرآن الذي تستمعون ، { النَّارُ } يعني : هي النار ، { وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } .

[73] { يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ } ، معنى : ضرب جعل كقولهم : ضرب السلطان البعث على الناس وضرب الجزية على أهل الذمة أي جعل ذلك عليهم . ومعنى الآية : جعل لي شبه وشبه بي الأوثان ، أي : جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها ومعنى { فَاسْتَمِعُوا لَهُ } ، يعني : فاستمعوا حالها وصفتها ، ثم بين ذلك فقال : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، يعني : الأصنام ، قرأ يعقوب بالياء والباقون بالتاء { لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا } ، واحدا في صغره وقلته لأنها لا تقدر عليه والذباب واحد وجمعه القليل أذبة والكثير ذباب مثل غراب وأغربة وغربان ، { وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ } ، يعني خلقه ، { وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ } ، قال ابن عباس : كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ، فإذا جف جاء الذباب فاستلب منه . وقال السدى : كانوا يضعون الطعام بين يدي الأصنام فتقع الذباب عليه فيأكلن منه . وقال ابن زيد : كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر ، ويطيبونها بألوان الطيب فربما تسقط منها واحدة فيأخذها طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استردادها فذلك قوله : {

وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا } أي : وإن يسلب الذباب الأصنام شيئا مما عليها لا يقدرون أن يستنقذوه منه ، { ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } ، قال ابن عباس : الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب من الصنم ، والمطلوب الصنم يطلب الذباب منه السلب . وقيل : على العكس : الطالب الصنم والمطلوب الذباب . وقال الضحاك : الطالب العابد والمطلوب المعبود .
[74] { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } ، ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته إن أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ، { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } .
[75] { اللَّهُ يَصْطَفِي } ، يعني يختار { مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا } وهم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وغيرهم ، { وَمِنَ النَّاسِ } يعني يختار من الناس رسلا مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام ، نزلت حين قال المشركون أأنزل الله عليه الذكر من بيننا ، فأخبر أن الاختيار إليه يختار من يشاء من خلقه { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } يعني سميع لقولهم بصير بمن يختاره لرسالته .

[76] { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } قال ابن عباس : ما قدموا { وَمَا خَلْفَهُمْ } ، ما خلفوا . وقال الحسن : ما بين أيديهم ما عملوا وما خلفهم ما هم عاملون من بعد . وقيل : ما بين أيديهم ملائكته وكتبه ورسله قبل أن خلقهم وما خلفهم أي ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم . { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ } .
[77] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } ، يعني صلوا لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ، { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ } ، أي : وحدوه ، { وَافْعَلُوا الْخَيْرَ } ، قال ابن عباس : صلة الرحم ومكارم الأخلاق ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ، لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة . واختلف أهل العلم في سجود التلاوة عقيب قراءة هذه الآية ، فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس ، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق . وذهب قوم إلى أنه لا يسجد ههنا وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي ، وعدة سجود القرآن أربعة عشر عند أكثر أهل العلم منها ثلاث في المفصل . وذهب قوم إلى أنه ليس في المفصل سجود .

[78] قوله : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } ، قيل : جاهدوا في سبيل الله أعداء الله حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه ، قاله ابن عباس ، وعنه أيضا أنه قال : لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد ، كما قال تعالى : { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } . قال الضحاك ومقاتل : اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته . وقال مقاتل بن سليمان : نسخها قوله : { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } ، وقال أكثر المفسرين . حق الجهاد أن تكون نيته خالصة صادقة لله عز وجل . وقال السدي : هو أن يطاع فلا يعصى . وقال عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس وهو الجهاد الأكبر وهو حق الجهاد . { هُوَ اجْتَبَاكُمْ } يعني : اختاركم لدينه ، { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } ، ضيق ، معناه أن المؤمن لا يبتلى بشيء ، الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص ، وبعضها بأنواع الكفارات ، فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد سبيلا إلى الخلاص من العقاب فيه . وقيل : من ضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس

ذلك عليكم وسع الله عليكم حتى تتيقنوا . وقال مقاتل : يعني الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة في السفر والتيمم عند فقد الماء وأكل الميتة عند الضرورة والإفطار بالسفر والمرض والصلاة قاعدا عند العجز عن القيام . وهو قول الكلبي ، وروي عن ابن عباس أنه قال : الحرج ما كان على بني إسرائيل من الأعمال التي كانت عليهم وضعها الله عن هذه الأمة . { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } ، يعني كلمة أبيكم نصب بنزع حرف الصفة وقيل : نصب على الإغراء ، يعني اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم ، وإنما أمرنا باتباع ملة إبراهيم لأنها داخلة في ملة محمد صلي الله عليه وسلم فإن قيل فما وجه قوله : { مِلَّةَ أَبِيكُمْ } وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟ قيل : خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم . وقيل : خاطب به جميع المسلمين وإبراهيم أب لهم على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب ، وهو كقوله تعالى : { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } ، وقال النبي صلي الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد » (1) { هُوَ سَمَّاكُمُ } ، يعني أن الله تعالى سماكم { الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ } ، يعني من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة .

---

(1) قطعة من حديث أخرجه أبو داود في الطهارة 1 / 18 والنسائي في الطهارة 1 / 38 وابن ماجة في الطهارة 1 / 114 والدارمي 1 / 172 وصححه ابن حبان برقم (128) ص 62 ورواه المصنف فى شرح السنة 1 / 356 وقال : هذا حديث صحيح .

{ وَفِي هَذَا } يعني : وفي الكتاب ، هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن زيد : هو يرجع إلى إبراهيم سماكم المسلمين في أيامه ، من قبل هذا الوقت وفي هذا الوقت ، وهو قوله : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } ، { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ } ، يوم القيامة أن قد بلغكم ، { وَتَكُونُوا } ، أنتم ، { شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } ، أن رسلهم قد بلغتهم ، { فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ } ، ثقوا بالله وتوكلوا عليه . قال الحسن : تمسكوا بدين الله . وروي عن ابن عباس قال : سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره . وقيل . معناه ادعوه ليثبتكم على دينه . وقيل : الاعتصام بالله هو التمسك بالكتاب والسنة ، { هُوَ مَوْلَاكُمْ } ، وليكم وناصركم وحافظكم ، { فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } ، الناصر لكم .

(23) سورة المؤمنون
[1] قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } ، قد حرف تأكيد ، وقال المحققون : قد يقرب الماضي من الحال ، يدل على أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل ، والفلاح . النجاة والبقاء ، قال ابن عباس : قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة .

[2] { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } اختلفوا في معنى الخشوع ، فقال ابن عباس : مخبتون أذلاء . وقال الحسن وقتادة : خائفون . وقال مقاتل : متواضعون . وقال مجاهد : هو غض البصر وخفض الصوت ، والخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن والخشوع في القلب والبصر والصوت ، قال الله عز وجل : { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } ، عن علي رضي الله عنه : هو أن لا يلتفت يمينا ولا شمالا . وقال سعيد بن جبير : هو أن لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله ، ولا يلتفت من الخشوع لله عز وجل . وقال عمرو بن دينار : هو السكون وحسن الهيئة . وقال ابن سيرين وغيره : هو ألا ترفع بصرك عن موضع سجودك . وقال أبو هريرة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل : { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود . وقال عطاء : هو ألا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة . وقيل : الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة والإعراض عما سواها ، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر .

[3] قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ } قال عطاء عن ابن عباس : عن الشرك وقال الحسن : عن المعاصي . وقال الزجاج : عن كل باطل ولهو ومالا يجمل من القول والفعل . وقيل : هو معارضة الكفار بالشتم والسب ، قال الله تعالى : { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } ، أي : إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه .
[4] { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } ، أي : للزكاة الواجبة مؤدون ، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها فعل . وقيل : الزكاة ههنا هو العمل الصالح ، أي : والذين

هم للعمل الصالح فاعلون .
[5] { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } ، الفرج اسم يجمع سوأة الرجل والمرأة ، وحفظ الفرج التعفف عن الحرام .

[6] { إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ } ، أي : من أزواجهم ، وعلى بمعنى من { أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ، (ما) في محل الخفض يعني أو مما ملكت أيمانهم ، والآية في الرجال خاصة بدليل قوله : { أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } والمرأة لا يجوز أن تستمتع بفرج مملوكها . { فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } ، يعني يحفظ فرجه إلا من امرأته أو أمته فإنه لا يلام على ذلك ، وإنما لا يلام فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتى ، وفي حال الحيض والنفاس ، فإنه محظور وهو على فعله ملوم .
[7] { فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ } ، أي : التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة ، { فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } ، الظالمون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام .

[8] { وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ } ، قرأ ابن كثير (لأماناتهم) على التوحيد ههنا وفي سورة المعارج ، كقوله تعالى : { وَعَهْدِهِمْ } والباقون (1) بالجمع ، كقوله عز وجل : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } ، { وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } ، حافظون ، أي يحفظون ما ائتمنوا عليه ، والعقود التي عاقدوا الناس عليها ، يقومون بالوفاء بها ، والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العباد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه ، ويكون من العبيد كالودائع والصنائع فعلى العبد الوفاء بجميعها . [9] { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ } ، قرأ حمزة ة والكسائي (صلاتهم) ، على التوحيد ، والآخرون "صلواتهم" على الجمع . { يُحَافِظُونَ } أي يداومون ، على حفظها ويراعون أوقاتها ، كرر ذكر الصلاة ليبين أن المحافظة عليها واجبة كما أن الخشوع فيها واجب .
[10] { أُولَئِكَ } ، أهل هذه الصفة ، { هُمُ الْوَارِثُونَ } ، يرثون منازل أهل النار من الجنة . وقال بعضهم : معنى الوراثة هو أنه يؤول أمرهم إلى الجنة وينالونها كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث .

---

(1) أي وقرا الباقون بالجمع .

[11] قوله تعالى : { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ } ، وهو أعلى الجنة قد ذكرناه في سورة الكهف ، { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ، لا يموتون ولا يخرجون .

[12] وقوله عز وجل : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ } ، يعني : ولد آدم ، والإنسان اسم الجنس يقع على ، الواحد والجمع ، { مِنْ سُلَالَةٍ } ، روي عن ابن عباس أنه قال : السلالة صفوة الماء . وقال مجاهد : من بني آدم . وقال عكرمة : هو يسيل من الظهر ، والعرب تسمي النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لأنهما مسلولان منه . قوله : { مِنْ طِينٍ } ، يعني : طين آدم . والسلالة : تولدت من طين خلق أدم منه . وقيل : المراد من الإنسان هو آدم . وقوله : { مِنْ سُلَالَةٍ } أي : سل من كل تربة .
[13] { ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً } ، يعني الذي هو الإنسان جعلناه نطفة ، { فِي قَرَارٍ مَكِينٍ } ، حريز وهو الرحم مكن وهيئ لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها .

[14 ، 15] { ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا } ، قرأ ابن عامر وأبو بكر (عظما) { فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا } بسكون الظاء على التوحيد فيهما ، وقرأ الآخرون بالجمع لأن الإنسان ذو عظام كثيرة . وقيل : بين كل خلقتين أربعون عاما . { فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا } ، أي ألبسنا ، { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ } ، اختلف المفسرون فيه ، فقال ابن عباس وغيره : هو نفخ الروح فيه . وقال قتادة : نبات الأسنان والشعر . وروى ابن جريج عن مجاهد : أنه استواء الشباب . وعن الحسن قال : ذكرا أو أنثى . وروى العوفي عن ابن عباس : أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الاتضاع ، إلى القعود إلى القيام ، إلى المشي إلى الفطام, إلى أن يأكل ويشرب ، إلى أن يبلغ الحلم ، ويتقلب في البلاد إلى ما بعدها . { فَتَبَارَكَ اللَّهُ } ، أي : استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال . { أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } ، المصورين والمقدرين . والخلق في اللغة التقدير . وقال مجاهد : يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين ، يقال : رجل خالق أي : صانع . وقال

ابن جريج : إنما جمع الخالقين لأن عيسى كان يخلق كما قال : { أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ } فأخبر الله عن نفسه بأنه أحسن الخالقين . { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ } ، والميت بالتشديد ، والمائت الذي لم يمت بعد وسيموت ، والميت بالتخفيف من مات ، ولذلك لم يجز التخفيف ههنا . كقوله : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } .
[16] { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } .
[17] { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ } ، أي : سبع سماوات ، سميت طرائق لتطارقها وهو أن بعضها فوق بعض ، يقال : طارقت النعل إذا جعلت بعضه فوق بعض . وقيل : سميت طرائق لأنها طرائق الملائكة . { وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } ، أي كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم كما قال الله تعالى : { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ } . وقيل : ما تركناهم سدى بغير أمر ونهي . وقيل : وما كنا عن الخلق غافلين أي بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب .

[18] { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ } ، يعلمه الله . قال مقاتل : بقدر ما يكفيهم للمعيشة ، { فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ } ، يريد ما يبقى في الغدران والمستنقعات ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر . وقيل : فأسكناه في الأرض ثم أخرجنا منها ينابيع ، فماء الأرض كله من السماء ، { وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } ، حتى تهلكوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم .
[19] قوله تعالى : { فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ } ، يعني بالماء ، { جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ } ، في الجنات ، { فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } ، شتاء وصيفا ، وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنها أكثر فواكه العرب .

[20] { وَشَجَرَةً } أي : أنشأ لكم شجرة { تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ } ، وهي الزيتون ، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو (سيناء) بكسر السين . وقرأ الآخرون بفتحها ، واختلفوا في معناه وفي { سِينِينَ } في قوله تعالى : { وَطُورِ سِينِينَ } قال مجاهد : معناه البركة ، أي : من جبل مبارك . وقال قتادة : معناه الحسن ، أي من الجبل الحسن . وقال الضحاك : هو بالنبطية ، ومعناه الحسن : وقال عكرمة : هو بالحبشية . وقال الكلبي : معناه الشجر ، أي : جبل ذو شجر . وقيل : هو بالسريانية الملتفة بالأشجار . وقال مقاتل : كل جبل فيه

أشجار مثمرة فهو سينا ، وسينين بلغة النبط . وقيل : هو فيعال من السناء وهو الارتفاع . قال ابن زيد : هو الحمل الذي نودي منه موسى بين مصر وأيلة . وقال مجاهد : سينا اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده . وقال عكرمة : هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل ، { تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ } ، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ويعقوب تنبت بضم التاء وكسر الباء وقرأ الآخرون بفتح التاء وضم الباء ، فمن قرأ بفتح التاء فمعناه تنبت تثمر الدهن وهو الزيتون . وقيل : تنبت ومعها الدهن ، ومن قرأ بضم التاء ، اختلفوا فيه

فمنهم من قال : الباء زائدة معناه تنبت الدهن كما يقال أخذت ثوبه وأخذت بثوبه ، ومنهم من قال نبت وأنبت لغتان بمعنى واحد ، { وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ } ، الصبغ والصباغ الإدام الذي لون الخبز إذ غمس فيه وينصبغ ، والإدام كل ما يؤكل مع الخبز سواء ينصبغ به الخبز ولا يصبغ . قال مقاتل : جعل الله في هذه الشجرة أدما ودهنا ، فالأدم : الزيتون ، والدهن الزيت ، وقال : خص الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها . ويقال : لأن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان .
[21] قوله سبحانه وتعالى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } ، يعني : آية تعتبرون بها ، { نُسْقِيكُمْ } ، قرأ العامة بالنون ، وقرأ أبو جعفر ههنا بالتاء وفتحها ، { مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } .
[22] { وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } ، يعني : على الإبل في البر وعلى الفلك في البحر .

[23] { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ } ، وحدوه ، { مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } ، معبود سواه ، { أَفَلَا تَتَّقُونَ } ، أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره .
[24] { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } ، يعني : يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعا وأنتم له تبع ، { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ } ، ألا يعبد سواه ، { لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً } ، يعني بإبلاغ الوحي { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا } ، الذي يدعونا إليه نوح { فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } ، وقيل : ما سمعنا بهذا أي : بإرسال بشر رسولا .
[25] { إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ } ، يعني جنون ، { فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ } ، يعني إلى أن يموت فتستريحوا منه .
[26] { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } ، يعني : أعني بإهلاكهم لتكذيبهم إياي .

[27] { فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا } ، أدخل فيها ، يقال : سلكته في كذا وأسلكته فيه ، { مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ } ، يعني من سبق عليه الحكم بالهلاك . { وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ }

[28 ، 29] { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ } ، اعتدلت { أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، يعني الكافرين ، { وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا } ، قرأ أبو بكر عن عاصم (منزلا) بفتح الميم وكسر الزاي ، أي يريد موضع النزول ، قيل : هذا هو السفينة بعد الركوب ، وقيل : هو الأرض بعد النزول ، ويحتمل أنه أراد في السفينة ، ويحتمل بعد الخروج وقرأ الباقون منزلا بضم الميم وفتح الزاي أي إنزالا ، مباركا ، فالبركة في السفينة

النجاة وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة ، { وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } .
[30] { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، يعني الذي ذكرت من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله { لَآيَاتٍ } لدلالات على قدرته ، { وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } ، يعني : وقد كنا وقيل : وما كنا إلا مبتلين أي : مختبرين إياهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم .
[31] { ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ } ، من بعد إهلاكهم ، { قَرْنًا آخَرِينَ } .

[32] { فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ } ، يعني هودا وقومه . وقيل : صالحا وقومه . والأول أظهر ، { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ } .
[33] { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ } ، أي المصير إلى الآخرة { وَأَتْرَفْنَاهُمْ } ، نعمناهم ووسعنا عليهم ، { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } ، يعني مما تشربون منه .
[34] { وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ } ، لمغبونون .
[35] { أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ } ، من قبوركم أحياء وأعاد إنكم لما طال الكلام ، ومعنى الكلام : أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون؟ وكذلك هو في قراءة عبد الله .

[36] { هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ } ، قال ابن عباس : هي كلمة بعد ، أي : بعيد ما توعدون ، قرأ أبو جعفر (هيهات هيهات) بكسر التاء ، وقرأ نصر ابن عاصم بالضم ، وكلها لغات صحيحة فمن نصب جعله مثل أين وكيف ، ومن رفع جعله مثل منذ وقط وحيث ، ومن كسر جعله مثل أمس وهؤلاء ، ووقف عليها أكثر القراء بالتاء ، ويروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء .
[37] { إِنْ هِيَ } ، يعنون الدنيا ، { إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا } ، قيل : فيه تقديم وتأخير ، أي : نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت . وقيل : يموت الآباء ويحيا الأبناء . وقيل : يموت قوم ويحيا قوم . { وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } ، بمنشرين بعد الموت .
[38] { إِنْ هُوَ } ، يعني الرسول ، { إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ } ، بمصدقين بالبعث بعد الموت .
[39 ، 40] { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } . { قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ } ، أي : عن قليل و (ما) صلة ، { لَيُصْبِحُنَّ } ، ليصيرن ، { نَادِمِينَ } ، على كفرهم وتكذيبهم .

[41] { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } ، يعني صيحة العذاب ، { بِالْحَقِّ } ، قيل : أراد بالصيحة الهلاك . وقيل : صاح بهم جبريل صيحة فتصدعت قلوبهم ، { فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً } ، وهو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر ، معناه : صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض ، { فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } .
[42] { ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ } ، يعني : أقواما آخرين .
[44] { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى } ، يعني : مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين ، لأن بين كل نبيين زمانا طويلا وهي فعلى من المواترة ، قال الأصمعي : يقال واترت الخبر إذا أتبعت بعضه بعضا وبين الخبرين مهملة .
{ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا } ، بالهلاك ، أي : أهلكنا

بعضهم في إثر بعض ، { وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ } ، يعني سمرا وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم ، وهي جمع أحدوثة . وقيل : جمع حديث . قال الأخفش : إنما هو في الشر وأما في الخير فلا يقال جعلتهم أحاديث وأحدوثة إنما يقال صار فلان حديثا ، { فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } .

[45] { ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } ، يعني بحجة بينة من اليد والعصا . وغيرهما .
[46] { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا } ، تعظموا عن الإيمان ، { وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ } ، متكبرين قاهرين بالظلم .
[47] { فَقَالُوا } ، يعني فرعون وقومه ، { أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } ، يعني : موسى وهارون ، { وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } مطيعون متذللون والعرب تسمي كل من دان للملك عابدا له .
[48] { فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ } ، بالغرق .
[49] { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } ، التوراة ، { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } ، أي لكي يهتدي به قومه .

[50 ، 51] { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً } ، دلالة على قدرتنا ، ولم يقل آيتين ، قيل : معناه شأنهما آية . وقيل : معناه جعلنا كل واحد منهما آية ، كقوله تعالى : { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا } . { وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ } ، الربوة المكان المرتفع من الأرض ، واختلفت الأقوال فيها ، فقال عبد الله بن سلام : هي دمشق ، وهو قول سعيد بن المسيب ومقاتل ، وقال الضحاك : غوطة دمشق . وقال أبو هريرة : هي الرملة . وقال عطاء عن ابن عباس : هي بيت المقدس ، وهو قول قتادة وكعب . وقال كعب : هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . وقال ابن زيد : هي مصر . وقال السدي : أرض فلسطين . { ذَاتِ قَرَارٍ } أي : مستوية منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها . { وَمَعِينٍ } ، فالمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون ، مفعول من عانه يعنيه إذا أدركه البصر . قوله : { يا أَيُّهَا الرُّسُلُ } ، قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبى وجماعة : أراد به محمد صلي الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة . وقال بعضهم : أراد به عيسى وقيل : أراد به جميع الرسل عليهم السلام ، {

كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ } ، أي الحلالات ، { وَاعْمَلُوا صَالِحًا } ، الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة ، { إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } .
[52] { وَإِنَّ هَذِهِ } قرأ أهل الكوفة وإن بكسر الألف على الابتداء وقرأ الباقون بفتح الألف وخفف ابن عامر النون وجعل إن صلة مجازه وهذه { أُمَّتُكُمْ } قرأ الباقون بتشديد النون على معنى وبأن هذا تقديره بأن هذه أمتكم ، أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ، { أُمَّةً وَاحِدَةً } ، أي ملة واحدة وهي الإسلام؟ { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } أي : اتقوني لهذا ، وقيل : معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين من قبلكم فأمركم واحد { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } فاحذروني وقيل : هو نصب بإضمار فعل ، أي : أعلموا أن هذه أمتكم أي ملتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون .

[53] { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ } ، دينهم ، { بَيْنَهُمْ } تفرقوا فصاروا فرقا يهودا ونصارى ومجوسا ، { زُبُرًا } . أي : فرقا وقطعا مختلفة ، واحدها زبور وهو

الفرقة والطائفة ، ومثله الزبرة وجمعها زبر ، ومنه . { زُبَرَ الْحَدِيدِ } أي : صاروا فرقا كزبر الحديد . وقرأ بعض أهل الشام (زبرا) بفتح الباء ، قال قتادة ومجاهد : (زبرا) أي : كتبا يعني دان كل فريق بكتاب غير الكتاب الذي دان به الآخرون . وقيل : جعلوا كتبهم قطعا مختلفة آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض ، وحرفوا البعض { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ } أي : بما عندهم منهم الذين ، { فَرِحُونَ } معجبون ومسرورون .
[54] { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ } ، قال ابن عباس : في كفرهم وضلالتهم ، وقيل : عمايتهم ، وقيل : غفلتهم { حَتَّى حِينٍ } ، إلى أن يموتوا .
[55] { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ } ما نعطيهم ونجعله مددا لهم من المال والبنين في الدنيا .

[56] { نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ } ، أي : نجعل لهم في الخيرات ونقدمها ثوابا لأعمالهم لمرضاتنا عنهم ، { بَل لَا يَشْعُرُونَ } ، إن ذلك استدراج لهم . ثم ذكر المسارعين في الخيرات فقال :
[57] { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ } ، أي : خائفون ، والإشفاق : الخوف, والمعنى أن المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه ، قال الحسن البصري : المؤمن من جمع إحسانا وخشية والمنافق من جمع إساءة وأمنا .
[58] { وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } يصدقون .
[59] { وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ } .

[60] { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا } . أي : يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات ، وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا } أي : يعملون ما عملوا من أعمال البر ، { وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } ، أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأن أعمالهم لا تقبل منهم ، { أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } ، لأنهم يوقنون أنهم يرجعون إلى الله عز وجل . قال الحسن : عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم . « عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال : "لا يا بنت الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه » .
(1) .
[61] قوله عز وجل : { أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } ، يبادرون إلى الأعمال الصالحات ، { وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } أي : إليها سابقون ، كقوله تعالى : { لِمَا نُهُوا } أي : إلى ما نهوا ، و { لِمَا قَالُوا } ونحوها ، وقال ابن عباس في معنى هذه الآية : سبقت لهم من الله السعادة . وقال الكلبي : سبقوا الأمم في الخيرات .

____
(1) أخرجه الترمذي في التفسير 9 / 19 والإمام أحمد 6 / 159 - 206 والحاكم 2 / 393 وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، والطبري 18 / 34 .

[62] قوله { وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } ، أي : طاقتها فمن لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع الصوم فليفطر ، { وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ } ، وهو اللوح المحفوظ ينطق بالحق يبين بالصدق ، ومعنى الآية لا يكلف الله نفسا

إلا وسعها إلا ما أطاقت من العمل ، وقد أثبتنا عمله في اللوح المحفوظ ، فهو ينطق به ويبينه . وقيل : هو كتب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة ، { وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } ، ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم .

[63] ثم ذكر الكفار فقال : { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ } أي : في غفلة وجهالة ، { مِنْ هَذَا } أي : من القرآن { وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ } ، أي : للكفار أعمال خبيثة من المعاصي ، والخطايا محكومة عليهما من دون ذلك ، يعني من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في قوله : { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ } ، { هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } لا بد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة ، هذا قول أكثر المفسرين . وقال قتادة : هذا ينصرف إلى المسلمين وأن لهم أعمالا سوى ما عملوا من الخيرات هم لها عاملون ، والأول أظهر .
[64] { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ } ، أي : أخذنا أغنياءهم ورؤساءهم ، { بِالْعَذَابِ } ، قال ابن عباس : هو السيف يوم بدر . وقال الضحاك : يعني الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » (1) فابتلاهم الله عز وجل بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف . { إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } يجزعون ويستغيثون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع .

---
(1) قطعة من حديث أخرجه البخاري في الدعوات 11 / 193 ومسلم في المساجد رقم (675) 1 / 466 .

[65] { لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ } ، أي لا تضجوا ، { إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ } ، لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم .
[66] { قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } ، يعني القرآن ، { فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ } ترجعون القهقرى تتأخرون عن الإيمان .

[67] { مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ } ، اختلفوا في هذه الكناية فأظهر الأقاويل أنما تعود إلى البيت الحرام كناية عن غير مذكور ، أي : مستكبرين متعظمين بالبيت الحرام وتعظمهم به أنهم كانوا يقولون : نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف ، هذا قول ابن عباس ومجاهد وجماعة ، وقيل : مستكبرين به أي بالقرآن فلم يؤمنوا به . والأول أظهر ، المراد منه الحرم ، { سَامِرًا } ، نصب على الحال ، أي أنهم يسهرون بالليل في مجالسهم حول البيت ، ووحد سامرا وهو بمعنى السمار لأنه وضع موضع الوقت ، أراد تهجرون ليلا . وقيل : وحد سامر ، ومعناه الجمع ، قوله : { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا } ، { تَهْجُرُونَ } قال نافع (تهجرون) بضم التاء وكسر الجيم من الأهجار وهو الإفحاش في القول ، أي تفحشون وتقولون الخنا ، وذكر أنهم كانوا يسبون النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه ، وقرأ الآخرون (تهجرون) بفتح التاء وضم الجيم ، أي : تعرضون عن النبي صلي الله عليه وسلم وعن الإيمان والقرآن ، وترفضونها . وقيل : هو من الهجر وهو القول القبيح ، يقال : هجر يهجر هجرا إذا قال غير الحق . وقيل . تهزؤون

وتقولون ما لا تعلمون ، من قولهم هجر الرجل في منامه إذا هذى .
[68] { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا } ، يعني يتدبروا { الْقَوْلَ } ، يعني ما جاءهم من القول

وهو القرآن ، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد صلي الله عليه وسلم ، { أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ } ، فأنكروا ، يريد إنا قد بعثنا من قبلهم رسلا إلى قومهم كذلك بعثنا محمدا صلي الله عليه وسلم إليهم . وقيل . أم بمعنى بل يعني جاءهم ما لم يأت أبائهم الأولين فلذلك أنكروا .
[69] { أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ } ، محمدا صلي الله عليه وسلم ، { فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ } ، قال ابن عباس : أليس قد عرفوا محمدا صلي الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود ، وهذا على سبيل التوبيخ على الإعراض عنه بعدما عرفوه بالصدق والأمانة .
[70] { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ } ، جنون وليس كذلك { بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } ، يعني بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل ، { وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } .

[71] { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ } ، قال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة : الحق هو الله أي لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل ، وقيل . لو اتبع مرادهم ، فسمى لنفسه شريكا وولدا كما يقولون : { لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } ، وقال الفراء والزجاج : والمراد بالحق القرآن أي لو نزل القرآن بما يحبون من جعل الشريك والولد على ما يعتقدونه { لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } ، وهو كقوله تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } . { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ } ، بما يذكرهم ، قال ابن عباس : أي بما فيه فخرهم وشرفهم يعني القرآن ، فهو كقوله تعالى . { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ } ، أي : شرفكم { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } ، أي شرف لك ولقومك . { فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ } , يعني عن شرفهم, { مُعْرِضُونَ } .

[72] { أَمْ تَسْأَلُهُمْ } ، على ما جئتهم به ، { خَرْجًا } ، أجرا وجعلا { فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ } ، يعني ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير ، { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } ، قرأ حمزة والكسائي (خراجا) (فخرج) كلاهما بالألف وقرأ ابن عامر كلاهما بغير ألف وقرأ الآخرون (خرجا) بغير الألف (فخراج) بالألف .
[73] { وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، وهو الإسلام .
[74] { وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ } ، أي عن دين الحق ، { لَنَاكِبُونَ } ، لعادلون مائلون .

[75] { وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ } ، قحط وجدوبة { لَلَجُّوا } ، تمادوا ، { فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } ، ولم ينزعوا عنه .
[76] { وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ } ، « وذلك أن النبي صلي الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني (1) . يوسف فأصابهم القحط ، فجاء أبو سفيان إلى النبي صلي الله عليه وسلم وقال : أنشدك الله والرحم ، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال : بلى ، فقال : قد قتلت الأباء بالسيف والأبناء بالجوع فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط ، فدعا فكشف عنهم ، فأنزل الله هذه الآية { فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ }» ، أي : ما خضعوا وما ذلوا لربهم ، وأصله طلب السكون ، { وَمَا يَتَضَرَّعُونَ } ، أي : لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على تمردهم .
[77] { حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ } ، قال ابن عباس : يعني القتل يوم بدر وهو قول مجاهد ، وقيل : هو الموت . وقيل : هو قيام الساعة؟ { إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } ، آيسون من كل خير .

(1) هكذا في الأصل ، وفي طبعة النمر وزميله .

[78] { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ } أي : أنشأ لكم الأسماع { وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ } ، لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ، { قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } ، أي : لم تشكروا هذه النعم .
[79] { وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ } ، خلقكم ، { فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ، تبعثون .
[80] { وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } ، أي : تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان ، قال الفراء : جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض ، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ، ما ترون من صنعه فتعتبرون .
[81] { بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ } ، أي : كذبوا كما كذب الأولون .
[82] { قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } ، لمحشورون ، قالوا ذلك على طريق الإنكار في التعجب .
[83] { لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا } ، الوعد ، { مِنْ قَبْلُ } ، أي : وعد أباءنا قوم زعموا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة ، { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } ، أكاذيب الأولين .

[84] { قُلْ } ، يا محمد مجيبا لهم يعني أهل مكة ، { لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا } ، من الخلق ، { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، خالقها ومالكها .
[85] { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } ، ولا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة . { قُلْ } لهم إذا أقروا بذلك ، { أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } ، فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت .
[86] { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } .
[87] { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } ، قرأ العامة (لله) ومثله ما بعده فجعلوا الجواب على المعنى كقول القائل للرجل : من مولاك؟ فيقول : لفلان ، أي أنا لفلان وهو مولاي ، وقرأ أهل البصرة فيها (الله) وكذلك هو في مصحف أهل البصرة وفي سائر المصاحف مكتوب بالألف كالأول ، { قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } ، تحذرون .

[88] { قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ } ، الملكوت الملك والتاء فيه للمبالغة ، { وَهُوَ يُجِيرُ } ، أي : يؤمن من يشاء { وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ } ، أي : لا يؤمن من أخافه الله أو يمنع هو من السوء من يشاء ولا يمنع منه من أراده بسوء { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، قيل : معناه أجيبوا إن كنتم تعلمون .
[89] { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } ، أي : تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته ، والمعنى : كيف يخيل لكم الحق باطلا؟ .

[90] { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ } ، بالصدق { وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ، فيما يدعون من الشريك والولد .
[91] { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ } ، أي : من شريك ، { إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ } ، أي : تفرد بما خلقه فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره ، ومنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق . { وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } ، أي : طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم ، ثم نزه نفسه فقال : { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } .
[92] { عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص (عالم)

برفع الميم على الابتداء ، وقرأ الآخرون بجرها على نعت الله في سبحان الله ، { فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، أي : تعظم عما يشركون ، ومعناه أنه أعظم من أن يوصف بهذا الوصف .
[93] قوله : { قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي } ، أي : إن أريتني ، { مَا يُوعَدُونَ } ، أي : ما أوعدتهم من العذاب .
[94] { رَبِّ } ، أي : يا رب ، { فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، أي : لا تهلكني بهلاكهم .

[95] { وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ } ، من العذاب لهم ، { لَقَادِرُونَ } .
[96] { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ، أي : ادفع بالخلة التي هي أحسن هي الصفح والإعراض والصبر ، { السَّيِّئَةَ } ، يعني أذاهم ، أمرهم بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة ، نسختها آية السيف . { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } ، يكذبون ويقولون من الشرك .
[97] { وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ } ، أي : أمتنع وأعتصم بك ، { مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ } ، قال ابن عباس : نزعاتهم . وقال الحسن : وساوسهم . وقال مجاهد : نفخهم ونفثهم . وقال أهل المعاني : دفعهم بالإغواء إلى المعاصي ، وأصل الهمز شدة الدفع .
[98] { وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } ، في شيء من أموري ، وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه . ثم أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت .

[99] فقال : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ } ، ولم يقل ارجعني وهو يسأل الله وحده الرجعة على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } ومثله كثير في القرآن . وقيل : هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه ابتداء بخطاب الله لأنهم استغاثوا بالله أولا ثم رجعوا إلى مسالة الملائكة الرجوع إلى الدنيا .

[100] قوله تعالى : { لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ } أي : ضيعت أن أقول لا إله إلا الله . وقيل : أعمل بطاعة الله . قال قتادة : ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فرحم الله امرءًا أعمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب { كَلَّا } ، كلمة ردع وزجر ، أي : لا يرجع إليها ، { إِنَّهَا } يعني : سؤاله الرجعة ، { كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } ، ولا ينالها ، { وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ } ، أي أمامهم وبين أيديهم حاجز ، { إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ، والبرزخ الحاجز بين الشيئين ، واختلفوا في معناه ههنا ، فقال مجاهد : حجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا . وقال قتادة : بقية الدنيا . وقال الضحاك : البرزخ ما بين الموت إلى البعث . وقيل : هو القبر وهم فيه إلى يوم يبعثون .

[101] { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ } ، اختلفوا في هذه النفخة ، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس : أنها النفخة الأولى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ }{ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } ، { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } ، { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ } . وعن ابن مسعود : أنها النفخة الثانية ، قال : يؤخذ بيد

العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي مناد : هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده وولده وزوجته أو أخيه فيأخذ منه ، ثم قرأ ابن مسعود { فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } . وفي رواية عطاء عن ابن مسعود : أنها الثانية فلا أنساب بينهم أي : لا يتفاخرون بالأنساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا . من أنت ومن أي قبيلة أنت؟ ولم يرد أن الأنساب تنقطع .

فإن قيل : قد قال ههنا { وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } وقال في موضع آخر : { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ } ؟ الجواب . ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن للقيامة أحوالا ومواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون.
[102] قوله: { فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .
[103] { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } .
[104]. { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ } أي: تسفع وقيل: تحرق، { وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ } ، عابسون .

[105] قوله تعالى: { أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } ، يعني القرآن تخوفون بها، { فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ } .
[106] { قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا } ، قرأ حمزة والكسائي : شقاوتنا بالألف وفتح الشين وهما لغتان أي: غلبت علينا شقوتنا التي كتبت علينا فلم نهتد. { وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ } عن الهدى.
[107] { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا } أي: من النار، { فَإِنْ عُدْنَا } لما تكره { فَإِنَّا ظَالِمُونَ } .
[108] { قَالَ اخْسَئُوا } ، أبعدوا، { فِيهَا } ، كما يقال للكلب إذا طرد اخسأ، { وَلَا تُكَلِّمُونِ } ، في رفع العذاب فإني لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيس المساكين من الفرج، قال الحسن . هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يُفهمون ولا يفهمون.
[109] { إِنَّهُ } الهاء في (إنه) عماد وتسمى أيضا المجهولة، { كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي } ، وهم المؤمنون { يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } .

[110] { فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا } ، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي (سخريا) بضم السين هاهنا وفي سورة ص، وقرأ الباقون بكسرهما واتفقوا على الضم في سورة الزخرف. قال الخليل : هما لغتان مثل قولهم: بحر لجي، ولجي بضم اللام وكسرها، مثل كوكب دري ودري، قال الفراء والكسائي : الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل واتفقوا في سورة الزخرف بأنه بمعنى التسخير، { حَتَّى أَنْسَوْكُمْ } أي: أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم، { ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ } ، نظيره { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ } قال مقاتل : نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وسلمان والفقراء من أصحابه، كان كفار قريش يستهزؤون بهم.
[111] { إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا } ، على أذاكم واستهزائكم في الدنيا،

{ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ } قرأ حمزة والكسائي (إنهم) بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بفتحها، فيكون في موضع المفعول الثاني إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة.

[112] { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ } ، قرأ حمزة والكسائي : وقل إن، على الأمر والنهي. ومعنى الآية: قولوا أيها الكافرون، فأخرج الكلام مخرج الواحد، والمراد منه الجماعة إذا كان معناه مفهوما ويجوز أن يكون الخطاب لكل واحد منهم، أي قل يا أيها الكافرون وقرأ ابن كثير : قل كم على الأمر، وقال أن على الخبر لأن الثانية جواب، وقرأ الآخرون قال فيهما جميعا أي قال الله تعالى للكفار يوم البعث كم لبثتم، { فِي الْأَرْضِ } ، أي: في الدنيا وفي القبور { عَدَدَ سِنِينَ } .
[113] { قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } ، نسوا مدة لبثهم في الدنيا لعظم ما هم بصدده من العذاب، { فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ } ، الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم.
[114] { قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ } ، أي: ما لبثتم في الدنيا، { إِلَّا قَلِيلًا } سماه قليلا لأن الواحد وإن طال مكثه في الدنيا فإنه يكون قليلا في جنب ما يلبث في الآخرة لأن لبثه في الدنيا والقبر متناه { لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، قدر لبثكم في الدنيا.

[115] { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } ، لعبا وباطلا لا لحكمة، وهو نصب على الحال، أي: عابثين. وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعيثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله تعالى، { وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب : لا ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم. ثم نزه الله نفسه عما يصفه به المشركون.
[116] فقال جل ذكره: { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } يعني السرير الحسن. وقيل: المرتفع.
[117] { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ } أي: لا حجة له به ولا بينة لأنه لا حجة في دعوى الشرك، { فَإِنَّمَا حِسَابُهُ } ، جزاؤه، { عِنْدَ رَبِّهِ } ، يجازيه بعلمه كما قال تعالى: { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ } ، { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } . لا يسعد من جحد وكذب.

[118] { وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } .

(24) سورة النور
[1] { سُورَةٌ } ، أي: هذه سورة، { أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا } قرأ ابن كثير وأبو عمر (وفرضناها) بتشديد الراء، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها. وقيل: معناه قدرنا ما فيها من الحدود، والفرض: التقدير، قال الله عز وجل: { فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ } أي: قدرتم، ودليل التخفيف قوله: { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } ، وأما التشديد فمعناه فصلناه وبيناه. وقيل: هو بمعنى الفرض الذي هو بمعنى الإيجاب أيضا والتشديد للتكثير لكثرة ما فيها من الفرائض، أي أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم إلى قيام الساعة. { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } ، واضحات، { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ، تتعظون.

[2] قوله عز وجل: { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } أراد إذا كانا حرين بالغين عاقلين بكرين غير محصنين، فاجلدوا فاضربوا كل واحد منهما مائة جلدة، يقال جلده إذا ضرب جلده، كما يقال رأسه وبطنه، إذا ضرب رأسه وبطنه، وذكر بلفظ الجلد لئلا يبرح ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم، وقد وردت السنة أنه يجلد مائة ويغرب عاما (1) وهو قول أكثر أهل العلم، وإن كان الزاني محصنا فعليه الرجم، ذكرناه في سورة النساء (2) { وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ } أي: رحمة ورقة، وقرأ ابن كثير (رأفة) بفتح الهمزة، والرأفة معنى يكون في القلب، لا ينهى عنه لأنه لا يكون باختيار الإنسان.. واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: لا تأخذكم بهما رأفة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي . وقال جماعة: معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضربا، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن . قال الزهري : يجتهد في حد الزنا والفرية ويخفف في حد الشرب. وقال قتادة : يجتهد في حد الزنا ويخفف في الشرب والفرية. { فِي دِينِ اللَّهِ } ، أي: في حكم الله، { إِنْ

____

(1) أخرج البخاري في الشهادات 5 / 255 أن رسول الله أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مائة وتغريب عام.
(2) آية : 16 .

كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } ، معناه أن المؤمن لا تأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله تعالى، { وَلْيَشْهَدْ } وليحضر { عَذَابَهُمَا } حدهما إذا أقيم عليهما { طَائِفَةٌ } ، نفر، { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، قال مجاهد والنخعي : أقله رجل واحد فما فوقه وقال عكرمة وعطاء : رجلان فصاعدا. وقال الزهري وقتادة : ثلاثة فصاعدا. وقال مالك وابن زيد : أربعة بعدد شهود الزنا.

[3] قوله:- { الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } ، اختلف العلماء في معنى الآية وحكمها، فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب أناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهن كن مشركات، وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري والشعبي ، ورواية العوفي عن ابن عباس , وقال عكرمة : نزلت في نساء بمكة والمدينة , منهن تسع لهن رايات كرايات البيطار يعرفن بها, منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي , فكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مالكة, فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة , فاستأذن رجل من المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه ، فأنزل الله هذه الآية.

وقال قوم: المراد من النكاح هو الجماع، ومعناه أن الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني إلا بزان أو مشرك، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم . ورواه الوالبي عن ابن عباس ، قال يزيد بن هارون . إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك، وإن جامعها وهو محرم فهو زان، وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول : إذا تزوج الزاني بالزانية فهما زانيان أبدا. وقال

الحسن : الزاني المجلود لا ينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها إلا زان مجلود. قال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ، فكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها قوله: { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ } فدخلت الزانية في أيامى المسلمين.

[4] قوله: { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } ، أراد بالرمي القذف بالزنا وكل من رمى محصنا أو محصنة بالزنا، فقال له: زنيت أو يا زاني فيجب عليه جلد ثمانين جلدة، إن كان حرا وإن كان عبدا فيجلد أربعين وإن كان المقذوف غير محصن، فعلى القاذف التعزير وشرائط الإحصان خمسة: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزاني حتى أن من زنى مرة في أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف فلا حد عليه. فإن أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة من الشهود على زناه سقط الحد عن القاذف لأن الحد الذي وجب عليه حد الفرية وقد ثبت صدقه، وقوله: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)أي: يقذفون بالزنا المحصنات يعني المسلمات الحرائر العفائف { ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } يشهدون على زناهن { فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } أي: اضربوهم ثمانين جلدة. { وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } .

[5] { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفي حكم هذا الاستثناء فذهب قوم إلى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته قبلت شهادته، سواء تاب بعد إقامة الحد عليه أو قبلها، لقوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) وقالوا: الاستثناء يرجع إلى رد الشهادة وإلى الفسق فبعد التوبة تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق وذهب قوم إلى أن شهادة المحدود في القذف لا تقبل أبدا وإن تاب، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى قوله: { وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } ، وذهب الشعبي إلى أن حد القذف يسقط بالتوبة، وقال: الاستثناء يرجع إلى الكل وعامة العلماء على أنه لا يسقط بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو، ولا يسقط بالتوبة. فإن قيل: إذا قبلتم شهادته بعد التوبة فما معنى قوله { أَبَدًا } قيل: معناه لا تقبل شهادته أبدا ما دام هو مصرا على قذفه لأن أبد كل إنسان مدته على ما يليق بحاله، كما يقال: لا تقبل شهادة الكافر أبدا: يراد ما دام كافرا.

[6] { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ } ، يقذفون نساءهم، { وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ } ، يشهدون على صحة ما قالوا ، { إِلَّا أَنْفُسُهُمْ } غير أنفسهم ، { فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب (أربع شهادات) برفع العين على خبر الابتداء، أي: فشهادة أحدهم التي تدرأ الحد أربع شهادات، وقرأ الآخرون بالنصب أي: فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين.
[7] { وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ، قرأ نافع ويعقوب (أن) خفيفة وكذلك الثانية (لعنة الله) رفع، ثم يعقوب قرأ (غضب) بالرفع، وقرأ نافع (غضب) بكسر الضاد وفتح الباء على الفعل الماضي (الله) رفع ، وقرأ الآخرون { أَنَّ } بالتشديد فيهما، { لَعْنَةَ } نصب، و { غَضَبَ } بفتح الضاد على الاسم، { اللَّهِ } جر، وقرأ حفص عن عاصم { وَالْخَامِسَةَ } الثانية

نصب، أي ويشهد الشهادة الخامسة، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره في أن كالأولى.

[8] قوله : { وَيَدْرَأُ } يدفع , { عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ }
[9] { وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } وأراد بالعذاب الحد كما قال في أول السورة: { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } أي: أحدهما ومعنى الآية أن الزوج إذ لاعن وجب على المرأة حد الزنا، وإذا وجب عليها حد الزنا بلعانه فأرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة علي غضب الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به .
[10] قوله : { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ } ، جواب لولا محذوف يعني لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ورفع عنكم الحد باللعان، { وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ } يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة { حَكِيمٌ } فيما فرض من الحدود.

[11] قوله: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ } بالكذب وهو أسوأ الكذب سمي إفكا لكونه مصروفا عن الحق، من قوله : أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه "وهو ما مثل في عائشة رضي الله عنها عند تخلفها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد غزواته بعد أن أحضرها صفوان السلمي" وذلك أن عائشة تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه, { عُصْبَةٌ مِنْكُمْ } أي جماعة منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة ابن عبيد الله وغيرهم، { لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ } ، يا عائشة ويا صفوان ، وقيل: هو خطاب لعائشة ولأبويها وللنبي صلى الله عليه وسلم ولصفوان، يعني لا تحسبوا الإفك شرا لكم , { بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } ، لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم.

قوله تعالى: { لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ } ، يعني من العصبة الكاذبة { مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ } ، أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه ، { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } أي: تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه، قرأ يعقوب (كبره) بضم الكاف، وقرأ العامة بالكسر قال الكسائي : هما لغتان. قال الضحاك : قام بإشاعة الحديث، وهو عبد الله بن أبي ابن سلول . وروى الزهري عن عروة عن عائشة { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ } قالت: عبد الله بن أبي ابن سلول ، والعذاب الأليم هو النار في الآخرة.
[12] قوله: { لَوْلَا } ، هلا، { إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ } بإخوانهم ، { خَيْرًا } ، قال الحسن : بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة ، نظيره قوله تعالى: { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } ، { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } . { وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ } ، أي: كذب بين.

[13] { لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } ، على ما زعموا، { فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } ، فإن قيل: كيف يصيرون عند الله كاذبين إذ لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت "؟ قيل: عند الله أي في حكم الله وقيل: معناه كذبوهم بأمر الله.

وقيل: هذا في حق عائشة ومعناه أولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي.
[14] { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ } ، خضتم، { فِيهِ } ، من الإفك, { عَذَابٌ عَظِيمٌ } قال ابن عباس : أي عذاب لا انقطاع له يعني في الآخرة لأنه ذكر عذاب الدنيا من قبل، فقال تعالى: { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ، وقد أصابهم فإنه قد جلد وحد، وقد روت عمرة عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية حد أربعة نفر: عبد الله بن أبي وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش .

[15] قوله تعالى: { إِذْ تَلَقَّوْنَهُ } ، تقولونه، { بِأَلْسِنَتِكُمْ } ، قال مجاهد ومقاتل : يرويه بعضكم عن بعض. وقال الكلبي : وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول: بلغني كذا وكذا يتلقونه تلقيا، وكذا قرأه أبي بن كعب . وقال الزجاج : يلقيه بعضكم إلى بعض، وقرأت عائشة (تلقونه) بكسر اللام وتخفيف القاف من الولق وهو الكذب، { وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا } ، تظنون أنه سهل لا إثم فيه، { وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } في الوزر.
[16] { وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ } ، هذا اللفظ هاهنا بمعنى التعجب، { هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } ، يعني كذب عظيم يبهت ويتحير من عظمته. وفي بعض الأخبار أن أم أيوب قالت لأبي أيوب الأنصاري : أما بلغك ما يقول الناس في عائشة ؟ فقال أبو أيوب : سبحانك هذا بهتان عظيم، فنزلت الآية على وفق قوله.
[17] { يَعِظُكُمُ اللَّهُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحرم الله عليكم وقال مجاهد : ينهاكم الله. { أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } .

[18] { وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ } ، بالأمر والنهي، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } بأمر عائشة وصفوان بن المعطل ، { حَكِيمٌ } ، حكم ببراءتهما.
[19] قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ } ، يعني يظهر ويذيع الزنا، { فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } ، يعني عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين، والعذاب في الدنيا الحد وفي الآخرة النار، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ } ، كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله، { وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }
[20] { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } ، جواب (لولا) محذوف يعني: لعاجلكم بالعقوبة، قال ابن عباس : يريد مسطحا وحسان بن ثابت وحمنة .

[21] قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } يعني بالقبائح من الأفعال، { وَالْمُنْكَرِ } ، كل ما يكرهه الله، { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا } ، قال مقاتل : ما صلح. وقال ابن قتيبة : ما طهر، { مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ } والآية على العموم عند بعض المفسرين، قالوا: أخبر الله أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد. وقال قوم: هذا الخطاب للذين خاضوا في الإفك، ومعناه: ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ، قال: ما قبل توبة أحد منكم، { أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي } ، يطهر { مَنْ يَشَاءُ } ، من الذنب بالرحمة والمغفرة، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

[22] قوله تعالى: { وَلَا يَأْتَلِ } ، يعني ولا يحلف، وهو يفعل من الألية وهي القسم، وقرأ أبو جعفر يتأل بتقديم التاء وتأخير الهمزة، وهو يتفعل من الألية وهي القسم. { أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ } ، يعني أولو الغنى والسعة يعني أبا بكر الصديق { أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، يعني مسطحا وكان مسكينا مهاجرا بدريا ابن خالة أبي بكر ، حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا } ، عنهم خوضهم في أمر عائشة ، { أَلَا تُحِبُّونَ } ، يخاطب أبا بكر ، { أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } فلما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قال: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح نفقته التي كانت ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا (1) وقال ابن عباس والضحاك : أقسم ناس من الصحابة فيهم أبو بكر ألا يتصدقون على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا ينفعوهم، فأنزل الله هذه الآية.

____
(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 455 ومسلم في التوبة رقم (2770) 4 / 2129.

[23] { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } ، العفائف، { الْغَافِلَاتِ } عن الفواحش، { الْمُؤْمِنَاتِ } ، والغافلة عن الفاحشة التي لا يقع في قلبها فعل الفاحشة وكانت عائشة كذلك، قوله تعالى: { لُعِنُوا } ، عذبوا، { فِي الدُّنْيَا } ، بالحد، { وَالْآخِرَةِ } ، بالنار، { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ، قال مقاتل : هذا خاص في عبد الله بن أبي المنافق. وروي عن خصيف قال: قلت لسعيد بن جبير : من قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة، فقال ذلك لعائشة خاصة. وقال قوم: هي لعائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة دون سائر المؤمنات وقال الآخرون: نزلت هذه الآية في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك كذلك حتى نزلت الآية التي في أول السورة { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } إلى قوله { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } فأنزل الجلد والتوبة.

[24] { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ } ، قرأ حمزة والكسائي بالياء لتقديم الفعل وقرأ الآخرون بالتاء، { أَلْسِنَتُهُمْ } ، وهذا قبل أن يختم على أفواههم، { وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ } ، يروى أنه يختم على الأفواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا. وقيل: معناه تشهد ألسنة بعضهم على بعض وأيديهم وأرجلهم، { بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .
[25] { يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ } ، جزاءهم الواجب. وقيل: حسابهم العدل. { وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } ، يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن عبد الله بن أبي كان يشك في الدين فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين.

[26] قوله سبحانه تعالى: { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ } ، قال أكثر المفسرين: الخبيثات من القول والكلام للخبيثين من الناس. { وَالْخَبِيثُونَ } ، من الناس، { لِلْخَبِيثَاتِ } من القول، { وَالطَّيِّبَاتُ } ، من القول { لِلطَّيِّبِينَ } ، من الناس، { وَالطَّيِّبُونَ } ، من الناس، { لِلطَّيِّبَاتِ } ، من القول، والمعنى: أن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس والطيب لا يليق إلا بالطيب، فعائشة لا تليق بها الخبيثات من القول لأنمها طيبة فتضاف إليها طيبات الكلام من المدح والثناء الحسن وما يليق بها. قال الزجاج : معناه لا يتكلم بالخبيثات

إلا الخبيث من الرجال والنساء ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة ، ومدح للذين برؤوها بالطهارة. وقال ابن زيد : معناه الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبد الله بن أبي والشاكين في الدين، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. يريد عائشة طيبها الله لرسوله الطيب صلى الله عليه وسلم { أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ } يعني: عائشة وصفوان ذكرهما

بلفظ الجمع كقوله تعالى: { فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ } أي: إخوان. وقيل: أولئك مبرؤون يعني الطيبين والطيبات منزهون، { مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ، فالمغفرة هي العفو عن الذنوب والرزق الكريم الجنة. وروي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجرها، ودفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه، ونزلت براءتها من السماء، وأنها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه, وخلقت طيبة ، ووعدت مغفرة ورزقا كريما، وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء.

[27] قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ، قيل: معنى قوله: (حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا) أي : حتى تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا وكذلك كان يقرأ أبي بن كعب ، والقراءة المعروفة تستأنسوا وهو بمعنى الاستئذان. وقيل: الاستئناس طلب الأنس وهو أن ينظر هل في البيت ناس فيؤذنهم إني داخل. وقال الخليل : الاستئناس الاستبصار من قوله: آنست نارا أي: أبصرتها. وقيل: هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أو يتنحنح، يؤذن أهل البيت. وجملة حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد السلام والاستئذان. واختلفوا في أنه يقدم الاستئذان أم السلام؟ فقال قوم: يقدم الاستئذان فيقول: أأدخل سلام عليكم، لقوله تعالى: (حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) والأكثرون على أنه يقدم السلام فيقول: سلام عليكم أأدخل. وفي الآية تقديم وتأخير، تقديرها: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود .

[28] قوله: { فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا } أي إن لم تجدوا في البيوت أحدا يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها، { حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا } يعني إذا كان في البيت قوم فقالوا: ارجع فليرجع ولا يقعد على الباب ملازما، { هُوَ أَزْكَى لَكُمْ } ، يعني الرجوع أطهر وأصلح لكم. قوله تعالى: { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } ، من الدخول بالإذن وغير الإذن، ولما نزلت آية الاستئذان قالوا: كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام وعلى ظهر الطريق، ليس فيها ساكن؟

[29] فأنزل الله عز وجل: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ } أي: بغير استئذان، { فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ } يعني منفعة لكم واختلفوا في هذه البيوت, فقال قتادة : هي الحانات والبيوت والمنازل المبنية للسابلة ليأووا أمتعتهم إليها فيجوز دخولها بغير استئذان والمنفعة فيها بالنزول وإيواء المتاع

والاتقاء من الحر والبرد. وقال ابن زيد : هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلونها للبيع والشراء وهو المنفعة . وقال إبراهيم النخعي : ليس على حوانيت السوق إذن , وقيل: هي جميع البيوت التي لا ساكن لها لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يطلع على عورة فإن لم يخف ذلك فله الدخول بغير استئذان, { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ }

[30] قوله تعالى: { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } , أي: عن النظر إلى ما يحل النظر إليه: وقيل: (من) صلة يعني يغضوا أبصارهم. وقيل: هو ثابت لأن المؤمنين غير مأمورين بغض البصر أصلا لأنه لا يجب الغض عما يحل النظر إليه, وإنما أمروا بأن يغضوا عما لا يحل النظر إليه, { وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ } , عما لا يحل ، قال أبو العالية : كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام , إلا في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه , { ذلك } يعني غض البصر وحفظ الفرج , { أَزْكَى لَهُمْ } , يعني خير لهم وأطهر ، { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } يعني عليم بما يفعلون.

[31] قوله عز وجل: { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ } , عما لا يحل , { وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } , عمن لا يحل . وقيل أيضا: يحفظن فروجهن يعني يسترنها حتى لا يراها أحد، { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } , يعني لا يظهرن زينتهن لغير محرم , وأراد بها الزينة الخفية وهما زينتان خفية وظاهرة, فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط والقلائد, فلا يجوز لها إظهارها, ولا للأجنبي النظر إليها, والمراد من الزينة موضع الزينة. قوله تعالى: { إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } , أراد به الزينة الظاهرة , واختلف أهل العلم في هذه الزينة الظاهرة التي استثناها الله تعالى: , قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي : هو الوجه والكفان . وقال ابن مسعود : هي الثياب بدليل قوله تعالى: { خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } , وأراد بها الثياب وقال الحسن : الوجه والثياب . وقال ابن عباس : الكحل والخاتم والخضاب في الكف, فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة وشهوة , فإن خاف شيئا منها غض البصر, قوله عز وجل : { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ } , يعني:

ليلقين بمقانعهن, { عَلَى جُيُوبِهِنَّ } , وصدورهن ليسترن بذلك شعورهن وصدورهن وأعناقهن وأقراطهن . قالت عائشة : رحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله عز وجل (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) شققن مروطهن فاختمرن بها. { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } ، قال ابن عباس ومقاتل : يعني لا يضعن الجلباب ولا الخمار إلا لبعولتهن، أي إلا لأزواجهن، { أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ } ، فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة ولا ينظرون إلى ما بين السرة والركبة، ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدنها غير أنه يكره له النظر إلى فرجها. قوله تعالى: { أَوْ نِسَائِهِنَّ } أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلا ما بين السرة والركبة كالرجل المحرم، هذا إذا كانت المرأة مسلمة، فإن كانت كافرة فهل يجوز للمسلمة أن تنكشف لها. اختلف أهل العلم فيه، فقال بعضهم. يجور كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة لأنها من جملة النساء، وقال بعضهم: لا

يجوز لأن الله تعالى قال: (أَوْ نِسَائِهِنَّ) والكافرة ليست من نسائنا ولأنها أجنبية في الدين، وكانت أبعد من الرجل الأجنبي، قوله تعالى: { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } ، اختلفوا فيها، فقال قوم: عبد المرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفا وأن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة، كالمحارم وهو ظاهر القرآن وقال قوم: هو كالأجنبي معها، وهو قول سعيد بن المسيب ، وقال: المراد من الآية الإماء دون العبيد، قوله: { أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ } ، قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر غير بنصب الراء على القطع لأن (التابعين) معرفة و (غير) نكرة. وقيل: بمعنى (إلا) فهو استثناء معناه: يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإربة منهم فإنهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة. وقرأ الآخرون بالجر على نعت (التابعين) والإربة والأرب الحاجة، والمراد بـ (التابعين غير أولي الإربة) هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، وهو قول مجاهد وعكرمة والشعبي . وعن ابن عباس أنه الأحمق العنين. وقال الحسن : هو الذي لا

ينتشر ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن. وقال سعيد بن جبير : هو المعتوه وقال عكرمة : المجبوب. وقيل هو المخنث. وقال مقاتل : الشيني الهرم والعنين والخصي والمجبوب ونحوه. { أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } ، أراد بالطفل الأطفال يكون واحدا وجمعا، أي: لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها. وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر، وهو قول مجاهد ، وقيل: لم يطيقوا أمر النساء. وقيل: لم يبلغوا حد الشهوة. { وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ } ، كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها، فنهيت عن ذلك. { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا } ، من التقصير الواقع في أمره ونهيه. وقيل: راجعوا طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة في هذه السورة، { أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ، عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا « أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة » (1) .

---

(1) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء برقم (2072) 4 / 2076 والمصنف في شرح السنة 5 / 571.

[32] قوله تعالى: { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ } ، الأيامى جمع أيم وهو من لا زوج له من رجل أو امرأة يقال رجل: أيم وامرأة أيمة، وأيم، ومعنى الآية: زوجوا أيها المؤمنون من أحرار رجالكم ونسائكم { وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ } ، وهذا الأمر أمر ندب واستحباب. يستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة النكاح أن يتزوج، وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (1) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم حتى بالسقط » (2) . { إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ، قيل: الغنى هاهنا القناعة. وقيل اجتماع الرزقين رزق الزوج ورزق الزوجة. وقات عمر : عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عز وجل يقول: (إن يكونوا فقراء يغنهم

الله من فضله) . وروي عن بعضهم: أن الله تعالى وعد الغني بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى: (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ

(1) أخرجه البخاري في النكاح 9 / 106 ومسلم في النكاح رقم (1400) 2 / 1018.
(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 6 / 173 عن سعيد بن أبى هلال مرسلا .

يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) ، وقال تعالى: { وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ } .

[33] { وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا } ، أي: ليطلب العفة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون مالا ينكحون به للصداق والنفقة، { حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } أي يوسع عليهم من رزقه. قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ } أي: يطلبون المكاتبة، { مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ } ، سبب نزول هذه الآية ما روي أن غلاما لحويطب بن عبد العزيز سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارا فأداها، وقتل يوم حنين في الحرب، والكتابة أن يقول الرجل لمملوك: كاتبتك على كذا من المال ويسمي مالا معلوما يؤدي ذلك في نجمين أو نجوم معلومة في كل نجم كذا، فإذا أديت فأنت حر، والعبد يقبل ذلك، فإذا أدى المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد أداء المال، وإذا أعتق بعد أداء المال فما فضل في يده من المال، يكون له ويتبعه أولاده الذين حصلوا في حال الكتابة في العتق، وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق، وما في يده من المال يكون لمولاه، وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: {

فَكَاتِبُوهُمْ } أمرا يجب ! على المولى أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيرا إذا سأل العبد ذلك، على قيمته أو أكثر، وإن سأل على أقل من قيمته فلا يجب، وهو قول عطاء وعمرو بن دينار ، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب، { إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا } ، اختلفوا في معنى الخير، فقال ابن عمر : قوة على الكسب. وهو قول مالك والثوري ، وقال الحسن ومجاهد والضحاك : مالا، كقوله تعالى: { إِنْ تَرَكَ خَيْرًا } أي: مالا، قال الزجاج : لو أراد به المال لقال إن علمتم لهم خيرا، وقال إبراهيم وابن زيد وعبيدة : صدقا وأمانة. وقال طاوس وعمرو بن دينار : مالا وأمانة. وقال الشافعي : وأظهر معاني الخير في العبد الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا. وحكى محمد بن سيرين عن عبيدة : إن علمتم فيهم خيرا أي: أقاموا الصلاة. وقيل: هو أن يكون العبد بالغا عاقلا، فأما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما لأن الابتغاء منهما لا يصح، وجوز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق. قوله سبحانه وتعالى: { وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ } ، اختلفوا فيه فقال بعضهم: هذا خطاب للموالي يجب على المولى أن يحط عن

مكاتبه من مال كتابته شيئا، وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة، وبه قال الشافعي ، ثم اختلفوا في قدره فقال قوم: يحط عنه ربع مال الكتابة، وهو قول علي ورواه بعضهم عن علي مرفوعا، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يحط عنه الثلث. وقال الآخرون: ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء، وهو قول الشافعي وقال بعضهم: هو أمر استحباب، والوجوب أظهر،

وقال قوم: أراد بقوله وآتوهم من مال الله أي سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضات، بقوله تعالى: { وَفِي الرِّقَابِ } وهو قول الحسن وزيد بن أسلم ، وقال إبراهيم : هو حث لجميع الناس على معونتهم، قوله تعالى: { وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا } الآية، نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق كانت له جاريتان معاذة ومسيكة ، وكان يكرههما على الزنا بالضريبة يأخذها منهما، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا إليه، فأنزل هذه الآية: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ) إماءكم (عَلَى الْبِغَاءِ) أي الزنا (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) أي إذا أردن، وليسر معناه

الشرط لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا وإن لم يردن تحصنا، كقوله تعالى: { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } أي إذا كنتم مؤمنين. وقيل: شرط إرادة التحصن لأن الإكراه إنما يكون عند إرادة التحصن، فإذا لم ترد التحصن بغت طوعا، والتحصن التعفف ، وقال الحسن بن الفضل : في الآية تقديم وتأخير تقديرها: وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء. { لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } أي: لتطلبوا من أموال الدنيا يريد من كسبهن وبيع أولادهن، { وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، يعني للمكرهات، والوزر على المكره.
[34] قوله تعالى: { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } ، من الحلال والحرام، { وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ } أي شبها من حالكم بحالهم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق من قبلهم من المكذبين، { وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } للمؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر.

[35] قوله تعالى: { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } , قال ابن عباس : هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهداه من الضلالة ينجون. وقال الضحاك : منور السماوات والأرض، يقال: نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء. وقال مجاهد : مدبر الأمور في السماوات والأرض. وقال أبي بن كعب والحسن وأبو العالية : مزين السماوات والأرض، زين السماء بالشمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. ويقال: بالنبات والأشجار. قوله تعالى: { مَثَلُ نُورِهِ } أي مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدي به كما قال فهو على نور من ربه، وكان ابن مسعود يقرأ مثل نوره في قلب المؤمن. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : مثل نوره الذي أعطى المؤمن. وقال بعضهم: الكناية عائدة إلى المؤمن، أي: مثل نور قلب المؤمن، وكان أبي يقرأ: (مثل نور من آمن به) وهو عبد جعل الإيمان والقرآن في صدره. وقال الحسن وزيد بن أسلم : أراد بالنور القرآن. وقال سعيد بن جبير والضحاك : هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل: أراد بالنور الطاعة، سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلا، { كَمِشْكَاةٍ }

وهي الكوة التي لا منفذ لها فإن كان لها منفذ فهي كوة. وقيل: المشكاة حبشية. قال مجاهد : هي القنديل { فِيهَا مِصْبَاحٌ } أي: سراج، أصله من الضوء، ومنه الصبح، ومعناه: كمصباح في مشكاة، { الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ } ، يعني القنديل، قال الزجاج . إنما ذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء، وضوء يزيد في الزجاج، ثم وصف الزجاجة، فقال: { الزُّجَاجَةُ

كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ } قرأ أبو عمر والكسائي (دريئ) بكسر الدال والهمزة، وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والهمزة، فمن كسر الدال فهو فعيل من الدرء وهو الدفع لأن الكوكب يدفع الشياطين من السماء وشبهه بحالة الدفع لأنه يكون في تلك الحالة أضوأ وأنور، ويقال: هو من درأ الكوكب إذا اندفع منقبضا فيتضاعف ضوؤه في ذلك الوقت. وقيل: دري مكرر أي طالع، يقال: درأ النجم إذا طلع وارتفع. ويقال: درأ علينا فلان أي طلع وظهر، فأما رفع الدال مع الهمزة كما قرأ حمزة قال أكثر النحاة: هو لحن لأنه ليس في كلام العرب فعيل بضم الفاء وكسر العين، قال أبو عبيدة : وأنا أرى لها وجها وذلك أنها دروء على وزن فعول، مثل سبوح وقدوس، وقد استثقلوا كثرة الضمات فردوا بعضها إلى

الكسر، كما قالوا: عتيا وهو فعول من عتوت، وقرأ الآخرون (دري) بضم الدال وتشديد الياء بلا همز، أي: شديد الإنارة نسبت إلى الدر في صفائه وحسنه، وإن كان الكوكب أكثر ضوءا من الدر لكنه يفضل الكوكب بضيائه، كما يفضل الدر سائر الحب. وقيل: الكوكب الدري واحد من الكواكب الخمسة العظام، وهي زحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد. وقيل: شبهه بالكوكب، ولم يشبهه بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكواكب لا يلحقها الخسوف. { يُوقَدُ } قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (توقد) بالتاء وفتحها وفتح الواو والدال أو تشديد القاف على الماضي يعني المصباح، أي: اتقد يقال توقدت النار إذا اتقدت. وقرأ أهل الكوفة غير حفص توقد بالتاء وضمها وفتح القاف خفيفا، يعني الزجاجة أي : نار الزجاجة لأن الزجاجة لا توقد، وقرأ الآخرون بالياء وضمها خفيفا يعني المصباح ، { مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ } ، أي من زيت شجرة مباركة، فحذف المضاف بدليل قوله تعالى: { يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ } ، وأراد بالشجرة المباركة الزيتونة وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به هو أضوأ وأصفي الأدهان، وهو إدام

وفاكهة، ولا يحتاج في استخراجه إلى إعصار بل كل أحد يستخرجه، قوله تعالى: { لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ } أي: ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت، بل هي ضاحية الشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ وهذا كما يقال: فلان ليس بأسود ولا بأبيض يريد ليس بأسود خالص ولا بأبيض خالص، بل اجتمع فيه كل واحد منهما. وقال السدي وجماعة: معناه أنها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل، فهي لا تضرها شمس ولا ظل. وقيل: معناه أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر، ولا في غرب يضرها البرد. وقيل: معناه هي شامية لأن الشام لا شرقي ولا غربي. وقال الحسن : ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره. { يَكَادُ زَيْتُهَا } ، دهنها، { يُضِيءُ } من صفائه، { وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ } ، أي: قبل أن تصيبه النار، { نُورٌ عَلَى نُورٍ } ، يعني نور المصباح على نور الزجاجة. واختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل، فقال بعضهم:

وقع هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس لكعب الأحبار : أخبرني عن قوله تعالى: (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) فقال كعب : هذا مثل

ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة، يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار وقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن. روى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل الله فيه من الإيمان، والقرآن في قلبه يوقد من شجرة مباركة وهي الإخلاص لله وحده، فمثله كمثل الشجرة التي التف بها الشجر خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا إذا طلعت ولا إذا غربت فكذلك المؤمن، قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال: إن أعطي شكر، وإن أبتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له بموافقته إياه نور على نور. وقال الحسن وابن زيد : هذا مثل القرآن، فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى بالقرآن، والزجاجة قلب المؤمن

والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي، (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ، نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن، فازداد بذلك نورا على نور قوله تعالى: { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لدين الإسلام وهو نور البصيرة وقيل: القرآن { وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ} ، يبين الله الأشياء للناس تقريبا للأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك، { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

[36] قوله: { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ } ، أي ذلك المصباح في بيوت. وقيل: يوقد في بيوت، والبيوت: هي المساجد، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المساجد بيوت الله في الأرض، وروى صالح بن حيان عن ابن بريدة في قوله تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ) ، قال: إنما هي أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلة، وبيت المقدس بناه داود وسليمان ، ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسجد قباء أسس على التقوى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قوله: { أَنْ تُرْفَعَ } ، قال مجاهد : أن تبنى نظيره قوله تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ } قال الحسن : أي تعظم أي لا يذكر فيه الخنا من القول. { وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يتلى فيها كتابه، (يُسَبِّحُ) ، قرأ ابن عامر وأبو بكر (يسبح) بفتح الباء على غير تسمية الفاعل والوقف على هذه القراءة عند قوله: (وَالْآصَالِ) وقرأ الآخرون بكسر الباء جعلوا التسبيح فعلا للرجال، { يُسَبِّحُ لَهُ } ، أي: يصلي، { فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } ، أي

بالغداة والعشي. قال أهل التفسير: أراد به الصلوات المفروضات. فالتي تؤدى بالغداة صلاة الصبح والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الأصيل يجمعهما. وقيل: أراد به صلاة الصبح والعصر.

[37] قوله: { رِجَالٌ } ، قيل: خص الرجال بالذكر في هذه المساجد لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد، { لَا تُلْهِيهِمْ } ، لا تشغلهم، { تِجَارَةٌ } ، قيل: خص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة

والطاعات، وأراد بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعا لأنه ذكر البيع بعد هذا، كقوله: { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً } يعني الشراء، وقال الفراء - التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه. قوله: { وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } ، عن حضور المساجد لإقامة الصلاة، { وَإِقَامِ } ، أي: لإقامة، { الصَّلَاةِ } ، حذف الهاء وأراد أداءها في وقتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت. روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم نزلت: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ) { وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ } ، المفروضة، قال ابن عباس رضي

الله عنه: إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها. وقيل: هي الأعمال الصالحة. { يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } ، قيل: تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشرك والكفر، وتنفتح أبصار من الأغطية. وقيل: تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء تخشى الهلاك وتطمع في النجاة، وتقلب الأبصار من هوله أي: ناحية يؤخذ بهم ذات اليمين أم ذات الشمال، ومن أين يؤتون الكتب أم من قبل الأيمان أم من قبل الشمائل، وذلك يوم القيامة. وقيل: فتقلب القلوب في الجوف فترتفع إلى الحنجرة فلا تزل ولا تخرج، وتقلب البصر شخوصه من هول الأمر وشدته.
[38] { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا } ، يريد أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، أي بأحسن ما عملوا، يريد يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوي أعمالهم لا يجزيهم بها، { وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } ، ما لم يستحقوه بأعمالهم، { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ، ثم ضرب لأعمال الكفار مثلا.

[39] فقال تعالى: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ } ، السراب الشعاع الذي يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري، يشبه الماء الجاري على الأرض يظنه من رآه ماء، فإذا قرب منه انفش فلم ير شيئا، والقيعة: جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض، وفيه يكون السراب، { يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ } ، أي يتوهمه العطشان، { مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ } ، أي: جاء ما قد رأى أنه ماء. وقيل: جاء موضع السراب، { لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا } ، على ما قدره وحسبه، كذلك الكافر يحسب أن عمله نافعه فإذا أتاه ملك الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى منه شيئا ولا نفعه . { وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ } ، أي عند عمله، أي وجد الله بالمرصاد. وقيل: قدم على الله، { فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } ، أي جزاء عمله، { وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } .

[40] { أَوْ كَظُلُمَاتٍ } ، وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار، يقول مثل أعمالهم من فسادها وجهالتهم فيها كظلمات، { فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ } ، وهو العميق الكثير الماء، ولجة البحر: معظمه، { يَغْشَاهُ } ، يعلوه، { مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ } ، متراكم، { مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ } ، قرأ ابن كثير برواية القواس (سحاب) بالرفع والتنوين، ظُلُمَاتٌ ، بالجر على البدل من قوله: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ) . وروى أبو الحسن البري عنه: (سحاب ظلمات) بالإضافة، وقرأ الآخرون (سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ) كلاهما بالرفع والتنوين، فيكون تمام الكلام عند قوله (سحاب) ثم ابتدأ فقال: (ظلمات) ، { بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } ظلمة السحاب وظلمة الموج

وظلمة البحر بعضها فوق بعض , أي: ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج فوق الموج، وظلمة السحاب على ظلمة الموج ، وأراد بالظلمات أعمال الكافر وبالبحر اللجي قلبه، وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الختم والطبع على قلبه. { إِذَا أَخْرَجَ } ، يعني الناظر، { يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا } ، يعني لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة. وقال الفراء : { يَكَدْ } صلة أي لم

يرها، قال المبرد . بعني لم يرها إلا بعد الجهد، كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه، ولكن بعد يأس وشدة. وقيل: معناه قرب من رؤيتها ولم يرها, كما يقال: كاد النعام يطير. { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } ، قال ابن عباس : من لم يجعل الله له دينا وإيمانا فلا دين له. وقيل: من لم يهده الله فلا إيمان له ولا يهديه أحد. وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ويلبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر. والأكثرون على أنه عام في جميع الكفار.

[41] قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ } ، باسطات أجنحتهن بالهواء. قيل: خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من في السماء والأرض، { كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } ، قال مجاهد : الصلاة لبني آدم، والتسبيح لسائر الخلق. وقيل: إن ضرب الأجنحة صلاة الطير وصوته تسبيحه. قوله: (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ) أي: كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه. وقيل: معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ }
[42] { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } .

[43] { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي } ، يعني يسوق بأمره، { سَحَابًا } ، إلى حيث يريد، { ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ } ، يعني يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض، { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا } ، متراكما بعضه فوق بعض، { فَتَرَى الْوَدْقَ } يعني المطر، { يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } ، وسطه وهو جمع الخلل، كالجبال جمع الجبل. { وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ } ، يعني: ينزل البرد، و (من) صلة، وقيل: معناه وينزل من السماء من جبال أي مقدار جبال في الكثرة من البرد، (من) في قوله (مِنْ جِبَالٍ) صلة أي: وينزل من السماء جبالا من برد. وقيل: معناه وينزل من جبال في السماء تلك الجبال من برد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أخبر الله عز وجل أن في السماء جبالا من برد، ومفعول الإنزال محذوف تقديره: وينزل من السماء من جبال فيها برد، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه. قال أهل النحو. ذكر الله تعالى (من) ثلاث مرات في هذه الآية فقوله: (من السماء) لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء، وقوله تعالى: (مِنْ جِبَالٍ) للتبعيض لأن ما ينزله الله تعالى بعض تلك

الجبال التي في السماء، وقوله تعالى: (مِنْ بَرَدٍ) للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد. { فَيُصِيبُ بِهِ } ، يعني بالبرد { مَنْ يَشَاءُ } ، فيهلك زروعه وأمواله { وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ } ، فلا يضره، { يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ } ، يعني ضوء برق السحاب، { يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } ، من شدة ضوئه وبريقه.

[44] { يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } ، يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما يأتي بالليل ويذهب بالنهار ويذهب بالليل, ويذهب بالنهار ويذهب بالليل، { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، يعني في ذلك الذي ذكرت من هذه الأشياء ، { لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } يعني دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده.

[45] قوله تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ } ، قرأ حمزة والكسائي (خالق كل) بالإضافة، وقرأ الآخرون (خَلَقَ كُلَّ) على الفعل، { مِنْ مَاءٍ } ، يعني من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة ولا الجن، لأنا لا نشاهدهم. وقيل: أصل جميع الخلق من الماء، وذلك أن الله تعالى خلق ماء ثم جعل بعضه ريحا فخلق منها الملائكة، وبعضه نارا فخلق منها الجن، وبعضها طينا فخلق منها آدم، { فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ } ، كالحيات والحيتان والديدان، { وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ } ، مثل بني آدم والطير، { وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ } ، كالبهائم والسباع، ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض لأنها في الصورة كالتي يمشي على الأربع، وإنما قال: (من يمشي) ، و (من) إنما تستعمل فيمن يعقل دون من لا يعقل من الحيات والبهائم، لأنه ذكر كل دابة، فدخل فيه الناس وغيرهم، وإذا جمع اللفظ من يعقل ومن لا يعقل تجعل الغلبة لمن يعقل. { يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[46] { لَقَدْ أَنْزَلْنَا } ، إليك، { آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } .
[47] { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا } . يعني المنافقين يقولونه، { ثُمَّ يَتَوَلَّى } يعرض عن طاعة الله ورسوله، { فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } ، أي من بعد قولهم آمنا، ويدعو إلى غير حكم الله. قال الله تعالى: { وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } ، نزلت هذه الآية في بشر المنافق كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقال المنافق: نتحاكم إلى كعب بن الأشرف ، فإن محمدا يحيف علينا، فأنزل الله هذه الآية.
[48] { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } الرسول يحكم بحكم الله، { إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ } ، يعني عن الحكم. وقيل: عن الإجابة.
[49] { وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ } ، مطيعين منقادين لحكمه، يعني إذا كان الحق لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضا بالحق.

[50] { أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا } يعني شكوا، هذا استفهام ذم وتوبيخ، يعني هم كذلك، { أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ } ، يعني بظلم، { بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ، لأنفسهم بإعراضهم عن الحق.
[51] { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ } إلى كتاب الله ورسوله، { لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } ، هذا ليس على طريق الخبر لكنه تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغي أن يكونوا، ونصب القول على الخبر واسمه في قوله تعالى: { أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ، يعني سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة. { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .

[52] { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: فيما ساءه وسره ويخشى الله على ما عمل من الذنوب. { وَيَتَّقْهِ } ، فيما بعد, { فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } الناجون، قرأ أبو عمرو وأبو بكر (يتقه) ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون ، كما في نظائرها ويشبعها الباقون كسرا، وقرأ حفص (يتقه) بسكون القاف واختلاس الهاء، وهذه اللغة إذا سميت الياء للجزم يسكنون ما قبلها يقولون لم أشتر طعاما بسكون الراء.

[53] قوله تعالى: { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } ، جهد اليمين أن يحلف بالله ولا حلف فوق الحلف بالله، { لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ } ، وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا وإن أقمت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: { قُلْ } , لهم, { لَا تُقْسِمُوا } لا تحلفوا، وقد تم الكلام، ثم قال: { طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ } ، يعني هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة يعني أمر عرف أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد رضي الله عنه. وقيل: معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل. وقال مقاتل بن سليمان : لكن منكم طاعة معروفة. { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }

[54] { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا } ، يعني تولوا عن طاعة الله ورسوله، { فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ } ، يعني على الرسول ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة، { وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } ، من الإجابة والطاعة، { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } ، أي التبليغ البين.

[55] قوله تعالى: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ } ، قال أبو العالية : في هذه الآية مكث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه، وأمروا بالصبر على أذى الكفار، وكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة، وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه فقال رجل منهم: أما يأتي علينا يوم نؤمن فيه ونضع السلاح، فأنزل الله هذه الآية: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) أدخل اللام لجواب اليمين المضمرة، يعني والله ليستخلفنهم أي ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها، { كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، قرأ أبو بكر عن عاصم (كما استخلف) بضم التاء وكسر اللام على ما لم يسم فاعله، وقرأ الآخرون بفتح التاء واللام لقوله تعالى: (وعد الله) قال قتادة : (كَمَا اسْتَخْلَفَ) داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء. وقيل: كما استخلف الذين من قبلهم أي بني إسرائيل حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم

أرضهم وديارهم، { وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ } ، أي اختار، قال ابن عباس : يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان، { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ } ، قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف من الإبدال، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبديل، وهما لغتان، وقال بعضهم: التبديل تغير حال إلى حال، والإبدال رفع الشيء وجعل غيره مكانه، { مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي } ، آمنين، { لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا } ، فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمنا وبسطا في الأرض. { وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ } ،

أراد به كفران النعمة، ولم يرد الكفر بالله، { فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } ، العاصون لله، قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه، فلما قتلوه غير الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانا. 56,

[57] قوله تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ، أي افعلوها على رجاء الرحمة. { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، قرأ عامر وحمزة (لا يحسبن) بالياء أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، { مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } ، وقرأ الآخرون بالتاء يقول: لا تحسبن يا محمد الذين كفروا معجزين فائتين عنا، { وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ } .

[58] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ } اللام لام الأمر { الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } يعني العبيد والإماء، { وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ } ، من الأحرار، ليس المراد منهم الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، بل الذين عرفوا أمر النساء ولكن لم يبلغوا. { ثَلَاثَ مَرَّاتٍ } ، أي ليستأذنوا في ثلاث أوقات، { مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ } ، يريد المقيل، { وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ } ، وإنما خص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب فربما يبدو من الإنسان ما لا يحب أن يراه أحد، أمر العبيد والصبيان بالاستئذان في هذه الأوقات، وأما غيرهم فليستأذنوا في جميع الأوقات { ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ } ، قرأ حمزة والكسائي (ثلاث) بنصب التاء بدلا من قوله: (ثلاث مرات) ، وقرأ الآخرون بالرفع، أي هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، سميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته، { لَيْسَ عَلَيْكُمْ } ، جناح { وَلَا عَلَيْهِمْ } ، على العبيد والخدم والصبيان، { جُنَاحٌ } ، في الدخول

عليكم من غير استئذان، { بَعْدَهُنَّ } ، أي بعد هذه الأوقات الثلاثة، { طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ } ، أي: العبيد والخدم يطوفون عليكم فيترددون ويدخلون ويخرجون في أشغالهم بغير إذن، { بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ } ، أي يطوف بعضكم على بعض { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ، واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: منسوخ. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن للقوم ستور ولا حجاب، فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم ما لا يحبون، فأمروا بالاستئذان، وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان، وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة، روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية (لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أمنسوخة هي؟ قال: لا والله ، قلت: إن الناس لا يعملون بها، قال: الله المستعان (1) . وقال سعيد بن جبير في هذه الآية. أن ناسا يقولون: نسخت والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس.

---

(1) أخرجه الطبري 18 / 162, 163 ونسبه السيوطى 6 / 319 للفريابي .

[59] قوله تعالى: { وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ } أي: الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا، { فَلْيَسْتَأْذِنُوا } ، أي يستأذنون في جميع الأوقات في الدخول عليكم، { كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، من الأحرار والكبار. وقيل: يعني الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى ، { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ } ،

دلالاته. وقيل: أحكامه، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } ، بأمور خلقه، { حَكِيمٌ } ، بما دبر لهم. قال سعيد بن المسيب : يستأذن الرجل على أمه فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك. وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم إن لم يفعل رأى منها ما يكره.

[60] قوله تعالى: { وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ } ، يعني اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكبر لا يلدن ولا يحضن، واحدتها قاعد بلا هاء. وقيل: قعدن عن الأزواج، وهذا معنى قوله: { اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا } أي لا يردن الرجال لكبرهن، قال ابن قتيبة : سميت المرأة قاعدا إذا كبرت لأنها تكثر القعود. وقال ربيعة الرأي : هن العجز اللائي إذا رأوهن الرجال استقذروهن، فأما من كانت فيها بقية من جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في هذه الآية، { فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ } ، عند الرجال، يعني يضعن بعض ثيابهن، وهي الجلباب والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخمار، فأما الخمار فلا يجوز وضعه، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وأبي ابن كعب (أن يضعن من ثيابهن) ، { غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ } ، أي من غير أن يردن بوضع الجلباب، والرداء إظهار زينتهن، والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تتنزه عنه. { وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ } ، فلا يلقين الجلباب والرداء، { خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

[61] قوله تعالى: { لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ } الآية، اختلف العلماء في هذه الآية فقيل: (على) بمعنى في أي ليس في الأعمى يعني ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض. وقال مجاهد : نزلت الآية ترخصا لهؤلاء في الأكل من بيوت من سمى الله في هذه الآية. وقال سعيد بن المسيب : كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون: لا ندخلها وهم غيب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم. قال الحسن : نزلت هذه الآية رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد. قال: تم الكلام عند قوله: (ولا على المريض حرج) ، وقوله تعالى: { وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } كلام منقطع عما قبله. وقيل: لما نزل قوله. { لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } قالوا: لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله عز وجل { وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ } ، أي لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم. قيل: أراد من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج.

وقال ابن قتيبة : أراد من بيوت أولادكم نسب الأولاد إلى الآباء، كما جاء في الحديث: « أنت ومالك لأبيك » (1) , { أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته، ولا يحمل ولا يدخر. وقال الضحاك : يعني في بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتيح الخزائن، لقوله تعالى: { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } ويجوز أن يكون الذي يفتح به. قال عكرمة : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير. وقال السدي : الرجل يولي طعامه غيره يقوم عليه

فلا بأس أن يأكل منه. وقال قوم: وما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم. قال مجاهد وقتادة : من بيوت أنفسكم مما أحرزتم وملكتم، { أَوْ صَدِيقِكُمْ } . الصديق الذي صدقك في المودة، والمعنى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

---

(1) أخرجه ابن ماجه في التجارات برقم (2291) 2 / 769. قال في الزوائد: وإسناده صحيح ورجاله ثقات على شرط البخاري .

تَأْكُلُوا } ، من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا، من غير أن تتزودوا وتحملوا. قوله: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا } رخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا جميعا أو أشتاتا متفرقين، { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } ، أي يسلم بعضكم على بعض، هذا في دخول الرجل ببيت نفسه يسلم على أهله ومن في بيته. وقال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهو أحق من سلمت عليه، وإذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. { تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } ، نصب على المصدر أي تحيون تحية، { مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حسنة جميلة. وقيل: ذكر البركة والطيبة هاهنا لما فيه من الثواب والأجر. { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } .

[62] { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ } ، أي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، { عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ } ، يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل، { لَمْ يَذْهَبُوا } ، لم يتفرقوا عنه لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، { حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ } ، قال المفسرون: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يراه فيعرف أنه إنما قام يستأذن، فيأذن لمن شاء منهم. قال مجاهد : وإذن الإمام يوم يوم الجمعة أن يشير بيده. قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام، فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب رجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان. { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ } ، أي أمرهم، { فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ } ، في الانصراف، معناه إن شئت فأذن وإن شئت فلا تأذن، { وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[63] { لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب لنزول البلاء بكم ليس كدعاء غيره. وقال مجاهد وقتادة : لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا يا محمد يا عبد الله ، ولكن فخموه وشرفوه، فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله في لين وتواضع، { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ } ، أي: يخرجون { مِنْكُمْ لِوَاذًا } ، أي يستتر بعضهم بعضا ويروغ في خيفة، فيذهب، واللواذ مصدر لاوذ يلاوذ ملاوذة، ولواذا، قيل: كان هذا في حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

مختفين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لواذا أي يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار، ومعنى قوله: (قد يعلم الله) للتهديد بالمجازاة، { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ } ، أي أمره، و (عن) صلة. وقيل: معناه يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه. {

أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ } أي لئلا تصيبهم فتنة، قال مجاهد : بلاء في الدنيا، { أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، وجيع في الآخرة. وقيل: عذاب أليم عاجل في الدنيا. ثم عظم نفسه.
[64] فقال: { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، ملكا وعبيدا، { قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } ، من الإيمان والنفاق أي يعلم، و (قد) صلة { وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ } ، يعني يوم البعث، { فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } ، من الخير والشر، { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

(25) سورة الفرقان
[1] { تَبَارَكَ } ، تفاعل، من البركة، عن ابن عباس : معناه جاء بكل بركة، دليله قوله الحسن: مجيء البركة من قبله. وقال الضحاك: تعظم، { الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ } ، أي القرآن، { عَلَى عَبْدِهِ } ، محمد صلى الله عليه وسلم { لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } ، أي: للجن والإنس. قيل: النذير هو القرآن. وقيل: محمد صلى الله عليه وسلم.
[2] { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } ، مما يطلق عليه صفة المخلوق، { فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } ، فسواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت، وقيل: قدر لكل شيء تقديرا من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق.

[3] قوله عز وجل: { وَاتَّخَذُوا } ، يعني عبدة الأوثان، { مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } ، يعني: الأصنام، { لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } ، أي دفع ضر ولا جلب نفع، { وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً } ، أي إماتة ولا إحياء، { وَلَا نُشُورًا } أي بعثا بعد الموت.
[4] { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، يعني المشركين، يعني النضر بن الحارث وأصحابه، { إِنْ هَذَا } ، ما هذا القرآن، { إِلَّا إِفْكٌ } ، كذب، { افْتَرَاهُ } ، اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم { وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ } قال مجاهد : يعني اليهود. وقال الحسن : هو عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن. وقيل: جبر ويسار وعداس بن عبيد ، كانوا بمكة من أهل الكتاب، فزعم المشركون أن محمدا صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم، قال الله تعالى: { فَقَدْ جَاءُوا } ، يعني قائلي هذه المقالة، { ظُلْمًا وَزُورًا } أي بظلم وزور. فلما حذف الباء انتصب، يعني جاؤوا شركا وكذبا بنسبتهم كلام الله تعالى إلى الإفك والافتراء.

[5] { وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا } ، يعني النضر بن الحارث كان يقول : إن هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطره الأولون مثل حديث رستم واسفنديار، اكتتبها انتسخها محمد من جبر ويسار وعداس ، ومعنى اكتتب يعني طلب أن يكتب له لأنه كان لا يكتب، { فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ } ، يعني تقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها، { بُكْرَةً وَأَصِيلًا } ، غدوة وعشيا. قال الله عز وجل ردا

عليهم:
[6] { قُلْ أَنْزَلَهُ } ، يعني القرآن، { الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ } ، يعني الغيب، { فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } .

[7] { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ } ، يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم، { يَأْكُلُ الطَّعَامَ } ، كما نأكل نحن، { وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } يلتمس المعاش كما نمشي فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة، وكانوا يقولون له لست أنت بملك ولا بملك، لأنك تأكل والملك لا يأكل، ولست بملك لأن الملك لا يتسوق، وأنت تتسوق وتتبذل. وما قالوه فاسد لأن أكله الطعام لكونه آدميا ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له وشيء من ذلك لا ينافي النبوة. { لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ } ، فيصدقه، { فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا } ، داعيا.
[8] { أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ } ، أي: ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج إلى التردد والتصرف في طلب المعاش، { أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ } ، بستان، { يَأْكُلُ مِنْهَا } ، قرأ حمزة والكسائي (نأكل) بالنون أي نأكل نحن منها، { وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا } ، مخدوعا. وقيل: مصروفا عن الحق.

[9] { انْظُرْ } ، يا محمد، { كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ } ، يعني الأشباه، فقال: مسحور محتاج وغيره، { فَضَلُّوا } ، عن الحق، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا } ، إلى الهدى ومخرجا عن الضلالة.
[10] { تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ } الذي قالوا أو أفضل من الكنز والبستان الذي ذكروا وروى عكرمة عن ابن عباس قال: يعني خيرا من المشي في الأسواق والتماس المعاش، ثم بين ذلك الخير فقال: { جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا } ، بيوتا مشيدة، والعرب تسمي كل بيت مشيد قصرا.
[11] قوله عز وجل: { بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ } ، بالقيامة، { وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا } ، نارا مستعرة.

[12] { إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من كذب علي متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا » . قالوا: وهل لها من عينين؟ قال: « نعم ألم تستمعوا قول الله تعالى: { إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ }» وقيل: إذا رأتهم زبانيتها { سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا } غليانا كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب. { وَزَفِيرًا } صوتا. فإن قيل: كيف يسمع التغيظ؟ قيل: معناه رأوا وعلموا أن لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا، وقيل: سمعوا لها تغيظا أي: صوت التغيظ مع التلهب والتوقد.
[13] { وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا } ، قال ابن عباس : يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح، { مُقَرَّنِينَ } ، مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل. مقرنين مع الشياطين في السلاسل، { دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا } قال ابن عباس : ويلا. وقال الضحاك : هلاكا، وفي الحديث: « إن أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول: يا ثبوراه ، وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فينادون يا ثبوراه وينادي يا ثبورهم، فيقال لهم:

[14] { لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا }» ، قيل: أي هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة.

[15] قوله عز وجل. { قُلْ أَذَلِكَ } ، يعني الذي ذكرته من صفة النار وأهلها، { خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً } ، ثوابا { وَمَصِيرًا } مرجعا.
[16] { لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا } ، مطلوبا وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، يقول: كان أعطى الله المؤمنين جنة خلد وعدا وعدهم على طاعتهم إياه في الدنيا ومسألتهم إياه ذلك. قال محمد بن كعب القرظي : الطلب من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

[17] { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } ، قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص (يحشرهم) بالياء وقرأ الباقون بالنون، { وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، قال مجاهد : من الملائكة والجن والإنس وعيسى وعزير . وقال عكرمة والضحاك والكلبي : يعني الأصنام ثم يخاطبهم، { فَيَقُولُ } ، قرأ ابن عامر بالنون والآخرون بالياء { أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } ، أخطئوا الطريق.

[18] { قَالُوا سُبْحَانَكَ } ، نزهوا الله من أن يكون معه إله { مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ } ، يعني ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك بل أنت ولينا من دونهم . وقيل: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك. وقرأ أبو جعفر (أن نتخذ) بضم النون وفتح الخاء فتكون (من) الثاني صلة، { وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ } ، في الدنيا بطول العمر والصحة والنعمة، { حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ } ، تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن. وقيل: تركوا ذكركم وغفلوا عنه، { وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا } ، يعني هلكى غلب عليهم الشقاء والخذلان، رجل يقال له بائر، وقوم بور، وأصله من البوار وهو الكساد والفساد، ومنه بوار السلعة وهو كسادها. وقيل هو اسم مصدر كالزور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث.

[19] { فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ } ، هذا الخطاب مع المشركين , أي كذبكم المعبودون, { بِمَا تَقُولُونَ } إنهم آلهة، { فَمَا تَسْتَطِيعُونَ } ، قرأ حفص بالتاء يعني العابدين، وقرأ الآخرون بالياء يعني: الآلهة. { صَرْفًا } يعني صرف العذاب عن أنفسهم، { وَلَا نَصْرًا } يعني ولا نصر أنفسهم. قيل: ولا نصركم أيها العابدون من عذاب الله بدفع العذاب عنكم وقيل: الصرف الحيلة، ومنه قول العرب: إنه ليصرف أي يحتال، { وَمَنْ يَظْلِمْ } ، يشرك، { مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا } .

[20] قوله عز وجل: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } ، يا محمد ، { إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، أنزل الله عز وجل هذه الآية، يعني ما أنا إلا رسول وما كنت بدعا من الرسل، وهم كانوا بشرا يأكلون الطعام، { وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ } . وقيل: معناه وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل لهم مثل هذا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما قال في موضع آخر: ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً } أي بلية فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله، والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع. وقال ابن عباس : أي جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلاقهم، وتتبعوا الهدى. وقيل: نزلت في ابتلاء

الشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف، وقال: أسلم بعده فيكون له علي السابقة والفضل، فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام، فذلك افتتان بعضهم ببعض {

أَتَصْبِرُونَ } يعني على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى، { وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } ، بمن صبر وبمن جزع.

[21] { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } ، أي لا يخافون البعث، قال الفراء : الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا } أي: لا تخافون لله عظمة. { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ } ، فتخبرنا أن محمدا صادق، { أَوْ نَرَى رَبَّنَا } ، فيخبرنا بذلك، { لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا } ، أي تعظموا. { فِي أَنْفُسِهِمْ } ، بهذه المقالة، { وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا } قال مجاهد : عتوا طغوا في القول والعتو أشد الكفر وأفحش الظلم. وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به.

[22] { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ } عند الموت. وقيل: في القيامة. { لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ } ، للكافرين، وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة، ويقولون للكفار: لا بشرى لكم، هكذا قال عطية ، وقال بعضهم: معناه أنه لا بشرى يوم القيامة للمجرمين، أي لا بشارة لهم بالجنة، كما يبشر المؤمنون. { وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا } ، قال عطاء عن ابن عباس : تقول الملائكة: حراما محرما أن يدخل الجنة، إلا من قال لا إله إلا الله. وقال مقاتل : إذا خرج الكفار من قبورهم قالت لهم الملائكة: حراما محرما عليكم أن يكون لكم البشرى. وقال بعضهم : هذا قول الكفار للملائكة. قال ابن جريج : كانت العرب إذا نزلت بهم شدة رأوا ما يكرهون، قالوا: حجرا محجورا، فهم يقولونه إذا عاينوا الملائكة قال مجاهد : يعني عوذا معاذا يستعيذون به من الملائكة.

[23] { وَقَدِمْنَا } ، وعمدنا، { إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } ، أي باطلا لا ثواب له، فهم لم يعملوه لله عز وجل. واختلفوا في الهباء قال علي: هو ما يرى في الكوة إذا وقع ضوء الشمس فيها كالغبار يمس بالأيدي، ولا يرى في الظل، وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد ، والمنثور: المفرق، وقال ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير : هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر. وقال مقاتل : هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير. وقيل: الهباء المنثور ما يرى في الكوة والهباء المنبث هو ما تطيره الرياح من سنابك الخيل.

[24] قوله عز وجل: { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا } ، أي: من هؤلاء المشركين المتكبرين، { وَأَحْسَنُ مَقِيلًا } موضع قائلة يعني أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، قال الأزهري : القيلولة والمقيل الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن مع ذلك نوم، لأن الله تعالى قال: { وَأَحْسَنُ مَقِيلًا } والجنة لا نوم فيها.

[25] قوله عز وجل: { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ } ، أي عن الغمام الباء وعن يتعاقبان كما يقال: رميت عن القوس وبالقوس وتشقق بمعنى تتشقق،

أدغموا إحدى التاءين في الأخرى، وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين هاهنا، وفي سورة (ق) بحذف إحدى التاءين، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي تنشق بالغمام وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. { وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا } ، قرأ ابن كثير (وننزل) بنونين خفيف ورفع اللام، (الملائكة) نصب، قال ابن عباس : تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في السماء الدنيا، ومن الجن والإنس، ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش.

[26] { الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ } أي الملك الذي هو الملك الحق حقا ملك الرحمن يوم القيامة قال ابن عباس : يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضي غيره. { وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا } ، شديدا فهذا الخطاب يدل على أنه لا يكون على المؤمن عسيرا، وجاء في الحديث: « إنه يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها في الدنيا » (1) .
[27] { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط تحسرا على ما فعل { يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ } في الدنيا، { مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا } ، ليتني اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم واتخذت معه سبيلا إلى الهدى.
[28] { يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا } ، يعني أبي بن خلف .

____
(1) رواه الإمام أحمد في المسند 3 / 75 وقال الهيثمي في المجمع 10 / 337: وإسناده حسن على ضعف في رواية.

[29] { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } ، عن الإيمان والقرآن, { بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي } يعني الذكر مع الرسول { وَكَانَ الشَّيْطَانُ } ، وهو كل متمرد عات من الإنس والجن وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان. { لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } ، أي تاركا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب، وحكم هذه الآية عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » (1) .
[30] { وَقَالَ الرَّسُولُ } ، يعني: ويقول الرسول في ذلك اليوم: { يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا } يعني متروكا فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه. وقيل: جعلوه بمنزلة الهجر وهو الهذيان, والقول السيئ فزعموا أنه شعر وسحر , وهو النخعي ومجاهد . وقيل: قال الرسول يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى الله يا رب: إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا فعزاه الله تعالى فقال:

____
(1) أخرجه أبو داود في الأدب 7 / 186 والترمذي في الزهد 7 / 49 وقال: هذا حديث حسن غريب وصححه الحاكم 4 / 171 والإمام أحمد 2 / 303 والمصنف في شرح السنة 13 / 70.

[31] { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا } ، يعني كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك كذلك جعلنا، { لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ } ، يعني المشركين. قال مقاتل :

يقول: لا يكبرن عليك فإن الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فاصبر لأمري كما صبروا فإني ناصرك وهاديك، { وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا } .

[32] { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود، قال الله سبحانه وتعالى. { كَذَلِكَ } ، فعلنا، { لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } ، يعني أنزلناه متفرقا ليقوى به قلبك فتعيه وتحفظه فإن الكتب أنزلت على ا لأنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزل الله القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأيسر على العامل به. { وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } ، قال ابن عباس : بيناه بيانا، والترتيل التبيين في ترتل وتثبت. وقال السدي : فصلناه تفصيلا. وقال مجاهد : بعضه في إثر بعض. وقال النخعي والحسن : فرقناه تفريقا آية بعد آية.

[33] { وَلَا يَأْتُونَكَ } ، يا محمد يعني هؤلاء المشركين، { بِمَثَلٍ } ، يضربونه في إبطال أمرك { إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ } ، يعني بما ترد به ما جاؤوا به من المثل وتبطله، فسمى ما يردون من الشبه مثلا، وسمى ما يدفع به الشبه حقا، { وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } ، يعني بيانا وتفصيلا، والتفسير تفعيل من الفسر وهو كشف ما قد غطي، ثم ذكر ما لهؤلاء المشركين فقال:
[34] { الَّذِينَ } ، أي: هم الذين، { يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ } ، فيساقون ويجرون، { إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا } ، يعني مكانة ومنزلة، ويقال: منزلا ومصيرا { وَأَضَلُّ سَبِيلًا } ، أخطأ طريقا.
[35] { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا } ، معينا وظهيرا.
[36] { فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } ، يعني القبط، { فَدَمَّرْنَاهُمْ } ، فيه إضمار، أي: فكذبوهما فدمرناهم، { تَدْمِيرًا } ، أهلكناهم إهلاكا. 37,

[38] { وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ } ، أي: الرسول، ومن كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل، فلذلك ذكر بلفظ الجمع. { أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً } ، يعني لمن بعدهم عبرة، { وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ } ، في الآخرة { عَذَابًا أَلِيمًا } سوى ما حل به من عاجل العذاب. { وَعَادًا وَثَمُودَ } ، يعني وأهلكنا عادا وثمود، { وَأَصْحَابَ الرَّسِّ } ، اختلفوا فيهم، قال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر قعودا عليها وأصحاب مواشي يعبدون الأصنام فوجه الله إليهم شعيبا يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم، وفي أذى شعيب عليه السلام فبينما هم حوالي البئر في منازلهم انهارت بهم البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم، فهلكوا جميعا، والرس: البئر وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهو رس. وقال قتادة والكلبي : الرس بئر بأرض اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله عز وجل، وقال بعضهم: هم بقية ثمود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر التي ذكر الله تعالى في قوله: { وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ } . وقال سعيد بن جبير : كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله تعالى. وقال كعب ومقاتل

والسدي : الرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار، وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس. وقيل: هم أصحاب الأخدود ، والرس هو الأخدود الذي حفروه.

وقال عكرمة . هم قوم رسوا نبيهم في بئر. وقيل: الرس المعدن وجمعه رساس، { وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا } ، يعني وأهلكنا قرونا كثيرا بين عاد وأصحاب الرس.
[39] { وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ } ، يعني الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار، { وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا } ، يعني أهلكنا إهلاكا. وقال الأخفش : كسرنا تكسيرا. قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته.
[40] { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ } ، يعني الحجارة وهي قريات قوم لوط "وكانت خمس قرى فأهلك الله أربعا منها وبقيت واحدة ، هي أصغرها وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث { أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا } ، إذا مروا بهم في أسفارهم فيعتبروا ويتفكروا لأن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم عند ممرهم إلى الشام، { بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ } ، لا يخافون، { نُشُورًا } بعثا.

[41] قوله عز وجل: { وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ } ، يعني ما يتخذونك، { إِلَّا هُزُوًا } ، يعني مهزوءا به، نزلت في أبي جهل كان إذا مر بأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مستهزئا: { أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا } .
[42] { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا } ، يعني قد قارب أن يضلنا, { عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا } يعني لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها، { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا } ، من أخطأ طريقا.
[43] { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } ، وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر فإذا رأى حجرا أحسن منه طرح الأول وأخذ الآخر، فعبدوه. وقال ابن عباس : أرأيت من ترك عبادة الله وخالقه ثم هوى حجرا فعبده ما حاله عندي، { أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا } ، يعني حافظا، يقول: أفأنت عليه كفيل تحفظه من اتباع هواه وعبادة من يهوى من دون الله، أي لست كذلك.

[44] { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ } ما تقول سماع طالب الأفهام، { أَوْ يَعْقِلُونَ } ، ما يعاينون من الحجة والإعلام، { إِنْ هُمْ } ، ما هم، { إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } ، لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربهم الذي خلقهم، ورزقهم، ولأن الأنعام تسجد وتسبح لله وهؤلاء الكفار لا يفعلون.

[45] قوله عز وجل: { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ } ، معناه ألم تر إلى مد ربك الظل وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، جعله ممدودا لأنه ظل لا شمس معه، كما قال في ظل الجنة: { وَظِلٍّ مَمْدُودٍ } لم يكن معه شمس. { وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا } ، أي: دائما ثابتا لا يزول، ولا تذهبه الشمس. قال أبو عبيدة : الظل ما نسخته الشمس، وهو بالغداوة والفيء ما نسخ الشمس، وهو بعد الزوال، سمي فيئا لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، { ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا } ، يعني على الظل. ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها.
[46] { ثُمَّ قَبَضْنَاهُ } ، يعني الظل، { إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا } ، بالشمس التي تأتي عليه، والقبض جمع المنبسط من الشيء معناه أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءا فجزءا قبضا يسيرا أي خفيا.

[47] { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا } ، أي سترا تستترون به، يريد أن ظلمته تغشى كل شيء، كاللباس الذي يشتمل على لابسه، { وَالنَّوْمَ سُبَاتًا } ، راحة لأبدانكم وقطعا لعملكم، وأصل السبت القطع، والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته. { وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا } ، أي يقظة وزمانا تنتشرون فيه لابتغاء الرزق وتنتشرون لأشغالكم.

[48] { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } ، يعني المطر { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } ، والطهور هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، فهو اسم لما يتطهر به كالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به، والدليل عليه ما روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في البحر: « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (1) وأراد به المطهر فالماء مطهر لأنه يطهر الإنسان من الحدث والنجاسة، كما قال في آية أخرف: { وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ } فثبت به أن التطهير يختص بالماء ، وذهب أصحاب الرأي إلى أن الطهور هو الطاهر حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة، مثل الخل وماء الورد والمرق ونحوها، ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها، وذهب بعضهم إلى أن الطهور ما يتكرر منه التطهير كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر، وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء الذي توضأ منه مرة.

---

(1) أخرجه الإمام مالك في الموطأ 1 / 22 وأبو داود في الوضوء بماء البحر 1 / 80 والترمذي فيما جاء في ماء البحر 1 / 224 وقال: (حديث حسن صحيح) والنسائي في الطهارة 1 / 50 وابن ماجه في الوضوء بماء البحر 1 / 136 وصححه الحاكم 1 / 140.

[49] قوله عز وجل: { لِنُحْيِيَ بِهِ } ، أي: بالمطر، { بَلْدَةً مَيْتًا } ، ولم يقل ميتة لأنه رجع به إلى الموضع والمكان، { وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا } ، نسقي من ذلك الماء أنعاما { وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا } أي بشرا كثيرا، والأناسي جمع إنسي، وقيل: جمع إنسان، وأصله أناسين مثل بستان وبساتين، فجعل الياء عوضا عن النون.

[50] { وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ } ، يعني المطر مرة ببلد ومرة ببلد آخر. قال ابن عباس : ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض. وقرأ هذه الآية. وقيل: المراد من تصريف المطر تصريفه وابلا وطلا ورذاذا ونحوها. وقيل: التصريف راجع إلى الريح. { لِيَذَّكَّرُوا } أي ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى، { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } ، وكفرانهم هو أنهم إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا. عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما أنصرف أقبل على الناس فقال: « هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم: قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب » (1) .
[51] قوله عز وجل: { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا } . رسولا ينذرهم، لكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة جميعها لتستوجب بصبرك على ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة.

(1) أخرجه مالك في الاستسقاء 1 / 192 والبخاري في الاستسقاء 2 / 522 ومسلم في الإيمان رقم (71) 1 / 83 والمصنف في شرح السنة 4 / 419.

[52] { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ } فيما يدعونك فيه من موافقتهم ومداهنتهم. { وَجَاهِدْهُمْ بِهِ } أي: بالقرآن، { جِهَادًا كَبِيرًا } شديدا.
[53] { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ } ، أي: خلطهما وأفاض أحدهما في الآخر، وقيل: أرسلهما في مجاريهما وخلاهما كما يرسل الخيل في المرج، وأصل المرج الخلط والإرسال، يقال: مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء، { هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ } ، شديد العذوبة والفرات أعذب المياه، { وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } ، شديد الملوحة. وقيل: أجاج أي مر، { وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا } أي: حاجزا بقدرته لئلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب، { وَحِجْرًا مَحْجُورًا } أي: سترا ممنوعا فلا يبغيان، فلا يفسد الملح العذب.

[54] { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ } ، من النطفة، { بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا } ، أي: جعله ذا نسب وذا صهر، قيل. النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه، فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها، وقيل- وهو الصحيح- النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة، وهو السبب المحرم للنكاح، { وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا }.
[55] { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، يعني هؤلاء المشركين، { مَا لَا يَنْفَعُهُمْ } ، إن عبدوه، { وَلَا يَضُرُّهُمْ } إن تركوه، { وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا } ، أي: معينا للشيطان على ربه بالمعاصي. وقال الزجاج : أي يعاون الشيطان على معصية الله لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان. وقيل: معناه وكان الكافر على ربه ظهيرا أي هينا ذليلا كما يقال: الرجل جعلني بظهير أي جعلني هينا. ويقال: ظهر به إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه.

[56] { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } ، أي: منذرا.
[57] { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ } ، أي على تبليغ الوحي، { مِنْ أَجْرٍ } ، فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتبعه، { إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } ، هذا من الاستثناء المنقطع، مجازه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإنفاق من ماله في سبيله فعل ذلك، والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجرا ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.
[58] { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ } ، أي صل له شكرا على نعمه. وقيل: قل سبحان الله والحمد لله، { وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا } ، عالما بصغيرها وكبيرها فيجازيهم بها.

[59] { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا } ، أي بالرحمن، قال الكلبي : يقول فاسأل الخبير بذلك يعني بما ذكرنا من خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش: وقيل: الخطاب للرسول والمراد منه غيره لأنه كان مصدقا به، والمعنى: أيها الإنسان لا ترجع في طلب العلم بهذا إلى غيري. وقيل: الباء بمعنى عن أي: فاسأل عنه خبيرا وهو الله عز وجل. وقيل: جبريل عليه السلام.
[60] { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } ، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب ، كانوا يسمونه رحمن اليمامة.

{ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا } ، قرأ حمزة والكسائي (يأمرنا) بالياء أي لما يأمرنا محمد بالسجود له، وقرأ الآخرون بالتاء أي لما تأمرنا أنت يا محمد ، { وَزَادَهُمْ } يعني زادهم قول القائل لهم: (اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ) { نُفُورًا } عن الدين والإيمان.

[61] قوله عز وجل: { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا } ، قال الحسن ومجاهد وقتادة : (البروج) هي النجوم الكبار سميت بروجا لظهورها، وقال عطية العوفي : بروجا أي: قصورا فيها الحرس، كما قال: { وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } ، وقال عطاء عن ابن عباس : هي البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. { وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا } ، يعني الشمس كما قال: { وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا } وقرأ حمزة والكسائي (سرجا) بالجمع يعني النجوم. { وَقَمَرًا مُنِيرًا } والقمر

قد دخل في السرج على قراءة من قرأ بالجمع، غير أنه خصه بالذكر لنوع فضيلة، كما قال: { فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ } ، خص النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في الفاكهة.
[62] { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً } ، اختلفوا فيها قال ابن عباس والحسن وقتادة : يعني خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر. قال مجاهد : يعني جعل كل واحد منهما مخالفا لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض، وقال ابن زيد وغيره: يعني يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان في الضياء والظلمة والزيادة والنقصان، { لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ } ، قرأ حمزة بتخفيف الذال والكاف وضمها من الذكر، وقرأ الآخرون بتشديدهما أي يتذكر ويتعظ { أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } قال مجاهد : أي شكر نعمة ربه عليه فيهما.

[63] قوله عز وجل: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ } ، يعني أفاضل العباد. وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله. { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا } ، يعني بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين، ولا متكبرين، وقال الحسن : علماء وحكماء. وقال محمد بن الحنفية : أصحاب وقار وعفة لا يسفهون، وإن سفه عليهم حلموا، والهون في اللغة الرفق واللين، { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ } ، يعني السفهاء بما يكرهون { قَالُوا سَلَامًا } ، قال مجاهد : سدادا من القول. وقال مقاتل بن حيان : قولا يسلمون فيه من الإثم. وقال الحسن : إن جهل عليهم جاهل حلموا ولم يجهلوا، وليس المراد منه السلام المعروف. وروي عن الحسن : معناه سلموا عليهم، دليله قوله عز وجل. { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } ، قال الكلبي وأبو العالية : هذا قبل أن يؤمر بالقتال،

ثم نسختها آية القتال: وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: هذا وصف نهارهم، ثم قرأ و { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا }

قال: هذا وصف ليلهم.
[64] قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ } ، يقال لمن أدرك الليل: بات نام أو لم ينم , يقال: بات فلان قلقا, والمعنى يبيتون لربهم بالليل في الصلاة، { سُجَّدًا } ، على وجوههم، { وَقِيَامًا } ، على أقدامهم. قال ابن عباس : من صلى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدا وقائما.
[65] قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا } ، يعني ملحا دائما لازما غير مفارق من عذب به من الكفار، ومنه سمي الغريم لطلبه حقه والحاجة على صاحبه وملازمته إياه. وقيل: غراما هلاكا.
[66] { إِنَّهَا } ، يعني جهنم، { سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } ، يعني بئس موضع قرار وإقامة.

[67] { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا } واختلفوا في معنى الإسراف والإقتار، فقال بعضهم: الإسراف النفقة في معصية الله وإن قلت، والإقتار منع حق الله تعالى. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج وقال الحسن في هذه الآية لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله. وقال قوم: الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق، حتى يدخل في حد التبذير، والإقتار التقصير عما لا بد منه، وهذا معنى قول إبراهيم لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف، { وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } ، قصدا وسطا بين الإسراف والإقتار، حسنة بين السيئتين.

[68] قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } ، الآية. « قال رجل: يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: "أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال: ثم أي؟ قال. "أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك "، قال: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك » ، فأنزل الله تصديقها: { وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا } . قوله عز وجل (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) ، أي شيئا من هذه الأفعال، (يَلْقَ أَثَامًا) ، يوم القيامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يريد جزاء الإثم. وقال أبو عبيدة : الآثام العقوبة. وقال مجاهد : الآثام واد في جهنم.
[69] { يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا } ، قرأ ابن عامر وأبو بكر (يضاعف) و (يخلد) برفع الفاء والدال على الابتداء وشداد بن عامر (يضعف) ، وقرأ الآخرون بجزم الفاء والدال على جواب الشرط.

[70] { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا } ، قال قتادة : إلا من تاب وآمن بربه وعمل عملا صالحا فيما بينه وبين ربه { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } ، فذهب جماعة إلى أن هذا التبديل في الدنيا، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والسدي والضحاك : يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانهم وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانا. وقال قوم: يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة، وهو قول

سعيد بن المسيب ومكحول ، وقال بعضهم: إن الله عز وجل يمحو بالندم جميع السيئات، ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة.

[71] قوله عز وجل: { وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا } ، قال بعض أهل العلم هذا في التوبة عن غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا، يعني من تاب من الشرك وعمل صالحا أي: أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن، { فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ } ، أي يعود إليه بالموت { مَتَابًا } حسنا يفضل به على غيره ممن قتل وزنا فالتوبة الأولى وهو قوله: (ومن تاب) رجوع عن الشرك والثاني رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة. وقال بعضهم: هذه الآية أيضا في التوبة عن جميع السيئات. ومعناه: ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله. وقوله: (يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ) خبر بمعنى الأمر، أي: ليتب إلى الله. وقيل: معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله.

[72] { وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ } ، قال الضحاك وأكثر المفسرين: يعني الشرك. وقال علي بن طلحة : يعني شهادة الزور. وقال ابن جريج : يعني الكذب. وقال مجاهد : يعني أعياد المشركين. وقيل: النوح، قال قتادة : لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم. وقال محمد ابن الحنفية : لا يشهدون اللهو والغناء، قال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع. وأصل الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } ، قال مقاتل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد ، نظيره قوله: { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ } ، قال السدي : وهي منسوخة بآية القتال. قال الحسن والكلبي : اللغو المعاصي كلها يعني إذا مروا بمجلس اللهو والباطل مروا كراما مسرعين معرضين. يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكره نفسه عنه.

[73] { وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا } ، لم يقعوا ولم يسقطوا، { عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا } ، كأنهم صم عمي بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه. قال القتيبي : لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها.

[74] { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ } ، يعني أولادا أبرارا أتقياء، يقولون: اجعلهم صالحين فتقر أعيننا بذلك. قال القرظي : ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل. وقاله الحسن : ووحد القرة لأنها مصدر وأصلها من القر لأن العرب تتأذى من الحر وتستروح إلى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن، ويقال: دمع العين عند السرور بارد، وعند الحزن حار. وقال الأزهري : معنى قرة الأعين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه به عن النظر إلى غيره. { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } يعني أئمة يقتدون في الخير بنا. قال الحسن : نقتدي بالمتقين ويقتدي بنا المتقون. وقال ابن عباس : اجعلنا أئمة هداة، كما قال: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } ، ولا تجعلنا أئمة ضلالة كما قال: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } ، وقيل: هذا من المقرب يعني واجعل المتقين لنا إماما واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم، وهو قول مجاهد .

[75] { أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ } يعني ينالون، { الْغُرْفَةَ } يعني الدرجة الرفيعة في الجنة والغرفة كل بناء مرتفع عال وقال عطاء : يريد غرف الدر والزبرجد في الجنة، { بِمَا صَبَرُوا } ، على أمر الله تعالى وطاعته. وقيل: على أذى المشركين. وقيل: عن الشهوات { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً } أي ملكا وقيل: بقاء دائما، { وَسَلَامًا } أي: يسلم بعضهم على بعض. وقال الكلبي : يحيي بعضهم بالسلام، ويرسل الرب إليهم بالسلام. وقيل: سلاما أي سلامة من الآفات .
[76] { خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } .أي : موضع قرار وإقامة.

[77] { قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي } ، قال مجاهد وابن زيد . أي ما يصنع وما يفعل بكم؟ قال أبو عبيدة يقال : ما عبأت به شيئا أي لم أعده، فوجوده وعدمه سواء، مجازه: أي وزن وأي مقدار لكم عنده، { لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } ، إياه، وقيل: لولا إيمانكم، وقيل: لولا عبادتكم، وقيل: لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، فإذا آمنتم ظهر لكم قدر. وقال قوم: معناها قل ما يعبأ بخلقكم ربي لولا عبادتكم وطاعتكم إياه يعني أنه خلقكم لعبادته، كما قال: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } . وهذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقال قوم: قل ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهة, أو ما يفعل بعذابكم لولا شرككم, كما قال الله تعالى: { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ } وقيل: ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إياه في الشدائد, كما قال: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ } ، وقال: { فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } . وقيل: { قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } يقول ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلا أن تسألوني

فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم. { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } , أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعني إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول ولم تجيبوه. { فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا } , هذا تهذيبه لهم أي يكون تكذيبهم لزاما, قال ابن عباس : موتا . وقال أبو عبيدة : هلاكا. وقال ابن زيد : قتالا. والمعنى يكون التكذيب لازما لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله . وقال ابن جرير : عذابا دائما وهلاكا مقيما يلحق بعضكم ببعض واختلفوا فيه فقال قوم : هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون . وقيل: اللزام هو عذاب الآخرة.

(26) سورة الشعراء
[1] { طسم } روى علي بن طلحة الوالبي عن ابن عباس : أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى: وقال قتادة : اسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد : اسم للسورة. قال محمد بن كعب القرظي : أقسم الله بطوله وسنائه وملكه.
[2] { تِلْكَ } ، أي هذه، { آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } .
[3] { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ } ، قاتل، { نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } ، إن لم يؤمنوا ذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل الله هذه الآية.

[4] { إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } ، قال قتادة : لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله. وقال ابن جريج : معناه لو شاء الله لأراهم أمرا من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية. وقوله عز وجل: { خَاضِعِينَ } ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق، ففيه أقاويل: أحدها: أراد أصحاب الأعناق فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، جعل الفعل

أولا للأعناق ثم جعل خاضعين للرجال. وقال الأخفش : رد الخضوع على المضمر الذي أضاف الأعناق إليه. وقال قوم: ذكر الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قوله على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى المؤنث. وقيل: أراد فظلوا خاضعين فعبروا بالعنق عن جميع البدن، كقوله: { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ } و { أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } . وقال مجاهد : أراد بالأعناق الرؤساء والكبراء، أي فظلت كبراؤهم خاضعين، وقيل: أراد بالأعناق الجماعات، يقال: جاء القوم عنقا عنقا أي جماعات وطوائف. وقيل: إنما قال خاضعين على

وفاق رؤوس الآي ليكون على نسق واحد.
[5] { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ } ، وعظ وتذكير، { مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ } ، أي محدث إنزاله، فهو محدث في التنزيل. قال الكلبي : كلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول { إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } ، أي عن الإيمان به.
[6] { فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ } ، أي. فسوف يأتيهم، { أَنْبَاءُ } ، أخبار وعواقب، { مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } .
[7] { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ } ، صنف وضرب، { كَرِيمٍ } حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام، يقال: نخلة كريمة إذا طاب حملها، وناقة كريمة إذا كثر لبنها. قال الشعبي : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.
[8] { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، الذي ذكرت، { لَآيَةً } ، دلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي، { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } ، مصدقين أي سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون. وقال سيبويه : كان هاهنا صلة مجازه: وما أكثرهم مؤمنين.

[9] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } ، العزيز بالنقمة من أعدائه، { الرَّحِيمُ } ، ذو الرحمة بأوليائه.
[10] قوله عز وجل: { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى } ، واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار، { أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ، يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب.
[11] { قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ } ، ألا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.
[12] { قَالَ } ، يعني موسى ، { رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ } .
[13] { وَيَضِيقُ صَدْرِي } بتكذيبهم إياي، و { وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي } ، قال: هذا للعقدة التي كانت على لسانه ، قرأ يعقوب (ويضيق) ، (ولا ينطلق) بنصب القافين على معنى وأن يضيق، وقرأ العامة برفعهما ردا على قوله: (إني أخاف) ، { فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ } ، ليؤازرني ويظاهرني على تبليغ الرسالة.
[14] { وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ } ، أي دعوى ذنب، وهو قتله القبطي، { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } أي يقتلونني به.

[15] { قَالَ } ، الله تعالى { كَلَّا } ، أي لن يقتلوك { فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } ، سامعون ما يقولون ، ذكر معكم بلفظ الجمع، وهما اثنان أجراهما مجرى الجماعة. وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم

فرعون .
[16] { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، ولم يقل رسولا رب العالمين لأنه أراد الرسالة أنا ذو رسالة رب العالمين، وقال أبو عبيدة : يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي وهذان وهؤلاء رسولي ووكيلي، كما قال الله تعالى: { وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ } ، وقيل: معناه كل واحد منا رسول رب العالمين.
[17] { أَنْ أَرْسِلْ } ، أي بأن أرسل، { مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، أي إلى فلسطين، ولا تستعبدهم، وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا، فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك.
[18] { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا } ، صبيا، { وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } ، وهو ثلاثون سنة.

[19] { وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ } ، يعني قتل القبطي، { وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ، قال الحسن والسدي : يعني وأنت من الكافرين بإلهك الذي تدعيه، ومعناه: على ديننا هذا الذي تعيبه. وقال أكثر المفسرين: معنى قوله وأنت من الكافرين يعني من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي، يقول ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منا نفسا وكفرت بنعمتنا. وهذا رواية العوفي عن ابن عباس : إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية.

[20] { قَالَ } ، موسى { فَعَلْتُهَا إِذًا } ، أي فعلت ما فعلت حينئذ، { وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } ، أي من الجاهلين، لم يأت من الله شيئا. وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله. وقيل: من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد. وقيل. من المخطئين.
[21] { فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ } ، إلى مدين، { فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا } ، يعني النبوة، وقال مقاتل : يعني العلم والفهم، { وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ } .

[22] { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، اختلفوا في تأويلها فحملها بعضهم على الإقرار وبعضهم على الإنكار، فمن قال هو إقرار قال عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه، ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل، مجازه: بلى وتلك نعمة لك علي أن عبدت بني إسرائيل، وتركتني فلم تستعبدني. ومن قال : هو إنكار قال قوله: وتلك نعمة هو على طريق الاستفهام أي: أو تلك نعمة؟ حذف ألف الاستفهام، كقوله: { فَهُمُ الْخَالِدُونَ } ؟ يقول: تمن علي أن ربيتني وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة؟ أو يريد: كيف تمن علي بالتربية وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه ذل، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إلي، وقيل: معناه تمن علي بالتربية. وقوله: { أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي باستعبادك بني إسرائيل وقتلك أولادهم، دفعت إليك حتى ربيتني وكفلتني ولو لم تستعبدهم وتقتلهم كان لي من أهل من يربيني ولم يلقوني في اليم، فأي نعمة لك علي؟ قوله : { عَبَّدْتَ } أي اتخذتهم عبيدا، يقال: عبدت فلانا وأعبدته وتعبدته واستعبدته، أي اتخذته عبدا.

[23] { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } ، يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله إلي يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه مما هو سؤال عن جنس

الشيء، والله منزه عن الجنسية، فأجابه موسى عليه السلام يذكر أفعاله التي يعجز عن الإتيان بمثلها.
[24] { قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } ، إنه خالقهما. قال أهل المعاني: أي كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها فأيقنوا أن إله الخلق هو الله عز وجل، فلما قال موسى ذلك تحير فرعون في جواب موسى .
[25] { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ } ، من أشراف قومه استبعادا لقول موسى ، { أَلَا تَسْتَمِعُونَ } ، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم، فزادهم موسى في البيان.
[26] { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } .
[27] { قَالَ } ، يعني فرعون ، { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } ، يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل، فزاد موسى في البيان.

[28] { قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } .
[29] { قَالَ } ، فرعون حين لزمته الحجة وانقطع عن الجواب تكبرا عن الحق: { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } ، من المحبوسين.
[30] { قَالَ } له موسى حين توعده بالسجن { أَوَلَوْ جِئْتُكَ } أي: وإن جئتك، { بِشَيْءٍ مُبِينٍ } ، بآية مبينة، ومعنى الآية أتفعل ذلك وإن أتيتك بحجة بينة؟ وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.
[31] { قَالَ } ، له فرعون , { فَأْتِ بِهِ } فإنا لن نسجنك حينئذ، { إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } . 32,
[33] { فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } ، فقال وهل غيرها، { وَنَزَعَ } ، موسى ، { يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ } .
[34] { قَالَ } فرعون . { لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } .
[35] { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } .
[36] { قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } .

[37] { يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } .
[38] { فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } ، وهو يوم الزينة. وروي عن ابن عباس قال: وافق ذلك اليوم يوم السبت في أول يوم من السنة وهو يوم النيروز.
[39] { وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ } ، لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة.

[40] { لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ } ، لموسى ، وقيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما.
[41] { فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ } .
[42] { قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } .
[43] { قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } .
[44] { فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ } .
[45] { فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } .
[46] { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } .

[47] { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } .
[48] { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ }
[49] { قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }

[50] { قَالُوا لَا ضَيْرَ } لا ضرر، { إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ }
[51] { إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } من أهل زماننا.
[52] { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } , يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر.
[53] { فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } ، يحشرون الناس يعني الشرط ليجمعوا السحرة. وقيل: حتى يجمعوا له الجيش.
[54] { إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ } ، عصابة { قَلِيلُونَ } , والشرذمة القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها شراذم.
[55] { وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ } ، يقال غاظه وأغاظه وغيظه إذا أغضبه، والغيظ والغضب واحد، يقول: أغضبونا لمخالفتهم ديننا، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا.

[56] { وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ } قال أهل التفسير: حاذرون أي مؤدون ومقوون، أي: ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون في السلاح، ومعنى حذرون أي خائفون شرهم. وقال الزجاج : الحاذر المستعد، والحذر المستيقظ. وقال الفراء : الحاذر الذي يحذرك الآن، والحذر المخوف. وكذلك لا تلقاه إلا حذرا. والحذر اجتناب الشيء خوفا منه.
[57] { فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ } ، وفي القصة البساتين كانت ممتدة على حافتي النيل، { وَعُيُونٍ } ، أنهار جارية.
[58] { وَكُنُوزٍ } ، يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة، قال مجاهد : سماها كنوزا لأنه لم يعط حق الله منها وما لم يعط حق الله منها فهو كنز وإن كان ظاهرا { وَمَقَامٍ كَرِيمٍ } ، أي مجلس حسن، قال المفسرون: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفها الأتباع. وقال مجاهد وسعيد بن جبير : هي المنابر.
[59] { كَذَلِكَ } ، كما وصفنا، { وَأَوْرَثْنَاهَا } ، بهلاكهم، { بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، وذلك أن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن.

[60] { فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ } ، يعني لحقوهم في وقت إشراق الشمس، وهو إضاءتها أي أدرك قوم فرعون موسى وأصحابه وقت شروق الشمس.

[61] { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ } ، يعني تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه { قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } , يعني سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم.
[62] { قَالَ } ، موسى ثقة بوعد الله إياه { كَلَّا } لن يدركونا ، { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } ، يدلني على طريق النجاة.
[63] { فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ } ، يعني فضربه فانفلق فانشق، { فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ } ، قطعة من الماء، { كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } ،

كالجبل الضخم.
[64] { وَأَزْلَفْنَا } يعني وقربنا، { ثَمَّ الْآخَرِينَ } ، يعني قوم فرعون، يقول: قدمناهم إلى البحر وقربناهم إلى الهلاك، وقال أبو عبيدة : وأزلفنا: جمعنا، ومنه ليلة المزدلفة أي ليلة الجمع.
[65] { وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ } .
[66] { ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ } ، فرعون وقومه. وقال سعيد بن جبير : كان البحر ساكنا قبل ذلك فلما ضربه موسى بالعصا اضطرب فجعل يمد ويجزر.

[67] { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } ، أي من أهل مصر، قيل. لم يكن آمن من أهل مصر إلا آسية امرأة فرعون وحزقيل المؤمن، ومريم بنت ماموبا التي دلت على عظام يوسف عليه السلام.
[68] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } ، العزيز في الانتقام من أعدائه، الرحيم بالمؤمنين حين أنجاهم.
[69] قوله: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ } .
[70] { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ } ، أي شيء تعبدون.
[71] { قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } ، يعني نقيم على عبادتها. قال بعض أهل العلم: إنما قال: (فنظل) لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار، دون الليل، يقال: ظل يفعل كذا إذا فعل بالنهار.
[72] { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ } ، أي هل يسمعون دعاءكم، { إِذْ تَدْعُونَ } قال ابن عباس : يسمعون لكم؟
[73] { أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ } ، قيل: بالرزق، { أَوْ يَضُرُّونَ } ، إن تركتم عبادتها.

[74] { قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } ، معناه إنها لا تسمع قولا ولا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا لكن اقتدينا بآبائنا, فيه إبطال التقليد في الدين. 75,
[76] { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ }{ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ } ، الأولون .

[77] { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي } ، يعني أعدائي ووحده على معنى أن كل معبود لكم عدو لي، فإن قيل: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهي جمادات؟ قيل: معناه فإنهم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة، كما قال تعالى: { سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } ، وقال الفراء هو من المقلوب أراد فإنهم عدو لهم لأن من عاديته فقد عاداك. وقيل: فإنهم عدو لي على معنى إني لا أتوهم ولا أطلب من جهتهم نفعا كما لا يتولى العدو ولا يطلب من جهته النفع، قوله: { إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } ، اختلفوا في هذا الاستثناء، قيل: هو استثناء منقطع، كأنه قال: فإنهم عدو لي لكن رب العالمين وليي. وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله، فقال إبراهيم : كل من تعبدون أعدائي إلا رب العالمين. وقيل: إنهم غير معبود لي إلا رب العالمين، فإني أعبده. وقال الحسين بن الفضل : معناه إلا من عند رب العالمين، ثم وصف معبوده فقال:
[78] { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } أي يرشدني إلى طريق النجاة.
[79] { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } أي يرزقني ويغذيني بالطعام والشراب، فهو رازقي ومن عنده رزقي.

[80] { وَإِذَا مَرِضْتُ } أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفا كله من الله، استعمالا لحسن الأدب كما قال الخضر : { فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } ، وقال: { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا } ، { فَهُوَ يَشْفِينِ } ، أي يبرئني من

المرض.
[81] { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } ، أدخل (ثم) هاهنا للتراخي أي يميتني في الدنيا ويحييني في الآخرة.
[82] { وَالَّذِي أَطْمَعُ } ، أرجو، { أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } ، أي خطاياي يوم الحساب. قال مجاهد : هو قوله: { إِنِّي سَقِيمٌ } ، وقوله: { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا } ، وقوله لسارة : هذه أختي، وزاد الحسن وقوله للكواكب: { هَذَا رَبِّي } . وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه وأخبار أنه لا تصلح الإلهية إلا لمن يفعل هذه الأفعال.
[83] { رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا } قال ابن عباس : معرفة حدود الله وأحكامه.
وقال مقاتل : الفهم والعلم.
وقال الكلبي : النبوة، { وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } ، بمن قبلي من النبيين في المنزلة والدرجة.

[84] { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } ، أي ثناء حسنا وذكرا جميلا وقبولا عاما في الأمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك فجعل كل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه. قال القتيبي : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة لأن القول يكون به.
[85] { وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } ، أي ممن تعطيه جنة النعيم.
[86] { وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } ، وقال هذا قبل أن يتبين له أنه عدو الله، كما سبق ذكره في سورة التوبة.
[87] { وَلَا تُخْزِنِي } لا تفضحني { يَوْمَ يُبْعَثُونَ } ، 88
[89] { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ }{ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } ، أي خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، هذا قول أكثر المفسرين، قال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض. قال الله تعالى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } قال ابن عثمان النيسابوري : هو القلب الخالي من البدعة المطمئن على السنة. 90,

[91] { وَأُزْلِفَتِ } ، قربت { الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ }{ وَبُرِّزَتِ } أظهرت، { الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } ، للكافرين. 92,
[93] { وَقِيلَ لَهُمْ } يوم القيامة، { أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ }{ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ } ، يمنعونكم من العذاب، { أَوْ يَنْتَصِرُونَ } لأنفسهم.
[94] { فَكُبْكِبُوا فِيهَا } ، قال ابن عباس : جمعوا. وقال مجاهد : دهورا. وقال مقاتل : قذفوا. وقال الزجاج : طرح بعضهم على بعض. وقال القتيبي : ألقوا على رؤوسهم. { هُمْ وَالْغَاوُونَ } ، يعني الشياطين، قاله قتادة ومقاتل . وقال الكلبي : كفرة الجن.
[95] { وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ } ، وهم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس. ويقال: ذريته.
[96] { قَالُوا } أي: قال الغاوون للشياطين والمعبودين، { وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ } ، مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضا.
[97] { تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } .
[98] { إِذْ نُسَوِّيكُمْ } ، نعدلكم, { بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } فنعبدكم.

[99] { وَمَا أَضَلَّنَا } أي: ما دعانا إلى الضلال، { إِلَّا الْمُجْرِمُونَ } . قال مقاتل : يعني الشياطين. وقال الكلبي : إلا ولونا الذين اقتدينا بهم. وقال أبو العالية وعكرمة : يعني إبليس وابن آدم الأول وهو قابيل لأنه أول من سن القتل، وأنواع المعاصي.
[100] { فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ } ، أي: من يشفع لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين.
[101] { وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ } ، أي قريب يشفع لنا يقوله الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديق هو الصادق في المودة بشرط الدين.
[102] { فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً } , أي: رجعة إلى الدنيا, { فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .
[103] { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } .
[104] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } العزيز الذي لا يغالب, فالله عزيز وهو في وصف عزته رحيم.

[105] قوله عز وجل: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } قيل للحسن البصري : يا أبا سعيد أرأيت قوله: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } و { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } و { كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ } ، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إن الآخر جاء بما جاء به الأول، فإذا كذبوا واحدا فقد كذبوا الرسل أجمعين.
[106] { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ } ، في النسب لا في الدين. { نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } .
[107] { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } ، على الوحي.
[108] { فَاتَّقُوا اللَّهَ } ، بطاعته وعبادته، { وَأَطِيعُونِ } ، فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد.
[109] { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ } ، ثوابي { إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } .
[110] { فَاتَّقُوا اللَّهَ } بطاعته وعبادته { وَأَطِيعُونِ } .
[111] { قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } السفلة. وعن ابن عباس قال: الصاغة. وقال عكرمة : الحاكة والأساكفة.

[112] { قَالَ } ، نوح ، { وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أي ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس علي من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهر أمرهم.
[113] { إِنْ حِسَابُهُمْ } ، ما حسابهم، { إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ } ، لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم. قال الزجاج : الصناعات لا تضر في الديانات. وقيل: معناه أي لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم.
[114, 115] { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ }{ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } .
[116] { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ } ، عما تقول، { لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } ، قال مقاتل والكلبي : من المقتولين بالحجارة. وقال الضحاك : من المشتومين.
[117, 118] { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ }{ فَافْتَحْ } ، فاحكم، { بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا } ، حكما { وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .
[119] { فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } ، الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان كلها.

[120] { ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ } ، أي أغرقنا بعد إنجاء نوح ، وأهله: من بقي من قومه.

[121] { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } .
[122] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } .
[123] قوله عز وجل: { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } .
[124] { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ } ، يعني في النسب لا في الدين، { هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ } .
[125] { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } ، على الرسالة، قال الكلبي : أمين فيكم قبل الرسالة فكيف تتهموني اليوم.
[126] { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } .
[127] { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } .
[128] { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ } ، قال الوالبي عن ابن عباس : بكل شرف. وقال الضحاك ومقاتل والكلبي : بكل طريق، وهو رواية العوفي عن ابن عباس ، وعن مجاهد قال: هو الفج بين الجبلين. وعنه أيضا: أنه المنظرة (1) . { آيَةً } ، علامة { تَعْبَثُونَ } ، بمن مر بالطريق، والمعنى: أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم.

---
(1) بوزن المتربة وهي المرقبة انظر مختار الصحاح ص 667 .

[129] { وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ } ، قال ابن عباس : أبنية. وقال مجاهد : قصورا مشيدة. وعن الكلبي : أنها الحصون. وقال قتادة : مآخذ الماء يعني الحياض، واحدتها مصنعة، { لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } ، أي كأنكم تبقون فيها خالدين. والمعنى: أنهم كانوا يستوثقون المصانع كأنهم لا يموتون.
[130] { وَإِذَا بَطَشْتُمْ } ، أخذتم وسطوتم، { بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } قتلا بالسيف وضربا بالسوط، والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب.
[131] { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } .
[132] { وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ } ، أي أعطاكم من الخير ما تعلمون ثم ذكر ما أعطاهم فقال:
[133, 134] { أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ }{ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } ، يعني بساتين وأنهار.
[135] { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ } ، قال ابن عباس : إن عصيتموني، { عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } .
[136] { قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا } يعني مستو عندنا، { أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ } ، الوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد. قال الكلبي : نهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا.

[137] { إِنْ هَذَا } ، ما هذا، { إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ } ، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو والكسائي ويعقوب (خلق) بفتح الخاء وسكون اللام أي اختلاق الأولين وكذبهم، دليل هذه القراءة قوله تعالى: (وتخلقون إفكا) ، وقرأ الآخرون (خلق) بضم الخاء واللام، أي عادة الأولين من قبلنا، وأمرهم أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب.
[138] { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } .
[139] { فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } .
[140] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } .
[141- 146] قوله عز وجل: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ }{ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ }{ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }{ وَمَا

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }{ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا } ، يعني في الدنيا { آمِنِينَ } ، من العذاب.

[147, 148] { فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }{ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا } ثمرها يريد ما يطلع منها من الثمر، { هَضِيمٌ } قال ابن عباس : لطيف، ومنه هضيم الكشح إذا كان لطيفا. وروى عطية عنه: يا نع نضيج. وقال عكرمة : هو اللين. وقال الحسن : هو الرخو. وقال مجاهد : متهشم متفتت إذا مس، وذلك أنه ما دام رطبا فهو هضيم، فإذا يبس فهو هشيم. وقال الضحاك ومقاتل : قد ركب بعضه بعضا حتى هضم بعضه بعضا، أي كسره. وقال أهل اللغة: هو المنضم بعضه إلى بعض في وعائه قبل أن يظهر. وقال الأزهري : الهضيم هو الداخل بعضه في بعض من النضج والنعومة. وقيل. هضيم أي هاضم يهضم الطعام. وكل هذا للطافته.
[149] { وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ } ، وقرئ: (فرهين) ، قيل: معناهما واحد. وقيل: فارهين أي حاذقين بنحتها، من قولهم: فره الرجل فراهة فهو فاره، ومن قرأ (فرهين) قال ابن عباس : أشرين بطرين. وقال عكرمة : ناعمين. وقال مجاهد : شرهين. قال قتادة : معجبين بصنيعكم. قال السدي : متجبرين. وقال أبو عبيدة : مرحين. وقال الأخفش : فرحين. والعرب تعاقب بين الهاء والحاء مثل مدحته ومدهته. قال الضحاك : كيسين.

[150،151] { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }{ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ } ، قال ابن عباس : المشركين. وقال مقاتل : هم التسعة الذين عقروا الناقة وهم.
[152] { الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } بالمعاصي، { وَلَا يُصْلِحُونَ } ، لا يطيعون الله فيما أمرهم به.
[153] { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } ، قال مجاهد وقتادة : من المسحورين المخدوعين، أي ممن يسحر مرة بعد مرة. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أي من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب، يقال: سحره أي علله بالطعام والشراب، يريد إنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك، بل:
[154] { مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ } ، على صحة ما تقول. { إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ، أنك رسول الله إلينا.
[155] { قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ } ، حظ ونصيب من الماء، { وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } .
[156] { وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } ، بعقر، { فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ } .
[157] { فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ } ، على عقرها حين رأوا العذاب.

[158] { فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } .
[159] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } .

[160- 165] قوله تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ }{ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ }{ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }{ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }{ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ } ، قال مقاتل : يعني جماع الرجال. { مِنَ الْعَالَمِينَ } ، يعني من بني آدم.
[166] { وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ } ، قال مجاهد : تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال، { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } ، معتدون مجاوزون

الحلال إلى الحرام.
[167] { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ } من قريتنا.
[168] { قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ } ، المبغضين، ثم دعا فقال:
[169] { رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ } ، من العمل الخبيث.
[170, 171] قال الله تعالى: { فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ }{ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ } ، وهي امرأة لوط بقيت في العذاب والهلاك.

[172] { ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ } أي: أهلكناهم.
[173] { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ } ، قال وهب بن منبه : الكبريت والنار.
[174] { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } .
[175] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } .
[176] قوله عز وجل: { كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ } ، وهم قوم شعيب عليه السلام، قرأ العراقيون: (الآيكة) هاهنا وفي ص بالهمزة وسكون اللام وكسر التاء، وقرأ الآخرون: (ليكة) بفتح اللام والتاء غير مهموز، جعلوها اسم البلدة، وهو لا ينصرف، ولم يختلفوا في سورة الحجر وق أنهما مهموزان مكسوران، والأيكة: الغيضة من الشجر الملتف.
[177] { إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ } ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لأنه كان منهم، وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة. { أَلَا تَتَّقُونَ } .

[178- 180] { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }{ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة.
[181] { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ } ، الناقصين لحقوق الناس بالكيل والوزن.

[182- 184] { وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ }{ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }{ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ } الخليقة , { الْأَوَّلِينَ } يعني الأمم المتقدمين، والجبلة: الخلق، يقال: جبل أي خلق.
[185- 188] { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ }{ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ }{ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }{ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } . أي من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إلي وما علي إلا الدعوة.
[189] { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ } ، وذلك أنه أخذهم حر شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حرا فخرجوا فأظلتهم سحابة وهي الظلة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا، ذكرناه في سورة هود (1) . { إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } .
[190] { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } .

---
(1) من آية 84 إلى 95 .

[191] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } .
[192-193] قوله عز وجل: { وَإِنَّهُ } ، يعني القرآن، { لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } ، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص : (نزل) خفيف (الروح الأمين) برفع الحاء والنون، أي نزل جبريل بالقرآن. وقرأ الآخرون بتشديد الزاي وفتح الحاء والنون أي: نزل الله به جبريل لقوله عز وجل: { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } .
[194] { عَلَى قَلْبِكَ } ، يا محمد حتى وعيته، { لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } ، المخوفين.
[195] { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } ، قال ابن عباس : بلسان قريش ليفهموا ما فيه.
[196] { وَإِنَّهُ } ، أي ذكر إنزال القرآن، قاله أكثر المفسرين، وقال مقاتل : ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته، { لَفِي زُبُرِ } ، كتب { الْأَوَّلِينَ } .

[197] { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً } ، قرأ ابن عامر : (تكن) بالتاء آية بالرفع، جعل الآية اسما وخبره: { أَنْ يَعْلَمَهُ } ، وقرأ الآخرون بالياء، (آية) نصب، جعلوا الآية خبر يكن، معناه: أولم يكن لهؤلاء المتكبرين علم بني إسرائيل آية، أي علامة ودلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه. قال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن هذا لزمانه وإنا نجد في التوراة نعته وصفته، فكان ذلك آية على صدقه. قوله تعالى: { أَنْ يَعْلَمَهُ } ، يعني يعلم محمد صلى الله عليه وسلم، { عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، قال عطية : كانوا خمسة: عبد الله بن سلام وابن يا مين وثعلبة وأسد وأسيد .
[198] { وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ } ، يعني القرآن، { عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ } جمع الأعجمي، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربيا في النسب، والعجمي: منسوب إلى العجم, وإن كان فصيحا. ومعنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربي اللسان.

[199] { فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ } بغير لغة العرب، { مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ } وقالوا: ما نفقه قولك، نظيره قوله عز وجل: { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ } ، وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة من اتباعه.
[200] { كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ } ، قال ابن عباس والحسن ومجاهد أدخلنا الشرك والتكذيب { فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } .
[201] { لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ } ، أي بالقرآن، { حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } ، يعني عند الموت.
[202] { فَيَأْتِيَهُمْ } ، يعني العذاب، { بَغْتَةً } ، فجأة, { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } به في الدنيا.
[203] { فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ } ، أي لنؤمن ونصدق ، يتمنون الرجعة والنظرة. قال مقاتل : لما أوعد النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب، قالوا: إلى متى توعدنا بالعذاب متى هذا العذاب؟ قال الله تعالى:
[204, 205] { أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ }{ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ } ، كثيرة في الدنيا يعني كفار مكة ولم نهلكهم.

[206] { ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ } يعني بالعذاب.

[207] { مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ } ، به في تلك السنين. والمعنى أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئا، ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط.
[208] { وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ } رسل ينذرونهم.
[209] { ذِكْرَى } محلها نصب أي ينذرونهم، تذكرة، وقيل: رفع أي تلك ذكرى، { وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.
[210] { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ } ، وذلك أن المشركين كانوا يقولون: إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال جل ذكره: { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ } أي بالقرآن، الشياطين.
[211] { وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ } ، أن ينزلوا بالقرآن, { وَمَا يَسْتَطِيعُونَ } ذلك.
[212] { إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ } أي عن استراق السمع من السماء، { لَمَعْزُولُونَ } ، أي محجوبون بالشهب مرجومون.

[213] { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق علي ولو اتخذت إلها غيري لعذبتك.
[214] { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لما نزلت { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: "أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي "؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فقال أبو لهب: تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا ؟! ثم قال: فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) » (1) .
[215] قوله عز وجل: { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ } يعني ألن جانبك { لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .
[216] { فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } من الكفر وعبادة غير الله.
[217] { وَتَوَكَّلْ } ، قرأ أهل المدينة والشام فتوكل بالفاء، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الباقون بالواو (وتوكل) ، { عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } ليكفيك كيد الأعداء.

____
(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 737 ومسلم في الإيمان رقم (208) 1 / 193 والمصنف في شرح السنة 13 / 327 .

[218] { الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ } إلى صلاتك، عن أكثر المفسرين. وقال مجاهد : الذي يراك أينما كنت وقيل : حين تقوم لدعائهم.
[219] { وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ } ، يعني يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك. قال عكرمة وعطية عن ابن عباس : في الساجدين أي في المصلين. وقال مقاتل والكلبي : أي مع المصلين في الجماعة، يقول: يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين في الجماعة. وقال الحسن : وتقلبك في الساجدين أي تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين . وقال سعيد بن جبير : يعني وتصرفك في

أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك والساجدون. هم الأنبياء. وقال عطاء عن ابن عباس . أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة.

[220] { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } .

[221] { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ } ، أخبركم، { عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ } ، هذا جواب قولهم: (تتنزل عليه الشياطين) . ثم بين فقال:

[222] { تَنَزَّلُ } أي تتنزل، { عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ } ، كذاب { أَثِيمٍ } فاجر، قال قتادة : هم الكهنة يسترق الجن السمع ثم يلقون إلى أوليائهم من الإنس. وهو قوله عز وجل.

[223] { يُلْقُونَ السَّمْعَ } ، أي يستمعون من الملائكة مستقرين فيلقون إلى الكهنة، { وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } لأنهم يخلطون به كذبا كثيرا.

[224] قوله عز وجل: { وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } ، قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم و (الغاوون) ، هم الرواه الذين يروون هجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين. وقال قتادة ومجاهد : الغاوون هم الشياطين.

[225] { أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ } ، من أودية الكلام، { يَهِيمُونَ } ، حائرون وعن طريق الحق جائرون، والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له. قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: في كل لغو يخوضون. وقال مجاهد : في كل فن يفتنون. وقال قتادة : يمدحون بالباطل ويستمعون ويهجون بالباطل، فالوادي مثل لفنون الكلام، كما يقال: أنا في واد وأنت في واد. وقيل: في كل واد يهيمون أي على كل حرف من حروف الهجاء يصوغون القوافي.

[226] { وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ } ، أي: يكذبون في شعرهم يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة، ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجيبون شعراء الجاهلية، ويهجون شعراء الكفار، وينافحون عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ، فقال:

[227] { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: « إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل » (1) . وعن عائشة قالت: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله يؤيد حسان بروح القدس، ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله » (2) . { وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا } أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله، { وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } ، قال مقاتل : انتصروا في المشركين لأنهم بدأوا بالهجاء، ثم أوعد شعراء المشركين فقال: { وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم { أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } ، أي مرجع يرجعون بعد الموت. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إلى جهنم والسعير. والله أعلم.

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في كتاب الجامع 11 / 263 وصححه ابن حبان ص 494 من موارد الظمآن والبيهقي في السنن 10 / 239 والإمام أحمد في

المسند 3 / 456 والمصنف في شرح السنة 12 / 378 .
(2) أخرجه الترمذي في الأدب 8 / 137 وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وصححه الحاكم 3 / 487 والمصنف في شرح السنة 12 / 377 .

(27) سورة النمل
[1] { طس } قال ابن عباس : هو اسم من أسماء الله تعالى، وقد سبق الكلام في حروف الهجاء. { تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ } ، أي هذه آيات القرآن، { وَكِتَابٍ مُبِينٍ } ، يعني وآيات كتاب مبين.
[2] { هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ، يعني هو هدى من الضلالة وبشرى للمؤمنين المصدقين به بالجنة.
[3] { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } ، أي يؤدون الصلاة بأركانها وشروطها، { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } ، يعطون ما وجب عليهم من زكاة أموالهم لأربابها، { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } .
[4] { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ } ، القبيحة حتى رأوها حسنة، { فَهُمْ يَعْمَهُونَ } ، أي يترددون فيها متحيرين.
[5] { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ } ، شدة العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ببدر، { وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار.
[6] { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ } ، أي تؤتى القرآن، { مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } ، أي وحيا من عند الله الحكيم العليم.

[7] قوله عز وجل: { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ } ، أي واذكر يا محمد إذا قال موسى لأهله في مسيره من مدين إلى مصر، { إِنِّي آنَسْتُ نَارًا } ، أي أبصرت نارا، { سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ } ، أي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق أو النار، وكان قد ترك الطريق، { أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ } ، قرأ أهل الكوفة بشهاب بالتنوين جعلوا القبس نعتا للشهاب، وقرأ الآخرون بلا تنوين على الإضافة، وهو إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الشهاب والقبس متقاربان في المعنى، وهو العود الذي في أحد طرفيه فيه نار، وليس في الطرف الآخر نار. وقال بعضهم: الشهاب هو شيء ذو نور، مثل العمود، والعرب تسمي كل أبيض ذي نور شهابا، والقبس: القطعة من النار، { لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } ، تستدفئون من البرد وكان ذلك في شدة الشتاء.

[8] { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا } أي بورك على من في النار أو من في النار، والعرب تقول: باركه الله وبارك فيه وبارك عليه، بمعنى واحد. وقال قوم: البركة راجعة إلى موسى والملائكة، معناه: بورك في من طلب النار، وهو موسى عليه السلام، ومن حولها وهم الملائكة الذين حول النار، ومعناه: بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار، وهذا تحية من عند الله عز وجل لموسى بالبركة، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت. ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور، وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا، ومن في النار هم الملائكة، وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح، ومن حولها موسى لأنه كان بالقرب منها، ولم يكن فيها. وقيل: من في النار ومن حولها جميعا الملائكة وقيل: من في النار موسى ومن حولها الملائكة، وموسى وإن لم يكن في النار كان قريبا منها كما يقال: بلغ

فلان المنزل إذا قرب منه، وإن لم يبلغه بعد، وذهب بعضهم إلى أن البركة راجعة إلى النار. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: معناه

بوركت النار. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سمعت أبيا يقرأ: أن بوركت النار ومن حولها، و (من) قد يأتي بمعنى ما و (ما) قد يكون صلة في الكلام، كقوله: { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ } ، ومعناه: بورك في النار وفيمن حولها وهم الملائكة وموسى عليه السلام، وسمى النار مباركة كما سمى البقعة مباركة فقال: { فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ } ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن في قوله: { بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ } ، يعني قدس من في النار، وهو الله عنى به نفسه، على معنى أنه نادى موسى منها وأسمعه كلامه من جهتها، ثم نزه الله نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب، فقال جل ذكره. { وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، ثم تعرف إلى موسى بصفاته، فقال:
[9] { يا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ، والهاء في قوله: (إنه) عماد وليس بكناية، وقيل: هي كناية عن الأمر والشأن، أي الأمر والشأن أي المعبود أنا، ثم أرى موسى آية على قدرته، فقال:

[10] { وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ } ، تتحرك , { كَأَنَّهَا جَانٌّ } وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها، { وَلَّى مُدْبِرًا } ، وهرب من الخوف، { وَلَمْ يُعَقِّبْ } ، ولم يرجع، يقال: عقب فلان إذا رجع، وكل راجع معقب. وقال قتادة : ولم يلتفت، فقال الله عز وجل: { يا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ } ، يريد إذا آمنهم لا يخافون أما الخوف الذي هو شرط الإيمان فلا يفارقهم، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أخشاكم لله » (1) .

---

(1) قطعة من حديث رواه البخاري في النكاح 9 / 104 ومسلم في الصيام رقم (1108) 2 / 779.

[11] وقوله: { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، واختلف في هذا الاستثناء، قيل: هذا إشارة إلى أن موسى حين قتل القبطي خاف من ذلك، ثم تاب فقال: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فغفر له، قال ابن جريج : قال الله تعالى لموسى : إنما أخفتك لقتلك النفس. وقال: معنى الآية لا يخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فعلى هذا التأويل يكون الاستثناء صحيحا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله: { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ } ثم ابتدأ الخبر عن حال من ظلم من الناس كافة، وفي الآية متروك استغنى عن ذكره بدلالة الكلام عليه، تقديره: فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم. قال بعض العلماء: ليس هذا باستثناء من المرسلين لأنه لا يجوز عليهم الظلم، بل هو استثناء من المتروك في الكلام، معناه لا يخاف لدي المرسلون، إنما الخوف على غيرهم من الظالمين، إلا من ظلم ثم تاب، وهذا من الاستثناء المنقطع، معناه: لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف، فإن تاب وبدل حسنا بعد سوء فإن الله غفور رحيم، يعني يغفر الله له ويزيل الخوف عنه. وقال بعض النحويين: (إلا هاهنا بمعنى ولا،

يعني: لا يخاف لدي المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء يقول: لا يخاف لدي المرسلون ولا المذنبون التائبون كقوله تعالى. { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } يعني ولا الذين ظلموا، ثم أراه الله آية

أخرى فقال:
[12] { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ } ، والجيب حيث جبب من القميص، أي قطع، قال أهل التفسير: كانت عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار فأدخل يد، في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق مثل البرق، فذلك قوله: { تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } ، من غير برص، { فِي تِسْعِ آيَاتٍ } ، يقول هذه آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن، { إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } .
[13] { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً } ، بينة واضحة يبصر بها، { قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } ، ظاهر.

[14] { وَجَحَدُوا بِهَا } ، أي أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله، { وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ } ، يعني علموا أنها من عند الله، قوله: { ظُلْمًا وَعُلُوًّا } ، يعني شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ، { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } .
[15] قوله عز وجل: { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا } ، يعني علم القضاء ومنطق الطير والدواب وتسخير الشياطين وتسبيح الجبال، { وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا } ، بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس { عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } .

[16] { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ } ، نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابنا، وأعطي سليمان ما أعطي داود من الملك، وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين. وقال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدا من سليمان ، وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى، { وَقَالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } سمى صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام الناس { وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } ، يؤتى الأنبياء والملوك، قال ابن عباس : من أمر الدنيا والآخرة. وقال مقاتل : يعني النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح ، { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } ، الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا.
[17] قوله عز وجل: { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ } ، وجمع لسليمان ، { جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ } في مسيره، { فَهُمْ يُوزَعُونَ } ، فهم يكفون. وقال مقاتل : يوزعون يساقون، وقال السدي : يوقفون. وقيل: يجمعون. وأصل الوزع الكف والمنع.

[18] قوله عز وجل: { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ } قال كعب : إنه واد بالطائف، وقال قتادة ومقاتل . هو أرض بالشام. { قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ } ولم تقل: ادخلن لأنه لما جعل لهم قولا كالآدميين خوطبوا بخطاب الآدميين، { لَا يَحْطِمَنَّكُمْ } ، لا يكسرنكم، { سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ } ، والحطم الكسر، { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ، فسمع سليمان قولها. ومعنى الآية: إنكم لو لم تدخلوا مساكنكم وطؤوكم ولم يشعروا بكم.

[19] قوله عز وجل: { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا } قال الزجاج : أكثر ضحك الأنبياء التبسم. وقوله: { ضَاحِكًا } أي متبسما. قيل: كان أوله التبسم وآخره الضحك ثم حمد سليمان ربه على ما أنعم عليه، { وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي } ، ألهمني ، { أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } ، أي أدخلني في جملتهم ،

وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم، قال ابن عباس : يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ومن بعدهم، من النبيين. وقيل: أدخلني الجنة برحمتك من عبادك الصالحين.
[20] قوله عز وجل: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ } أي: طلبها وبحث عنها، والتفقد طلب ما فقد، ومعنى الآية. طلب ما فقد من الطير، { فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ } ، أي ما للهدهد لا أراه، ثم أدركه الشك في غيبته، فقال: { أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } ، يعني أكان من الغائبين، والميم صلة، وقيل: أم بمعنى بل، ثم أوعده على غيبته، فقال:

[21] { لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ } ، لأقطعن حلقه، { أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } ، بحجة بينة في غيبته، وعذر ظاهر.
[22] { فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ } ، أي غير طويل، { فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } ، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته، يقول: علمت ما لم تعلم وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك، { وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ } اسم البلد أو اسم رجل، { بِنَبَإٍ } ، بخبر { يَقِينٍ } ، فقال سليمان : وما ذاك؟ قال:

[23] { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ } ، وكان اسمها بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان ، وكان أبوها ملكا عظيم الشأن، { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة، { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } سرير ضخم كان مضروبا من الذهب مكللا بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوله من الياقوت والزمرد عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.
[24] { وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ } .

[25] { أَلَّا يَسْجُدُوا } ، قرأ أبو جعفر والكسائي (ألا يسجدوا) بالتخفيف وإذا وقفوا يقولون: ألا يأثم يبتدئون. اسجدوا، على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وجعلوه أمرا من عند الله مستأنفا، وحذفوا هؤلاء اكتفاء بدلالة يا عليها، وذكر بعضهم سماعا من العرب ألا يا ارحمونا، يريدون ألا يا قوم وعلى هذا يكون قوله ألا كلاما معترضا من غير القصة إما من الهدهد وإما من سليمان . قال أبو عبيدة : هذا أمر من الله مستأنف يعني يا أيها الناس اسجدوا. وقرأ الآخرون ألا يسجدوا بالتشديد بمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا، { لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ } ، أي الخفي المخبأ، { فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، أي ما خبأت. قال أكثر المفسرين. خبء السماء: المطر، وخبء الأرض: النبات. وفي قراءة عبد الله : (يخرج الخبء من السماوات والأرض) ، ومن وفي يتعاقبان تقول العرب: لأستخرجن العلم فيكم يريد منكم. وقيل: معنى الخبء الغيب، يريد يعلم غيب السماوات والأرض، { وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } ، قرأ الكسائي وحفص عن عاصم بالتاء فيهما لأن أول الآية خطاب على قراءة الكسائي بتخفيف ألا وقرأ الآخرون بالياء.

[26] { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } ، أي هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره. وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيما فهو صغير وحقير في جنب عرشه عز وجل، تم هاهنا كلام الهدهد، فلما فرغ الهدهد من كلامه.
[27] (قَالَ) ، سليمان للهدهد { سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ } , فيما أخبرت { أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ثم كتب سليمان كتابا من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس

ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين، قال ابن جريج : لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه. وقال قتادة : وكذلك كل الأنبياء كانت تكتب جملا لا يطيلون ولا يكثرون، فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه. فقال للهدهد:

[28] { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ } ، تنح عنهم فكن قريبا منهم، { فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } ، يردون من الجواب. وقال ابن زيد : في الآية تقديم وتأخير مجازها: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم، أي انصرف إلي فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به إلى بلقيس ، فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها.
[29] { قَالَتْ } ، لهم بلقيس ، { يا أَيُّهَا الْمَلَأُ } ، وهم أشراف الناس وكبراؤهم { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } ، قال عطاء والضحاك : سمته كريما لأنه كان مختوما، وقال قتادة ومقاتل : كتاب كريم أي حسن، وروي عن ابن عباس : كريم أي شريف لشرف صاحبه، وقيل: سمته كريما لأنه كان مصدرا ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم بينت الكتاب.
[30] فقالت : { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ } ، وبينت المكتوب فقالت { وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } .

[31] { أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ } ، قال ابن عباس : أي لا تتكبروا علي. وقيل: لا تتعظموا ولا تترفعوا علي. وقيل: معناه لا تمتنعوا علي من الإجابة، فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر، { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } ، مؤمنين طائعين. قيل: هو من الإسلام، وقيل: هو من الاستسلام.
[32] { قَالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي } ، أشيروا علي فيما عرض لي وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، { مَا كُنْتُ قَاطِعَةً } ، قاضية وفاصلة، { أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ } أي تحضرون.
[33] { قَالُوا } ، مجيبين لها، { نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ } ، في القتال, { وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ } عند الحرب، قال مقاتل : أرادوا بالقوة كثرة العدد وبالبأس الشديد الشجاعة، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك ثم قالوا، { وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ } ، أيتها الملكة في القتال وتركه، { فَانْظُرِي } ، من الرأي، { مَاذَا تَأْمُرِينَ } ، تجدين لأمرك مطيعين.

[34] { قَالَتْ } ، بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال، { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً } ، عنوة، { أَفْسَدُوهَا } خربوها، { وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً } ، أي أهانوا أشرافها وكبراءها، كي يستقيم لهم الأمر تحذرهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وتناهى الخبر عنها هاهنا، فصدق الله قولها فقال: { وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } ، أي كما قالت هي يفعلون.
[35] ثم قالت: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ } ، والهدية هي العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إني مرسلة إليهم أي إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكي وأختبره بها أملك هو أم نبي؟ فإن يكن ملكا قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه، فذلك قوله تعالى: { فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } ، فأهدت إليه، فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعا إلى سليمان فأخبره الخبر كله، ثم رد سليمان الهدية.

[36] كما قال الله تعالى: { فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ } ، أعطاني الله من النبوة والدين والحكمة والملك، { خَيْرٌ } ، أفضل، { مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } ، لأنكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة بها تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض، فأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحدا، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة، ثم قال للمنذر بن عمرو وأمير الوفد.

[37] { ارْجِعْ إِلَيْهِمْ } ، بالهدية { فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ } ، لا طاقة لهم، { بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا } ، أي من أرضهم وبلادهم وهي سبأ، { أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ } ، ذليلون إن لم يأتوني مسلمين، قال وهب وغيره من أهل الكتب: فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت: قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان : إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك فأقبل سليمان حينئذ على جنوده.

[38] { قَالَ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } ، أي مؤمنين، وقال ابن عباس : طائعين، واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها، فقال أكثرهم: لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها، وقيل: ليريها قدرة الله وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها، وقال قتادة : لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد فأحب أن يراه. قال ابن زيد : أراد أن يأمر بتنكره وتغييره ليختبر بذلك عقلها.

[39] { قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ } ، وهو المارد القوي، قال ابن عباس : العفريت الداهية. وقال الضحاك - هو الخبيث. وقال الربيع : الغليظ، قال الفراء : القوي الشديد، وقيل. هو صخرة الجني وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه، { أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ } ، أي من مجلسك الذي تقضي فيه، قال ابن عباس : وكان له كل غداة مجلس يقضي فيه إلى متسع النهار، { وَإِنِّي عَلَيْهِ } أي على حمله { لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } على ما فيه من الجواهر، فقال سليمان : أريد أسرع من هذا.

[40] فـ { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ } ، واختلفوا فيه فقال بعضهم: هو جبريل. وقيل: هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان . وقال أكثر المفسرين : هو آصف بن برخيا ، وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان ، قال له عالم من بني إسرائيل آتاه الله علما وفهما : { أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } ، قال سليمان : هات، قال أنت النبي ابن النبي، وليس أحد أوجه عند الله منك فإن دعوت الله وطلبت إليه كان عندك، فقال: صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت، وقوله تعالى: { قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } قال سعيد بن جبير . يعني من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى ، وهو أن يصل إليك من كان منك على مد بصرك. قال قتادة : قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر. وقال مجاهد : يعني إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئا. قال وهب : تمد عينيك فلا ينتهي طرفك إلى مداه، حتى أمثله بين يديك { فَلَمَّا رَآهُ } ، يعني رأى سليمان العرش، { مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ } ، محمولا إليه من مأرب إلى الشام في قدر ارتداد الطرف، {

قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ } ، نعمه ، { أَمْ أَكْفُرُ } ، فلا أشكرها، { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } ، أي يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها، لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة، { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ } ، عن شكره { كَرِيمٌ } ، بأفضال على من يكفر نعمه.

[41] قوله تعالى: { قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا } ، يقول: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، قال قتادة ومقاتل : هو أن يزاد فيه وينقص منه، وروي أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، وجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر، { نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي } ، إلى عرشها فتعرفه، { أَمْ تَكُونُ مِنَ } ، الجاهلين، { الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ } ، إليه، إنما حمل سليمان على ذلك كما ذكره وهب ومحمد بن كعب وغيرهما: أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن وذلك أن أمها كانت جنية، وإذا ولدت له ولدا لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأساؤوا الثناء عليها ليزهدوه فيها وقالوا: إن في عقلها شيئا وإن رجلها كحافر الحمار وأنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح.

[42] { فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ } , لها { أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ } قال مقاتل : عرفته لكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها. وقال عكرمة : كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من أن تكذب، ولم تقل لا خوفا من التكذيب، قالت: كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر وقيل: اشتبه عليها أمر العرش لأنها تركته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها، قيل لها فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب، فقالت: { وَأُوتِينَا الْعِلْمَ } بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدية والرسل، { مِنْ قَبْلِهَا } ، من قبل الآية في العرش { وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } ، منقادين طائعين لأمر سليمان ، وقيل: قوله: { وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا } قاله سليمان ، يقول: وأوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وكنا مسلمين، هذا قول مجاهد . وقيل: معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله.

[43] قوله عز وجل: { وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ } أي منعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس أن تعبد الله، أي صدها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله، فعلى هذا التأويل يكون (ما) في محل الرفع. وقيل: معناه ما صدها عن عبادة الله نقصان عقلها كما قالت الجن: إن في عقلها شيئا بل ما كانت تعبد من دون الله. وقيل: معناه وصدها سليمان ما كانت تعبد من دون الله أي منعها من ذلك وحال بينها وبينه فيكون محل (ما) نصبا، { إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } ، هذا استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس، فنشأت بينهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس.

[44] قوله : { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ } الآية، وذلك أن سليمان أراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها لما قالت الشياطين: إن رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين، أمر الشياطين فبنوا له صرحا أي قصرا من زجاج، وقيل: بيتا من زجاج كأنه الماء بياضا وقيل: الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء. وقيل: إنما بنى الصرح ليختبر

عقلها وفهمها، فلما جاءت قيل لها: ادخلي الصرح، { فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً } ، وهي معظم الماء, { وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا } لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس قدما وساقا إلا أنها كانت شعراء الساقين، فلما رأى سليمان ذلك { قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ } ، مملس مستو, { مِنْ قَوَارِيرَ } وليس بماء، ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت، { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } ، بالكفر، وقال مقاتل : لما رأت السرير والصرح علمت أن ملك سليمان من الله فقالت: رب إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك، { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } أي أخلصت له التوحيد، وقيل: إنها

لما بلغت الصرح فظنته لجة، قالت في نفسها إن سليمان يريد أن يغرقني، وكان القتل علي أهون من هذا فقولها: { ظَلَمْتُ نَفْسِي } تعني بذلك الظن.

[45] قوله عز وجل: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ } ، أي أن، { اعْبُدُوا اللَّهَ } ، وحده، { فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ } ، مؤمن وكافر، { يَخْتَصِمُونَ } ، في الدين، قال مقاتل واختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ } ، إلى قوله: { يا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } .
[46] فـ { قَالَ } ، لهم صالح، { يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ } ، بالبلاء والعقوبة، { قَبْلَ الْحَسَنَةِ } ، العافية والرحمة، { لَوْلَا } ، هلا { تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ } بالتوبة من كفركم، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } .

[47] { قَالُوا اطَّيَّرْنَا } ، أي تشاءمنا، وأصله تطيرنا، { بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ } ، قيل: وإنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم. وقيل: لأنه أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا فقالوا: أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك، { قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ } ، أي ما يصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره وهو مكتوب عليكم، سمي طائرا لسرعة نزوله بالإنسان فإنه لا شيء أسرع من قضاء محتوم، قال ابن عباس : الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم. وقيل: طائركم أي عملكم عند الله، سمي طائرا لسرعة صعوده إلى السماء. { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } ، قال ابن عباس : تختبرون بالخير والشر، نظيره قوله تعالى: { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } ، وقال محمد بن كعب القرظي : تعذبون.
[48] قوله تعالى: { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ } ، يعني مدينة ثمود وهي الحجر، { تِسْعَةُ رَهْطٍ } ، من أبناء أشرافهم، { يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } ، وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة وهم غواة قوم صالح ورأسهم قدار بن سالف ، وهو الذي تولى عقرها كانوا يعملون بالمعاصي.

[49] { قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ } ، تحالفوا، يقول بعضهم لبعض: احلفوا بالله أيها القوم، وموضع تقاسموا جزم على الأمر، وقال قوم: محله نصب على الفعل الماضي، يعني أنهم تحالفوا وتواثقوا، تقديره: قالوا متقاسمين بالله، { لَنُبَيِّتَنَّهُ } ، أي: لنقتلنه بياتا أي ليلا، { وَأَهْلَهُ } ، أي قومه الذين أسلموا معه، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي (لتبيتنه) و (لتقولن) بالتاء فيهما وضم لام الفعل على الخطاب، وقرأ الآخرون بالنون فيهما وفتح لام الفعل، { ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ } ، أي لولي دمه، { مَا شَهِدْنَا } ما حضرنا، { مَهْلِكَ أَهْلِهِ } ، أي إهلاكهم، ولا

ندري من قتله، ومن فتح الميم فمعناه هلاك أهله، { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } ، في قولنا ما شهدنا ذلك.
[50] { وَمَكَرُوا مَكْرًا } غدروا غدرا حين قصدوا تبييت صالح والفتك به، { وَمَكَرْنَا مَكْرًا } ، جزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم، { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } .

[51] { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا } ، قرأ أهل الكوفة (أنا) بفتح الألف ردا على العاقبة، أي أنا دمرناهم، وقرأ الآخرون (إنا) بالكسر على الاستئناف، { دَمَّرْنَاهُمْ } ، أي أهلكناهم التسعة. واختلفوا في كيفية هلاكهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الملائكة، فقتلهم. قال مقاتل : نزل في سفح جبل ينظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم، { وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ } ، أهلكهم الله بالصيحة.
[52] { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً } ، نصب على الحال أي خالية، { بِمَا ظَلَمُوا } ، أي بظلمهم وكفرهم، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } ، لعبرة، { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ، قدرتنا.
[53] { وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } ، يقال: كان الناجون منهم أربعة آلاف.

[54] قوله تعالى: { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ } وهي الفعلة القبيحة، { وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } ، أي تعلمون أنها فاحشة. وقيل: معناه يرى بعضكم بعضا وكانوا لا يستترون عتوا منهم.
[55] { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } .

[56] { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } من أدبار الرجال.
[57] { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا } ، قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا، { مِنَ الْغَابِرِينَ } ، أي الباقين في العذاب.
[58] { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا } ، وهو الحجارة، { فَسَاءَ } فبئس، { مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ } .

[59] قوله تعالى: { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } ، هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية، وقيل: على جميع نعمه، { وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } ، قال مقاتل : هم الأنبياء والمرسلون، دليله قوله عز وجل: { وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } ، وقال ابن عباس في رواية أبي مالك: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الكلبي . هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل: هم المؤمنين من السابقين واللاحقين، { آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ } ، قرأ أهل البصرة وعاصم : (يشركون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، يخاطب أهل مكة وفيه إلزام الحجة على المشركين بعد هلاك الكفار، يقول: آلله خير لمن عبده أم الأصنام خير لمن عبدها والمعنى: أن الله نجى من عبده من الهلاك، والأصنام لم تغن شيئا عن عابديها عند نزول العذاب بهم.

[60] { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } ، معناه آلهتكم خير أم الذي خلق السماوات والأرض، { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } ، يعني المطر، { فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ } ، بساتين جمع حديقة، قال الفراء : الحديقة البستان المحاط عليه، فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة، { ذَاتَ بَهْجَةٍ } ، أي منظر حسن والبهجة: الحسن يبتهج به من يراه، { مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا } ، أي ما ينبغي لكم، لأنكم لا تقدرون عليها. { أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ } ، استفهام على طريق الإنكار أي هل معه معبود سواه يعينه على صنعه بل ليس معه إله. { بَلْ هُمْ قَوْمٌ } ، يعني كفار مكة، { يَعْدِلُونَ } يشركون.
[61] { أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا } ، لا تميد بأهلها، { وَجَعَلَ خِلَالَهَا } ، وسطها { أَنْهَارًا } تطرد بالمياه، { وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ } ، جبالا ثوابت، { وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ } ، العذب والمالح، { حَاجِزًا } مانعا لئلا يختلط أحدهما بالآخر، { أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ، توحيد ربهم وسلطانه.

[62] { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ } ، المكروب المجهود، { إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ } ، الضر، { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ } ، سكانها يهلك قرنا وينشئ آخر. وقيل: يجعل أولادكم خلفاءكم . وقيل : جعلكم خلفاء الجن في الأرض. { أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } ، قرأ أبو عمرو بالياء والآخرون بالتاء.
[63] { أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } إذا سافرتم،{ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } أي قدام المطر، { أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } .

[64] { أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ، بعد الموت، { وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } ، أي من السماء المطر ومن الأرض النبات، { أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } ، حجتكم على قولكم أن مع الله إلها آخر. { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } .
[65] { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } ، نزلت في المشركين حيث سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة، { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ } ، متى ، { يُبْعَثُونَ } .

[66] { بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ } ، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو : (أدرك) على وزن أفعل أي بلغ ولحق، كما يقال: أدركه علمي إذا لحقه وبلغه، يريد ما جهلوا في الدنيا وسقط علمه عنهم أعلموه في الآخرة. وقال مجاهد : يدرك علمهم، { فِي الْآخِرَةِ } ، ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم. قال مقاتل : بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكوا وعموا عنه في الدنيا وهو قوله: { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا } ، يعني هم اليوم في شك من الساعة وقرأ الآخرون بل ادارك موصولا مشددا مع الألف بعد الدال المشدد، يعني تدارك وتتابع علمهم في الآخرة وتلاحق، وقيل: معناه اجتمع علمهم حين عاينوها في الآخرة أنها كائنة، وهم في شك منها في وقتهم، فيكون بمعنى الأول، وقيل: هو على طريق الاستفهام، معناه: هل تدارك وتتابع علمهم بذلك في الآخرة؟ يعني: لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه، لأن في الاستفهام ضربا من الجحد يدل عليه، قراءة ابن عباس (بلى) بإثبات الياء، (أدارك) بفتح الألف على الاستفهام، يعني: لم يدرك، وجملة القول فيه أن الله أخبر أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة

وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب، وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا، وذكر علي بن عيسى أن معنى (بل) هاهنا لو ومعناه لو أدركوا في الدنيا ما أدركوا في الآخرة لم يشكوا بل هم في شك منها، بل هم اليوم في الدنيا في شك من الساعة. { بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ } ، جمع عم وهو الأعمى القلب. قال الكلبي : يقول هم جهلة بها.

[67] { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، يعني مشركي مكة، { أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ } ، من قبورنا أحياء، قرأ أهل المدينة (إذا) غير مستفهم (أئنا) بالاستفهام، وقرأ ابن عامر والكسائي (أئنا) بهمزتين أننا بنونين، وقرأ الآخرون باستفهامها.

[68] { لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا } ، أي هذا البعث، { نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ } ، أي من قبل محمد وليس ذلك بشيء { إِنْ هَذَا } ، ما هذا، { إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } ، أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها.

[69] { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } .

[70] { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } ، على تكذيبهم إياك وإعراضهم عنك، { وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا أعقاب مكة.

[71] { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } .

[72] { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ } ، أي دنا وقرب، { لَكُمْ } وقيل تبعكم والمعنى ردفكم أدخل فيه اللام كما أدخل في قوله: { لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } قال الفراء : اللام صلة زائدة كما تقول: نقدته مائة ونقدت له { بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ } من العذاب فحل بهم ذلك يوم بدر.

[73] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } ، قال مقاتل : على أهل مكة حيث لم يعجل عليهم العذاب , { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ } ، ذلك.

[74] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ } تخفي , { صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } .

[75] { وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ } , أي جملة غائبة من مكتوم سر وخفي أمر وشيء غائب , { فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } , أي في اللوح المحفوظ.

[76] { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } , أي يبين لهم , { أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } من أمر الدين , قال الكلبي : إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزابا يطعن بعضهم على بعض ، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه .

[77] { وَإِنَّهُ } ، يعني القرآن { لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } .

[78] { إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي } , يفصل , { بَيْنَهُمْ } , أي بين المختلفين في الدين يوم القيامة , { بِحُكْمِهِ } , الحق , { وَهُوَ الْعَزِيزُ } , المنيع فلا يرد له أمر, { الْعَلِيمُ } , بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء .

[79] { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } البين.

[80] { إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى } ، يعني الكفار، { وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } ، معرضين، فإن قيل ما معنى قوله: { وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } ، وإذا كانوا صما لا يسمعون سواء ولوا أو لم يولوا؟ قيل: ذكره على سبيل التأكيد والمبالغة. وقيل: الأصم إذا كان حاضرا فقد يسمع برفع الصوت ويفهم بالإشارة، فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم. قال قتادة : الأصم إذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان، ومعنى الآية

أنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، والأصم الذي لا يسمع.

[81] { وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ } ، قرأ الأعمش وحمزة (تهدي) بالتاء وفتحها على الفعل (العمي) بنصب الياء هاهنا وفي الروم، وقرأ الآخرون بهادي بالياء على الاسم، (العمي) بكسر الياء، { عَنْ ضَلَالَتِهِمْ } أي ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان، { إِنْ تُسْمِعُ } ، ما تسمع، { إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا } ، إلا من يصدق بالقرآن أنه من الله ، { فَهُمْ مُسْلِمُونَ } مخلصون.

[82] قوله تعالى: { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ } ، وجب العذاب عليهم، وقال قتادة : إذا غضب الله عليهم، { أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ } ، واختلفوا في كلامها، فقال السدي : تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحد هذا مؤمن، وتقول لآخر: هذا كافر. وقيل: كلامها ما قال الله تعالى: { أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ } ، قال مقاتل : تكلمهم بالعربية، فتقول: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث، قرأ أهل الكوفة (أن الناس) بفتح الألف أي بأن الناس، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، أي إن الناس كانوا بآيتنا لا يوقنون قبل خروجها. قال ابن عمر : وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وقرأ سعيد بن جبير وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي : (تكلمهم) وبفتح التاء وتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح، وقال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية (تكلمهم) أو (تكلم) قال: كل ذلك تفعل، تكلم المؤمن وتكلم الكافر.

[83] قوله تعالى: { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا } أي من كل قرن جماعة، { مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا } ، وليس من هاهنا للتبعيض لأن جميع المكذبين يحشرون، { فَهُمْ يُوزَعُونَ } ، يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقوا إلى النار.
[84] { حَتَّى إِذَا جَاءُوا } ، يوم القيامة، { قَالَ } ، الله لهم ، { أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا } ، ولم تعرفوها حق معرفتها، { أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، حين لم تفكروا فيها ومعنى الآية أكذبتم بآياتي غير عالمين بها ولم تفكروا في صحتها بل كذبتم بها جاهلين.
[85] { وَوَقَعَ الْقَوْلُ } ، وجب العذاب ، { عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا } ، بما أشركوا، { فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ } ، قال قتادة : كيف ينطقون ولا حجة لهم، نظيره قوله تعالى: { هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ }{ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } ، وقيل: لا ينطقون لأن أفواههم مختومة.

[86] قوله عز وجل: { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا } ، خلقنا، { اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا } ، مضيئا يبصر فيه، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ، يصدقون فيعتبرون.

[87] قوله تعالى: { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } ، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل وقال الحسن : الصور هي القرن، وأول بعضهم كلامه أن الأرواح تجمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب الأرواح إلى الأجساد فتحيا بالأجساد، قوله: { فَفَزِعَ

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } ، أي فصعق كما قال في آية أخرى: { فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } ، أي ماتوا، والمعنى أنه يلقي عليهم الفزع إلى أن يموتوا وقيل: ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين، قوله: { إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } ، اختلفوا في هذا الاستثناء، روي عن أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن قوله: { إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } ، قال: هم الشهداء المقلدون أسيافهم حول العرش » (1) وروى سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس : هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم، وفي بعض الآثار: الشهداء ثنية الله أي الذين استثناهم الله تعالى. وقال الكلبي ومقاتل : يعني جبريل ومكائيل وإسرافيل وملك الموت، فلا يبقى بعد النفخة إلا هؤلاء الأربعة ثم يقبض الله روح ميكائيل ثم روح ملك

---

(1) عزاه السيوطي في الدر (7 / 249) لأبي يعلى والدارقطني وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

الموت، ثم روح جبريل فيكون آخرهم موتا جبريل { وَكُلٌّ } أي كل الذين أحيوا بعد الموت، { أَتَوْهُ } ، قرأ الأعمش وحمزة وحفص { أَتَوْهُ } مقصورا بفتح التاء على الفعل أي جاءوه، وقرأ الآخرون بالمد وضم التاء كقوله تعالى. { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا }{ دَاخِرِينَ } ، صاغرين.

[88] قال الله تعالى: { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً } ، قائمة واقفة، { وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ } ، أي تسير سير السحاب، { صُنْعَ اللَّهِ } ، نصب على المصدر، { الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } ، يعني أحكم، { إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } ، قرأ ابن كثير وأهل البصرة بالياء والباقون بالتاء.

[89] { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ } ، بكلمة الإخلاص وهي الشهادة أن لا إله إلا الله، قال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف ولا يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله. وقال قتادة : بالإخلاص. وقيل: هي كل الطاعة , { فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } , قال ابن عباس : فمنها يصل الخير إليه يعني له من تلك الحسنة خير يوم القيامة , وهو الثواب والأمن من العذاب, أما أن يكون له شيء خير من الإيمان فلا لأنه ليس شيء خيرا من قوله لا إله إلا الله. وقيل: { فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } يعني رضوان الله , قال تعالى: { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } , وقال محمد بن كعب : قال عبد الرحمن بن زيد : { فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } يعني الأضعاف أعطاه الله تعالى بالواحدة عشرا فصاعدا , وهذا حسن لأن للأضعاف خصائص منها أن العبد يسأل عن عمله ولا يسأل عن الأضعاف, ومنها أن للشيطان سبيلا إلى عمله وليس له سبيل إلى الأضعاف ولا مطمع للخصوم في الأضعاف ولأن الحسنة على استحقاق العبد والتضعيف كما يليق بكرم الرب تبارك وتعالى، { وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ } ، قرأ أهل الكوفة من فزع بالتنوين يومئذ بفتح الميم، وقرأ الآخرون بالإضافة لأنه أعم فإنه يقتضي

الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وبالتنوين كأنه فزع دون فزع، ويفتح أهل المدينة الميم من يومئذ.

[90] { وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ } ، يعني الشرك، { فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } ، يعني ألقوا على وجوههم، يقال: كبت الرجل إذا ألقيته على وجهه فانكب وأكب، وتقول لهم خزنة جهنم : { هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، في الدنيا

من الشرك.
[91] قوله تعالى: { إِنَّمَا أُمِرْتُ } ، يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم قل إنما أمرت، { أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ } ، يعني مكة ، { الَّذِي حَرَّمَهَا } ، يعني جعلها الله حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها، { وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ } ، خلقا وملكا، { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } ، لله .

[92] { وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ } ، يعني وأمرت أن أتلو القرآن، { فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } ، أي نفع اهتدائه يرجع إليه، { وَمَنْ ضَلَّ } ، عن الإيمان وأخطأ عن طريق الهدى، { فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ } ، من المخوفين فليس علي إلا البلاغ ، نسختها آية القتال.
[93] { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } ، على نعمه ، { سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } ، يعني يوم بدر من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، نظيره قوله عز وجل { سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } ، وقال مجاهد : سيريكم آياته في السماء والأرض وفي أنفسكم، كما قال : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ } ، { فَتَعْرِفُونَهَا } ، يعني تعرفون الآيات والدلالات،

(28) سورة القصص
[1] { طسم } .
[2] { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } .
[3] { نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ } ، بالصدق، { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يصدقون بالقرآن.
[4] { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا } ، استكبر وتجبر وتعظم، { فِي الْأَرْضِ } ، أرض مصر، { وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا } فرقا وأصنافا في الخدمة والتسخير، { يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ } ، أراد الطائفة بني إسرائيل، ثم فسر الاستضعاف فقال، { يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ } . سمى هذا استضعافا لأنهم عجزوا أو ضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ، { إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } .
[5] { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ } يعني بني إسرائيل ، { وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً } ، قادة في الخير يقتدى بهم . وقال قتادة : ولاة وملوكا دليله قوله عز وجل : { وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا } ، وقال مجاهد : دعاة إلى الخير . { وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } ، يعني أملاك فرعون وقومه يخلفونهم في مساكنهم .

[6] { وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ } ، أوطّن لهم في الأرض مصر والشام ، ونجعلها لهم مكانا يستقرون فيه ، { وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ } ، قرأ الأعمش وحمزة والكسائي (يرى) بالياء وفتحها ، { فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا } ، مرفوعات على أن الفعل لهم ، وقرأ الآخرون بالنون وضمها وكسر الراء ونصب الياء ونصب ما بعده يوقع الفعل عليه ، { مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ } ، والحذر هو التوقي من الضرر ، وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل منه ، فأراهم الله ما كانوا يحذرون .

[7] { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى } وهو وحي إلهام ولا وحي نبوة ، قال قتادة : قذفنا في قلبها ، وأم موسى يوحانذ بنت لاوى بن يعقوب ، { أَنْ أَرْضِعِيهِ } ، واختلفوا في مدة الرضاع ، قيل : ثمانية أشهر . وقيل - أربعة أشهر . وقيل : ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حجرها ، وهو لا يبكي ولا يتحرك ، { فَإِذَا خِفْتِ

عَلَيْهِ } ، يعني من الذبح ، { فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ } ، واليم البحر وأراد هاهنا النيل ، { وَلَا تَخَافِي } ، قيل : لا تخافي عليه من الغرق ، وقيل : من الضيعة ، { وَلَا تَحْزَنِي } ، على فراقه ، { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } ، روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال . إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يد نبيه .

[8] { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ } ، والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب ، { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } ، وهذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك ، قرأ حمزة والكسائي (حُزْنًا) بضم الحاء وسكون الزاي ، وقرأ الآخرون بفتح الحاء والزاي وهما لغتان ، { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } ، عاصين آثمين .
[9] قوله تعالى : { وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ } دعه يكون قرة عين لي ولك ، { لَا تَقْتُلُوهُ } وروي أنها قالت له إنه أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل ، { عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ، أن هلاكهم على يديه فاستحياه فرعون وألقى الله عليه محبته .

[10] وقوله تعالى : { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا } ، أي خاليا من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه ، هذا قول أكثر المفسرين . وقال الحسن : فارغا أي ناسيا للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ولا تخاف ولا تحزن ، والعهد الذي عهد أن يرده إليها ويجعله من المرسلين ، فجاءها الشيطان فقال : كرهت أن يقتله فرعون ورجاله فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيته في البحر ، وأغرقتيه ، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت : إنه وقع في يد عدوه الذي فررت منه ، فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : فارغا أي فارغا من الحزن لعلمها بصدق وعد الله تعالى وأنكر القتيبي هذا وقال : كيف يكون هذا والله تعالى يقول : { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا } ، والأول أصح قوله عز وجل : { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ } ، قيل : الهاء في به راجعة إلى موسى أي كادت لتبدي به أنه ابنها من شدة وجدها . وقال عكرمة عن ابن عباس : كادت تقول وابناه . وقال مقاتل : لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها .

وقال الكلبي : كادت تظهر أنه ابنها وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شب : موسى بن فرعون ، فشق عليها وكادت تقول : بلى هو ابني . وقال بعضهم : الهاء عائدة إلى الوحي أي كادت تبدي بالوحي الذي أوحى الله إليها أن يرده إليها ، { لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا } ، بالعصمة والصبر والتثبيت ، { لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، المصدقين لوعد الله حين قال لها : { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ } .
[11] { وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ } ، أي لمريم أخت موسى { قُصِّيهِ } اتبعي أثره حتى تعلمي خبره ، { فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ } أي عن بعد ، وفي القصة أنها كانت تمشي جانبا وتنظر اختلاسا تُري أنها لا تنظره ، { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } أنها أخته

وأنها ترقبه ، قال ابن عباس : إن امرأة فرعون كل همها من الدنيا أن تجد له مرضعة وكلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها ، فذلك قوله عز وجل :

[12] { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ } ، والمراد من التحريم المنع والمراضع جمع المرضع ، { مِنْ قَبْلُ } أي من قبل مجيء أم موسى فلما رأت أخت موسى التي أرسلتها أمه في طلبه ذلك قالت لهم : هل أدلكم ؟ وفي القصة أن موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثديا ويصيح وهم في طلب مرضعة له ، { فَقَالَتْ } ، يعني أخت موسى ، { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ } ، أي يضمونه { لَكُمْ } ، ويرضعونه ، وهي امرأة قد قتل ولدها فأحب شيء إليها أن تجد صغيرا ترضعه ، { وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } ، والنصح ضد الغش وهو تصفية العمل من شوائب الفساد ، قالوا : نعم فأتينا بها ، فانطلقت إلى أمها وأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم ، فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه فذلك قوله تعالى :
[13] { فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا } ، برد موسى إليها ، { وَلَا تَحْزَنَ } ، أي لئلا تحزن ، { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ، برده إليها ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ، أن الله وعدها رده إليها .

[14] { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ } ، قال الكلبي : الأشد ما بين ثماني عشر سنة إلى ثلاثين سنة . وقال مجاهد وغيره : ثلاث وثلاثون سنة ، { وَاسْتَوَى } ، أي بلغ أربعين سنة ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقيل : استوى انتهى شبابه { آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا } ، أي الفقه والعقل والعلم في الدين ، فعلم موسى وحكم قبل أن يبعث نبيا ، { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } .

[15] قوله تعالى : { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ } ، يعني دخل موسى المدينة ، قال السدي : هي مدينة منف من أرض مصر - وقال مقاتل : كانت قرية يقال لها حابين على رأس فرسخين من مصر . وقيل : مدينة عين الشمس ، { عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا } ، وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة . وقال محمد بن كعب القرظي : دخلها فيما بين المغرب والعشاء . واختلفوا في السبب الذي من أجله دخل المدينة في هذا الوقت . قال السدي : وذلك أن موسى كان يسمى ابن فرعون ، فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه فركب فرعون يوما وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى قيل له : إن فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس في طرفها أحد ، { فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ } ، يختصمان ويتنازعان ، { هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ } ، من بني إسرائيل { وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ } ، من القبط وقيل : هذا من شيعته وهذا من عدوه أي هذا مؤمن وهذا كافر ، { فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، والاستغاثة طلب الغوث فغضب موسى واشتد غضبه لأنه تناوله وهو

يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ، ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة من أم موسى { فَوَكَزَهُ مُوسَى } ، وقرأ ابن مسعود (فلكزه موسى) ومعناهما واحد وهو الضرب بجميع الكف . وقيل : الوكز الضرب في الصدر واللكز في الظهر . وقال الفراء : معناهما واحد وهو الدفع ، قال أبو عبيدة : الوكز الدفع بأطراف الأصابع ؟ { فَقَضَى عَلَيْهِ } ، أي فقتله وفرغ من

أمره ، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه ، فندم موسى عليه ولم يكن قصده القتل { قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } ، أي بَيِّنُ الضلالة .
[16] { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } ، بقتل القبطي من غير أمر ، { فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } .
[17] { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ } ، بالمغفرة ، { فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا } ، عونا ، { لِلْمُجْرِمِينَ } ، قال ابن عباس : للكافرين وهذا يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافرا ، وهو قول مقاتل ، قال قتادة : لن أعين بعدها على خطيئة ، قال ابن عباس : لم يستثن فابتلي به في اليوم الثاني .

[18] { فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ } أي في المدينة التي قتل فيها القبطي { خَائِفًا } ، من قتله القبطي ، { يَتَرَقَّبُ } ، ينتظر سوءا ، والترقب : انتظار المكروه ، قال الكلبي : ينتظر متى يؤخذ به ، { فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ } ، يستغيثه ويصيح به من بُعّدٍ { قَالَ لَهُ مُوسَى } ، للإسرائيلي { إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ }
ظاهر الغواية قاتلت بالأمس رجلا فقتلته بسببك ، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه وقيل : إنما قال موسى للفرعوني : إنك لغوي مبين بظلمك . والأول أصوب وعليه الأكثرون أنه قال ذلك للإسرائيلي .

[19] { فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا } ، وذلك أن موسى أدركته الرقة بالإسرائيلي فعد يده ليبطش بالفرعوني فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش له لما رأى من غضبه ومع قوله إنك لغوي مبين ، { قَالَ يا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ } ما تريد ، { إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ } بالقتل ظلما ، { وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } ، فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك ، وأمر فرعون بقتل موسى . قال ابن عباس : فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم .

[20] { وَجَاءَ رَجُلٌ } من شيعة موسى ، { مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ } ، أي من آخرها { يَسْعَى } ، أي يسرع في مشيه فأخذ طريقا قريبا حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره حتى أخذ طريقا آخر ، { قَالَ يا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ } ، يعني أشراف قوم فرعون يتشاورون فيك ، { لِيَقْتُلُوكَ } ، قال الزجاج : يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، { فَاخْرُجْ } ، من المدينة ، { إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } ، في الأمر لك بالخروج .
[21] { فَخَرَجَ مِنْهَا } ، موسى ، { خَائِفًا يَتَرَقَّبُ } ، أي ينتظر الطلب ، { قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، الكافرين .

[22] { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ } أي قصد نحوها ماضيا يقال : داره تلقاء دار فلان إذا كانت محاذيتها ، وأصله من اللقاء ، قال الزجاج : يعني سلك الطريق التي يلقى مدين فيها ، ومدين هو مدين بن إبراهيم سميت البلدة باسمه ، وكان موسى قد خرج خائفا بلا ظهر ولا حذاء ولا زاد ، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر ، { قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ } ، أي قصد الطريق إلى مدين ، قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها .

[23]{ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ } ، وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم ، { وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً } ، جماعة ، { مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ } ، مواشيهم ، { وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ } ، يعني سوى الجماعة ، { امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ } ، يعني تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر ، قال الحسن : تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس . وقال قتادة : تكفان الناس عن أغنامهما . وقيل : تمنعان أغنامهما عن أن تشذ وتذهب . والقول الأول أصوبهما لما بعده وهو قوله : { قَالَ } ، يعني موسى للمرأتين ، { مَا خَطْبُكُمَا } ، ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس ، { قَالَتَا لَا نَسْقِي } ، أغنامنا ، { حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ } ، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر (يَصْدُرَ) بفتح الياء وضم الدال على اللزوم ، أي حتى يرجع الرعاء عن الماء ، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الدال أي حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء ، والرعاء جمع راع مثل تاجر وتجار ، ومعنى الآية : لا نسقي مواشينا حتى يصدر الرعاء لأنا امرأتان لا نطيق أن نستسقي ولا نستطيع أن نزاحم الرجال ، فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت

مواشيهم في الحوض ، { وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } ، لا يقدر أن يسقي مواشيه ، فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم . واختلفوا في اسم أبيهما ، فقال مجاهد والضحاك والسدى والحسن : شعيب النبي عليه السلام . وقال وهب بن منبه وسعيد بن جبير : هو بيرون بن أخي شعيب ، فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس ، فسقى غنم المرأتين . فذلك قوله :
[24] { فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ } ، ظل شجرة فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع ، { فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ } ، من طعام ، { فَقِيرٌ } ، قال أهل اللغة : اللام بمعنى إلى يقال : هو فقير له وفقير إليه يقول : إني لما أنزلت إلي من خير أي طعام فقير محتاج ، كان يطلب الطعام لجوعه فلما رجعتا إلى أبيهما سريعا قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا ، فقال لإحداهما : أذهبي فادعيه لي .

[25] قال الله تعالى : { فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ } قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء { قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا } فمشت المرأة ومشى موسى خلفها ، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها ، فقال لها امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك ، { فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ } ، يعني أمره أجمع ، من قتله القبطي وقصد فرعون قتله ، { قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، يعني فرعون وقومه ، وإنما قال هذا لأنه لم يكن لفرعون سلطان على أهل مدين .

[26] { قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ } ، اتخذه أجيرا ليرعى أغنامنا ، { إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } ، يعني خير من استعملت من قوي على العمل وأداء الأمانة ، فقال لها أبوها : وما علمك بقوته وأمانته ؟ قالت : أما قوته فإنه رفع حجرا من رأس البر لا يرفعه إلا عشرة . وقيل : إلا أربعون رجلا . وأما أمانته فإنه قال لي : امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك .

[27] { قَالَ } شعيب عند ذلك , { إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ } قيل : زوجه الكبرى وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى منهما واسمها صفورة وهي التي ذهبت لطلب موسى , { عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ } , يعني أن تكون أجيرا لي ثمان سنين , قال الفراء : يعني اجعل ثوابي من تزويجها أن ترعى غنمي , تقول العرب : أجرك الله بأجرك أي أثابك والحجج السنون واحدتها حجة , { فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ } , أي إن أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع , وليس بواجب عليك , { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ } , أن ألزمك تمام العشر إلا أن تتبرع , { سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } , قال عمر : يعني في حسن الصحبة والوفاء بما قلت .

[28] { قَالَ } ، موسى { ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ } ، يعني هذا الشرط بيني وبينك ، فما شرطت علي فلك وما شرطت أن تزويج إحداهما فلي ، والأمر بيننا ، تم الكلام ثم قال : { أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ } ، يعني أي الأجلين (وما) صلة نصب بمعنى أتممت أو فرغت من الثمان أو العشر ، { فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ } لا ظلم لي بأن أطالب بأكثر منهم ، { وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } ، قال ابن عباس ومقاتل : شهيد فيما بيني وبينك .

[29] { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ } ، يعني أتمه وفرغ منه ، { وَسَارَ بِأَهْلِهِ } ، فخرج بأهله إلى جانب مصر ، { آنَسَ } يعني أبصر ، { مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا } ، وكان في البرية في ليلة مظلمة شاتية شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق ، { قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ } ، يعني عن الطريق لأنه كان قد أخطأ الطريق ، { أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ } ، يعني قطعة وشعلة من النار ، وفيها ثلاث لغات : قرأ عاصم (جَذْوَةٍ) بفتح الجيم ، وقرأ حمزة بضمها وقرأ الآخرون بكسرها ، قال قتادة ومقاتل : هي العود الذي قد احترق بعضه وجمعها أجذى ، { لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } ، تستدفئون .
[30] { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ } ، يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى ، { فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ } ، لموسى جعلها الله مباركة لأن الله كلم موسى هناك وبعثه نبيا . وقال عطاء : يريد المقدسة ، { مِنَ الشَّجَرَةِ } ، من ناحية الشجرة { أَنْ يا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } .

[31] { وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ } ، تتحرك ، { كَأَنَّهَا جَانٌّ } ، وهي الحية الصغيرة من سرعة حركتها ، { وَلَّى مُدْبِرًا } هاربا منها ، { وَلَمْ يُعَقِّبْ } ، لم يرجع فنودي , { يا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ } .

[32] { اسْلُكْ } ، أدخل { يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } . برص فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس , { وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ } , قرأ أهل الكوفة والشام بضم الواو وسكون الهاء وبفتح الراء حفص , وقرأ الآخرون بفتحها وكلها لغات بمعنى الخوف ومعنى الآية إذا هَالَكَ أمر يدك ما ترى من شعاعها فأدخلها في جيبك تعد إلى حالتها الأولى والجناح اليد كلها . وقيل : هو العضد . وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهم : أمره الله بضم يده إلى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية . وقيل : المراد من ضم الجناح السكون يعني سكن روعك واخفض عليك جأشك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه , ومثله قوله : { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } يريد الرفق , وقوله : { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } أي ارفق بهم وألن جانبك لهم ، وقال الفراء : أراد بالجناح العصا ، معناه اضمم إليك عصاك ، وقيل : الرهب الكم بلغة حمير ، قال الأصمعي : سمعت بعض الأعراب يقول : أعطني ما في رهبك أي في كمك ، معناه اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم ، لأنه

تناول العصا ويده في كمه ، { فَذَانِكَ } ، يعني العصا واليد البيضاء ، { بُرْهَانَانِ } ، آيتان ، { مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } .
[33] { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } .
[34] { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا } ، وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه ، { فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا } ، عونا ، يقال : ردأته أي أعنته ، { يُصَدِّقُنِي } ، قرأ ابن عمر وعامر وحمزة برفع القاف على الحال ، أي ردًّا مصدقا ، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والتصديق لهارون في قول الجميع ، قال مقاتل : لكي يصدقني فرعون ، { إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ } ، يعني فرعون وقومه .

[35] { قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ } ، أي نقويك بأخيك وكان هارون يومئذ بمصر ، { وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا } حجة وبرهانا ، { فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا } ، أي لا يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا ، وقيل : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : ونجعل لكما سلطانا بآياتنا بما نعطيكما من المعجزات فلا يصلون إليكما ، { أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } ، أي لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه .

[36] { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ } ، واضحات , { قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى } مختلف { وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا } بالذي تدعونا إليه ، { فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } .
[37] { وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ } بالمحق من المبطل ، { وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } ، يعني العقبى المحمودة في الدار الآخرة ، { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } يعني الكافرون .
[38] { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ } ، يعني فاطبخ لي الآجر ، وقيل : إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به ، { فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا } ، قصرا عاليا ، وقيل : منارة ، { لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى } ، أنظر إليه وأقف على حاله ، { وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ } ، يعني موسى ، { مِنَ الْكَاذِبِينَ } ، في زعمه أن للأرض وللخلق إلها غيري ، وأنه رسوله .

[39] { وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ } ، قرأ نافع وحمزة والكسائي ويعقوب : (يَرْجِعُونَ) بفتح الياء وكسر الجيم ، والباقون بضم الياء وفتح الجيم .
[40] { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } .
[41] { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً } ، قادة ورؤساء ، { يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ } ، لا ينجون من العذاب .
[42] { وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً } ، خزيا وعذابا ، { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ } ، من المبعدين الملعونين ، وقال أبو عبيدة : من المهلكين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون ،

يقال : قبحه الله وقبحه إذا جعله قبيحا ، ويقال : قبحه قبحا وقبوحا إذا أبعد من كل خير .

[43] قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى } ، يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم كانوا قبل موسى ، { بَصَائِرَ لِلنَّاسِ } ، يعني ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به ، { وَهُدًى } ، من الضلال لمن عمل به ، { وَرَحْمَةً } ، لمن آمن به ، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } بما فيه من المواعظ والبصائر .

[44] { وَمَا كُنْتَ } يا محمد { بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ } ،
يعني بجانب الجبل الغربي ، قاله قتادة والسدي ، وقال الكلبي : بجانب الوادي الغربي . قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد حيث ناجى موسى { إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ } ، يعني عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ، { وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } الحاضرين ذلك المنام فتذكره من ذات نفسك .

[45] { وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا } ، خلقنا أمما من بعد موسى عليه السلام ، { فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } ، أي طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وميثاقه وتركوا أمره ، وذلك أن الله تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهودا في محمد والإيمان به ، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها ، { وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا } ، مقيما ، { فِي أَهْلِ مَدْيَنَ } ، كمقام موسى وشعيب فيهم ، { تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } ، تذكرهم بالوعد والوعيد ، قال مقاتل : يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ، { وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } ، أي أرسلناك رسولا وأنزلنا عليك كتابا فيه هذه الأخبار ، فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها .

[46] { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ } ، بناحية الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، { إِذْ نَادَيْنَا } ، قيل : إذ نادينا موسى خذ الكتاب بقوة ، { وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ } أي ولكن رحمناك رحمة بإرسالك وبالوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك ، { لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } ، يعني أهل مكة ، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } .
[47] { وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ } ، عقوبة ونقمة ، { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } من الكفر والمعصية ، { فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا } ، هلا ، { أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، وجواب لولا محذوف أي لعاجلناهم بالعقوبة ، يعني لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم . وقيل : معناه لما بعثناك إليهم رسولا ولكن بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

[48] { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا } ، يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، { قَالُوا } ، يعني كفار مكة ، { لَوْلَا } ، هلا { أُوتِيَ } محمد , { مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } ، من الآيات كاليد البيضاء والعصا ، وقيل: مثل ما أوتي موسى كتابا جملة واحدة . قال الله تعالى : { أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ } ، أي فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ، { قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا } ، قرأ أهل الكوفة : (سحران) أي التوراة والقرآن تظاهرا يعني كل سحر يقوي

الآخر نسب التظاهر إلى السحرين على الاتساع ، قال الكلبي : كانت مقالتهم تلك حين بعثوا في أمر رسول صلى الله عليه وسلم إلى رءوس اليهود بالمدينة ، فسألوهم عن محمد فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة ، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود ، فقالوا : { سِحْرَانِ تَظَاهَرَا } ، وقرأ الآخرون : (ساحران) يعنون محمدا وموسى عليهما السلام ، لأن معنى التظاهر بالناس وأفعالهم أشبه منه بالكتب ، { وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ } .

[49] { قُلْ } ، لهم يا محمد { فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا } ، يعني من التوراة والقرآن ، { أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } .
[50] { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ } أي لم يأتوا بما طلبت ، { فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } .

[51] { وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : بينا ، قال الفراء : أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضا قال قتادة : وصل لهم القول في هذا القرآن يعني كيف صنع بمن مضى . قال مقاتل : بينا لكفار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم ، وقال ابن زيد : وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } .

[52] { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ } ، من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل . من قبل القرآن ، { هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ } ، نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقال مقاتل : بل هم أهل الإنجيل الذي قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير : هم أربعون رجلا قدموا مع جعفر من الحبشة على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا : يا نبي الله ! إن لنا أموالا فإن أذنت لنا انصرفنا وجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين ، فنزل فيهم . { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } إلى قوله تعالى : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ، ثم وصفهم الله فقال :

[53] { وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ } ، يعني القرآن ، { قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا } ، وذلك أن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، { إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ } ، أي من قبل القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه نبي حق .
[54] { أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ } ، لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، { بِمَا صَبَرُوا } ، على دينهم ، قال مجاهد : نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك ، قال مقاتل . يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو والمغفرة ، { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } ، في الطاعة .

[55] { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ } ، القبيح من القول ، { أَعْرَضُوا عَنْهُ } وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون : تبا لكم تركتم دينكم

فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم ، { وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } ، لنا ديننا ولكم دينكم ، { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } ، ليس المراد منه سلام التحية ولكنه سلام المتاركة ، معناه سلمتم منا لا نعاوضكم بالشتم والقبح من القول ، { لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } ، أي دين الجاهلين ، يعني لا نحب دينكم الذي أنتم عليه . وقيل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسعة ، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال .
[56] قوله تعالى : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } ، أي أحببت هدايته . وقيل : أحببته لقرابته ، { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } ، قال مجاهد ومقاتل : بمن قدر له الهدى ، نزلت في أبي طالب قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة ، قال : لولا أن تعيرني قريش يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك » ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (1) .

---

(1) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (24) 1 / 55 والبخاري مطولا بلفظ آخر في التفسير 8 / 605 .

[57] { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا } ، أرض مكة ، نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن الذي تقول حق ولكنا إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة ، وهو معنى قوله : { نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا } ، والاختطاف الانتزاع بسرعة , قال الله تعالى : { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا } , وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون حيث كانوا , لحرمة الحرم , ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة , { يُجْبَى } , قرأ أهل المدينة ويعقوب : (تجبى) بالتاء لأجل الثمرات , والآخرون بالياء للحائل بين الاسم المؤنث والفعل , أي يجلب ويجمع , { إِلَيْهِ } , يقال : جبيت العامة في الحوض أي جمعته , قال مقاتل : يحمل إلى الحرم , { ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } , أن ما يقوله حق .

[58] قوله عز وجل : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ } ، أي من أهل قرية ، { بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا } ، أي في معيشتها ، أي أشرت وطغت ، قال عطاء : عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام ، { فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافرون وما رأوا الطريق يوما أو ساعة ، معناه لم تسكن من بعدهم إلا سكونا قليلا . وقيل : معناه لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب ، { وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } ، كقوله : { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا } .

[59] { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى } ، أي القرى الكافر أهلها ، { حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا } ، يعني في أكبرها وأعظمها رسولا ينذرهم وخص الأعظم ببعثة الرسول فيها لأن الرسول يبعث إلى الأشراف والأشراف يسكنون المدائن ، والمواضع التي هي أم ما حولها ، { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } ، قال مقاتل : يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا ، { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } ، مشركون ، يريد أهلكهم بظلمهم .

[60] { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا } ، تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء ، { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ، أن الباقي خير من الفاني ، قرأ عامة القراء : (تعقلون) بالتاء وأبو عمرو بالخيار بين التاء والياء .
[61] { أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا } ، أي الجنة ، { فَهُوَ لَاقِيهِ } ، مصيبه ومدركه وصائر إليه ، { كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، ويزول عن قريب { ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } النار ، قال قتادة : يعني المؤمن والكافر ، قال مجاهد : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل ، وقال محمد بن كعب : نزلت في حمزة وعلي وأبي جهل ، وقال السدي : نزلت في عمار والوليد بن المغيرة .
[62] { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } ، في الدنيا أنهم شركائي .

[63] { قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } أوجب عليهم العذاب وهم رءوس الضلالة ، { رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا } ، أي دعونا إلى الغي وهم الأتباع ، { أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } ، أضللناهم كما ضللنا ، { تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ } ، منهم , { مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } برئ بعضهم من بعض وصاروا أعداء كما قال تعالى : { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } .
[64] { وَقِيلَ } ، للكفار ، { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } أي الأصنام لتخلصكم من العذاب ، { فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } ، لم يجيبوهم ، { وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } ، وجواب لو محذوف على تقدير لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب .
[65] { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ } ، أي يسأل الله الكفار ، { فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } .

[66] { فَعَمِيَتْ } ، خفيت واشتبهت ، { عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ } ، أي الأخبار والأعذار ، وقال مجاهد : الحجج ، { يَوْمَئِذٍ } ، فلا يكون لهم عذر ولا حجة ، { فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ } لا يجيبون ، وقال قتادة : لا يحتجون ، وقيل : يسكتون لا يسأل بعضهم بعضا .
[67] . { فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ } ، من السعداء الناجين .
[68] قوله تعالى : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ } ، نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعني الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي ، أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم . قوله عز وجل : { مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } ، قيل : (ما) للإثبات ، معناه : ويختار الله ما كان لهم الخيرة ، أي يختار ما هو الأصلح والخير . وقيل : هو للنفي أي ليس إليهم الاختيار أو ليس لهم أن يختاروا على الله كما قال تعالى :

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } ، والخيرة اسم من الاختيار يقام مقام المصدر ، وهي اسم للمختار أيضا كما يقال : محمد خيرة الله من خلقه ، ثم نزه نفسه فقال : { سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } .
[69] { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } ، يظهرون .

[70] { وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ } يحمده أولياؤه في الدنيا ويحمدونه في الآخرة في الجنة ، { وَلَهُ الْحُكْمُ } ، فصل القضاء بين الخلق . قال ابن عباس رضي الله عنهما : حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء ، { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } .

[71] قوله : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ } ، أخبروني يا أهل مكة { إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا } ، دائما , { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } لا نهار معه ، { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ } ، بنهار تطلبون فيه المعيشة ، { أَفَلَا تَسْمَعُونَ } ، سماع فهم وقبول .
[72] { قُلْ أَرَأَيْتُمْ } أخبروني يا أهل مكة { إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ، لا دليل فيه ، { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } ، ما أنتم عليه من الخطأ .
[73] { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } ، أي في الليل ، { وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، نعم الله عز وجل .
[74] { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } ، كرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ .

[75] { وَنَزَعْنَا } ، أخرجنا ، { مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا } ، يعني رسولهم الذي أرسل إليهم كما قال . فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، { فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } , حجتكم بأن معي شريكا . { فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ } ، التوحيد ، { لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ، في الدنيا .

[76] قوله عز وجل : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى } ، كان ابن عمه لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام ، وموسى بن عمران بن قاهث ، وقال ابن إسحاق : كان قارون عم موسى كان أخا عمران ، وهما ابنا يصهر ، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون ، ولكنه نافق كما نافق السامري ، { فَبَغَى عَلَيْهِمْ } ، قيل : كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل ، فكان يبغي عليهم ويظلمهم ، وقال قتادة : بغى عليهم بكثرة المال ، وقال الضحاك : بغى عليهم بالشرك ، وقيل : بغى عليهم بالكبر والعلو { وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ } ، هي جمع مفتاح وهو الذي يفتح به الباب ، هذا قول قتادة ومجاهد وجماعة , وقيل : مفاتح خزائنه , كما قال : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } أي خزائنه { لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } ، لتثقلهم أي وتميل بهم إذا حملوها لثقلها ، قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب تقديره : ما إن العصبة لتنوء بها , يقال : ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلا ، واختلفوا في عدد العصبة قال مجاهد : ما بين العشرة إلى خمسة عشر ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما :

ما بين الثلاثة إلى العشرة . وقال قتادة : ما بين العشرة إلى الأربعين . وقيل : أربعون رجلا . وقيل : سبعون { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ } ، قال لقارون قومه من بني إسرائيل { لَا تَفْرَحْ } ، لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } ، الأشرين البطرين الذين لا يشكون الله على ما أعطاهم .

[77] { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ } اطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنعمة الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله , { وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } ، قال مجاهد وابن زيد : لا تترك أن تعمل في الدنيا

والآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة وقال السدي : بالصدقة وصلة الرحم ، وقال علي : لا تنس صحتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » الحديث صحيح مرسل (1) قال الحسن : أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه ، قال منصور بن زاذان في قوله : { وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } قال : قوتك وقوت أهلك ، { وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } ، أي أحسن بطاعة الله كما أحسن الله إليك بنعمته وقيل : أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك ، { وَلَا تَبْغِ } ، لا تطلب ، { الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ }

____

(1) أخرجه مرسلا كما ذكر المصنف أبو نعيم في الحلية 4 / 148 والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم والعمل ص 218 وابن أبي شيبة في المصنف 13 / 223 ووصله الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه المصنف في شرح السنة 14 / 224 وابن المبارك في الزهد ص 2 بسند صحيح . انظر فتح الباري 11 / 235 .

وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض , { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } .

[78] { قال } , يعني قارون , { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } أي على فضل وخير علمه الله عندي فرآني أهلا لذلك ففضلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره , قيل : هو علم الكيمياء قال سعيد بن المسيب : كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه , فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وكان ذلك سبب أمواله . وقيل : { عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } بالتصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب . قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ } ، الكافرة ، { مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا } ، للأموال ، { وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } ، قال قتادة : يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال ، وقال مجاهد : يعني لا يسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم . قال الحسن : لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ .

[79] { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } ، من المال .

[80] { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني الأحبار من بني إسرائيل . وقال مقاتل : أوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي قارون في الدنيا . ؟ { وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ } ، يعني ما عند الله من الثواب والجزاء خير { لِمَنْ آمَنَ } ، وصدق بتوحيد الله ، { وَعَمِلَ صَالِحًا } ، مما أوتي قارون في الدنيا ، { وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ } ، قال مقاتل : لا يؤتاها يعني الأعمال الصالحة . وقال الكلبي : لا يعطاها في الآخرة . وقيل : لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله ويلكم ثواب الله خير إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الدنيا .

[81] قوله عز وجل : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ } ، من جماعة ، { يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، يمنعونه من الله ، { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ } ، الممتنعين مما نزل به من الخسف .
[82] { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ } ، صار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من المال والزينة يتندمون على ذلك التمني { يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ } ، اختلفوا في معنى هذه اللفظة ، قال مجاهد :

ألم تعلم ، وقال قتادة : ألم تر . قال الفراء : هي كلمة تقرير كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله وإحسانه . وعن الحسن : أنه كلمة ابتداء تقديره أن الله يبسط الرزق . وقيل : هو تنبيه بمنزلة إلا وقال قطرب : ويك بمعنى ويلك حذفت اللام منه وقال الخليل : وي مفصولة من كأن ومعناها التعجب كما يقول : وي لم فعلت ذلك ، وذلك أن القوم تندموا فقالوا : وي متندمين على ما سلف منهم وكأن معناه أظن ذلك وأقدره ، كما تقول : كأن الفرج قد أتاك أي أظن ذلك وأقدره ، { يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } ، أي يوسع ويضيق ، { لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا } ، قرأ حفص ويعقوب بفتح الخاء والسين وقرأ العامة بضم الخاء وكسر السين ، { وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } .
[83] قوله تعالى : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ }

قال الكلبي ومقاتل : استكبارا عن الإيمان ، وقال عطاء : علوا واستطالة على الناس وتهاونا بهم . وقال الحسن : لم تطلبوا الشرف والعز عند ذي سلطانها . وعن علي رضي الله عنه : أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل القدرة ، { وَلَا فَسَادًا } ، قال الكلبي : هو الدعاء إلى عبادة غير الله . وقال عكرمة : أخذ أموال الناس بغير حق . قال ابن جريج ومقاتل : العمل بالمعاصي ، { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } ، أي العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أمره واجتناب معاصيه . قال قتادة : الجنة للمتقين .
[84] { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

[85] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } أي أنزل عليك القرآن - على قول أكثر المفسرين - وقال عطاء : أوجب عليك العمل بالقرآن ، { لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ } ، إلى مكة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم « لما خرج مهاجرا إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها ، فأتاه جبريل وقال : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ قال : نعم ، قال : فإن الله تعالى يقول : { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ }» وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : { لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ } إلى الموت . وقال الزهري وعكرمة : إلى القيامة . وقيل : إلى الجنة . { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى } ، أي يعلم من جاء بالهدى وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك لفي ضلال ، فقال الله عز وجل : قل لهم ربي أعلم من جاء بالهدى أي يعلم من جاء بالهدى يعني نفسه ، { وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } ، يعني المشركين ومعناه

أعلم بالفريقين .
[86] قوله تعالى : { وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ } , أي يوحي إليك القرآن , { إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ } , قال الفراء : هذا من الاستثناء المنقطع معناه لكن ربك رحمك فأعطاك القرآن , { فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ } , أي معينا لهم على دينهم .
وقال مقاتل : وذلك حين دعي إلى دين آبائه فذكر الله نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه .
[87] { وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ } , يعني القرآن , { بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ } إلى معرفته وتوحيده , { وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } , قال ابن عباس رضي الله عنهما : الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أهل دينه أي لا تظاهروا الكفار ولا توافقهم .
[88] { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ } , أي فصل القضاء , { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } , تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم .

(29) سورة العنكبوت 1 ,
[2] { الم }{ أَحَسِبَ النَّاسُ } أظن الناس ، { أَنْ يُتْرَكُوا } ، بغير اختبار ولا ابتلاء , { أَنْ يَقُولُوا } أي بأن يقولوا ، { آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } ، لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنهم ليبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب وقيل : (وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) بالأوامر والنواهي ، وذلك أن الله تعالى أمرهم في الابتداء بمجرد الإيمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعضهم ، فأنزل الله هذه الآية ، ثم عزاهم فقال :
[3] { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، يعني الأنبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل ،وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب ، { فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا } ، في قولهم آمنا ، { وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } ، والله أعلم بهم قبل الاختبار ، ومعنى الآية : وليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه ، وقال مقاتل : فليرين الله . وقيل . ليميز الله كقوله : { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } .

[4] { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } ، يعني الشرك ، { أَنْ يَسْبِقُونَا } ، يعجزونا ويفوتونا فلا نقدر على الانتقام منهم ، { سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } ، أي بئس ما حكموا حين ظنوا ذلك .
[5] { مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ } ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل : من كان يخشى البعث والحساب ، والرجاء بمعنى الخوف ، وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : من كان يطمع في ثواب الله ، { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ } . يعني ما وعد الله من الثواب والعقاب . وقال مقاتل : يعني يوم القيامة لكائن ، ومعنى الآية أن من يخشى الله أو يأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم ، كما قال : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا } الآية ، { وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } .
[6] { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } ، له ثوابه ، والجهاد هو الصبر على الشدة ويكون ذلك في الحرب وقد يكون على مخالفة النفس .
{ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } ، عن أعمالهم وعباداتهم .

[7] { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } ، لنبطلنها يعني حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل ، فالتكفير إذهاب السيئة بالحسنة ، { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة ، وقيل : نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن ، كما قال : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } .

[8] قوله عز وجل : { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا } ، أي برا بهما عطفا عليهما ، معناه ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن ، نزلت هذه الآية والتي في سورة لقمان والأحزاب في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان بارا بأمه قالت له أمه : ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ ! والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأمر بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطعمها في الشرك ، فذلك قوله عز وجل : { وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا } ، جاء في الحديث : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » (1).
ثم أوعد بالمصير إليه فقال : { إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجزيكم عليها .

---

(1) رواه الإمام أحمد 5 / 66 وصححه الحاكم 3 / 443 وأخرجه المصنف في شرح السنة 1 / 44 .

[9] { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ } , في زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء , وقيل : في مدخل الصالحين , وهو الجنة .
[10] قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ } , أصابه بلاء من الناس افتتن , { جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ } , أي جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة , أي جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه , فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه , هذا قول السدي وابن زيد , قالا : هو المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر , { وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ } , أي فتح ودولة للمؤمنين , { لَيَقُولُنَّ } , يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين , { إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ } , على عدوكم وكنا مسلمين وإنما أكرهنا حتى قلنا فكذبهم الله وقال : { أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ } من الإيمان والنفاق .

[11] { وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } , صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء , { وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } بترك الإسلام عند نزول البلاء قال الشعبي : هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هاهنا مدنية وباقي السورة مكية .
[12] : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا } , قال مجاهد : هذا من قول كفار مكة لمن آمن منهم , وقال الكلبي ومقاتل : قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش : اتبعوا سبيلنا ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم , فذلك قوله : { وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ } أوزاركم , قال الفراء : لفظه أمر معناه خبر , مجازه : إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم كقوله : { فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ } , وقيل : هو جزم على الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك

فأكذبهم الله عز وجل فقال : { وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } , أي فيما قالوا من حمل خطاياهم .

[13] { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ } , أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم , { وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ } , أي أوزار من أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزارهم , نظيره قوله عز وجل : { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } , { وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } , سؤال توبيخ وتفريع .
[14] قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ } , فغرقوا , { وَهُمْ ظَالِمُونَ } , قال ابن عباس : مشركون .

[15] { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ } ، يعني من الغرق ، { وَجَعَلْنَاهَا } ، يعني السفينة { آيَةً } ، أي عبرة ، { لِلْعَالَمِينَ } ، فإنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة . وقيل : جعلنا عقوبتهم للغرق عبرة .
[16] قوله تعالى : { وَإِبْرَاهِيمَ } ، أي وأرسلنا إبراهيم , { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ } أطيعوه وخافوه { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .
[17] { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا } أصناما ، { وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا } ، تقولون كذبا ، قال مقاتل : تصنعون أصناما بأيديكم فتسمونها آلهة ، { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا } ، لا يقدرون أن يرزقوكم ، { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } .
[18] { وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ } ، مثل عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا ، { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } .

[19] { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ } ، كيف يخلقهم ابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة { ثُمَّ يُعِيدُهُ } في الآخرة بعد البعث { إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } .
[20] { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ، { ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ } ، أي ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت ، فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبتدئا لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدا { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .
[21] { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } .

[22] { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } ، فإن قيل : ما وجه قوله : { وَلَا فِي السَّمَاءِ } والخطاب مع الآدميين وهم ليسوا في السماء ؟ قال الفراء : معناه ولا من في السماء بمعجز أي لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء في السماء . وقال قطرب : معناه وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها { وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } ، أي من ولي يمنعكم مني ولا نصير ينصركم من عذابي .
[23] { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ } ، بالقرآن وبالبعث , { أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } فهذه الآيات في تذكير أهل مكة وتحذيرهم ، وهي معترضة في قصة إبراهيم ثم عاد إلى قصة إبراهيم ، فقال جل ذكره :

[24] { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ } ، وجعلها عليه بردا وسلاما ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يصدقون .

[25] { وَقَالَ } ، يعني إبراهيم لقومه ، { إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ } ، قرأ ابن كثير والكسائي وأبو عمرو ويعقوب : مَوَدَّةُ رفعا بلا تنوين ، { بَيْنِكُمْ } خفضا بالإضافة على معنى : إن الذين اتخذتم من دون الله أوثانا هي مودة بينكم ، { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، ثم هي تنقطع ولا تنفع في الآخرة ، وقرأ حمزة وحفص (مودة) نصبا بغير تنوين على الإضافة بوقوع الاتخاذ عليها ، وقرأ الآخرون مَوَدَّةً منصوبة منونة بينكم بالنصب ، معناه إنكم اتخذتم هذه الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا تتواردون على عبادتها وتتواصلون عليها في الدنيا { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا }، تتبرأ الأوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الأتباع وتلعن الأتباع القادة ، { وَمَأْوَاكُمُ } ، جميعا العابدون والمعبودون ، { النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } .

[26] { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ } ، يعني صدقه وهو أول من صدق إبراهيم وكان ابن أخيه ، { وَقَالَ } يعني { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } ، فهاجر من كوثى وهو من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر ، قال مقاتل : هاجر إبراهيم عليه السلام وهو ابن خمس وسبعين سنة ، { إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .
[27] { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } ، يقال : إن الله لم يبعث نبيا بعد إبراهيم إلا من نسله ، { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا } ، وهو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يتولونه ، وقال السدي : هو الولد الصالح ، وقيل : هو أنه رأى مكانه في الجنة ، { وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } أي في زمرة الصالحين . قال ابن عباس : مثل آدم ونوح .

[28] قوله تعالى : { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ } ، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر : أَإِنَّكُمْ بالاستفهام ، وقرأ الباقون بلا استفهام ، واتفقوا على استفهام الثانية ، { لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ } ، وهي إتيان الرجال ، { مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ } .
[29] { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ } ، وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين ، فترك الناس الممر بهم ، وقيل : تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء ، { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ } ، النادي والندى والمنتدى مجلس القوم ومتحدثهم { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ } لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح ، { إِلَّا أَنْ قَالُوا } ، له استهزاء { ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ، أن العذاب نازل بنا ، فعند ذلك .
[30] { قَالَ } ، لوط ، { رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ } ، بتحقيق قولي في العذاب .

[31] { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى } ، من الله بإسحاق ويعقوب ، { قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ } ، يعني قوم لوط ، والقرية سدوم ، { إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ } .
[32] { قال } إبراهيم للرسل ، { إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا } ، قالت الملائكة { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ } ، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب : (لَنُنْجِيَهُ) بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، { وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } ،

أي الباقين في العذاب .
[33] { وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا } ، ظن أنهم من الإنس ، { سِيءَ بِهِمْ } حزن بهم ، { وَضَاقَ بِهِمْ } بمجيئهم { ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ } ، من قومك علينا , { وَلَا تَحْزَنْ } ، بإهلاكنا إياهم ، { إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } ، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب : مُنَجُّوكَ بالتخفيف ، وقرأ الآخرون بالتشديد .

[34] { إِنَّا مُنْزِلُونَ } ، قرأ ابن عامر بالتشديد ، وقرأ الآخرون بالتخفيف ، { عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا } ، عذابا ، { مِنَ السَّمَاءِ } ، قال مقاتل : الخسف والحصب ، { بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } .
[35] { وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا } من قريات لوط ، { آيَةً بَيِّنَةً } ، عبرة ظاهرة ، { لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ، يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول ، قال ابن عباس : الآية البينة هي آثار منازلهم الخربة . وقال قتادة : هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة . وقال مجاهد : هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض .
[36] { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا } ، أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا ، { فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ } ، أي واخشوا اليوم الآخر ، { وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } .
[37] { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } .

[38] { وَعَادًا وَثَمُودَ } ، أي وأهلكنا عادا وثمود ، { وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ } ، يا أهل مكة ، { مِنْ مَسَاكِنِهِمْ } ، منازلهم بالحجر واليمن ، { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } ، عن سبيل الحق { وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ } ، قال مقاتل والكلبي وقتادة : كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على هدى ، وهم على الباطل ، والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين ، قال الفراء : كانوا عقلاء ذوي بصائر .

[39] { وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ } ، أي وأهلكنا هؤلاء ، { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ } ، بالدلالات ، { فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ } أي فائتين من عذابنا .
[40] { فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا } ، وهم قوم لوط ، والحاصب الريح التي تحمل الحصا وهي الحصا الصغار , { وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ } , يعني ثمود , { وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ } يعني قارون وأصحابه , { وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا } , يعني قوم نوح وفرعون وقومه , { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } .
[41] { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ } أي الأصنام يرجون نصرها ونفعها , { كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا } لنفسها تأوي إليه , وإن بيتها في غاية الضعف والوهن , لا يدفع عنها حرا ولا بردا فكذلك الأوثان لا تملك لعابديها نفعا ولا ضرا . { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }

[42] { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ، قرأ أهل البصرة وعاصم يدعون بالياء لذكر الأمم قبلها ، وقرأ الآخرون بالتاء .
[43] { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ } الأشباه والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول يريد أمثال القرآن التي شبه بها أحوال كفار هذه الأمة بأحوال كفار الأمم

المتقدمة ، { نَضْرِبُهَا } ، نبينها ، { لِلنَّاسِ } ، قال عطاء ومقاتل : لكفار مكة ، { وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } ما يعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله ، عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » .
[44] قوله عز وجل : { خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } ، أي للحق وإظهار الحق ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، في خلقها ، { لَآيَةً } ، لدلالة { لِلْمُؤْمِنِينَ } ، على قدرته وتوحيده .

[45] { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } ، يعني القرآن ، { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } ، الفحشاء ما قبح من الأعمال والمنكر ما لا يعرف في الشرع , قال ابن مسعود وابن عباس : في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر يزدد بصلاته بالمعروف ولم تنهه عن منكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا .

وقال الحسن وقتادة : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه , وقال ابن عون : معنى الآية إن الصلاة تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها . وقيل : أراد بالصلاة القرآن , كما قال تعالى : { وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ } أي بقراءتك . وقيل : أراد أن يقرأ القرآن في الصلاة فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر قوله عز وجل : { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } , أي ذكر الله أفضل الطاعات , قال رسول والله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير " لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم " ؟ قالوا : بلى ، قال : " ذكر الله » (1) وقال قوم : معنى قوله ولذكر الله أكبر أي ذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه وقال عطاء في قوله : (إن الصلاد تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) ، قال : ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية . ؟ { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } ، قال عطاء : يريد لا يخفى عليه شيء .

____
(1) أخرجه الترمذي في الدعوات 9 / 317 ، وابن ماجه في الأدب رقم (3790) 2 / 1245 وصححه الحاكم في المستدرك 1 / 496 ووافقه الذهبي ، وأخرجه مالك في الموطأ 1 / 211 والإمام أحمد في المسند 6 / 447 والمصنف في شرح السنة 5 / 16 وقال : حديث حسن .

[46] قوله تعالى : { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ } ، لا تخاصموهم ، { إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ، أي بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه ، وأراد من قبل الجزية منهم ، { إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } أي أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب ، فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ، ومجاز الآية : إلا الذين ظلموكم لأن جميعهم ظالم بالكفر ، وقال سعيد بن جبير : هم أهل الحرب ومن لا عهد له . قال قتادة ومقاتل : صارت منسوخة بقوله : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } . { وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ } يريد إذا أخبركم واحد منهم مما قبل الجزية بشيء مما في كتبهم فلا تجادلوهم عليه ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، { وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } عن أبي هريرة قال . كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم . « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا

وما أنزل إليكم » (1) .
[47] قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ } يعني كما أنزلنا إليهم الكتاب ، { أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } ، يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه ، { وَمِنْ هَؤُلَاءِ } ، يعني أهل مكة ، { مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ } ، وهم مؤمنو أهل مكة ، { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ } ، وذلك أن اليهود وأهل مكة عرفوا أن محمدا نبي والقرآن حق فجحدوا . وقال قتادة : الجحود إنما يكون بعد المعرفة .
[48] { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو } ، يا محمد ، { مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ } ، يعني من قبل ما أنزل إليك الكتاب ، { وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ } ، يعني ولا تكتبه يعني لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي ، { إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } ، يعني لو كنت تقرأ أو تكتب قبل الوحي لشك المبطلون المشركون من أهل مكة ، وقالوا : إنه يقرؤه من كتب الأولين وينسخه منها ، قاله قتادة . وقال مقاتل : المبطلون هم اليهود ، ومعناه إذا لشكوا فيك واتهموك ، وقالوا : إن الذي نجد نعته في التوراة أمي لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت .

---

(1) أخرجه البخاري في التوحيد 13 / 516 والمصنف في شرح السنة 1 / 268 .

[49] { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ } ، قال الحسن : يعني القرآن آيات بينات ، { فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } ، يعني المؤمنين الذين حملوا القرآن ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة : بل هو - يعني محمدا صلى الله عليه وسلم - ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، لأنهم يجدونه بنعته وصفته في كتبهم ، { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } .
[50] { وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ } ، كما أنزل على الأنبياء من قبل ، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر آية على التوحيد ، وقرأ الآخرون آيات من ربه . قوله عز وجل : { قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ } وهو القادر على إرسالها إذا شاء أرسلها ، { وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ } ، أنذر أهل المعصية بالنار ، وليس إنزال الآيات بيدي .

[51] { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ } ، هذا الجواب لقولهم : { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ } قال : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } ، يعني أولم يكفهم من الآيات القرآن يتلى عليهم ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، في إنزال القرآن ، { لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ، أي تذكيرا وعظة لمن آمن وعمل به .
[52] { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا } ، أني رسوله وهذا القرآن كتابه { يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ} ، قال ابن عباس : بغير الله . وقال قتادة : بعبادة الشيطان ، { وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } .

[53] { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } ، نزلت في النضر بن الحارث حين قال : فأمطر علينا حجارة من السماء { وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى } ، قال ابن عباس : ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم يعني لأنهم إذا ماتوا

صاروا إلى العذاب ، وقيل : يوم بدر ، { لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ } ، يعني العذاب وقيل : الأجل ، { بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ، بإتيانه .
[54] { يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } ، أعاده تأكيدا ، { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } ، جامعة لهم لا يبقى أحد منهم إلا دخلها .
[55] { يَوْمَ يَغْشَاهُمُ } ، يصيبهم { الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } ، يعني إذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم كما قال : { لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ } ، { وَيَقُولُ ذُوقُوا } ، قرأ نافع وأهل الكوفة : ثم يقول بالياء أي ويقول لهم الموكل بعذابهم : ذوقوا ، وقرأ الآخرون بالنون لأنه لما كان بأمره نسب إليه ، أي جزاء { مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } .

[56] { يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ } ، قال مقاتل والكلبي : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول : إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة ، إن أرضي يعني المدينة واسعة آمنة ، قال مجاهد : إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها . وقال سعيد بن جبير : إذا عمل في الأرض بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة . وقال عطاء : إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة ، وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة . وقيل : نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا : نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة ، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج . وقال مطرف بن عبد الله : أرضي واسعة أي رزقي لكم واسع فاخرجوا .
[57] { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ } ، خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة أي كل واحد ميت أينما كان فلا تقيموا بدار الشرك خوفا من الموت ، { ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } ، فنجزيكم بأعمالكم ، وقرأ أبو بكر : تُرْجَعُونَ .

[58] { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ } قرأ حمزة والكسائي بالثاء ساكنة من غير همز فقال : ثوى الرجل إذا أقام وأثوبته إذا أنزلته منزلا يقيما فيه ، وقرأ الآخرون بالباء وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها أي لننزلهم ، { مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا } ، علالي ، { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } .
[59] { الَّذِينَ صَبَرُوا } ، على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم ، { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } ، يعتمدون .

[60] { وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا } ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذهم المشركون : « هاجروا إلى المدينة » ، فقالوا : كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال ، فمن يطعمنا بها ويسقينا ؟ فأنزل الله : { وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ } ذات حاجة إلى غداء ، { لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا } أي لا ترفع معها ولا تدخر شيئا لغد مثل البهائم والطير ، { اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ } ، حيث كنتم ، { وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ، السميع لأقوالكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ، العليم بما في قلوبكم .
[61] قوله تعالى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ } ، يعني كفار مكة ، { مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } .
[62] { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

[63] { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } وقيل : قل الحمد لله على إقرارهم لزوم النعمة عليهم ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } ، ينكرون التوحيد مع إقرارهم أنه الخالق لهذه الأشياء .

[64] قوله تعالى : { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ } ، اللهو هو الاستماع بلذات الدنيا ، واللعب العبث سميت بهما لأنها فانية { وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ } أي الحياة الدائمة الباقية ، والحيوان بمعنى الحياة أي فيها الحياة الدائمة ، { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } ، فناء الدنيا وبقاء الآخرة .
[65] قوله تعالى : { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ } ، وخافوا الغرق ، { دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ، وتركوا الأصنام ، { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } ، هذا إخبار عن عنادهم وأنهم عند الشدائد يقرون أن القادر على كشفها هو الله عز وجل وحده ، فإذا زالت عادوا إلى كفرهم ، قال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا : يا رب يا رب .

[66] { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ } ، هذا لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد ، كقوله : { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } ، أي ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم ، { وَلِيَتَمَتَّعُوا } ، قرأ حمزة والكسائي ساكنة اللام ، وقرأ الباقون بكسرها نسقا على قوله : (لِيَكْفُرُوا) ، { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ، وقيل : من كسر اللام جعلها لام كي وكذلك في ليكفروا ، والمعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة .
[67] { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } ، يسبي بعضهم بعضا ، وأهل مكة آمنون ، { أَفَبِالْبَاطِلِ } ، بالأصنام والشيطان ، { يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ } ، بمحمد والإسلام ، { يَكْفُرُونَ } .
[68] { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، فزعم أن لله شريكا وأنه أمر بالفواحش ، { أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ } ، بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، { لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ } ، استفهام بمعنى التقرير ، معناه : أما لهذا الكافر مأوى في جهنم .

[69] { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا } ، الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا ، { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } ، لنثبتهم على ما قاتلوا عليه ، وقيل : لنزيدنهم هدى كما قال : { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى } ، وقيل : لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة هي التي توصل بها إلى رضا الله عز وجل وقيل : المجاهدة هي الصبر على الطاعات . قال الحسن : أفضل الجهاد مخالفة الهوى . وقال الفضيل بن عياض : والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل الجنة . وقال سهل بن عبد الله : والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة ، وروي عن ابن عباس : والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } بالنصر والمعونة في دنياهم وبالثواب والمغفرة في عقباهم .

(30) سورة الروم
[1 - 3] { الم } { غُلِبَتِ الرُّومُ } { فِي أَدْنَى الْأَرْضِ } أي أقرب أرض الشام إلى أرض فارس ، قال عكرمة : هي أذرعات وكسكر ، وقال مجاهد : أرض

الجزيرة . وقال مقاتل : الأردن وفلسطين . { وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ } ، أي الروم من بعد غلبة فارس إياهم ، والغلب والغلبة لغتان ، { سَيَغْلِبُونَ } ، فارس .

[4] { فِي بِضْعِ سِنِينَ } ، والبضع ما بين الثلاث إلى السبع ، وقيل : ما بين الثلاث إلى التسع : وقيل : ما دون العشرة . وقرأ عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري والحسن وعيسى بن عمر : غَلَبَتِ بفتح الغين واللام ، (سَيُغْلَبُونَ) بضم الياء وبفتح اللام ، وقالوا : نزلت حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن غلبة الروم فارس ، ومعنى الآية : الم غلبت الروم فارس في أدنى الأرض إليكم وهم من بعد غلبهم سيغلبهم المسلمون في بضع سنين ، وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون في جهاد الروم . والأول أصح وهو قول أكثر المفسرين . { لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ } ، من بعد دولة الروم على فارس ومن بعدها فأي الفريقين كان لهم الغلبة فهو بأمر الله وقضائه وقدره . " ؟ { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ } .
[5] { بِنَصْرِ اللَّهِ } ، الروم على فارس ، قال السدي : فرح النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك ، { يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } بالمؤمنين .

[6] { وَعْدَ اللَّهِ } نصب على المصدر أي وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس ، { لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } .
[7] { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، يعني أمر معاشهم كيف يكتسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف يبنون ويعيشون { وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } ، ساهون عنها جاهلون لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها .
[8] { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } أي للحق ، وقيل : لإقامة الحق ، { وَأَجَلٍ مُسَمًّى } ، أي لوقت معلوم إذا انتهت إليه فنيت وهو القيامة ، { وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } .

[9] { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، أولم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا ، { كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ } حرثوها وقلبوها للزراعة ، { وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } ، أي أكثر مما عمرها أهل مكة ، قيل : قال ذلك لأنه لم يكن لأهل مكة حرث ، { وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ، فلم يؤمنوا فأهلكهم الله ، { فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ } ، ينقص حقوقهم ، { وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ، ببخس حقوقهم .

[10] { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا } أي أساءوا العمل ، { السُّوأَى } ، يعني الخلة التي تسوؤهم وهي النار ، وقيل : السوء اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة ، { أَنْ كَذَّبُوا } أي لأن كذبوا ، وقيل : تفسير السوء ما بعده وهو قوله أن كذبوا يعني ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب حملهم تلك السيئات على أن كذبوا ، { بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ } ، قرأ أهل الحجاز والبصرة : (عاقبة) بالرفع أي ثم كان آخر أمرهم السوء ، وقرأ الآخرون بالنصب على خبر كان ، وتقديره : ثم كان السوء عاقبة الذين أساءوا .

[11] قوله تعالى . { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ، أي يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت أحياء , ولم يقل يعيدهم , رده إلى الخلق , { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } فيجزيهم بأعمالهم .
[12] { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ } ، قال قتادة والكلبي : ييأس المشركون من كل خير . وقال الفراء : ينقطع كلامهم وحجتهم . وقال مجاهد : يفتضحون .

[13] { وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ } ، جاحدين متبرئين يتبرءون منها وتتبرأ منهم .
[14] { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ } ، أي يتميز أهل الجنة من أهل النار . وقال مقاتل : يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار فلا يجتمعون أبدا .
[15] { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ } ، وهي البستان الذي في غاية النضارة ، { يُحْبَرُونَ } ، قال ابن عباس : يكرمون . وقال مجاهد وقتادة : ينعمون . وقال أبو عبيدة : يسرون ، والحبرة السرور ، وقيل : الحبرة في اللغة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين ، وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير : تحبرون هو السماع في الجنة .

[16] { وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ } أي البعث يوم القيامة ، { فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } .
[17] قوله تعالى : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ } ، أي سبحوا الله ومعناه صلوا لله ، { حِينَ تُمْسُونَ } ، أي تدخلوا في الصباح وهو صلاة المغرب والعشاء ، { وَحِينَ تُصْبِحُونَ } تدخلون في الصباح ، وهو صلاة الصبح .
[18] { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، قال ابن عباس : يحمده أهل السماوات والأرض ويصلون له , { وَعَشِيًّا } أي صلوا له عشيا يعني صلاة العصر , { وَحِينَ تُظْهِرُونَ } , تدخلون في الظهيرة وهو الظهر ، قال نافع بن الأزرق لابن عباس : هل تجد صلاة الخمس في القرآن ؟ قال : نعم ، وقرأ هاتين الآيتين ، وقال : جمعت الآية صلاة الخمس ومواقيتها .
[19] قوله تعالى : { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } ، قرأ حمزة والكسائي (تَخْرُجُونَ) بفتح التاء وضم الراء ، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء .

[20] { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ } ، أي خلق أصلكم يعني آدم من تراب ، { ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } ، تنبسطون في الأرض .
[21] { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } ، قيل : من جنسكم من بني آدم ، وقيل : خلق حواء من ضلع آدم { لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } ، جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ، في عظمة الله وقدرته .
[22] { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ } ، يعني اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما ، { وَأَلْوَانِكُمْ } ، أبيض وأسود وأحمر وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة , { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } ، قرأ حفص : (لِلْعَالِمِينَ) بكسر اللام .

[23] { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ } أي منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار أي تصرفكم في طلب المعيشة ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } ، سماع تدبر واعتبار .
[24] { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا } ، للمسافر من الصواعق ، { وَطَمَعًا } ، للمقيم في المطر . { وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ } ، يعني بالمطر , { الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } ، أي بعد يبسها { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } .

[25] { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } . قال ابن مسعود : قامتا على غير عمد بأمره . وقيل : يدوم قيامهما بأمره ، { ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ } ، قال ابن عباس : من القبور ، { إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } ، منها وأكثر العلماء على أن معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة إذا أنتم تخرجون من الأرض .
[26] { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } ، مطيعون ، قال الكلبي : لهذا خاص لمن كان منهم مطيعا ، عن ابن عباس : كل له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة .

[27] { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ، يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت للبعث ، { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } ، قال الربيع بن خثيم وقتادة والكلبي : أي هو هين عليه وما شيء عليه بعزيز ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس ، وقال مجاهد وعكرمة : وهو أهون عليه أي أيسر ووجهه أنه على طريق ضرب المثل أي هو أهون عليه على ما يقع في عقولكم ، فإن الذي يقع في عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الإنشاء ، أي الابتداء ، وقيل : هو أهون عليه عندكم . وقيل : هو أهون عليه أي على الخلق يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفا ، ثم علقا ثم مضغا إلى أن يصيروا رجالا ونساء { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } ، أي الصفة العليا { فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } قال ابن عباس : هي أنه ليس كمثله شيء ، وقال قتادة : هي أنه لا إله إلا هو { وَهُوَ الْعَزِيزُ } ، في ملكه ، { الْحَكِيمُ } ، في خلقه .

[28] { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ } ، أي بين لكم شبها بحالكم , وذلك المثل من أنفسكم ثم بين المثل فقال : { هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } ، أي عبيدكم { مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ } ، من المال { فَأَنْتُمْ } ، وهم ، { فِيهِ سَوَاءٌ } ، أي شرع أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم ، { تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ } ، أي تخافون أن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر شريكه الحر في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمر دونه وكما يخاف الرجل شريكه في الميراث وهو يحب أن ينفرد به ، قال ابن عباس : تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا فإذا لم تخافوا هذا من مواليكم ولم ترضوا ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركائي وهم عبيدي ، ومعنى قوله : { أَنْفُسِكُمْ } أي أمثالكم الأحرار كقوله : { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا } أي بأمثالهم ، { كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ، ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم .

[29] { بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، أشركوا بالله ، { أَهْوَاءَهُمْ } في الشرك ، { بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، جهلا بما يجب عليهم ، { فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ } ، أي أضل الله { وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } ، مانعين يمنعونهم من عذاب الله عز وجل .

[30] قوله تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ } ، أي أخلص دينك لله قاله سعيد بن جبير ، وإقامة الوجه إقامة الدين ، وقال غيره : سدد عملك ، والوجه ما يتوجه إليه الإنسان ودينه وعمله , مما يتوجه إليه لتسديده { حَنِيفًا } ، " مائلا مستقيما عليه ، { فِطْرَةَ اللَّهِ } ، دين الله وهو نصب على الإغراء أي الزم فطرة الله { الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } ، أي خلق الناس عليها ، هذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين أن المراد بالفطرة الدين وهو الإسلام ، وذهب قوم إلى أن الآية خاصة في المؤمنين هم الذين فطرهم الله على الإسلام { لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } فمن حمل الفطرة على الدين قال : معناه . لا تبديل لدين الله وهو خبر بمعنى النهي أي لا تبدلوا دين الله ، قال مجاهد وإبراهيم : معنى الآية الزموا فطرة الله أي دين الله واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك ، { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } ، المستقيم ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } ، وقيل : لا تبديل لخلق الله أي ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاء لا يبدل فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقي سعيدا .

[31] { مُنِيبِينَ } أي فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه لأن المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه فيها الأمة كما قال : { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ } ، { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } أي راجعين إليه بالتوبة منيبين إليه بالطاعة { وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .
[32] { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا } أي صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى . وقيل : هم أهل البدع من هذه الأمة ، { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } ، أي راضون بما عندهم .

[33] قوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ } ، قحط وشدة ، { دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } ، مقبلين إليه بالدعاء { ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً } ، خصبا ونعمة ، { إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } .
[34] { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ } ، ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا ، هذا خطاب تهديد فقال : { فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ، حالكم في الآخرة .
[35] { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا } ، قال ابن عباس : حجة وعذرا ، وقال قتادة : كتابا ، { فَهُوَ يَتَكَلَّمُ } ، ينطق ، { بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } أي ينطق بشركهم ويأمرهم به .
[36] { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً } ، أي الخصب وكثرة المطر ، { فَرِحُوا بِهَا } ، يعني فرح البطر ، { وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } ، أي الجدب وقلة المطر ويقال الخوف والبلاء { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } ، من السيئات ، { إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } ، ييأسون من رحمة الله ، وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر الله عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة .

[37] { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .
[38] قوله تعالى : { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } ، من البر والصلة ، { وَالْمِسْكِينَ } ، وحقه أن يتصدق عليه ، { وَابْنَ السَّبِيلِ} ، يعني المسافر ، وقيل : هو الضعيف ، { ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } ، يطلبون ثواب الله بما يعملون ، { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .

[39] قوله عز وجل : { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا } ، قرأ ابن كثير . (أَتَيْتُم) مقصورا وقرأ الآخرون بالمد أي أعطيتم ، ومن قصر فمعناه ما جئتم من ربا ومجيئهم ذلك على وجه الإعطاء كما يقول : أتيت خطئا وأتيت صوابا فهو يئول في معنى إلى قول مَنْ مَدَّ . { لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ } ، قرأ أهل المدينة ويعقوب : لتربوا بالتاء وضمها وسكون الواو على الخطاب أي لتربوا أنتم وتصيروا ذوي زيادة من أموال الناس ، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها ، ونصب الواو وجعلوا الفعل للربا لقوله : { فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ } ، في أموال الناس أي في اختطاف أموال الناس واجتذابها ، واختلفوا في معنى الآية ، فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاوس وقتادة والضحاك وأكثر المفسرين : هو الرجل يعطي غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهذا جائز حلال لكن لا ثواب عليها في القيامة ، وهو معنى قوله عز وجل : فلا يربو عند الله ، وكان هذا حراما على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لقوله تعالى . { وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ } أي لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيت ، وقال النخعي : هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه ليكثر ماله ولا يريد به وجه الله . وقال الشعبي :

هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله التماس عونه لوجه الله فلا يربو عند الله لأنه لم يرد به وجه الله تعالى ، { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ } ، أعطيتم من صدقة { تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } ، فيضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها ، فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات ، تقول العرب : القوم مهزولون ومسمونون إذا هزلت أو سمنت إبلهم .

[40] { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } .

[41] قوله عز وجل : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، يعني قحط المطر وقلة النبات وأراد بالبر البوادي والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية . قال عكرمة : العرب تسمي المصر بحرا يقال : أجدب البر وانقطعت مادة البحر ، { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ } ، أي بشؤم ذنوبهم { لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا } ، أي عقوبة بعض الذي عملوا من الذنوب ، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ، عن الكفر وأعمالهم الخبيثة .

[42] { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ } ، لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية ، { كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ } ، فأهلكوا بكفرهم .

[43] { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ } ، المستقيم وهو دين الإسلام { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ } ، يعني يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الله { يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ } ، أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير .

[44] { مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ } ، أي وبال كفره ، { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } ، يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور .

[45] . { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ } قال ابن عباس : ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم ، : { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } .

[46] قوله عز وجل : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ } تبشر بالمطر ، { وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ } ، نعمة المطر وهي الخصب ، { وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } ، لتطلبوا من رزقه بالتجارة في البحر ، { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، رب هذه النعم .
[47] قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ، بالدلالات الواضحات على صدقهم ، { فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا } ، عذبنا الذين كذبوهم ، { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } ، إنجاؤهم من العذاب ففي هذا تبشير للنبي صلى الله عليه وسلم بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء ، قال الحسن : أنجاهم مع الرسول من عذاب الأمم .

[48] { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا } ، أي ينشره , { فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ } ، مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على من يشاء , { وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا } , قطعا متفرقة , { فَتَرَى الْوَدْقَ } ، المطر , { يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } وسطه , { فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ } , أي بالودق , { مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } يفرحون بالمطر .
[49] { وَإِنْ كَانُوا } وقد كانوا { مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ } ، أي آيسين ، وقيل : الأولى ترجع إلى إنزال المطر والثانية إلى إنشاء السحاب .
[50] { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ } أراد برحمة الله المطر أي انظر إلى حسن تأثيره في الأرض ، قال مقاتل : أثر رحمة الله أي نعمته وهو النبت ، { كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى } ، يعني أن ذلك الذي يحيي الأرض لمحيي الموتى ، { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[51] { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا } باردة مضرة فأفسدت الزرع , { فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا } أي والنبت والزرع مصفرا بعد الخضرة ، { لَظَلُّوا } ، لصاروا ، { مِنْ بَعْدِهِ } أي من بعد اصفرار الزرع ، { يَكْفُرُونَ } ، يجحدون ما سلف من النعمة يعني أنهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذابا على زرعهم جحدوا سالف نعمتي .
[52] { فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ }
[53] { وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } .

[54] { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ } ، قرئ بضم الضاد وفتحها ، فالضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم ، ومعنى من ضعف أي من نطفة يريد من ذي ضعف أي من ماء ذي ضعف كما قال تعالى : { أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } ، { ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً } ، من بعد ضعف الطفولية شبابا وهو وقت القوة ، { ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } ، من الضعف والقوة والشباب والشيبة ، { وَهُوَ الْعَلِيمُ } ، بتدبير خلقه , { الْقَدِيرُ } على ما يشاء .

[55] { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ } ، يحلف المشركون ، { مَا لَبِثُوا } ، في الدنيا { غَيْرَ سَاعَةٍ } إلا ساعة استقلوا أجل الدنيا لَمَّا عاينوا الآخرة ، وقال مقاتل والكلبي : ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ } . { كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } ، يصرفون عن الحق في الدنيا ، قال الكلبي ومقاتل : كذبوا في قولهم غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا بعث ، والمعنى أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء يتبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه ، وكان ذلك

بقضاء الله وبقدره بدليل قوله : { يُؤْفَكُونَ } أي يصرفون عن الحق ، ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال :

[56] { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ } أي فيما كتب الله لكم في سابق علمه من اللبث في القبور ، وقيل : في كتاب الله أي في حكم الله ، وقال قتادة ومقاتل : فيه تقديم وتأخير تقديره : وقال الذين في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم إلى يوم البعث يعني الذين يعلمون كتاب الله ، وقرءوا قوله تعالى : { وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ، أي قالوا للمتكبرين لقد لبثتم ، { إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } ، , وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل .
[57] قوله تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ } ، يعني عذرهم { وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } لا يطلب منهم العتبى والرجوع إلى الدنيا .
[58] قوله تعالى : { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } ، ما أنتم إلا على باطل .

[59] { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } توحيد الله .
[60] { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ، في نصرتك وإظهارك على عدوك { وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ } ، لا يستجهلنك معناه لا يحملنك الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي وقيل : لا يستخفن رأيك وحلمك ، { الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } ، بالبعث والحساب .

(31) سورة لقمان
[1 - 3] { الم }{ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ }{ هُدًى وَرَحْمَةً } ، قرأ حمزة (ورحمة) بالرفع على الابتداء أي هو هدى ورحمة ، وقرأ الآخرون بالنصب على الحال { لِلْمُحْسِنِينَ } . 4 ,
[5] { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }{ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .

[6] { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ } ، الآية . قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم فيحدث بها قريشا فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فأنزل الله هذه الآية . وقال مجاهد : يعني شراء القيان والمغنيين ، ووجه الكلام على هذا التأويل من يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث ، وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا : لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ، ومعنى قوله : { يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ } أي يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن ، قال أبو الصباء البكري : سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال : هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وعن الضحاك قال : هو الشرك . وقال قتادة : هو كل لهو ولعب { لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } يعني يفعله عن جهل . قال قتادة : بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق . وقوله تعالى : { وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب . { وَيَتَّخِذَهَا } بنصب الدال عطفا على قوله : { لِيُضِلَّ

} وقرأ الآخرون بالرفع نسقا على قوله : { يَشْتَرِي } , { أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } .
[7] { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } .
[8] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ } . 9 ,
[10] { خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } .
حسن .
[11] { هَذَا } ، يعني الذي ذكرت مما تعاينون ، { خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } ، من آلهتكم التي تعبدونها ، { بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } .

[12] قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ } ، يعني العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأمور { أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } .
[13] { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ } ، واسمه أنعم ويقال : مشكم ، { وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } ، قرأ ابن كثير : { يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ } بإسكان الياء ، وفتحها حفص ، والباقون بالكسر ، { يا بُنَيَّ إِنَّهَا } بفتح الياء حفص ، والباقون بالكسر ، { يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ } بفتح الياء البزي عن ابن كثير وحفص ، وبإسكانها القواس ، والباقون بكسرها .

[14] { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ } ، قال ابن عباس : شدة بعد شدة . وقال الضحاك : ضعفا على ضعف . قال مجاهد : مشقة على مشقة . وقال الزجاج : المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة . ويقال : الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف ، { وَفِصَالُهُ } ، أي فطامه ، { فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ } المرجع ، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين .

[15] { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } ، أي بالمعروف ، وهو البر والصلة والعشرة الجميلة ، { وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ } ، أي دين من أقبل إلى طاعتي وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال عطاء عن ابن عباس : يريد أبا بكر وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، فقالوا له : قد صدقت هذا الرجل وآمنت به ؟ قال : نعم هو صادق فآمنوا به ثم حملهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر ، قال الله تعالى : { وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ } ، يعني أبا بكر ، { ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، وقيل : نزلت هاتان الآيتان في سعد بن أبي وقاص وأمه وقيل : الآية عامة في حق كافة الناس .

[16] { يا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ } ، الكناية في قوله : { إِنَّهَا } ، راجعة إلى الخطيئة ، وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه : يا أبت إن عملت

الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله ؟ فقال : { يا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ }
قال قتادة : تكن في جبل . وقال ابن عباس : في صخرة تحت الأرضين السبع { أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ } ، باستخراجها ، { خَبِيرٌ } ، عالم بمكانها ، قال الحسن : معنى الآية هي الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها .
[17] { يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ } ، يعني من الأذى ، { إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } ، يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى فيهما من الأمور الواجبة التي أمر الله بها أو من الأمور التي يعزم عليها لوجوبها .

[18] { وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ } ، قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب : { وَلَا تُصَعِّرْ } بتشديد العين من غير ألف وقرأ الآخرون تُصَاعِرْ بالألف يقال : صعر وجهه وصاعر إذا مال "أعرض تكبرا ورجل أصعر أي مائل العنق . قال ابن عباس : يقول لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وقال مجاهد : هو الرجل يكون بينك وبينه إحنة فتلقاه فيعرض عنك بوجهه . وقال عكرمة : هو الذي إذا سُلِّمَ عليه لَوَى عنقه تقصيرا . وقال الربيع بن أنس وقتادة : ولا تحتقرن الفقراء ليكن الفقر والغنى عندك سواء ، { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا } . خيلاء تكبرا ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ } ، في مشيه { فَخُورٍ } ، على الناس .

[19] { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ } ، أي ليكن مشيك قصدا لا تخيلا ولا إسراعا . وقال عطاء : امش بالوقار والسكينة ، كقوله : { يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا } ، { وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ } ، وقال مقاتل : اخفض من صوتك , { إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ } ، أقبح الأصوات { لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } ، أوله زفير وآخره شهيق وهما صوتا أهل النار ، وقال موسى بن أعين : سمعت سفيان الثوري يقول في قوله : { إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } ، قال : صياح كل شيء تسبيح لله إلا الحمار . وقال جعفر الصادق في قوله : { إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } قال : هي العطسة القبيحة المنكرة .

[20] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ } ، أتم وأكمل ، { نِعَمَهُ } قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحفص { نِعَمَهُ } بفتح العين والهاء على الجمع ، وقرأ الآخرون منونة على الواحد ومعناها الجمع أيضا كقوله : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } ، { ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } ، قال عكرمة عن ابن عباس : النعمة الظاهرة الإسلام والقرآن والباطنة ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة . وقال الضحاك : الظاهرة حسن الصورة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة . وقال مقاتل . الظاهرة تسوية الخلق والرزق والإسلام ، والباطنة الإيمان . وقال الربيع : الظاهرة الجوارح والباطنة القلب ، وقيل : الظاهرة الإقرار باللسان والباطنة الاعتقاد بالقلب . وقيل : الظاهرة تمام الرزق والباطنة حسن الخلق . وقال عطاء : الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة . وقال مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الإمداد بالملائكة . وقيل : الظاهرة الإمداد بالملائكة والباطنة إلقاء الرعب في قلوب الكفار . وقال سهل بن عبد الله :

الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته ، { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في الله وفي صفاته بغير علم ، { وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } .
[21] { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } ، قال الله عز وجل : { أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } ، وجواب لو محذوف ومجازه يدعوهم فيتبعونه ، يعني يتبعون الشيطان وإن كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير .
[22] قوله تعالى : { وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ } ، يعني لله أي يخلص دينه لله ويفوض أمره إلى الله ، { وَهُوَ مُحْسِنٌ } ، في عمله ، { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } ، أي اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ، { وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } .

[23] { وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} .
[24] { نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا } ، أي نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا قليلا إلى انقضاء آجالهم , { ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ } ثم نلجئهم ونردهم في الآخرة ، { إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ } ، وهو عذاب النار .
[25] { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }
[26] { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } .

[27] قوله سبحانه وتعالى : { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ } قال قتادة : إن المشركين قالوا : إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فنزلت . { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ } أي بريت أقلاما ، { وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ } ، قرأ أبو عمرو ويعقوب : (وَالْبَحْرَ) بالنصب عطفا على (مَا) ، والباقون بالرفع على الاستئناف { يَمُدُّهُ } أي يزيده ، وينصبّ فيه { مِنْ بَعْدِهِ } من خلفه ، { سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } ، وفي الآية اختصار تقديره : ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده مع بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفدت كلمات الله . { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .
[28] { مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ } أي : كخلق نفس واحدة وبعثها لا يتعذر عليه شيء ، { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } .

[29] { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } .
[30] { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } ، أي ذلك الذي ذكرت لتعلموا أن الله هو الحق ، { وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } .
[31] { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ } ، إن ذلك من نعمة الله عليكم ، { لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ } ، عجائبه ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ } على أمر الله { شَكُورٍ } ، لنعمه .

[32] { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ } ، قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبي : كالسحاب . والظل جمع الظلة شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها وجعل الموج وهو واحد كالظل وهي جمع ، لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء ،

{ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ } أي عدل موف في البر بما عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له يعني ثبت على إيمانه قيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البر فجاءتهم ريح عاصف ، فقال عكرمة : لئن أنجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولأضعن يدي في يده فسكنت الريح ، فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه . وقال مجاهد : فمنهم مقتصد في القول مضمر للكفر وقال الكلبي : مقتصد في القول أي مكان الكفار لأن بعضهم كان أشد قولا وأغلى في الافتراء من بعض , { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ } ، والختر أسوأ الغدر .

[33] { يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي } ، لا يقضي ولايغني ، { وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ } ، مغن ، { عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا } ، قال ابن عباس : كل امرئ تهمه نفسه ، { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } ، يعني الشيطان . قال سعيد بن جبير : هو أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة .

[34] قوله : { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } الآية نزلت في الحارث بن عمرو من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة ووقتها وقال : إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث وتركت امرأتي حبلى , فمتى تلد , وقد علمتُ أين ولدتُ فبأي أرض أموت ؟ فأنزل الله هذه الآية : { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } وقرأ أبي بن كعب (بأية أرض) لأن الأرض ليس فيها من علامات التأنيث شيء . وقيل أراد بالأرض المكان , عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت » . (1) { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } .

---

(1) أخرجه البخاري في الاستسقاء 2 / 524 والمصنف في شرح السنة 4 / 422 .

(32) سورة السجدة 1 ,

[2] { الم }{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، قال مقاتل : لا شك فيه أنه تنزيل من رب العالمين .

[3] { أَمْ يَقُولُونَ } بل يقولون { افْتَرَاهُ } ، وقيل : الميم صلة أي أيقولون افتراه ، استفهام توبيخ ، وقيل : أم بمعنى الواو أي ويقولون افتراه ، وقيل : فيه إضمار مجاز فهم يؤمنون ، أم يقولون افتراه ، ثم قال : { بَلْ هُوَ } ، يعني القرآن ، { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ } يعني لم يأتهم ، { مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } ، قال قتادة : كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس ومقاتل : ذاك في الفترة التي كانت بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } .

[4] { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }

[5] { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } أي يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر ، { مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ } ، وقيل : ينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض ، { ثُمَّ يَعْرُجُ } ، يصعد { إِلَيْهِ } ، جبريل بالأمر ، { فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } ، أي في يوم واحد من أيام الدنيا وقدره مسيرة ألف سنة خمسمائة نزوله وخمسمائة صعوده لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام ، يقول : لو سار فيه أحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة ، والملائكة يقطعون في يوم واحد ، هذا في وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء ، وأما قوله : { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } ، أراد مدة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا ، هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك . وقوله : إليه أي إلى الله . وقيل : على هذا التأويل إلى مكان الملك الذي أمره الله عز وجل أن يعرج إليه . وقال بعضهم : ألف سنة وخمسون ألف سنة كلها في القيامة يكون على بعضهم

أطول وعلى بعضهم أقصر ، معناه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا , ثم يعرج أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا , وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام في يوم مقداره خمسين ألف سنة وهو يوم القيامة , وأما قوله : خمسين ألف سنة فإنه أراد على الكافر يجعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة وعلى المؤمن دون ذلك حتى جاء في الحديث : « أنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا » (1) وقال إبراهيم التيمي لا يكون على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر , ويجوز أن يكون هذا إخبار عن شدته وهوله ومشقته .
[6] { ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } , معنى ذلك الذي صنع ما ذكره من خلق السماوات والأرض عالم ما غاب عن عيان الخلق وما حضر ، { الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } .

____
(1) أخرج نحوه الإمام أحمد في المسند 3 / 75 والمصنف في شرح السنة 15 / 129 قال الشيخ الأرناؤوط : وفيه ابن لهيعة سيئ الحفظ وحسنه الهيثمي في المجمع 10 / 337 .

[7] { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } ، قرأ نافع وأهل الكوفة { خَلَقَهُ } بفتح اللام على الفعل وقرأ الآخرون بسكونها ، أي أحسن خلق كل شيء ، قال ابن عباس : أتقنه وأحكمه . قال قتادة : حسن . وقال مقاتل : علم كيف يخلق كل شيء ، من قولك : فلان يحسن كذا إذا كان يعلمه . وقيل : خلق كل حيوان على صورته لم يخلق البعض على صورة البعض ، فكل حيوان كامل في خلقه حسن ، وكل عضو من أعضائه مقدر بما يصلح به معاشه ، { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } ، يعني آدم .
[8] { ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ } ، يعني ذريته ، { مِنْ سُلَالَةٍ } ، نطفة سميت سلالة لأنها تسل من الإنسان { مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } ، أي ضعف وهو نطفة الرجل .
[9] { ثُمَّ سَوَّاهُ } ، ثم سوى خلقه ، { وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ } ، ثم عاد إلى ذريته ، فقال : { وَجَعَلَ لَكُمُ } ، بعد أن كنتم نطفا ، { السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } ، يعني لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه .

[10] { وَقَالُوا } ، يعني منكري البعث ، { أَئِذَا ضَلَلْنَا } ، هلكنا { فِي الْأَرْضِ } وصرنا ترابا وأصله من قولهم : ضل الماء في اللبن إذا ذهب ، { أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } ، استفهام إنكار . قال الله عز وجل : { بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ } ، أي بالبعث بعد الموت .
[11] { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ } ، يقبض أرواحكم ، { مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } ، أي وكل بقبض أرواحكم وهو عزرائيل ، والتوفي استيفاء المضروب للخلق في الأزل ، معناه أنه يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذي كتب عليه الموت { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } ، أي تصيرون إليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم .

[12] { وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ } ، المشركون ، { نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ } ، مطأطئو رءوسهم ، { عِنْدَ رَبِّهِمْ } ، حياء منه وندما . { رَبَّنَا } ، أي يقولون : ربنا { أَبْصَرْنَا } ، ما كنا به مكذبين ، { وَسَمِعْنَا } ، منك تصديق ما أتتنا به رسلك . وقيل : أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا ، { فَارْجِعْنَا } ، فارددنا إلى الدنيا ، { نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ } ، وجواب لو مضمر مجازه لرأيت العجب .
[13] { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } ، رشدها وتوفيقها للإيمان ، { وَلَكِنْ حَقَّ } ، وجب ، { الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } ، وهو قوله لإبليس : { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ، ثم يقال لأهل النار ، وقال مقاتل : إذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة .
[14] { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا } ، أي تركتم الإيمان به في الدنيا ، { إِنَّا نَسِينَاكُمْ } ، تركناكم { وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، من الكفر والتكذيب .

[15] قوله عز وجل : { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا } ، وعظوا بها ، { خَرُّوا سُجَّدًا } ، سقطوا على وجوههم ساجدين ، { وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } ، قيل : صلوا بأمر ربهم ، وقيل : قالوا : سبحان الله وبحمده ، { وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } ، عن الإيمان والسجود له .

[16] { تَتَجَافَى } ، ترتفع وتنبوا ، { جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } ، جمع مضجع وهو الموضع الذي يضطجع عليه يعني الفرش وهم المتهجدون بالليل ، الذين يقومون للصلاة ، واختلفوا في المراد بهذه الآية ، قال أنس : نزلت فينا معشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم . وعن أنس أيضا قال : نزلت في أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء ، وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر ، وقالا : هي صلاة الأوابين . وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء ، وهي صلاة الأوابين . وقال عطاء : هم الذين لا يقومون حتى يصلوا العشاء الآخرة . وعن أبي الدرداء وأبي ذر وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم : هم الذين يصلون العشاء الآخرة والفجر في جماعة ، وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل ، وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة ، « عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرنا فأصبحت يوما قريبا منه وهو يسير فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار

، قال : " لقد سألت عن أمر عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت " ، ثم قال : " ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل " ثم تلا { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } حتى بلغ { جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ثم قال : ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : " رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » (1) .

قوله عز وجل : { يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } قال ابن عباس : خوفا من النار وطمعا في الجنة ، { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } ، قيل : أراد به الصدقة المفروضة . وقيل : في الواجب والتطوع .

---

(1) أخرجه الترمذي في الإيمان 7 / 362 وقال : (هذا حديث حسن صحيح) والنسائي في التفسير 2 / 156 وابن ماجه في الفتن رقم (3973) وعبد الرزاق في المصنف 11 / 194 وعبد بن حميد في المنتخب من المسند برقم (112) ص 68 وأخرجه الحاكم مطولا 2 / 412 وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

[17] { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ } ، قرأ حمزة ويعقوب :(أُخْفِي لَهُمْ) ساكنة الياء أي أنا أخفي لهم ، ومن حجته قراءة ابن مسعود (نخفي) بالنون ، وقرأ الآخرون بفتحها ، { مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ } ، مما تقر به أعينهم ، { جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقول « الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (1) " . قال ابن عباس : هذا مما لا تفسير له . وعن بعضهم قال : أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم .

[18] قوله عز وجل : { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ } ، ولم يقل لا يستويان لأنه لم يرد مؤمنا واحدا وفاسقا واحدا بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين .

[19] { أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى } ، التي يأوي إليها المؤمنون ، { نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

---

(1) أخرجه البخاري في بدء الخلق 6 / 318 ومسلم في الجنة برقم (2824) 4 / 2174 .

[20] { وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } .

[21] { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } أي سوى العذاب الأكبر ، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } قال أبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وهو رواية الوالبي عن ابن عباس .

وقال عكرمة عنه : الحدود . وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب . وقال ابن مسعود : هو القتل بالسيف يوم بدر ، وهو قول قتادة والسدي ، { دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } ، يعني عذاب الآخرة , { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } إلى الإيمان ، يعني من بقي منهم بعد بدر وبعد القحط .

[22] قوله عز وجل : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ } ، يعني المشركين ، { مُنْتَقِمُونَ } . 23 ,

[24] { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ } ، يعني فلا تكن في شك من لقاء موسى ليلة المعراج ، قاله ابن عباس وغيره عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ليلة أسري بي موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة » (1) قال السدي : فلا تكن في مرية من لقائه أي من تلقي موسى كتاب الله بالرضا والقبول ، { وَجَعَلْنَاهُ } ، يعني الكتاب وهو التوراة ، وقال قتادة : موسى ، { هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ }{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ } ، يعني من بني إسرائيل ، { أَئِمَّةً } ، قادة في الخير يقتدى بهم ، يعني الأنبياء الذين كانوا فيهم . وقال قتادة : أتباع الأنبياء ، { يَهْدُونَ } يدعون ، { بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } ، قرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم أي لصبرهم وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم ، أي حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر ، { وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } .
[25] { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ } ، يقضي ، { بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } .

____
(1) أخرجه البخاري في بدء الخلق 6 / 314 ومسلم في الإيمان برقم (165) 1 / 151 .

[26] { أَوَلَمْ يَهْدِ } ، لم يتبين ، { لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ } ، آيات الله وعظاته فيتعظون بها .
[27] { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ } ، أي اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها { فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ } ، من العشب والتبن ، { وَأَنْفُسُهُمْ } ، من الحبوب والأقوات ، { أَفَلَا يُبْصِرُونَ } .
[28] { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، قيل : أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الحكم بين العباد ، قال قتادة : قال أصحاب النبي للكفار : إن لنا يوما نتنعم فيه ونستريح ويحكم بيننا وبينكم ، فقالوا استهزاء : متى هذا الفتح ؟ أي القضاء والحكم ، وقال الكلبي : يعني فتح مكة . وقال السدي : يوم بدر لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون لهم : إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم ، فيقولون : متى هذا الفتح .

[29] { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ } ، يوم القيامة ، { لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ } ، ومن حمل الفتح على فتح مكة والقتل يوم بدر قال : معناه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا ، { وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ } ، لا يمهلون ليتوبوا ويعتذروا .
[30] { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } قال ابن عباس : نسختها آية السيف ، { وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ } ، قيل : انتظر موعدي لك بالنصر إنهم منتظرون بك حوادث الزمان . وقيل : انتظر عذابنا فيهم فإنهم منتظرون ذلك .

(33) سورة الأحزاب

[1] { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ } ، نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور وعمرو بن سفيان السلمي ، وذلك أنهم قدموا المدينة على عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين بعد قتال أحد ، وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة ، وقل : إن لها شفاعة لمن عبدها ، وندعك وربك ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر : يا رسول الله ائذن لنا في قتلهم ، فقال : إني قد أعطيتهم الأمان ، فقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى : { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ } أي دُمْ على التقوى ، كالرجل يقول لغيره وهو قائم : قم هاهنا أي اثبت قائما . وقيل : الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة . وقال الضحاك : معناه اتق الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم . { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ } من أهل مكة يعني أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور ، { وَالْمُنَافِقِينَ } من أهل المدينة عبد الله بن أبي

وعبد الله بن سعد وطعمة { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا } ، لخلقه ، قبل أن يخلقهم ، { حَكِيمًا } فيما دبره لهم .
[2] { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } ، قرأ أبو عمرو (يعملون خبيرا) و (يعملون بصيرا) بالياء فيهما وقرأ غيره بالتاء .
[3] { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ثق بالله ، { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } حافظا لك ، وقيل : كفيلا برزقك .

[4] قوله عز وجل : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع ، فقالت قريش : ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ، وقال الزهري ومقاتل : هذا مثل ضربه الله عز وجل للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره ، يقول : فكما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمان ، ولا يكون له ولد واحد ابن رجلين . { وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } صورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، يقول الله تعالى : ما جعل نساءكم اللائي تقولون لهن هذا في التحريم كأمهاتكم ، ولكنه منكر وزور ، وفيه كفارة نذكرها إن شاء الله تعالى في سورة المجادلة . { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ } ، يعني من تبنيتموه { أَبْنَاءَكُمْ } ، فيه نسخ التبني ، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود له يدعوه الناس إليه ويرث ميراثه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أعتق زيد بن حارثة بن شراحيل

الكلبي ، وتبناه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ، فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة ، قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس من ذلك فأنزل الله هذه الآية ونسخ التبني ، { ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ } ، لا حقيقة له يعني قولهم زيد بن محمد صلى الله عليه وسلم نسب لا حقيقة له ، { وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ } ، يعني قوله الحق ، { وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } ، أي يرشدهم إلى سبيل الحق .

[5] { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } الذين ولدوهم ، { هُوَ أَقْسَطُ } أعدل { عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } ، يعني فهم إخوانكم ، { فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ } ، إن كانوا محررين وليسوا بنيكم ، أي سموهم بأسماء إخوانكم في الدين . وقيل : مواليكم أي أولياءكم في الدين ، { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ } ، قبل النهي فنسبتموه إلى غير أبيه ، { وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } ، ومن دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهي . وقال قتادة : فيما أخطأتم به أن تدعوه لغير أبيه وهو يظن أنه كذلك ومحل (ما) في قوله تعالى : { مَا تَعَمَّدَتْ } خفض ردا على { مَا } التي في قوله : { فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ } مجازه ولكن فيما تعمدت قلوبكم ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام » (1) .

---

(1) أخرجه البخاري في المغازي 8 / 45 ومسلم في الإيمان رقم (63) 1 / 80 .

[6] قوله عز وجل : { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ، يعني من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم . وقال ابن عباس وعطاء : يعني إذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي صلى الله عليه وسلم أولى بهم من أنفسهم ، وقيل : هو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذلك النفس دونه . وقيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الجهاد فيقول قوم : نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا ، فنزلت الآية ، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دَيْنًا أو ضِيَاعًا فليأتني فأنا مولاه » (1) .

---

(1) أخرجه البخاري في الاستقراض 5 / 61 ومسلم في الفرائض رقم (1619) 3 / 1238 .

قوله عز وجل : { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } ، وفي حرف أُبَيّ (وأزواجه وأمهاتهم) ، وهو لهم وهن أمهات المؤمنين في تعظيم حقهن وتحريم نكاحهن على التأبيد ، لا في النظر إليهن والخلوة بهن ، فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجانب ، قال الله تعالى : { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } ، يعني في الميراث ، قال قتادة : كان المسلمون يتوارثون بالهجرة . قال الكلبي : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس ، فكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته ، حتى نزلت هذه الآية { فِي كِتَابِ اللَّهِ } في حكم الله و { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، الذين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، { وَالْمُهَاجِرِينَ } ، يعني ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يرث بالإيمان والهجرة ، نسخت هذه الآية الموارثة بالمآخاة والهجرة وصارت القرابة . قوله : { إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا } ، أراد بالمعروف الوصية للذين يتولونه من المعاقدين ، وذلك أن الله لما نسخ

التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلثه . وقال مجاهد : أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة لحق الإيمان بالهجرة .

وقيل : أراد بالآية إثبات الميراث بالإيمان والهجرة ، يعني وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض ، أي لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا يعني إلا أن توصوا لذوي قراباتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة ، وهذا قول قتادة وعطاء وعكرمة . { كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } ، أي كان الذي ذكر من أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في اللوح المحفوظ مسطورا مكتوبا . وقال القرظي : في التوراة .

[7] { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ } ، على الوفاء بما حملوا وأن يصدق بعضهم بعضا ويبشر بعضهم ببعض . قال مقاتل : أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادة الله ويصدق بعضهم بعضا وينصحوا لقومهم ، { وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } ، خص هؤلاء الخمسة بالذكر من النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولوا العزم من الرسل { وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } ، عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا .
[8] { لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ } ، يقول : أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون لتبكيت من أرسلوا إليهم . وقيل : ليسأل الصادقين عن علمهم لله عز وجل . وقيل : ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم . { وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا } .

[9] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } ، وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق ، { إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ } ، يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير ، { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا } ، وهي الصَّبَا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » (1) .
قوله تعالى : { وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا } ، وهم الملائكة ولم تقاتل الملائكة يومئذ ، فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحا باردة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها في بعض فانهزموا من غير قتال . { وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } .

____
(1) أخرجه البخاري في الاستسقاء 2 / 52 ومسلم في الاستسقاء رقم (900) 2 / 617 .

[10] { إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ } أي من فوق الوادي من قبل المشرق وهم أسد وغطفان وعليهم مالك بن عوف النصري وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة ، { وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ } ، يعني من بطن الوادي من قبل الغرب ، وهم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعه ، وأبو الأعور بن سفيان السلمي من قبل الخندق ، وكان السبب الذي جر غزوة الخندق فيما قيل إجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير من ديارهم , { وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ } ، مالت وشخصت من الرعب ، وقيل : مالت عن الشيء فلم تنظر إلى عدوها ، { وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } ، فزالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق مات الفزع ، والحنجرة جوف الحلقوم

وهذا على التمثيل عبر به عن شدة الخوف ، قال الفراء : معناه أنهم جبنوا وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رئته فإذا انتفخت الرئة رفعت القلب إلى الحنجرة ، ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره ، { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ } ، أي اختلفت الظنون فظن المنافقون استئصال محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله

عنهم ، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم ، قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر : الظنونا والرسولا والسبيلا بإثبات الألف وصلا ووقفا لأنها مثبتة في المصاحف بالألف ، وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير الألف في الحالين على الأصل ، وقرأ الآخرون بالألف في الوقف دون الوصل لموافقة رءوس الآي .

[11] { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ } ، أي عند ذلك اختبر ، { الْمُؤْمِنُونَ } ، بالحصر والقتال ليتبين المخلص من المنافق ، { وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا } ، حركوا حركة شديدة .

[12] { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ } ، معتب بن قشير ، وقيل : عبد الله بن أبي وأصحابه ، { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } شك وضعف اعتقاد ، { مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا } ، وهو قول أهل النفاق : يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله ، هذا والله الغرور .

[13] { وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ } ، أي من المنافقين وهم أوس بن قيظي وأصحابه ، { يا أَهْلَ يَثْرِبَ } ، يعني المدينة ، قال أبو عبيدة : يثرب ، وقال : هي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في ناحية منها ، وفي بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تسمى المدينة يثرب ، وقال : "هي طابة" ، كأنه كره هذا اللفظ { لَا مُقَامَ لَكُمْ } ، قرأ العامة بفتح الميم أي لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وحفص بضم الميم أي لا إقامة لكم ، { فَارْجِعُوا } إلى منازلكم عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : عن القتال إلى مساكنكم ، { وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ } وهم بنو حارثة وبنو سلمة ، { يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } ، أي خالية ضائعة ، وهو مما يلي العدو ونخشى عليها السراق ، وقرأ أبو رجاء العطاردي (عَوِرَةٌ) بكسر الواو ، أي قصيرة الجدران يسهل دخول السراق عليها ، فكذبهم الله فقال : { وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } ، أي ما يريدون إلا الفرار .

[14] { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ } أي لو دخل عليهم المدينة هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الأحزاب { مِنْ أَقْطَارِهَا } ، جوانبها ونواحيها جمع قطر ، { ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ } ، أي الشرك ، { لَآتَوْهَا } ، لأعطوها ، وقرأ أهل الحجاز لأتوها مقصورا ، أي لجاءوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام ، { وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا } ، أي ما احتبسوا عن الفتنة ، { إِلَّا يَسِيرًا } ، ولأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيبة به أنفسهم ، هذا قول أكثر المفسرين . وقال الحسن والفراء : وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا .

[15] { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ } ، أي من قبل غزوة الخندق ، { لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ } ، من عدوهم أي لا ينهزمون ، قال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة هَمُّوا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها . وقال قتادة : هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة ، قالوا : لئن أشهدنا الله

قتالا لنقاتلن فساق الله إليهم ذلك { وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا } ، أي مسئولا عنه .

[16] { قُلْ } ، لهم { لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ } ، الذي كتب عليكم لأن من حضر أجله مات أو قتل ، { وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا } ، أي لا تمتعون بعد هذا الفرار إلا مدة آجالكم وهي قليل .
[17] { قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ } أي يمنعكم من عذابه ، { إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا } ، هزيمة ، { أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً } ، نصرة ، { وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا } ، أي قريبا ينفعهم ، { وَلَا نَصِيرًا } ، أي ناصرا يمنعهم .
[18] { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ } ، أي المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم { وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا } ، أي ارجعوا إلينا ودعوا محمدا فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك ، قال قتادة : هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي صلى الله عليه وسلم { وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ } ، الحرب ، { إِلَّا قَلِيلًا } ، رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا .

[19] { أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ } ، بخلاء بالنفقة في سبيل الله ، وقال قتادة : بخلاء عند الغنيمة وصفهم الله بالبخل والجبن ، فقال : { فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ } ، في الرءوس من الخوف والجبن ، { كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } ، أي كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت ، وذلك أن من قرب من الموت وغشيه أسبابه يذهب عقله ويشخص بصره ، فلا يطرف ، { فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ } ، آذوكم ورموكم في حال الأمن ، { بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ } ، ذربة ، جمع حديد ، يقال للخطيب الفصيح : الذرب اللسان مسلق ومصلق وسلاق وصلاق ، قال ابن عباس : سلقوكم أي عضدوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة . وقال قتادة : بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطونا فإنا قد شهدنا معكم القتال ، فلستم أحق بالغنيمة منا ، فهم عند الغنيمة أشح قوم وعند البأس أجبن قوم ، { أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ } ، أي عند الغنيمة يشاحون المؤمنين ، { أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ } ، قال مقاتل : أبطل الله جهادهم ، { وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا

} .
[20] { يَحْسَبُونَ } ، يعني هؤلاء المنافقين ، { الْأَحْزَابَ } ، يعني قريشا وغطفان اليهود ، { لَمْ يَذْهَبُوا } ، لم ينصرفوا عن قتالهم جبنا وفرقا وقد انصرفوا ، { وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ } ، أي يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب ، { يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ } ، أي يتمنوا لو كانوا في بادية مع الأعراب من الخوف والجبن ، يقال : بدا يبدو بداوة إذا خرج إلى البادية ، { يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ } ، أخباركم وما آل إليه أمركم ، وقرأ يعقوب : (يَسَّاءَلُونَ) مشددة ممدودة أي يتساءلون ، { وَلَوْ كَانُوا } ، يعني هؤلاء المنافقين ، { فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا } ، تعذيرا ، أي يقاتلون قليلا يقيمون به عذرهم ، فيقولون قد قاتلنا .

[21] { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } أي قدوة صالحة ، وهي فعلة من الائتساء ، كالقدوة من الاقتداء اسم وضع موضع المصدر ، أي به اقتداء حسن إن تنصروا دين الله وتوازروا الرسول ولا تتخلفوا عنه ، وتصبروا

على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه ، وقتل عمه وأوذي بضروب من الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه ، فافعلوا أنتم كذلك أيضا واستنوا بسنته ، { لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ } ، بدل من قوله : لكم ، وهو تخصيص بعد تعميم للمؤمنين ، يعني أن الأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله ، قال ابن عباس : يرجو ثواب الله . وقال مقاتل : يخشى الله { وَالْيَوْمَ الْآخِرَ } ، أي يخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال ، { وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } في جميع المواطن على السراء والضراء .
ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال :

[22] { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا } ، تسليما لأمر الله وتصديقا لوعده ، { هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } ، وعد الله إياهم ما ذكر في سورة البقرة : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ } ، إلى قوله : { أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } ، فالآية تتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء ، فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، { وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا } ، أي تصديقا لله وتسليما لأمر الله .

[23] { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } ، أي قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به ، { فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ } ، أي فرغ من نذره ووفى بعهده فصبر على الجهاد حتى استشهد ، والنحب : النذر ، والنحب : الموت أيضا ، قال مقاتل : قضى نحبه يعني أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأصحابه . وقيل : قضى نحبه أي بذل جهده في الوفاء بالعهد من قول العرب : نحب فلان في سَيْرِهِ يومه وليله أجمع إذا مد فلم ينزل ، { وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ } ، الشهادة ، وقال محمد بن إسحاق : فمنهم من قضى نحبه من استشهد يوم بدر وأحد ومنهم من ينتظر يعني من بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين إما الشهادة أو النصر ، { وَمَا بَدَّلُوا } عهدهم { تَبْدِيلًا } .
[24] قوله عز وجل : { لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ } ، أي جزاء صدقهم ، وصدقهم هو الوفاء بالعهد ، { وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } ، فيهديهم إلى الإيمان ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } .

[25] { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، من قريش وغطفان ، { بِغَيْظِهِمْ } ، لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ، { لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا } ، ظفرا ، { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } ، بالملائكة والريح ، { وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا } ، قويا في ملكه عزيزا في انتقامه .

[26] { وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } ، أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وهم بنو قريظة ، { مِنْ صَيَاصِيهِمْ } ، حصونهم ومعاقلهم , واحدها صيصية ، ومنه قيل : للقرن ولشوكة الديك والحاكة صيصية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب فيها راجعين إلى بلادهم وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال جبريل : عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة ، وما رجعت الآن إلا من طلب

القوم . فقال : إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا فأذن أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم ، فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلين أحد العصر

إلا في بني قريظة » فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة فما عابهم الله بذلك ولا عنفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم ؟ " قالوا : بلى قال : فذاك إلى سعد بن معاذ ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وَتُسْبَى الذراري والنساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » ، وكان فتح بني قريظة في آخر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة { فَرِيقًا تَقْتُلُونَ } ، وهم الرجال يقال : كانوا ستمائة ، { وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا } ، وهم النساء والذراري ، يقال : كانوا سبعمائة وخمسين ، ويقال : سبعمائة .

[27] { وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا } ، بعد ، قال ابن زيد ومقاتل : يعني خيبر ، قال قتادة كنا نحدث أنها مكة . وقال الحسن : فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا } .

[28] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ } متعة الطلاق ، { وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا } .

[29] { وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا } ، سبب الآية أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه شيئا من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة ، وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ، فرؤي الفرح في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعنها على ذلك (1) قال قتادة : فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك فقال : { لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ } .

---

(1) أي بقية نسائه ، انظر فتح الباري 8 / 519 مسلم (1475) 2 / 1105 - 1108 ، الطبري 21 / 156 شرح السنة 9 / 215 .

[30] { يا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ } ، بمعصية ظاهرة وقال ابن عباس : المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ، { يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ } ، قرأ ابن كثير وابن عامر : (نُضَعِّفُ) بالنون وكسر العين وتشديدها ، الْعَذَابَ نصب ، وقرأ الآخرون بالياء وفتح العين { الْعَذَابُ } رفع ويشددها أبو جعفر وأهل البصرة ، وشدد أبو عمرو هذه وحدها لقوله : { ضِعْفَيْنِ } ، وقرأ الآخرون : (يُضَاعَفُ) بالألف وفتح العين ، { الْعَذَابُ } رفع ، وهما لغتان مثل

بَعَّدَ وَبَاعَدَ ، قال أبو عمرو وأبو عبيدة : ضَعَّفْتِ الشيء إذا جعلته مثليه وضاعفته جعلته أمثاله . { وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } ، قال مقاتل : كان عذابها على الله هاهنا وتضعيف عقوبتهن على المعصية لشرفهن كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن ، وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين .

[31] { وَمَنْ يَقْنُتْ } ، يطع ، { مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ } ، أي مثل أجر غيرها ، قال مقاتل : مكان كل حسنة عشرين حسنة . { وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا } ، حسنا يعني الجنة .

[32] { يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ } ، قال ابن عباس : يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي ولم يقل كواحدة لأن الأحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، قال الله تعالى : { لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ } وقال : { فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } ، { إِنِ اتَّقَيْتُنَّ } ، الله أطعْنَهُ ، { فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ } ، لا تَلِنَّ بالقول للرجال ولا تُرَقِّقْنَ الكلام ، { فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } ، أي فجور وشهوة ، وقيل : نفاق ، والمعنى لا تقلن قولا يجد منافق أو فاجر به سبيلا إلى الطمع فَيُكِنَّ ، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المنالة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع ، { وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا } ، ما يوجبه الدين والإسلام بتصريح وبيان من غير خضوع .

[33] { وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ } ، قرأ أهل المدينة وعاصم { وَقَرْنَ } بفتح القاف ، وقرأ الآخرون بكسرها فمن فتح القاف فمعناه : اقررن أي الزمن بيوتكن ، من قولهم : قررت بالمكان أقر قرا ، ويقال : قررت أقر وقررت أقر وهما لغتان ، فحذفت الراء الأولى التي هي عين الفعل لثقل التضعيف ونقلت حركتها إلى القاف كقولهم : في ظللت ظلت ومن كسر القاف فقد قيل : هو من قررت أقر معناه أقررن بكسر الراء فحذفت الأولى ونقلت حركتها إلى القاف كما ذكرنا ، وقيل : وهو الأصح أنه أمر من الوقار كقولهم من الوعد عدن ومن الوصل صلن أي كن أهل وقار وسكون ، من قولهم : وقر فلان يقر وقورا إذا سكن واطمأن ، { وَلَا تَبَرَّجْنَ } قال مجاهد وقتادة : التبرج هو التكسر والتغنج ، وقال ابن أبي نجيح : هو التبختر . وقيل : هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال ، { تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى } ، اختلفوا في الجاهلية الأولى . قال الشعبي : هي ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وقال أبو العالية : هي في زمن داود وسليمان عليهما السلام . وقال الكلبي : كان ذلك في زمن نمرود الجبار ، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : الجاهلية الأولى بين

نوح وإدريس ، وكانت ألف سنة . وقال قتادة : هي ما قبل الإسلام . وقيل : الجاهلية الأولى ما ذكرنا والجاهلية الأخرى قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان . وقيل : قد تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى ، كقوله تعالى : { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى } ، ولم يكن لها أخرى . قوله تعالى : { وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ } ، أراد بالرجس الإثم الذي نهى الله النساء عنه ، قاله مقاتل ، وقال ابن عباس : يعني عمل الشيطان وما ليس لله فيه رِضًا ، وقال قتادة : يعني السوء . وقال مجاهد : الرجس الشك ، وأراد بأهل البيت نساء النبي صلى الله عليه وسلم

لأنهن في بيته ، وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وتلا قوله : { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ } ، وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهما إلى أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين ، قال زيد بن أرقم : أهل بيته مَنْ حَرُمَ الصَّدَقَةُ عليه بعده ، آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس .

[34] قوله تعالى : { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ } ، أي القرآن ، { وَالْحِكْمَةِ } ، قال قتادة : يعني السنة . وقال مقاتل : أحكام القرآن ومواعظه . { إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا } ، أي لطيفا بأوليائه خبيرا بجميع خلقه .

[35] قوله عز وجل : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ } ، الآية . وذلك أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن : يا رسول الله إن الله ذكر الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير ، فما فينا خير نذكر به ، إنا نخاف ألا يقبل الله منا طاعة فأنزل الله هذه الآية { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ } ، المطيعين { وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ } في إيمانهم وفيما ساءهم وسرهم ، { وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ } ، على ما أمر الله به ، { وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ } ، المتواضعين ، { وَالْخَاشِعَاتِ } ، وقيل : أراد به الخشوع في الصلاة ومن الخشوع ألا يلتفت ، { وَالْمُتَصَدِّقِينَ } ، مما رزقهم الله { وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ } عما لا يحل { وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ } ، قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } .

[36] قوله تعالى . { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } ، الآية نزلت في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أمية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى زيدا في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه ، فلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت : أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي ، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة ، وكذلك كره أخوها ذلك ، فأنزل الله عز وجل : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ } ، يعني عبد الله بن جحش ؟ { وَلَا مُؤْمِنَةٍ } يعني أخته زينب ، { إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا } ، أي إذا أراد الله ورسوله أمرا وهو نكاح زينب لزيد { أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } قرأ أهل الكوفة أن يكون بالياء للحائل بين التأنيث والفعل ، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الْخِيَرَةِ من أمرهم ، والخيرة الاختيار ، والمعنى أن

يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به ، { وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } ، أي أخطأ خطأ ظاهرا فلما سمعا ذلك رضيا بذلك وسلما ، وجعلت أمرها بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أخوها ، فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فدخل بها .

[37] { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } ، الآية نزلت في زينب وذلك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوج زينب من زيد مكثت عنده حينا ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إني أريد أن أفارق صاحبتي " ، قال : ما لك أَرَابَكَ منها شيء ؟ قال : لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلا خيرا ، ولكنها تتعظم علي لشرفها وتؤذيني بلسانها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أمسك عليك زوجك » ، { وَاتَّقِ اللَّهَ } ، في أمرها ، ثم طلقها زيد ، فذلك قوله عز وجل : { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ } ، بالإسلام { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ } بالتربية والإعتاق وهو زيد بن حارثة ، { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } ، يعني زينب بنت جحش ، { وَاتَّقِ اللَّهَ } فيها ولا تفارقها ، { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ } ، أي تُسِرُّ في نفسك ما الله مظهره ، أي كان في قلبه لو فارقها لتزوجها ، وقال ابن عباس : حبها . وقال قتادة : ود أنه طلقها ، { وَتَخْشَى النَّاسَ } ، قال ابن عباس والحسن : تستحييهم . وقيل : تخشى لائمة

الناس أن يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها . { وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } ، قال ابن عمر وابن مسعود وعائشة : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد عليه من هذه الآية . وروي عن مسروق قال : قالت عائشة : لو كتم النبي صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ } . وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال : سألني علي بن الحسين زين العابدين ما يقول الحسن في قوله : { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } قلت : يقول لما جاء زيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إني أريد أن أطلق زينب فأعجبه ذلك ، فقال : أمسك عليك زوجك واتق الله ، فقال علي بن الحسين : ليس كذلك بل كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيدا سيطلقها ، فلما جاء زيد وقال : إني أريد أن أطلقها قال له : أمسك عليك زوجك ، فعاتبه الله وقال : لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ، وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله علم أنه

يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال : { زَوَّجْنَاكَهَا } فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو إرادة طلاقها لأظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره ، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له وإنما أخفاه استحياء أن يقول لزيد : التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي ، وهذا قول حسن مرض ، وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها ونكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الأنبياء لأن العمد غير ملوم على ما يقع في قلبه في مثل هذه الأشياء ما لم يقصد فيه المآثم ، لأن الود وميل النفس من طبع البشر وقوله : { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ } أمر بالمعروف وهو حسن لا إثم فيه ، قوله تعالى . { وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } ، لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه عليه السلام قد قال : « أنا أخشاكم لله وأتقاكم » ، ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله تعالى أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء . قوله عز وجل : { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا } ، أي حاجة من نكاحها ، { زَوَّجْنَاكَهَا } ، وذكر قضاء

الوطر ليعلم أن زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها ، قال أنس : كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات . وقال الشعبي : كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأدلُ عليك بثلاث : ما من نسائك امرأة تدلي بهن . جدي وجدك واحد ، إني أنكحنيك الله في السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام . { لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ } ، إثم ، { فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا } ، والأدعياء جميع الدعي وهو المتبنى ، يقول : زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنيته لتعلم أن زوجة المتبنى حلال للمتبني ، وإن كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب . { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا } ، أي كان قضاء الله ماضيا وحكمه نافذا وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[38] قوله تعالى : { مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ } ، أي فيما أحل الله له ، { سُنَّةَ اللَّهِ } ، أي كسنة الله ، نصب بنزع الخافض ، وقيل : نصب على الإغراء أي الزموا سنة الله ، { فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ } ، أي في الأنبياء الماضين أن لا يؤاخذهم بما أحل لهم وقيل : أشار بالسنة إلى النكاح فإنه من سنة الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : إلى كثرة الأزواج مثل داود وسليمان عليهما السلام ، { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا } ، قضاء مقضيا كائنا ماضيا .
[39] { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ } ، يعني سنة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله ، { وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ } ، أي لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم ، { وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } ، حافظا لأعمال خلقه ومحاسبهم " ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب قال الناس : إن محمدا تزوج امرأة ابنه .

[40] فأنزل الله عز وجل : { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ } ، يعني زيد بن حارثة ، أي ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ، فإن قيل : أليس أنه كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذلك الحسن والحسين ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحسن : « إن ابني هذا سيد » ؟ قيل : هؤلاء كانوا صغارا لم يكونوا رجالا . والصحيح ما قلنا : إنه أراد أبا أحد من رجالكم { وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } ، ختم الله به النبيين ، وقرأ ابن عامر وابن عاصم : { وَخَاتَمَ } بفتح التاء على الاسم ، أي آخرهم ، وقرأ الآخرون بكسر التاء على الفاعل لأنه ختم به النبيين فهو خاتمهم . قال ابن عباس : يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون بعده نبيا . وروي عن عطاء عن ابن عباس : أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا , { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } عن أبي سلمة قال : كان أبو هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه ، ترك منه موضع لبنة فطاف به النظار

يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها فكنت أنا سددت موضع اللبنة ، ختم بي البنيان وختم بي الرسل »(1) .
[41] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } قال ابن عباس : لم يفرض الله تعالى فريضة على عباده إلا جعل لها حدا معلوما وعذر

أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه ، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله فلذلك أمرهم به في كل الأحوال ، فقال : { فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ } . وقال : { اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } أي بالليل والنهار في البر والبحر وفي الصحة والسقم ، وفي السر والعلانية . وقال مجاهد : الذكر الكثير أن لا تنساه أبدا .

____

(1) أخرجه المصنف في شرح السنة 13 / 201 وأخرج البخاري نحوه 6 / 558 وكذا مسلم 4 / 1791 .

[42] { وَسَبِّحُوهُ } ، أي صلوا له ، { بُكْرَةً } ، يعني صلاة الصبح ، { وَأَصِيلًا } ، يعني صلاة العصر . وقال الكلبي : وأصيلا صلاة الظهر والعصر والعشاءين . وقال مجاهد : يعني قوله سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فعبر بالتسبيح عن أخواته . وقيل : المراد من قوله ذكرا كثيرا هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والمحدث .
[43] { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ } ، فالصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين . قال السدي : قالت بنو إسرائيل لموسى : أيصلي ربنا فَكَبُرَ هذا الكلام على موسى ، فأوحى الله إليه أن قل لهم إني أصلي وأن صلاتي رحمتي ، وقد وسعت رحمتي كل شيء ، وقيل : الصلاة من الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل له في عباده . وقيل : الثناء عليه { لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ، أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، يعني أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى النور ؟ { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } .

[44] { تَحِيَّتُهُمْ } ، أي تحية المؤمنين ، { يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ } ، أي يرون الله ، { سَلَامٌ } ، أي يسلم الله عليهم ، ويسلمهم من جميع الآفات . وروي عن البراء بن عازب قال : { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ } يعني يلقون ملك الموت ، لا يقبض روح مؤمن إلا يسلم عليه . وعن ابن مسعود قال : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : إن ربك يقرئك السلام . وقيل : تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم حتى يخرجوا من قبورهم . { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا } ، يعني الجنة .
[45] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } ، أي شاهدا للرسل بالتبليغ ومبشرا لمن آمن بالجنة ونذيرا لمن كذب بآياتنا بالنار .
[46] { وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ } ، إلى توحيده وطاعته ، { بِإِذْنِهِ } ، بأمره ، { وَسِرَاجًا مُنِيرًا } ، سماه سراجا لأنه يهتدي به كالسراج يستضاء به في الظلمة .
[47] { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا } .

[48] { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } ، ذكرنا تفسيره في أول السورة ، { وَدَعْ أَذَاهُمْ } ، قال ابن عباس وقتادة : اصبر على أذاهم . وقال الزجاج : لا تجازهم عليه وهذا منسوخ بآياته القتال . { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } ، حافظا .

[49] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ } ، فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله تعالى رتب الطلاق

على النكاح ، حتى لو قال لامرأة أجنبية : إذا نكحتك فأنت طالق ، وقال : كل امرأة أنكحها فهي طالق ، فنكح لا يقع الطلاق { مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ } ، تجامعوهن ، { فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } ، تحصونها بالأقراء والأشهر ، { فَمَتِّعُوهُنَّ } ، أي أعطوهن ما يستمتعن به ، قال ابن عباس : هذا إذا لم يكن سمى لها صداقا فلها المتعة فإن كان قد فرض لها صداقا فلها نصف الصداق ولا متعة وقال قتادة : هذه الآية منسوخة بقوله : { فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ } , وقيل : هذا أمر ندب فالمتعة مستحبة ولها مع نصف المهر , وذهب بعضهم إلى أنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية , { وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا } , خلوا سبيلهن بالمعروف من غير ضرار .

[50] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ } , أي مهورهن , { وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ } , رد عليك من الكفار بأن تسبي فتملك مثل صفية وجويرية , وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له , { وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ } , يعني نساء قريش , { وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ } , يعني نساء بني زهرة , { اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ } , إلى المدينة فمن لم تهاجر منهن معه لم يجز له نكاحها . وروى أبو صالح عن أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة خطبني فأنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أكن من المهاجرات وكنت من الطلقاء ، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل (1) { وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ، أي أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك من غير صداق ، فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها منه ، وأول بعضهم الهجرة في قوله : { اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ } على الإسلام

---

(1) أخرجه الترمذي في التفسير 9 / 74 وقال : (حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه) والطبري 22 / 20 وصححه الحاكم 2 / 420 .

أي أسلمن معك ، وكان النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر ، وكان ذلك من خصائصة صلى الله عليه وسلم في النكاح لقوله تعالى : { خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } كالزيادة على الأربع ووجوب تخيير النساء كان من خصائصه لا مشاركة لأحد معه فيه { قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ } ، أي أوجبنا على المؤمنين ، { فِي أَزْوَاجِهِمْ } ، من الأحكام ألا يتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر { وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ، أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين ، { لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ } ، وهذا يرجع إلى أول الآية أي أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لك لكي لا يكون عليك حرج وضيق ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } .

[51] { تُرْجِي } , أي تؤخر , { مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي } , أي تضم , { إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ } , اختلف المفسرون في معنى الآية فأشهر الأقاويل أنه في القَسْمِ كانت واجبة عليه , فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهن , قال أبو رزين وابن زيد : نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن النبي صلى الله عليه وسلم شهرا حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عز وجل أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة , , أن يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله والدار الآخرة , على أنهن أمهات المؤمنين ولا ينكحن أبدا وعلى

أنه يؤوي إليه من يشاء منهن ويرجي من يشاء فيرضين به قسم لهن أو لم يقسم , أو قسم لبعضهن دون بعض أو فضل بعضهن في النفقة والقسمة ، فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء ، وكان ذلك من خصائصه ، فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط وقال مجاهد : ترجي من تشاء منهن يعني تعزل من تشاء منهن بغير طلاق وترد إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد . وقال ابن عباس : تطلق منهن وتمسك من تشاء . وقال الحسن : تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت

من نساء أمتك ، قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول صلى الله عليه وسلم وقيل : تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن لك فتؤويها إليك وتترك من تشاء فلا تقبلها { وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ } ، أي طلبت وأردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن الْقَسْمِ ، { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ } لا إثم عليك فأباح الله له ترك القسم لهن حتى إنه ليؤخر من يشاء منهن في نوبتها ويطأ من يشاء منهن في غير نوبتها ، ويرد إلى فراشه من عزلها تفضيلا له على سائر الرجال ، { ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ } ، أي التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أقرب إلى رضاهن وأطيب لأنفسهن وأقل لحزنهن إذا علمن أن ذلك من الله عز وجل ، { وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ } ، أعطيتهن ، { كُلُّهُنَّ } ، من تقرير وإرجاء وعزل وإيواء ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ } ، من أمر النساء والميل إلى بعضهن ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا } .

[52] قوله تعالى : { لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } ، قرأ أبو عمرو ويعقوب (لا تَحِلُّ) بالتاء ، وقرأ الآخرون بالياء من بعد يعني من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن فاخترنك ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن ، هذا قول ابن عباس وقتادة وقال مجاهد : معناه لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بهن ، يقول ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى ، يقول : لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية ، إلا ما ملكت يمينك ، أحل له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهن وقال ابن زيد في قوله : { وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } ، كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم ، يقول الرجل للرجل : بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي ، فأنزل الله : { وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } ، يعني لا تبادل بأزواج غيرك بأن تعطيه زوجك وتأخذ زوجته ، إلا ما ملكت يمينك لا بأس أن تبدل

بجاريتك ما شئت ، فأما الحرائر فلا . قوله تعالى : { وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ } ، يعني ليس لك أن تطلق أحدا من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها . قال ابن عباس : يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب ، فلما استشهد جعفر أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهي عن ذلك ، { إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ملك بعد هؤلاء مارية ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا } ، حافظا .

[53] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ } يقول : إلا أن تُدْعَوْا ، { إِلَى طَعَامٍ } ، فيؤذن لكم فتأكلونه ، { غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } ، غير

منتظرين إدراكه ووقت نضجه ، يقال : أَنَى الحميم إذا انتهى حره ، وَإِنَى أن يفعل ذلك إذا حان ، إِنَى بكسر الهمزة مقصورة ، فإذا فتحتها مددت فقلت الإناء ، وفيه لغتان : إِنَى يَأْنَى وَآنَ يَئِينُ مثل حَان يَحِينُ ، { وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ } ، أكلتم الطعام ، { فَانْتَشِرُوا } تفرقوا واخرجوا من منزله ، { وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ } ، ولا طالبين الأنس للحديث ، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون طويلا فَنُهُوا عن ذلك ، { إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ } ، أي لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء ، { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } ، أي من وراء ستر ، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة ،

{ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ } من الريب { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ } ، ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء ، { وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا } ، نزلت في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال لئن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنكحن عائشة ، قال مقاتل بن سليمان : هو طلحة بن عبيد الله فأخبره الله عز وجل أن ذلك محرم ، وقال : { إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } ، أي ذنبا عظيما .
[54] { إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } ، نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : قال رجل من الصحابة : ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا ، فنزلت هذه الآية ، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : ونحن أيضا نكلمهن من وراء الحجاب ؟

[55] فأنزل الله : { لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ } أي لا إثم عليهن في ترك الاحتجاب من هؤلاء { وَلَا نِسَائِهِنَّ } ، قيل : أراد به النساء المسلمات حتى لا يجوز للكتابيات الدخول عليهن ، وقيل : هو عام في المسلمات والكتابيات ، وإنما قال : { وَلَا نِسَائِهِنَّ } ، لأنهن بين أجناسهن ، { وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } ، واختلفوا في أن عبد المرأة هل يكون محرما لها أم لا ؟ فقال قوم : يكون محرما لقوله عز وجل : { وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } ، وقال قوم : هو كالأجانب ، والمراد من الآية الإماء دون العبيد ، { وَاتَّقِينَ اللَّهَ } أن يراكن غير هؤلاء ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } ، من أعمال العباد { شَهِيدًا } .

[56] قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } ، قال ابن عباس : أراد إن الله يرحم النبي ، والملائكة يدعون له . وعن ابن عباس أيضا : يصلون يتبركون . وقيل : الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ، { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ } , أي ادعوا له بالرحمة , { وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } , أي حيوه بتحية الإسلام . وقال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة , وصلاة الملائكة الدعاء . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا » (1) .

---

(1) أخرجه مسلم في الصلاة برقم (408) 1 / 306 . والمصنف في شرح السنة 3 / 195 .

[57] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا } , قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا : عزير ابن الله وأما النصارى فقالوا : المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه وقيل : معنى يؤذون الله : أي يلحدون في أسمائه وصفاته , وقال عكرمة : هم أصحاب التصاوير , عن أبي زرعة سمع أبا هريرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي , فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة » (1) وقال بعضهم : { يُؤْذُونَ اللَّهَ } أي يؤذون أولياء الله ، كقوله تعالى : { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } ، أي أهل القرية . فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب » (2) ، وقال : « من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة » ومعنى الأذى هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه . . ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم والله عز وجل منزه عن أن يلحقه أذى من أحد . وإيذاء الرسول قال ابن عباس :

---

(1) أخرجه البخاري في التوحيد 13 / 528 ومسلم في اللباس برقم (2111) 3 / 1671 .
(2) أخرجه البخاري في الرقاق 11 / 340 .

هو أنه شج في وجهه وكسرت رباعيته . وقيل : شاعر ساحر معلم مجنون .
[58] { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا } ، من غير أن عملوا ما أوجب آذاهم ، وقال مجاهد : يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم ، { فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا } ، وقال مقاتل : نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه ويشتمونه . وقيل : نزلت في شأن عائشة . وقال الضحاك والكلبي : نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن ، فيغمزون المرأة فإن سكتت اتبعوها وإن زجرتهم انتهوا عنها . ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ، ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان وَاحِدًا ، يخرجن في درع وخمارة الحرة والأمة كذلك فشكون ذلك إلى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية : { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } الآية ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء .

[59] فقال : جل ذكره : { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ } جمع الجلباب وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، وقال ابن عباس وأبو عبيدة : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر ، { ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ } ، أنهن حرائر ، { فَلَا يُؤْذَيْنَ } ، فلا يتعرضن لهن ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } ، قال أنس : مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة ، وقال : يا لكاع أتتشبهين بالحرائر ، ألقي القناع .

[60] قوله عز وجل : { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ } ، عن نفاقهم ، { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } ، فجور ، يعني الزنا ، { وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ } ، بالكذب وذلك أن ناسا منهم كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون في الناس الرعب وإذا التحم القتال ولوا وانهزموا ، ويقولون : قد

أتاكم العدو ونحوها . وقال الكلبي : كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويفشون الأخبار { لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ } ، لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم ، { ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا } ، لا يساكنوك في المدينة { إِلَّا قَلِيلًا } ، حتى يخرجوا منها ، وقيل : لنسلطنك عليهم حتى تقتلهم وتخلي منهم المدينة .
[61] { مَلْعُونِينَ } ، مطرودين ، نصب على الحال ، { أَيْنَمَا ثُقِفُوا } ، وجدوا وأدركوا ، { أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا } ، أي الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به .
[62] { سُنَّةَ اللَّهِ } ، أي كسنة الله ، { فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ } ، من المنافقين والذين فعلوا مثل هؤلاء ، { وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } .

[63] قوله تعالى : { يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ } ، أيْ أَيُّ شيء يعلمك أمر الساعة ، ومتى يكون قيامها أي أنت لا تعرفه ، { لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا } .
[64 - 66] - { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا }{ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا }{ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } ، ظهرا لبطن حين يسحبون عليها ، { يَقُولُونَ يا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا } ، في الدنيا .
[67] { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا } . قرأ ابن عامر ويعقوب . ساداتنا بكسر التاء وألف قبلها على جمع الجمع ، وقرأ الآخرون بفتح التاء بلا ألف قبلها ، { وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ } .

[68] { رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ } ، أي ضعفي عذاب غيرهم . قوله تعالى : { وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } ، قرأ عاصم كبيرا بالباء . قال الكلبي : أي عذابا كثيرا ، وقرأ الآخرون بالثاء كقوله تعالى : { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } ، وهذا يشهد للكثرة أي مرة بعد مرة .
[69] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا } ، فطهره الله مما قالوا ، { وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا } ، أي كريما ذا جاه ، يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، إذا كان ذا جاه وقدر . قال ابن عباس : كان حَظِيًّا عند الله لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه . وقال الحسن : كان مستجاب الدعوة . وقيل : كان محببا مقبولا .
[70] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا } ، قال ابن عباس : صوابا . وقال قتادة . عدلا . وقال الحسن : صدقا . وقيل : مستقيما . وقال عكرمة : هو قول لا إله إلا الله .

[71] { يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } ، قال ابن عباس : يتقبل حسناتكم . وقال مقاتل : يزك أعمالكم ، { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } ، أي ظفر بالخير كله .

[72] قوله تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ } , الآية , أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده , عرضها على السماوات والأرض والجبال على أنهم إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم , وهذا قول ابن عباس , وقال ابن مسعود : الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل في المكيال والميزان , وأشد من هذا كله الودائع ، وقال مجاهد : الأمانة الفرائض وحدود الدين . وقال أبو العالية : ما أمروا به ونهوا عنه : وقال زيد بن أسلم : هو الصوم والغسل من الجنابة , وما يخفى من الشرائع . وقال بعضهم : هي

أمانات الناس والوفاء بالعهد , فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهد في شيء قليل ولا كثير , وهي رواية الضحاك عن ابن عباس , فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السماوات والأرض والجبال ، هذا قول ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف . وقال بعضهم : المراد من العرض على السماوات والأرض هو العرض على أهل السماوات والأرض ، عرضها على من فيها من الملائكة . وقيل : على أهلها كلها دون أعيانها ، كقوله تعالى : { وَاسْأَلِ

الْقَرْيَةَ } أي أهل القرية . والأول أصح , وهو قول العلماء { فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا } ، أي خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب ، { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ } ، يعني آدم عليه السلام ، فقال الله لآدم : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جوزيت ، وإن أسأت عوقبت ، فتحملها آدم { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } ، قال ابن عباس : ظلوما لنفسه جهولا لأمر الله وما احتمل من الأمانة . وقال الكلبي : ظلوما حين عصى ربه ، جهولا لا يدري ما العقاب في ترك الأمانة . وقال مقاتل : ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة ما تحمَّل .

[73] قوله عز وجل : { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ } ، وقال مقاتل : ليعذبهم بما خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق ، { وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } ، يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة . وقال ابن قتيبة : أي عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ، ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه أي يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات .

(34) سورة سبأ
[1] { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، ملكا وخلقا ، { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ } ، كما هو له في الدنيا , لأن النعم في الدارين كلها منه ، وقيل : الحمد لله في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال الله تعالى : { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ } ، و { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ } ، { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } .
[2] { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ } ، أي يدخل فيها من الماء والأموات ، { وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا } ، من النبات والأموات إذا حشروا ، { وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ } ، من الأمطار ، { وَمَا يَعْرُجُ } ، يصعد ، { فِيهَا } ، من الملائكة وأعمال العباد ، { وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ } .

[3] { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } ، الساعة { عَالِمِ الْغَيْبِ } قرأ أهل المدينة والشام : عَالِمُ بالرفع على الاستئناف وقرأ الآخرون بالجر على نعت الرب ، أي وربي عالم الغيب ، وقرأ حمزة والكسائي : (عَلَّامِ) على وزن فَعَّال ، وجر الميم ، { لَا يَعْزُبُ } ، لا يغيب ، { عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ } ، أي من الذرة ، { وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }
[4] { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ } يعني الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، { لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ، حسن يعني في الجنة .
[5] { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا } ، في إبطال أدلتنا ، { مُعَاجِزِينَ } ، يحسبون

أنهم يفوتوننا ، { أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ } ، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب . { أَلِيمٌ } بالرفع هاهنا وفي الجاثية على نعت العذاب ، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت الرجز ، وقال قتادة : الرجز سوء العذاب .

[6] { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } ، يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه . وقال قتادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، { الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } ، يعني القرآن ، { هُوَ الْحَقَّ } ، يعني أنه من عند الله ، { وَيَهْدِي } ، يعني القرآن ، { إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ، وهو الإسلام .
[7] { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، منكرين للبعث متعجبين منه ، { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ } ، أي يخبركم يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ، { إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ } ، قُطِّعْتُم كُلَّ تقطيع وَفُرِّقْتُم كل تفريق وَصِرْتُم ترابا { إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } يقول لكم إنكم لفي خلق جديد .

[8] { أَفْتَرَى } ، ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ولذلك نصبت ، { عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } يقولون : أزعم كذبا أم به جنون ، قال الله تعالى ردا عليهم : { بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ } ، من الحق في الدنيا .
[9] قوله تعالى : { أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } ، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها وأنا القادر عليهم ، { إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ } ، قرأ الكسائي { نَخْسِفْ بِهِمُ } بإدغام الفاء في الباء ، { أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ } ، قرأ حمزة والكسائي : إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ أَوْ يُسْقِطْ ، بالياء فيهن لذكر الله من قبل ، قرأ الآخرون بالنون فيهن ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، أي فيما ترون من السماء والأرض ، { لَآيَةً } ، تدل على قدرتنا على البعث { لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ } ، تائب راجع إلى الله بقلبه .

[10] قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا } ، يعني النبوة والكتاب ، وقيل : الملك . وقيل : جميع ما أوتي من حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خص به ، { يا جِبَالُ } ، أي وقلنا : يا جبال ، { أَوِّبِي } ، أي سبحي ، { مَعَهُ } إذا سبح ، وقال القتيبي : أصله من التأويب في السير وهو أن يسير النهار كله فينزل ليلا بالتسبيح معه . وقال وهب : نوحي معه ، { وَالطَّيْرَ } ، عطف على موضع الجبال ، لأن كل منادى في موضع النصب . وقيل : معناه وسخرنا وأمرنا الطير أن تسبح معه . وقرأ يعقوب : وَالطَّيْر بالرفع ردا على الجبال أي أوبي أنت والطير { وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ } ، حتى كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل فيه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة .

[11] { أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ } ، دروعا كوامل واسعات طوالا تسحب في الأرض ، { وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ } ، واسرد نسج الدروع ، يقال لصانعه : السراد والزراد ، يقول : قدر المسامير في حلق الدرع أي لا تجعل المسامير دقاقا فتفلت ولا غلاظا فتكسر الحلق ، ويقال : السرد المسمار في الحلقة ، يقال : درع مسرودة أي مسمورة الحلق ، وقدر في السرد اجعله على القصد وقدر الحاجة ، { وَاعْمَلُوا صَالِحًا } ، يريد داود وآله ، { إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } .